رضا علوي سيد احمد

فن التعامل مع الناس

لمحات سلوكية في أخلاقيات العلاقات الانسانية

دار الأوجام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

فن التعامل مع الناس

رضا علوي سيد أحمد

فن التعامل مع الناس

لمحات سلوكية في أخلاقيات العلاقات الانسانية

دار الأوجام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار الأوجام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف سنتر محفوظ وحجازي - بناية محمد الزين
ت ٨٢١١٤٢ - ٨/٧/ ٨٢٣٥٢٦ - ٨٢٣٠٨٩ ص. ب ٩٧/ ٢٥ و١١٣/٥٧٨٩ بيروت لبنان

إهداء

إلى والدي الذي كان على خُلُقٍ يعيش
به في الناس ويحسن معاملتهم .. إلى
روحه أهدي هذا الكتاب .
بسم الله الرحمن الرحيم .
الحمد لله رب العالمين .
الرحمن الرحيم .
مالك يوم الدِّين .
إيّاك نعبد وإيّاك نستعين .
إهدنا الصِّراط المستقيم .
صِراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا
الضّالّين .

مقدمة

تشكّل العلاقات الإنسانية مساحة كبيرة من حياة الإنسان ، بل إن من أهمّ ما يعنيه : علاقاته مع الآخرين ، وتعامله معهم ، وعلى هذه العلاقات ، وهذا التّعامل يتوقف نجاحه أو فشله في الحياة .

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعامل مع الناس والعلاقة الإنسانية ، فقد جاء الدّين ورسم لها المناهج القويمة ، والنّظم السليمة التي تضمن استقامتها ، واستواءها ، معطياً لها أهمية كبيرة ، باعتبارها موضوعاً أساسياً من موضوعاته ، ووظيفة رئيسية من وظائفه . ومن هنا فلا غرابة أن يعتبر الاسلامُ ، معاملة الناس هي الدّين ، « الدين المعاملة »، نظراً إلى أنّ إلتزامه ـ في قسم كبير منه ـ متوقف على حسن المعاملة معهم ، ومتعلّق بها .

إن للإنسان بعدين : فرديّ ، واجتماعيّ ، ونجاحه في الحياة الدّنيا ، والحياة الآخرة يكون بالنظر إلى نجاحه في هذين البعدين معاً . فنجاحه في الجانب الفردي وحده ليس كافياً ، وليس بديلاً عن نجاحه في الجانب الاجتماعي ، بل إن من وظائف الجانب الفردي تقويم الجانب الاجتماعيّ ، أو بعبارة أخرى : تأهيل الفرد للعلاقة الاجتماعية الحسنة .

إنّ أغلبيّة المعاملات التي يجريها ، أو يدخل فيها الإنسان في اليوم والليلة ، هي مع بني نوعه ، سواء مع أهله وعائلته ، أو مع أصدقائه ، أو مع شركائه

ونظرائه في العمل ، أو مع عموم الناس . بل إن كلّ المعاملات سواء كانت اجتماعيّة ، أو اقتصادية ، أو تربويّة ، أو ... تعتمد على الاتّصال بالنّاس والتّعامل معهم ، سواء كان الاتّصال شخصياً ، أو كان بوسائل الاتّصال الأخرى ، كالمكاتبة ، والهاتف ، و ...

وحيث أنّ التّعامل مع النّاس أمر موجود في كلّ معاملة معهم ، فإنّه يتطلّب من المرء أن يجيد معاملتهم ومعاشرتهم ومخالطتهم . لقد أجرت ـ مرّة ـ جامعة شيكاغو استفتاءاً واسع النّطاق لاستطلاع ما يريد البالغون أن يتعلّموه ، ويلمّوا به ، فتبين أنّ « الصحّة » هي أهمّ ما يعني البالغ ، وأنّ « الناس » هم ثاني ما يعنيه : كيف يفهم النّاس ، ويحسن معاشرتهم ، وكيف يتحبب اليهم ، ويجتذبهم إليه ، وكيف يقنعهم بأفكاره ، وكيف يلتزم أخلاقيات التّعامل معهم ... إلخ . وقد قال بعضهم : إنّ المقدرة على معاملة النّاس ، « بضاعة » يمكن أن تُشترى كالسكّر والبنّ ، وإنّي على استعداد لأن اشتريها بأكثر مما يُشترى أي شيء آخر .

إنّ كلّ شخص عاقل يمتلك قوى متعددة الأنواع ، ولكنّه قد يخفق في استعمالها في وجوه حياته ، ومن ابرز تلك الوجوه : معاملة النّاس . ومن هنا فهو بحاجة الى اكتشاف تلك القُوى والاستفادة منها في معاملتهم .

ولكي يحسن الإنسان معاملة النّاس، واجبه والأجدر به ـ قبل كل شيء ـ أن يُحسن التّعامل مع خالقه ـ جلّ وعلا ـ ذلك لأنّ حسن التّعامل مع الله سبحانه هو أساس كلّ عمل ناجح وموفّق في الحياة ، وأن يقيم معاملته على أسس سليمة تقوّي فيه ارتباطه بخالقه ، هذا مع العلم أنّ للوجدان والضّمير الصّالحين ، والتّربية الصالحة، والمحيط الصّالح ، والصّفات الحسنة الموروثة دور في إحسان التّعامل مع النّاس ، ولكنّها ليست بديلة عن الارتباط بالخالق ـ جلّ وعلا ـ اذ أنّ الارتباط به ـ سبحانه ـ هو القناة الطّبيعية لتحققها في ساحة الواقع الخارجي .

ويلي حسن التّعامل مع الله ـ سبحانه ـ ، حسن التّعامل مع النّفس باعتبارها أقرب المقرّبين ، وأحبّ المحبوبين للإنسان ، ثم يلي ذلك حسن التّعامل مع النّاس ، وهم على الترتيب : الأهل والعائلة والأقارب ، إذ أنّ الأسرة أو العائلة

هي محطّة انطلاق أولى في التّعامل مع النّاس ، ثم الأصدقاء ، ثم عموم النّاس .
وبعلّة التركيز على التّعامل مع عموم النّاس ، لم يُراع الترتيب المتقدم .

وبناءاً على أنّ صرح العلاقة الانسانيّة ، أو المعاملة الإجتماعية ـ لكي يكون سليماً ومتيناً ـ يجب أن يقوم على أساس الأخلاق الفاضلة ، فقد كان التّعرض لذكر إشارات لسلسلة من الأخلاقيات الاجتماعية أمراً ملحاً . وذلك لأنّ إحسان معاملة النّاس لا ينحصر في التزام بعض الأسس الفنّية ، وفي قواعد تحبّبهم الى النّاس ، وطرق تقنعهم بوجهة نظر الذّات ، وأساليب تملك زمامهم دون استبداد عنادهم ، بل انّ إحسانها يعتمد أساساً على التزام الأخلاق والمناقب والفضائل التي جاءت بها الرسالات السّماوية ، واجتمعت في رسالة الاسلام ، تلك الأخلاق والمناقب والفضائل التّي كلّ إنسان مدعوّ لالتزامها والتّحلي بها في مجمل معاملاته مع النّاس وعلاقاته بهم .

وهذا الكتاب ـ أخي القاريء ـ هو جهد بسيط في مجال التّعامل مع النّاس وأخلاقيات العلاقة الانسانية ، استنرت فيه بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة ، واستفدت مما كتبه آخرون في هذا السبيل ، مع ذكر لمحات وإشارات من رؤى الدّين والعقل والعلم والأخلاق والتّجربة .

أسأل الباري ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعلني من الذّين يحسنون معاملة النّاس ويخالقونهم ويخالطونهم ويعاشرونهم بشكل حسن ، وأن يُفيد من هذا الكتاب كلّ محتاج له ، انّه سميع مجيب الدّعاء .

رضا علاوي سيّد أحمد

الخميس / ٥ رمضان ١٤١١ هـ

١٩٩١/٣/٢١ م

القسم الأول

الأسس الأولية للتعامل السليم مع الناس

معاملة الناس

قال الله (سبحانه وتعالى) في كتابه المجيد :

﴿ يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) :

« من عامل النّاس فلم يظلمهم ، وحدّثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممّن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجب أجره ، وحرمت غيبته »[2] .

وقال (ص) أيضاً :

« مداراة النّاس نصف الإيمان ، والرِّفق بهم نصف العيش »[3] .

وقال (ص) :

« رأس العقل ـ بعد الإيمان بالله ـ مداراة النّاس في غير ترك حق »[4] .

---

(١) ١٣ / الحجرات .

(٢) تحف العقول ، ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

وقال الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) في عهده إلى مالك الأشتر حينما ولّاه على مصر :

« . . . فإنهم (النّاس) صنفان : إما أخ لك في الدِّين ، وإما نظير لك في الخلقة . . . »[٥] .

***

يستدعي تناول الأسس الأولية للتّعامل مع النّاس ، التّطرق إلى ما هيّة التّعامل نفسه ، والأسباب والعلل الأولى من ورائه ، والأهداف والغايات منه ، وحول هذه الأمور تبرز مجموعة من الأسئلة ، منها الآتية :

من هم النّاس ؟

وماذا يعني التّعامل معهم أو معاملتهم ؟

ولِمَ التّعامل معهم ؟

وما هي الأهداف والغايات من ذلك ؟

وكيف يجب أن يكون التّعامل ؟

ولماذا كان التّعامل الحسن هو المطلوب ؟

ومن هم الجديرون بالتّعامل الحسن ؟

وكيف يجب أن يكون التّعامل بالنّظر إلى الزّمان والمكان ؟

وما هي الأسس التي يجب أن يقوم عليها التّعامل مع النّاس ؟

***

عن فلسفة التّعامل مع النّاس أو معاملتهم ، والأهداف والغايات منها ، قد يسأل السّائل :

هل هناك ضرورة لأن يتعامل الإنسان مع بني جنسه ؟

وألا يمكنه الإعتماد على ذاته في إصابة حاجاته ، وبلوغ أهدافه ، دون الحاجة

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

الى الآخرين ؟

والإجابة على ذلك :

إنّ من نعم الله ـ تبارك وتعالى ـ العظيمة على الانسان ـ وكلّ نعمه عظيمة ـ أن جعله اجتماعياً بالفطرة ، مجبولاً على الميل الى نظرائه في الخلق . وهذه غريزة من الغرائز ، موجودة في كلّ فرد من بني البشر . وإنّ وجود قسم من النّاس يشذّ في سلوكه عن هذه الفطرة والغريزة ، لا لأن الله لم يخلقه اجتماعيا ، ولم يجبله على الاجتماعيّة ، وإنما لأنه أراد لنفسه أن يكون منعزلاً عن النّاس ، منطوياً على ذاته ، بل حتّى المنعزل والمنطوي على ذاته لا غنى له عن الاتّصال والاجتماع بالنّاس ، والتعامل معهم ، ولو بأدنى حدّ .

وبناءاً عليه ، فإنّ فلسفة التّعامل مع النّاس تقوم على أساس الصّبغة أو الفطرة الإجتماعية التي جبلهم الله عليها ، هذه الصّبغة أو الفطرة التي هي ضرورة أكيدة لتلبية متطلّبات الإنسان وحاجاته ، وأداء رسالته في الحياة ، ولبلوغه الأهداف والغايات التي رسمها الله له فيها . وتتمثّل هذه الأهداف والغايات في عبادة الله(*) والخضوع له بالمعنى الشامل للعبادة والخضوع ، والهداية إليه ، وحسن خلافة الله في الأرض (*) ، وعمارتها(**) (إقامة الحضارة عليها) ، والنّجاح في ابتلاء العمل(***) في دار الدّنيا ، وما يدخل ضمنه من نجاح وسعادة فيها ، لتحقّق حسن المصير في الدار الآخرة .

والفطرة الإجتماعية توجب التّعامل بين النّاس ، والتّعامل يقتضي الإتصال بينهم ، ومن أبرز وجوهه : الإتصال الشخصي ، أي حضور الأشخاص أثناء

(*) قال تعالى : ﴿ وماخلقت الجنّ والانس الا ليعبدونَ ﴾ . ٥٦ ـ الذاريات .

(*) من معاني استخلاف الله للانسان في الأرض ، أن جعله مخلوفاً : الأولاد يخلفون الآباء ، والأمم اللاحقة تخلف الأمم السّابقة . قال تعالى : ﴿ واذ قال ربّك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ . ٣٠ـ البقرة .

(**) قال تعالى : ﴿ والى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . . ﴾ ٦١ـ هود .

(***) قال تعالى : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً . . . ﴾ ٢ـ الملك .

المعاملة . ومن وجوه الاتّصال في التّعامل مع النّاس : المكاتبة (المراسلة) ، والهاتف ، و (التليغراف) ، والرموز والاشارات ، و . . . ، وفي مثل هذه الوجوه ينبغي لتعامل الانسان مع الآخرين ، أن يكون حسناً .

وبالنظر إلى حاجات الانسان ، وبلوغه الاهداف ، فإن طبيعته وفطرته ، وتاريخ الإنسانية تثبت أنه مهما كان قوياً ومتمكّناً ، ومهما حاز على القدرات والإمكانات ، هو ليس في غِنىً عن الآخرين ، سواء كانوا ذوي قدراتٍ وإمكانات كبيرة متنوّعة ، أو كانوا من ذوي القدرات والإمكانات والحِرَف التي قد يُنظر إليها بأنّها بسيطة ، أو قابلة للاستغناء عنها . ومن هنا فإنّ مسألة الحاجة أو العوز الى الآخرين ـ بعد الفطرة الالهية على الاجتماع ـ هي السّمة التي لا تنفكّ عن الانسان في هذه الحياة ، الأمر الذي يوجب عليه الدّخول في معاملات مع بني جنسه ، هذه المعاملات التي يجب ان تكون حسنة وسليمة لكي تحقّق اهدافها على افضل صورة .

إنّ التّكامليّة أو التكميليّة في الحياة تقتضي ان يحتاج المرء إلى غيره ، فالبشر يكامل بعضهم بعضاً بما يمتلكون من القدرات والخبرات والكفاءات والحرف المتنّوعة ، ولا يوجد ، ولن يوجد إنسان كامل (*) ومستغنٍ عن غيره من النّاس ، إذ الكمال لله وحده ، سبحانه ، وهو المنّزه عن أيّ نقص .

وحيث أن التكامليّة امر لا يمكن للإنسان إنكاره أو الغاؤه ، فإنّه بحاجة ضرورية إلى الدّخول مع الآخرين في معاملات . وهذه المعاملات قد تكون عائليّة ، أو أخويّة ، أو أسروية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو سياسية ، أو . . . ، وهي مهما كان نوعها يدخل التّعاطي بين الأفراد بعضهم البعض أمراً أساسياً فيها ، وهذا التعاطي هو التعامل الذي يلزم أن يكون حسناً وفنّياً .

فالتعامل الحسن مع الناس ، هو المطلوب فيما بينهم ، لأنه المبدأ الإلهي الذي

(*) لأسباب معيّنة كالغنى والتكبّر قد تصل الحال بالانسان للإدعاء بأنّه مستغن عن التعامل مع الناس والحاجة اليهم ، ولكنّ هذا غير ممكن . وكم من إنسانٍ ادّعى أنّه مستغنٍ عن آخر فجاء اليوم الذي يحتاج فيه اليه !

أراده الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسود فيما بين البشر ، ولأنّه التّرجمة الحقيقية للفطرة الإجتماعية التي فطر الله النّاس عليها ، ولأنّه نتيجة العقل ، هذا المخلوق العظيم الذي ميزّ الله به البشر عن سائر المخلوقات ، وكرّمه به .

إنّ النّاس (*) ـ كما هو واضح لكلّ إنسان هم بنو آدم ، أو بنو البشر . وهم المخلوقون من ذكر (آدم) ، ومن أنثى (حوّاء) . وبلغة المعاملة والتّعامل (**) هم من يتعامل معهم الإنسان من بني جنسه ، ويشمل ذلك الوالدين (الأب والأم) ، والأجداد ، والإخوان ، وعموم الأقارب والأرحام ، والأصدقاء ، والرؤساء ، والمرؤوسين ، وعموم من يدخل معهم في معاملات ، ويربطه بهم نوع

(*) النّاس : من أَنِسَ وأَنُسَ وأَنَس به وإليه : أَلِفَه وسكن قلبه به . آنَس يؤانِسُ مؤانسَةً : لاطفه ، أَلِفَهُ ، سَلاّه . تأنَّس به : أنِس . إستأْنَس به واليه : أَنِس . الأَنَس وجمعه آناس : من تأنَّسُ به ، الجماعة الكثيرةُ . الآنِسة : جمعها أوانس و آنسات ، الطّيِّبة النَّفْس ، الفتاة غير المتزوجة . الأَنوس : الكثير الأُنس . الأُنْس . الأَنيس : المؤانِس ، المأْنوس به . يُقال : مابالدّار من أنيس ، أي أحد . تأنَّس : صار إنساناً . الإنس : الواحد إنسيّ وأَنسيّ ، والجمع أُناس وأَناسيّ : البَشَر أو غير الجنّ والملاك . ويقال : إنْسك وابن إنسك ، اي أليفُك وحليفُك .

الإنسان : جمعه أَناسي وأناسية وآناس : البشر للذكر والانثى ويُطاق على أفراد الجنس البشريّ . الإنسانيّة : مااختصّ به الإنسان ، أكثر استعمالها للمحامد من نحو الجُودة والكرم والاخلاق . (المنجد في اللغة) .

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى ـ القرآن الكريم الى نبيه ليعلم الناس أصول الانسانيّة بما لها من معنى . ومما تجدر الاشارة اليه أن القرآن الكريم يبدأ باسم الله ، وينتهي بالنّاس ـ . وقد وردت مفردة (الناس) في آخر سور القرآن ـ وهي سورة النّاس ـ وردت في خمس آيات منها ، مع العلم بأنها تتألف من سبع آيات اذا اعتبرت البسملة إحدى آياتها ، وهي تساوي سورة الفاتحة ـ وهي أوّل سور القرآن ـ في عدد الآيات .

جدير الإشارة أيضا إلى أنّ مفردة (النّاس) وردت في القرآن الكريم مائتين وأربعين (٢٤٠) مرّة . ومفردة (الانسان) خمساً وستين (٦٥) مرّة . ومفردة (الإنس) تسعة عشر (١٩) مرّة ، خمسة عشر (١٥) معرفة ، وأربع (٤) نكرة . أمّا مفردة (أُناس) فوردت خمس (٥) مرّات بصيغة النّكرة ، ومفردة (أَناسي) مرّة (١) واحدة ، ومفردة (إنسيّ) مرّة (١) واحدة أيضاً .

(**) التّعامل : تعامل القوم : عامل بعضهم بعضاً . عامل : سام بعمل ، أي كلّف بعمل . والسَّوم : عرض السِّلعة مع ذكر ثمنها . سام المشتري السِّلعة : طلب بيعها أو ثمنها . (المصدر السابق) .

من العلاقات والرّوابط الاجتماعيّة والمجتمعيّة .

ومن خلال تعريف « النّاس » يتبيّن المقصود من التّعامل . فهو دخول الانسان مع غيره من بني جنسه في عمل أو معاملة ، بصرف النّظر عن حجم ذلك العمل أو تلك المعاملة . وبصيغة أخرى أكثر تحديداً : هو الجانب الأخلاقي في التّعامل والمعاملة ، إذ أنّ التّعامل مع النّاس لكي يكون عقلائياً حسناً يتوجّب أن يكون موسوماً بالخلقيّة ، والخُلُقيّة ـ بدورها ـ تحتاج إلى مقوّمات نفسيّة وسلوكيّة .

والنّاس بالنّظر إلى المشتركات فيما بينهم، بالنسبة للمسلم بل بالنسبة لكل صاحب ديانة أخرى ، هم على قسمين كما بيّنها الامام علي(ع) :

١ ـ إخوان في الدّين .

٢ ـ نظراء في الخلقة .

فالإخوان في الدّين الإسلامي هم الذين تجمعهم رابطة الإيمان بمبادئه وأحكامه وقيمه وأخلاقياته ، والنظراء في الخلقة هم المشتركون في الآدميّة والبشريّة والانسانيّة ، مع العلم أن الإخوان في الدّين هم نظراء في الخلقة أيضاً .

وبناءاً عليه فالانسان في تعامله مع غيره من النّاس يجب أن يأخذ البعدين معاً بعين الاعتبار ، بمعنى أن يعاملهم كإخوة يشتركون معه في دين واحد وفي عقيدة واحدة ، أو يعاملهم كنظراء له في الانسانية . وليس من الصّحيح أن يعامل المسلم غيره من غير المسلمين بطريقة غير حسنة ، بل التّعامل يجب أن يكون حسناً مع الجميع على اختلاف اديانهم وعقائدهم ، مع مراعاة أن لا يكون التّعامل ـ سواء في الحالة الاولى أو الثانية ـ في ترك حقّ ، أو إتيان باطل ، أو في تحليل حرام ، أو تحريم حلال ، او في تشجيع رذيلة أو نقض فضيلة .

وحسن التّعامل مع النّاس ليس قضّية مرحليّة ، بمعنى أن الحسن الذي أمر الله به ، يبقى حسناً ، غير خاضع للزّمان والمكان . فإذا كان حسن التّعامل مع النّاس مطلوب منذ أن خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ البشر ، فهو مطلوب أيضاً في العصر

والتعامل أو المعاملة : دخول الانسان أو الجماعة في معاملة مع شخص أو جهة . والمعاملة الانسانية مهما كان نوعها هي بحاجة الى تعامل بين طرفين ، وهذا التعامل ينبغي له ان يكون حسناً .

الحاضر وفي المستقبل ، وحتى قيام السّاعة . وهكذا الحال بالنسبة للمكان ، إذ حسن التّعامل مع النّاس خُلُقٌ ينبغي أن يشمل كلّ محالّ وجود النّاس على الكرة الأرضية .

أما عن الجديرين من النّاس بحسن التّعامل معهم ، فيمكن القول : أن الغالبية منهم جديرة بالتّعامل الحسن . صحيح أن الانسان يجب أن يكون في صفّ الحق والخير والصّلاح والفضيلة ، وأن يحافظ على موقفه الرّافض ممارسة الباطل والشرّ والطّلاح والرذيلة (*) ، ولكن الانسان في عموم تعامله مع الناس - أو في تعامله بشكل عام - يراعي الجانب البشريّ والانسانيّ ، وخصوصاً إذا كان المرء لا يرى من ظاهر الفرد أو الجماعة التي يتعامل معها إلّا المقبول من التصرفات والمسلكيات . بل حتّى لو علم بحالة الرّذيلة في الطرف الآخر ، فإن عليه استعمال اسلوب في التعامل يكون به متفوّقاً عليه ، اذ « الحق يُعلى ولا يعلى عليه » .

يقول الامام الباقر (ع) :

« صانع المنافق بلسانك ، وأخلص مودّتك المؤمن ، وإن جالسك يهوديّ فأحسِن مجالسته »[٦] .

فالمنافق الذي من علاماته : الكذب حين يحدّث ، والخُلف حين يَعِد ، والخيانة حين يُؤتمن ، يصانَع باللسان مع العلم بأنّه لا يتعامل بالوجه الحسن في الواقع الاجتماعي . وحسن المجالسة مع ذوي الديانات والعقائد الأخرى أمر مطلوب ، لأنهم نظراء في الخلقة . وبالنسبة للتعامل مع المؤمنين فإنه يجب أن يقوم على إخلاص المودّة والمحبّة .

ويقول الامام عليّ (ع) :

(*) من المهم الاشارة اليه : أنه لابد من التمييز بين التعامل الحسن مع عموم الناس ، وبين دور الانسان في اشاعة الحق والخير والصلاح والفضيلة ، وإنكاره ومواجهته للباطل والشر والطلاح والرذيلة . (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) ، ولاتناقض بين الأمرين .

(٦) المصدر السابق ، ص ٢١٣ . صانَع : داهنَ ، دارى ، رافق .

« خالطوا الناس بألسنتكم وأجسادكم ، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم »[٧] .

والتّعامل مع النّاس يتمّ بمخالطتهم والعشرة معهم بالوجود الجسديّ ، وباستعمال أداة التّعبير عن الأغراض والمشاعر ، وهي اللّسان . أما المزايلة ـ وتعني المفارقة والمباينة ـ فيجب أن تتمّ بالقلب والعمل . ويفهم من هذه الكلمة الخالدة أن الانسان يجب أن يكون بين ظهرانيّ النّاس منفتحاً عليهم ، حضوراً جسديّاً وتعبيريّاً ، إلّا أن هذا الانفتاح والحضور يجب أن لا يكون على حساب التزام المبادىء والقيم الحقّة العادلة ، فإذا كان الناس يمارسون خلاف العقل والشرع والفضيلة والذّوق المؤدّب ، فلا يجوز الإنسياق معهم في ذلك ، لأنّ الإنسياق معهم يعني الوقوع في مطبّات السّوء والرذّيلة ، وفضلاً على ذلك تشجيعهما . والمطلوب اتخاذ الموقف القلبي المناسب من ذلك ، والعمل بخلاف ممارسات النّاس غير المقبولة عقلاً وشرعاً ، وبذلك يضمن المرء ثلاثة أمور :

١ ـ مخالطة النّاس والإنفتاح عليهم .

٢ ـ وقوع ممارساته وأعماله ضمن إطار العقل المؤدَّب والشّرع المقدّس .

٣ ـ امتلاك الحصانة ضدّ العمل السيء والإنحراف .

أمّا عن كيفيّات التّعامل مع النّاس ، فتعتمد بدرجة كبيرة على استعمال العقل والحكمة والعدالة والرِّفق وحسن العشرة والاهتمام والمداراة .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« أحسن مصاحبة من صاحبك ، تكن مسلماً »[٨] .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

---

(٧) ميزان الحكمة ، ج٦ ، ص٣١٧ . زايلوهم : فارقوهم و باينوهم . (أي ليكن لكم الموقف القلبي والعملي من أعمالهم و تصرفاتهم غيرالحسنة ، والموقف العملي يتجسّد في ممارسة خلاف مايمارسونه من أعمال وتصرفات غير حسنة . بعبارة أخرى : ممارسة الحسن من الأعمال والأفعال .

(٨) المصدر السابق ، ص ٣١٨ .

« بحسن العشرة تدوم المودة »[9] .

ويقول (ع) أيضاً :

« بحسن العشرة تأنس الرِّفاق »[10] .

---

(٩) الغرر والدّرر .

(١٠) المصدر السابق .

الأسس الأولية للتعامل السّليم مع النّاس

في الحياة بشكل عامٍّ ، لكلّ شيءٍ ، أساسٌ يقوم عليه ، وهذا الأمر يجري في المادّيات والمعنويّات . وعادةً ما يكون لكلّ شيء أساس من جنسه . فالبناء هو بحاجة إلى أساس مادّي ، والبناء المعنويّ هو بحاجة إلى أساس معنويّ ، وبالنسبة للانسان هناك علاقة تداخل وتكميل بين المادّيات والمعنويّات بحكم تكوينه المادّيّ ـ الرّوحي .

ولكي يكون الشيء ـ أي شيء ـ راسخاً ومتيناً وصحيحاً ، يستلزم أن يتّسم أساسه بالرسوخ والمتانة والصحّة . فإذا أريد لمبنى أن يُحدث بصورةٍ تتحقّق فيها الامور المتقدمة ، فإنّ من الضّروري تحقّقها ـ أوّلاً ـ في أساسه . ونفس الإنسان إذا ما أريد لها أن تكون مستقيمة مزكّاة ، يلزم أن تؤسّس على أساس تقوى الله ورضوانه .

والتّعامل مع النّاس ـ باعتباره ميدانا ضروريّاً هامّاً لا غنى للإنسان عنه ـ لكي يكون سليماً وحسناً ، يلزم أن يقوم على أسس وقواعد أوّليّة سليمة وراسخة ، وهذه الأسس هي ما تتناوله الصّفحات التالية : وهي ليست أسساً أوليّة لمعاملة النّاس فحسب ، بل أسس سعادة الانسان ونجاحه في الدّنيا والآخرة .

الأساس الأول : الدين

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ ، أم من أسّس بُنيانه على شفا جُرفٍ هارٍ ، فانهار به في نار جهنّم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[١١] .

وقال سبحانه : ﴿ إنّ الدِّين عند الله الإسلام . . . ﴾[١٢] .

وقال الامام علي (ع) : « الدّين أقوى عماد »[١٣] .

الدّين(*) هو مجموعة الشّرائع والمناهج والقوانين والنّظم التي أرسلها الله إلى النّاس ـ بواسطة الرّسول الأعظم (ص) ـ لحاجتهم الضّرورية إليه (الـدّين)، وبهدف هدايتهم إلى الله وتنظيم أمورهم في الحياة ، ومنها تعاملهم فيما بينهم ، هذا التّعامل الذي يشكّل مساحة واسعة من رقعة حياتهم .

والدّين نور يضيء للإنسان مسيره في الحياة ، ويقوم على أساس معرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه المعرفة التي هي أوّل الدّين . وتكتمل هذه المعرفة بالتّصديق والإيقان به ـ جلّ وعلا ـ ويكتمل التّصديق به بتوحيده ونفي الشّرك عنه . وتذكر الأحاديث الشريفة أنّ « التّوحيد نصف الدّين »[١٤] . لأنه الأساس الذي يقوم عليه . وأنّ « الخلق الحسن نصف الدّين »[١٥] لضرورة الأخلاق في التّعامل مع الخالق ـ سبحانه ـ ومع النّفس والنّاس ، ولكون الأخلاق ضرورة لتنظيم السلوك الإنساني ، هذا السّلوك الذي يمثّل التّعامل مع النّاس جزءاً كبيراً منه .

والدّين ضرورة في الحياة ، وحاجة ماسّة لبني البشر ، وحجة عليهم ، لكي لا يكون لهم حجة على الله ، بخلاف ما يتّصور ويعتقد البعض بأنّه أمر غير ضروريّ ، وهذه حقيقة بديهيّة يلمسها المرء من خلال الآيات القرآنية الكثيرة ، والاحاديث الشريفة الوفيرة ، ومن خلال تتابع الأنبياء والرّسل ـ المرسلين من قبل

---

(١١) ١٠٩ / التوبة .

(١٢) ١٩ / آل عمران .

(١٣) الغرر والدرر .

(١٤) ميزان الحكمة ، ج٣ ، ص ٣٧٥ .

(١٥) بحار الانوار ، ج٧١ ، ص ٣٨٥ .

الله ـ على الأمم ، إذ ما من أمّة إلّا وكان لها نبيّ أو رسول يهديها الى الله ، ويقنن وينظّم أمورها في الحياة ، ومنها إنسانيّتهم وتعاملهم فيما بينهم . وبإرادته ـ جلّت قدرته ـ قدَّر وقضى بأن يكون الإسلام خاتمة الأديان والرّسالات السّماوية ، ووجّه ـ سبحانه ـ النّاسَ لابتغائه ديناً ورسالة عصر(*) ، إذ هو المرسَل لكافة النّاس وللعالم أجمع .

قال تعالى :

﴿ ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾[١٦] .

وقال سبحانه :

﴿ وما أرسلناك إلّا كافة النّاس بشيراً ونذيراً ﴾[١٧] .

وحيث أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر الإنسان بالتزام الدّين كمنهج وقانون لحياته ، فإنّ الإنسان نفسه مدعوّ لأن يقيم بنيان حياته على أساس الدّين ، هذا الأساس الذي من شأنه أن يضمن له الهداية والاستقامة في الحياة ، والتزام الحقّ والخير والصّلاح والفضيلة ، وبالتّالي النّجاح والسّعادة في الدّنيا والآخرة .

وإذ أنّ التعامل مع الناس يمثّل ميداناً أو ساحة لا يمكن إنكارها أو إلغاؤها ، وأنّ الدّين جاء لكي ينظّم شؤون المعاملة والتّعامل ـ كجزء كبير من وظيفته ـ فإنّ الأولى أن يكون التّعامل قائماً على أساسه ، وعلى ضوء مناهجه ونظمه ، مع التّأكيد على أنّ الإنسان حرّ في اختيار المعتقد الذي يريد ، إذ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرّشد من الغيّ ﴾[١٨] .

(*) يتوهم العصريون اللادينيّون والعلمانيون بأنّ الاسلام لايصلح كنظام سياسيّ واقتصادي وثقافي للعصر الحديث ، مدّعين أنه جاء قبل اكثر من ألف وأربعمائة عام ، وانه يناسب ذلك العصر . ويغيب عن بال اولئك أن الاسلام دين الفطرة ، الذي أراد له الله ان يكون عالمياً ، وهو الدين الذي يوجه الانسان الى التقدم والرقي الحضاريين على ضوء المناهج والنظم الإلهية .

(١٦) ٨٥ / آل عمران .

(١٧) ٢٨ / سبأ .

(١٨) ٢٥٦ / البقرة .

وهنا قد يسأل السائل :

إذا كان الدّين هو الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه سلوك الإنسان في الحياة وجميع أموره ، ومنها التّعامل مع النّاس ، ألا يمكن له أن يقيم أموره في الحياة ، ومنها التّعامل مع النّاس على غير الدّين ؟ وألا يمكنه تحقيق حسن التّعامل مع النّاس بصرف النّظر عن الالتزام بالدّين ؟

وتكون الإجابة على ذلك كالتّالي :

إنّ الدّين هو رسالة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى النّاس لكي يلتزموه ويسيروا على نهجه ، بمعنى أنه ـ عز وجلّ ـ أمر النّاس بأن يكونوا ديّنين في حياتهم ، لكون الدّين المرسل من عنده هو الذي يناسب ويلاءم فطرتهم التي فطرهم عليها . أفلا تقتضي طاعة النّاس لربّهم ، التزامهم دينه المرسل من عنده ؟ وألا يقتضي أمر الخالق امتثال المخلوق له ؟

ومع أنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر النّاس بعبادته وإخلاص الدّين له ، إلاّ أنه لم يفرض عليهم الدّين ولم يكرههم عليه ، وإنّما وجّههم إلى أنّ الايمان بالدّين يجب أن يكون نتيجة طبيعية لحقيقة الامتثال له ، سبحانه ، مبيّناً لهم أن الدّين هو سبيل الإستقامة في الحياة وكسب النّجاح فيها وفي الآخرة ، تاركاً لهم حرّية الدّين والمعتقد من دون إكراه . ومن هنا فلا تناقض بين الأمر بالدّين وبين حريّة اختيار الدّين والمعتقد .

إنّ الإنسان بإمكانه اعتناق أي دين أو عقيدة ينتخبها بمحض اختياره ، ولكنّ القضيّة ليست مجرد اعتناق وكفى ، وإنّما إلى أن هذه العقيدة تحقق له الهداية والإستقامة وفق ما أمر الله أو لا تحقّقهما . وبإمكانه أن يتعامل مع النّاس وفق أي ثقافة ، ولكن ينظر إلى أن هذا التعامل وفق هذه الثّقافة يوافق العقل المؤدب والشّرع أم لا يوافقهما . وحيث أنّ الدّين هو سبيل الهداية والاستقامة والدّاعي إلى العقل ، فإنّ هذا الأمر يقود إلى أنّ الدّين هو أفضل أساس لإقامة صرح معاملة النّاس عليه ، فضلاً عن أنه الأساس الأفضل لكلّ أمور الانسان في الحياة .

وربّ قائلٍ يقول : أنّ التّعامل مع النّاس أمر منفصل عن الدّين والاعتقاد

والثّقافة ، ولا يخضع لاستعمال العقل ، مبرّراً ذلك بأنّ من النّاس من هم غير ملتزمين دينيّاً ، أو غير ديّنين على الإطلاق ، ولكنّهم يتعاملون مع بني نوعهم بشكل لائق .

والحقّ أنّه مع كون العقل هو الميزان الذي يزن به الانسان الأمور ، ويميز به الخير عن الشرّ ، والحقّ عن الباطل ، والحسن عن القبيح ، والفضيلة عن الرّذيلة ، مع كلّ ذلك فإنّ العقل وحده ليس كافياً ، وأنّ الإنسان لا غنى له في هذه الحياة عن الدّين ، وإلاّ لم يرسل الله الأديان مع علمه ـ عزّ وجلّ ـ بأنّ العقل أعظم واكرم مخاوق خالقه ، وأنّه قوام الإنسان؟.

ثمّ انّ العقيدة والثقافة إذا كانت قوية فإنها توجّه معتنقها إلى التزام الحقّ والخير والحسن والفضيلة ، وحسن التّعامل مع الناس ، أما إذا كانت غير قوية فإنها توجّه معتنقها إلى خلاف ذلك ، وقد تلغي دور عقله ، وتجعله مسيّراً وفق مبادئها المنحرفة . وإذا وُجد من النّاس من هو غير ملتزم دينيّاً ، ويحسن التّصرف في بعض المجالات ـ ومنها التّعامل مع النّاس ـ فذلك يرجع الى التزام استعمال العقل في الوجه الأصلح ، أو الوجدان الصالح أو التّصرف وفق الفطرة الالهيّة وهي الأمور التي يدعو الدّين إليها ويرشد . ومن هنا فلا ضامن لاستقامة تصرّفات الإنسان ـ ومنها تعامله مع أخيه الإنسان ـ إلاّ الدّين والتزامه(*) .

ويمكن القول أنّ أزمة التّعامل والأخلاق والإنحراف الخُلقي التي تعمّ أغلب أرجاء العالم ـ وخصوصاً دول الحضارة المادّية والمتأثّرة بها ـ من أسبابها الأولية : غياب الدين والتزامه، ولا حل لهذه الأزمة أو المشكلة الخطيرة إلاّ بالعودة إلى رحاب الدّين. بل إن أغلب النّزاعات في العالم والصراعات القائمة بين المحكومين والحكام والمشكلات سواء كانت اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو ثقافية، أو قومية، أو عنصرية، أو. . . هي بسبب تضييع دين الله، وغياب السّير على نهجه وهداه، في جزء كبير منها.

(*) إن العقل أقوى الأسس لاستقامة تصرفات الإنسان ومعاملاته ، ولكنْ لاغنى للعقل عن الأدب ، والادب من صميم الدين . يقول الإمام عليّ (ع) : (كلّ شيءٍ يحتاج الى العقل ، والعقل يحتاج الى الأدب) . ويقول (ع) أيضاً : (لن ينجح الأدب حتى يُقارنه العقل) .

معاملة الله

حيث أنّ الدّين هو مجموعة القوانين والنّظم والمناهج المرسلة من لدن الله للنّاس ، ووسيلة الاتّصال بينه ـ عزّ وجلّ ـ وبينهم ، وإذ أنه الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حياة البشر ، ومنها تعاملهم فيما بينهم ، فإنّ من ضرورياته الأولى حسن معرفة الله ـ عزّ وجلّ ـ والعبودية له . وبعبارة أخرى : إخلاص الدّين له ، وإحسان معاملته والإرتباط به ـ جلّ وعلا ـ .

إنّ معاملة المرء لخالقه ـ عزّ وجلّ ـ يجب أن ترتكز على توحيده ، والصّدق معه ، وإخلاص النيّة في معاملته . واذا كان الانسان يعلم أشياء وتخفى عليه أشياء ، فإنّ الله ـ سبحانه ـ عليم بكلّ شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، وهو العليم بذات صدور البشر فضلاً عن أعمالهم وتصرّفاتهم الظّاهرية .

ومن هنا فمعاملة الانسان لله ـ سبحانه ـ يجب أن تكون مبنيّة على أنّ الإنسان تحت مراقبة الله وتحت سلطته وهيمنته ، إذ هو الرّب العزيز ، والانسان هو العبد الذّليل . أفلا يحسن العبد معاملة سيّده ومولاه ؟

وإذا كان الانسان قادر على أن يخدع ، ويمكن أن يخدع ، فإنّ الله ـ سبحانه ـ لا يُخدع ولا يُخادَع ، ومن يخادع الله ، فالله خادعه . وعليه فمن واجب الانسان أن يحسن معاملة خالقه ، وكلّما تعرّضت هذه المعاملة لما هو خلاف الحسن والصّلاح ، عليه أن يتوب إلى ربّه ويصلح معاملته .

اصلاح العلاقة مع الله

قال الإمام عليّ (ع) :

« من اصلح ما بينه وبين الله ، أصلح الله ما بينه وبين النّاس . ومن أصلح أمر آخرته ، أصلح الله أمر دنياه . ومن كان له من نفسه واعظ ، كان عليه من الله حافظ »[١٩] .

---

(١٩) نهج البلاغة ، حكمة ٨٩ .

«ذهب النبيّ محمد (ص) إلى المسجد ليؤدي صلاة الفجر. فلما أتمّ الصّلاة بالنّاس كان الظلام قد سحب أثوابه خوفاً من ان يحرقها وهج الصباح. ولمّا أوشك الرّسول (ص) على مغادرة المسجد، إذا بشابّ مصفرّ اللون، قد ضعف جسمه ونحف، وغارت عيناه في رأسه.

فسأله رسول الله (ص): كيف أصبحت يا فلان؟

فأجاب الشابّ: أصبحت موقناً يا رسول الله!

فتعجّب الرسول من قوله وقال: إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟

فقال الشابّ النّحيل: إنّ يقيني - يا رسول الله - هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ نهاري، فزهدتْ نفسي في الدّنيا وما فيها، وكأنّي أنظر الى عرش ربي وقد نصب الحساب، وحُشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم. وكأنّي أنظر الى أهل النّار وهم فيها معذّبون مستغيثون، وكأنّي الآن أسمع زفير النّار يُدوي في مسامعي.

فالتفت النّبي (ص) إلى أصحابه، وقال: هذا عبدٌ نوّر الله قلبه بالإيمان. ثم أوصى الشابّ قائلاً: إلتزم ما أنت عليه.

فقال الشابّ: ادعُ الله، يا رسول الله، أن أُرزق الشّهادة معك. فدعا له رسول الله (ص)، فلم يلبث أن خرج في إحدى غزوات النّبي (ص) فاستُشهد بعد تسعة أشخاص، فكان هو العاشر»[٢٠].

* * *

وجاء في المناجاة المرويّة عن الإمام زين العابدين (عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب) عليهم السّلام:

اللهم ألهِمنا طاعتك، وجنِّبنا معصيتك، ويسِّر لنا بلوغ ما نتمنّى من رضوانك، وأَحلِلْنا بحبوحة جنانك، واقشع عن بصائرنا سحاب الإرتياب، واكشف عن قلوبنا أغشية المِرية والحجاب، وأزهِق الباطل عن ضمائرنا، وأثبِت

(٢٠) الأصول من الكافي، ج٢، ص٥٣، باب حقيقة الإيمان واليقين.

الحقّ في سرائرنا ، فإنّ الشّكوك والظّنون لواقح الفِتن ، ومكدّرة لصفو المنائح والمنن . اللهم إحملنا في سفن نجاتك ، ومتّعنا بلذيذ مناجاتك ، وأوردنا حياض حبّك ، وأذقنا حلاوة ودّك وقربك ، واجعل جهادنا فيك ، وهمّنا في طاعتك ، (وأخلِص نيّاتِنا في معاملتك) ، فإنّا بك ولك ، ولا وسيلة لنا إليك إلّا أنت . إلهي ، اجعلني من المصطفين الأخيار ، وألحقني بالصّالحين الأبرار السّابقين الى المكرُمات ، المسارعين إلى الخيرات ، العاملين إلى الباقيات الصّالحات ، السّاعين إلى رفيع الدّرجات ، إنّك على كلّ شيء قدير »[٢١] .

***

بلا أدنى ترديد ، إنّ علاقة الإنسان بالنّاس وتعامله معهم ، مرتبطةٌ أشدّ الارتباط بعلاقته بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعامله معه ، ومشروطة بها ، لأنّه ـ عز وجل ـ هو خالق الإنسان ، وبارئه من العدم ، ومهيمن عليه ، إن شاء أبقاه حيّاً ، وإن شاء أخذه إليه . وحيث أن حياة الإنسان وموته بيد الله ـ بل كلّ أموره بيده جلّ وعلا ـ فإنّ واجبه أن يعرف قدر ربّه وعظمته ، فيطيعه ، ويخلص الدّين له ، ويوقن به ويحبّه ، ويحسن معاملته ، ويصلح ارتباطه به ، لكي تنعكس آثار ذلك على جميع جزئيات حياته ، ومنها تعامله مع بني نوعه .

وبناءاً على ذلك ، أن من سنن الله ـ تعالى ـ في عباده والحياة ، أنّ من يوفّر في نفسه شرط صلاح العلاقة مابينه وبين ربّه ـ سبحانه ـ ، فإنّ جزاءه أن تنتظم حياته وتسعد ، ومنها علاقته بالنّاس و معاملته لهم .

وقد يقول قائل :

إنّ للإنسان وجدان داخليّ ، فإذا صلح هذا الوجدان ، صلحت علاقة الإنسان بالناس وتعامله معهم ، وبالتالي لا ربط لذلك بإصلاح العلاقة مع الخالق ! .

وهنا لا بدّ من التّساؤل :

---

(٢١) كلّيات مفاتيح الجنان ، ص١١٩ ، (مناجاة المطيعين) .

وما الذي سيضمن صلاح وجدان(*) الإنسان وضميره ، واستمرار ذلك ، في غياب صلاح العلاقة والتّعامل مع الله ـ سبحانه ؟! .

هل العقل واستعماله في خارج إطار طاعة الله وإصلاح العلاقة به ، قادر على ذلك ؟! .

وهل القانون الوضعيّ ـ وحده ـ كافٍ لخلق الأرضيّة الحسنة في نظم حياة الإنسان ، ومنها تعامله مع النّاس ؟!

إنّ إلغاء العلاقة الدينية بالله ، أو إعطاءها دوراً هامشياً ، هو نهج الملحدين ، والكفّار ، والمادّيين ، وعموم التائهين في الحياة . . ومن هنا فلا غرابة أن تضجّ المجتمعات الملحدة ، والكافرة ـ والمادّية عموماً ـ بسوء علاقة الإنسان ، وبتحوّل الفرد إلى مجرّد إداة للمادّة . ولا غرابة أيضاً أن تطفح المجتمعات الغربيّة والمقلّدة لها بالتّفاقم المذهل للذنب والجريمة ، كالقتل ، والاغتصاب ، والسرقة ، والإدمان على المواد المخدّرة والكحوليّة ، والخديعة ، وأكل أموال الآخرين بالباطل ، واستخدام أيّ وسيلة من شأنها درّ الأرباح والمكاسب المادّية ، و . . . بالرّغم من كثرة القوانين الوضعيّة وتشعّبها .

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ القانون الوضعيّ لا يصلح أن يكون بديلاً عن القانون الإلهي ـ وهو الدّين ـ وأن القانون الوضعيّ ـ وحده ـ غير قادر على تقويم وتنظيم تعاملات الإنسان مع بني نوعه ، ولا كافٍ لذلك . وهو قد يمنع الإنسان من ارتكاب الجريمة عن طريق حالة الرّهبة من الجزاء المحدّد إزاءها ، إلّا انّه لا يعالج جذورها لاجتثاثها من الأصل . وأكبر شاهدٍ ودليل على ذلك ، واقع المجتمعات الغربيّة ، والملحدة ، واللادينيّة عموماً ، إذ بالرّغم من وجود القوانين وكثرتها ، إلّا أنّ الجرائم في ازدياد مطّرد ، على الصّعيد الفرديّ ، والاجتماعيّ(**)

(*) إنّ الوجدان أو الضمير الصالح هو النتيجة الطبيعية لاصلاح العلاقة بالله ، وتزكية النفس وتطهيرها وفق ذلك . كما أنّ الوجدان والضمير الصالحين يجب أن يقودا المرء الى الله سبحانه والتزام دينه .

(**) كعينة على كثرة الجرائم في الغرب مع كثرة القوانين الوضعيّة ، هنا ثلاثة أمثلة من ألمانيا ، وبريطانيا ، وأمريكا :ـ

فعلى سبيل المثال : إنّ انقطاع الكهرباء لمدّة خمس دقائق في مدينة نيويورك الأمريكيّة ، يؤدي إلى حدوث عشرات الجرائم ! .

* * *

إنّ القانون الوضعيّ ـ برأي بعض المفكّرين الإسلاميّين ـ مثله مثل الشّرطة الفرنسيّة المتواطئة مع السّلطة الفرنسيّة . فكما يقال : أنّه حينما يُخصّص شرطيّ

---

١ ـ (ذكرت أوّل دراسة من نوعها أعدّتها وزارة النساء في بون ، أنّ اكثر من سبعين في المائة من النساء يتعرضن للتحرش الجنسي في أماكن عملهنّ . وفي نتائج هذه الدراسة أنّ ٥٦ في المائة من النساء يشتكين من الملاحظات الفظة ، و ٣٤ في المائة من القَرص وملامسة القفا ، و ٢٢ بالمائة من الهجمات على صدورهن . ومن جهة أخرى فإن سبعين بالمائة من النساء تعرضن لتهديدات مهنيّة ، وخمسة بالمائة واجهن إرغامات جنسيّة .

وفي اطار هذه الدراسة ، فإن ٧٧٨ حالة تحرّش جنسي أُحصيت بين ١٠٨١ امرأة يعملن في عشر مؤسسات ولم يطرد سوى ثلاثة رجال ، في حين أنّ ٤٦ إمرأة اخترن الاستقالة . و بحسب وزيرة النساء انجيلا ميركيل ، فإنّ (التحقيق أظهر أنّ على الموظفين ونقابات العمال أن يعملوا اكثر للحؤول دون التمييز للنساء بالتحرش الجنسي بهن في أماكن العمل . ورأت أنّ التحرش الجنسي يجب ألّا يعتبر بعد الآن هفوة) ، معلنةً أنها ستقترح قريبا على النقابات واتحادات الموظفين مشروع إطار لايجاد حلول لهذا الوضع) . (جريدة الديار اللبنانية ، ٢٥ آذار ١٩٩١ ، الملحق ص ١٥) . ولكن أين جدوى الحلول ومكافحة الذنّب والجريمة ، في حال غياب الدّين ، وتقوى الله ، وغياب الواعظ والرّادع النفسيين ؟!

٢ ـ (اكدت أحدث احصائيّة في معدلات الجريمة في بريطانيا أنّ عام ١٩٩٠ كان أسوأ عام شهدته البلاد ، وأعلى بنسب الجرائم ، حيث ارتفعت نسبة الجريمة عن العام الماضي ١٧ بالمائة . وذكرت وزارة الدّاخلية البريطانية أن عدد الجرائم في البلاد ازداد حوالي ٦٣٧ ألف جريمة عن الأعوام السّابقة . ويذكر أنّ أعلى ارتفاع معّدل المجريمة في بريطانيا قد حدث في عام ٩٨٠ / ٩٨٢ حين سجلت الاحصاءات ارتفاع معّدل الجريمة في البلاد بواقع ١٠ بالمائه . وجاءت جرائم سرقة المنازل والتّعدي عليها ، وسرقة السيارات في مقدمة الجرائم المرتكبة في بريطانيا) وكالات الأنباء ، ابريل ١٩٩١ .

٣ ـ « أعلنت شرطة دالاس أنّ رجلاً باع ابنه البالغ من العمر أربعة أعوام ، مقابل جرعة من الكوكائين قيمتها ٤٠ دولاراً ، ولكنّ زوجته تمكنت من استرجاع الطفل بعد عراكٍ مع المشترين الثلاثة . وقالت فانيلدا روميرو أنّ زوجها درج على ترويج المخدّرات وتعاطيها ، وقد انتابته نوبة غضب شديد عندما علم أنّها استرجعت الطفل ، فضربها وحاول أخذه ليبيعه مجّدداً) وكالات الأنباء ، مايو ١٩٩١ .

أليست هذه جريمة نكراء بحقّ الولد ؟! وأليست هذه إساءةُ معاملةٍ له في منتهى السّوء من قِبَل أبيه ؟! وأليست غالبية الجرائم هي إساءة لمعاملة الانسان أخاه الإنسان ؟!

للمحافظة على شخص لا ترغب السلطة فيه ومتورّطة معه ، فإنّ وظيفة هذا الشّرطيّ ليس منع المهاجم من ارتكاب الجريمة ، وإنّما وظيفته أن يشهد حدوثها .

فحينما يُطلق الرّصاص على شخصٍ غير مرغوب فيه ، ويخرّ صريعاً على الأرض ، آنئذٍ يأتي « البوليس » الفرنسيّ ، ويقول : نعم ، رأيت هذا أطلق النّار على هذا . وهكذا يكون عمل القانون الوضعيّ ، فهو لا يستطيع كبح جماح الجريمة ، ومعالجة جذورها ، وإنّما يأتي فيصدر الأمر بمعاقبة المجرم فقط ، والجريمة قد وقعت ، بخلاف القانون الإلهي أو الدّيني الذي يتوجّه - أوّلاً - إلى بناء النّفس الإنسانية بتزكيتها من الجريمة ، وتربيتها على الفضيلة ، فيأتي الإلتزام بالقانون نابعاً من الإمتثال لله ، والتربيّة للذّات على الفضائل ، وتزكيتها وتطهيرها من الأهواء ، قبل أن يكون نابعاً من حالة التّرهيب الجزائيّ .

* * *

ولا يعني ذلك أنّ القانون الوضعيّ المُحِقّ ليس مطلوباً ، وأن ليس له تأثير في تقويم المجتمع وتنظيمه ، وإصلاح العلاقات بين أفراده ، بل هو ضروريّ . وإنّما المقصود أن يكون القانون مبنيّاً على ارضيّة صالحة لكي يتمكّن من ضبط المجتمع وتقويمه ، إذ التقويم يجب أن يبتدىء من الجذور ، والجذور تتمثّل في إخلاص الدّين لله ، والإيمان به ، وطاعته ، وتقواه ، وتربية النّفس وتزكيتها على نهجه وهداه ، وإصلاح العلاقة والتّعامل معه .

وقد يسأل السّائل فيقول :

وما هي علاقة القانون والقانون الوضعي وارتكاب الجرائم ، بالتّعامل مع النّاس ؟

وأليست الجريمة متمثّلة في القتل ، والسّرقة ، والإغتصاب ، وممارسة الفحشاء ، وتهريب المخدّرات والإدمان عليها ، وشرب الخمور ، وما شابه ذلك ؟

وللإجابة على ذلك :

إنّ التّعاملات التي تنشأ بين بني البشر يمكن تقسيمها الى نوعين :

أ ـ تعاملات قائمة على الانتفاع المتبادل بين شخصين ، أو جهتين ، والتي يجب أن تقوم على حفظ الحق واحترامه ، كما في البيع ، والإجارة ، والمضاربة ، والرّهن ، وبقية المعاملات والعقود الأخرى ، وفي كل المجالات التي يدخل احترام الحق طرفاً فيها .

ب ـ تعاملات تعني بالجانب الخلقي في إبرام العقود والمعاملات المتقدّمة ، وبعموم معاشرة النّاس ومخالطتهم .

وما من شكّ أنّ المعاملات من النّوع الأوّل هي بحاجة ماسّة الى المعاملات من النّوع الثّاني(*) ، إذ حتى مع حفظ الحقّ واحترامه ، ينبغي للإنسان حفظ كرامة الإنسان وإحسان معاملته ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى إن الأخطاء التي قد يرتكبها الإنسان في تعامله مع النّاس ـ من جرّاء سوء ارتباطه بالله ـ هي في حد ذاتها أخطاء أو جرائم . وهذه الجرائم أو الأخطاء قد تكون صغيرة ، وقد تكون كبيرة ، ومن يفعل الجريمة الصّغيرة ، قد يرتكب الجريمة الكبيرة ، وكما في المثل : « من سرق بيضة قد يسرق جملاً » . وفي دين الله ومنهجه لا فرق ـ من حيث الأصل ـ بين أن تكون الجريمة صغيرة أو كبيرة ، وإنّما الجريمة هي الجريمة ، صغرت أم كبرت ، والخطأ هو الخطأ ، صغر أم كبر ، والمطلوب إستئصال جذور الجريمة وإحلال جذور الصّلاح محلّها .

ومن جهة ثالثة إن الجريمة ـ في أغلب صورها وأشكالها ـ تأخذ الطابع الإجتماعي(**) ، وبالتالي الإساءة الى الآخرين ، فعلى سبيل المثال إن جرائم

(*) بصيغة أخرى يمكن القول : أنّ المرء في معاملته النّاس لابدّ أن يلتزم أمرين : الأوّل : اجتناب التّعدي عليهم وعلى أعراضهم و أموالهم وعلى كلّ حقّ من حقوقهم (اجتناب الجريمة) ، والثاني : الالتزام بأخلاقيات التعامل ، وآدابه النّابعة من الدين والعقل المؤدب في أي معاملة مشروعة . وفي المجتمعات « المتقدمة » اذا كان هناك نوع التزام بالأمر الثاني ، فإن هناك خرقاً شديداً جداً للأمر الأوّل .

(**) بالنظر إلى الطّرف المجنيّ عليه تنقسم الجريمة الى ضربين : جريمة يجني فيها المرء على ذاته ، وأخرى يجني فيها على الآخرين .

السّرقة ، والإعتداء الجنسيّ ، و . . . إضافة إلى حالة التعدّي فيها على حرمات الآخرين ، فهي تتضمّن اساءة في معاملتهم ، ولا إساءة في معاملة النّاس كممارسة الجريمة بحقّهم ! .

ولإبعاد الإنسان عن الجريمة ، وتقويم تعامله مع بني جنسه ، فإنّه بحاجة ضرورية ملحّة إلى إلتزام دين الله وإخلاصه له ـ جلّ وعلا ـ ، وإلتزام قوانينه ونظمه ومناهجه وأخلاقياته ، وإصلاح علاقته به ـ سبحانه وتعالى ـ وبناء النّفس على أساس تقواه وخشيته . ومن أهم وأبرز إصلاح العلاقة والإرتباط بالله ، الأخذ بعين الجدّ والإجتهاد ، الدّار الآخرة وإصلاح أمرها ، والعمل من أجلها .

يقول تعالى :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدّار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدّنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾[٢٢] .

اصلاح أمر الآخرة

« . . . ومن أصلح أمر آخرته ، أصلح الله أمر دنياه . . . » .

*

أرايت الواحد منّا كيف يرى في الحلم أنه سافر الى مدينة من المدن ، أو إلى ايّ مكان آخر ، فيتفاعل مع هذا الحدث . وفجأة يدّق جرس السّاعة ، فيفتح اجفانه ليجد نفسه في فراشه ومكانه الأصلي ، وكأنّه لم يرحل إلى أيّ مكان ، ولم ير شيئاً على وجه الإطلاق .

وقد يبدي الإنسان عجبه ، فيقول :

إنّني كنت في عالم آخر ، ثم جيء بي الى هنا !

وينسى أنّ حياته سريعة كالحلم ، فيرى كل الأشياء حلماً . ويرى تلك المادّيات التي تصارع عليها مجرّد لعب أطفال ، والسيارة التي باع ضميره لأجلها مثل سيّارة من

(٢٢) ٧٧ / القصص .

البلاستيك ، إذ الأطفال يتشاجرون ـ وبعنف ـ من أجل سيّارة بلاستيكية ، أو قطار من الخشب ، أو أيّ لعبة أخرى .

ونحن قد نضحك من هذه التّصرفات الطّفلية ، ومن هذا المستوى من التّفكير . إلاّ أننا سنضحك على أنفسنا في الغد بكاءاً فيما إذا لم نستغلّ دنيانا لإصلاح آخرتنا ، وإذا لم نجعل هذه الدّنيا مزرعة للدّار الآخرة . وسنُصاب بأليم الحسرة والنّدم ، إذا لم نكوّن لنا رصيداً راجحاً من الأعمال الصّالحة ، ومنها حسن التّعامل مع الإخوان في الدّين ، والنّظراء في الخلق . وفي آجلنا سنجد نصب أعيننا كل شيء من أعمالنا جليّاً واضحاً ، الخير منها والشرّ ، إلاّ أنّه لا فرصة لنا في العمل ، ولا في القول : « ربِّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت »[٢٣] ، إذ ذهب وقت السّعي والعمل ، وحان موعد الحساب والكتاب ، وآنئذٍ لا تنفع الحسرة والنّدم ، ولات حين حسرة وندم !

الإمام عليّ (ع) يقول :

« اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل »[٢٤] .

وحيث أن الأمر كذلك ، فلنبدأ ـ ومن اللحظة التي نحن فيها ـ بإصلاح ارتباطنا بالله ـ تعالى ـ ، وبإصلاح أمر آخرتنا ، هذا الإصلاح الذي هو نتيجة طبيعية لإصلاح التّعامل مع الله ـ سبحانه ـ ، بجعل دنيانا واسطة ومطيّة ومزرعةً لها ، مع العلم بأنّ حسن وإصلاح التّعامل مع الإخوان ومع بني البشر عموماً ، هو جزء كبير من التزام الدّين ، وإصلاح أمر الدّنيا ، وبالتّالي إصلاح أمر الآخرة .

إنّ الدنيويّين والماديّين والملحدين ومن هم على شاكلتهم ، يتصوّرون أو يعتقدون أنّ الحياة الدّنيا هي كل شيء ، أو ينكرون أنّ هناك داراً باقية خالدة بعد الدّنيا ، وهي الدّار الآخرة . ونتيجة لذلك فهم يعيشون ويتصرّفون وكأنّه لا وجود لحياة أخرى بعد الدّنيا ، ولا حشر ، ولا معاد ، ولا حساب ، ولا كتاب . ومتى

---

(٢٣) ١٠٠ / المؤمنون .

(٢٤) نهج البلاغة ، الحِكَم .

ضاعت الآخرة فيهم ، انتكست دنياهم وطلح أمرها ، حتى وإن عاشوا في أرقى حالات الرّفاه والنّعيم ، إذ لا غنى للإنسان في هذه الحياة عن العبوديّة والخضوع لله ، والارتباط الرّوحي به ، والإيمان به ، فمن أصول الدّين وأساسياته : الإيمان بالمعاد والحياة الآخرة .

إنّهم يتصوّرون ـ خطأً ـ أنّه من الجهل والتّخلف ، أو من السّفه والتّأخر أن يكون الإنسان دينيّاً روحيّاً ، وأن يحسن علاقته مع بارئه لكي تنعكس آثار ذلك على كلّ مجالات حياته ، ومنها تعامله مع نفسه ومع النّاس ، وبغياب الدّين ، وبغياب حسن التّفاعل معه والارتباط بالخالق والإيمان بآخرته ، تتحوّل حياة أولئك إلى جحيم ماديّ ، وحينها لا يهمّهم إن أترفوا ، أو أفسدوا ، أو ظلموا ، أو طغوا وتجبّروا ، أو أساءوا التّعامل مع النّاس .

وبناءاً عليه ، فلكي يصلح الإنسان ما بينه وبين النّاس ، يتلزّم عليه أن يصلح ما بينه وبين الله ، ولكي يصلح ما بينه وبين الله يلزم له أن يصلح أمر آخرته كي يصلح الله أمر دنياه . وبديهةً أنّ من أمور الدّنيا ، التّعامل مع النّاس ، والعلاقات الإنسانية معهم ، إذ هي ميدان واسع * في الدّنيا ، ومجال يحاسب عليه الإنسان في الآخرة التي على الإنسان أن يعدّ لها ويستعدّ .

* * *

وعن ضرورة الإستعداد الجادّ للآخرة نقرأ القصة التّالية :

يُقال أنّ أحد الصّالحين كان جالساً في إحدى المقابر وحيداً ، وإذا به يرى جنازة يحملها مشيّعون ، جاءوا لدفنها . وبعد إنتهائهم من دفنها عادوا أدراجهم ، وتركوا صاحبهم وشأنه .. وبينما هو كذلك ، رأى كلباً أسوداً يبدو عليه إمارات الوحشيّة ، يسير باتّجاه تلك الجنازة التي دُفنت ، والرّجل لا يرى من الجنازة والقبر شيئاً .

وبعد أمدٍ قصير ، وقعت نظراته على شابٍّ وسيم المنظر ، مشرق الطّلعة ،

(*) تشكل المعاملات حيزاً واسعاً في حياة الانسان ، وأغلبية الاعمال التي يزاولها هي بحاجة الى التعامل مع بني جنسه .

يرتدي ملابس بيضاء ، متوجّهاً إلى ملحودة الجنازة . وبعد فترة من الزّمن رأى الرّجلُ ذلك الشابّ الوسيم وقد عاد ممزّق الثّياب ، والدماء تنزف منه ، فقفز الرّجل من مكانه مندهشاً ، وبادره بالسّؤال :

هل لك حاجة يا هذا ؟!

وهل آذاك أحد ؟!

قال الشابّ الجميل والدّموع تنهمر من عينيه عل صفحتيّ خدّيه :

يا هذا ! إنّك ترى الآخرة ، والحجاب قد كُشِف عن عينيك .

واردف قائلاً :

هل رايت الجنازة ؟

قال : نعم !

قال الشابّ الوسيم : وهل رأيت الكلب الأسود المتوحش ؟

قال : نعم !

قال الشابّ بوداعة : أنا العمل الصالح لصاحب الجنازة ، وذلك الكلب الوحشيّ هو معاصيه . وحينما وُضع في القبر كُلّف كلانا أن نذهب إليه ، ونكون أنيسيه الى يوم القيامة . إلاّ أن معاصيه كانت أكثر من طاعاته ، فاستطاع أن يدميني ويطردني ، وسيبقى ذلك الكلب الوحشيّ انيسه إلى يوم يبعثون .

فهل ـ يا ترى ـ فكّرنا في أنفسنا بجدّ ؟

وهل حسبنا حساب الآخرة ؟

* * *

إنّ أفضل وأقوى أساس للعلاقات الإجتماعية الإنسانية ، هو الدّين ، ومن الدّين إصلاح العلاقة مع الله ، وإصلاح أمر الاخرة والدّنيا ، إذ أنّ إصلاح العلاقة مع الله والآخرة والدّنيا هو جوهر الدّين ولبابه ، مع العلم بأنّ يوم القيامة هو يوم الدّين ، أي هو يوم القانون الذي يحاسب فيه النّاس على مدى التزامهم

بقانون الدّين ومنهجه في الدّنيا ، فلكي تكون آخرة الإنسان نيّرة لا بدّ له أن يتوسّل بسراج العمل الصّالح في أُولاه .

* * *

يقال أنّه كان لأحد التّجار خادم ، وكان التّاجر شأن كثير من أمثاله ، يجمع الأموال ويخزنها . وحينها كان الخادم ينصحه بأن يُنفق من أمواله في سبيل الله ، كان يقول :

ـ لقد أوصيت أن يفعلوا ذلك من بعدي .

وذات ليلة ، والظلام الدّامس ينشر أستاره على الطّرقات ، كان الخادم يسير ويحمل سراجاً ، والتّاجر يسير برفقته ، إلاّ أنّ الخادم تعمدّ أن يمشي خلفه ، فلم يستطع التّاجر ان يُبصر شيئاً . فالتفت إلى خادمه ، وقال :

ـ كيف استطيع الإهتداء في مسيري ، والسِّراج من ورائي ؟! وهل يُبصر شيئاً من كان السِّراج من ورائه ؟!

قال الخادم : إذَن ، كيف تريد أن يأتيك السِّراج في قبرك ومعادِك ، مِن ورائك ؟

* * *

إن العمل للآخرة ضرورة اكيدة ، وأنّ الآخرة حقيقة لا لبس فيها ، وما اكثر التّأكيدات في القرآن الكريم والسنّة الشريفة على ذلك ! وبناءاً عليه ، فلنصلح أمر آخرتنا بالعمل الصّالح والمسارعة والمسابقة إليه في دنيانا ، ولنقدِّم سراجنا ونضعه أمامنا ، فنحن الذين سننام في قبورنا ، لا غيرنا ، ونحن الذين سنحاسب على أعمالنا ، لا سوانا . فأنا سأحاسب على أعمالي ، لا غيري ، وأنت ستحاسب على أعمالك ، لا غيرك . وإنّ في وضعنا للسِّراج من أمامنا ، سيجعلنا ـ فضلاً عن الفوز بالدّار الآخرة والنّجاح فيها ـ ناجحين في دنيانا ، سعداء فيها ، نتعامل مع النّاس بشكل يرضي الله ، ويرضي عباده ، وكلّ ذلك يتوقف على علاقتنا بالله ـ عزّ وجلّ .

كيف يجب أن يكون تعامل الانسان مع الله؟

يقول الإمام زين العابدين (ع) في رسالته العظيمة، المعروفة برسالة الحقوق:

«حقّ الله الأكبر عليك: أن تعبده ولا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص، جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدّنيا والآخرة...»[1].

سؤالٌ بالغ الأهمية، يبرز:

بما أن الدّين هو المنهاج القويم، والأساس الراسخ الذي ينبغي أن تُبنى حياة الإنسان عليه، وأنّ إصلاح المعاملة مع الله هو الأرضية السليمة والناجحة للتّعامل مع جميع شؤون الحياة ـ ومنها التّعامل مع النّاس ـ فكيف يتمّ إصلاح التّعامل مع الله؟

والإجابة على ذلك كالتّالي:

إن حسن التّعامل مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإصلاح المعاملة بين الإنسان وبينه ـ عزّ وجل ـ يحصل من إخلاص الدّين له، وجوهر هذا الإخلاص، الإخلاص في توحيده ـ جلّ وعلا ـ والعبودية له. وفيما يلي مجموعة من القواعد لإحراز حسن التّعامل مع الله، وإصلاح العلاقة والارتباط به، وهي حقوق على العبد له ـ عزّ وجل ـ وفروع تنبثق من أصل توحيده ـ جلّ وعلا ـ:

١ ـ توحيد الله بإخلاص.
٢ ـ نفي الشركاء له.
٣ ـ معرفته.
٤ ـ الإيمان اليقيني به.
٥ ـ عبادته.
٦ ـ طاعته (الائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه، والتأدّب بآدابه، والتخلّق بأخلاقه).

---

(١) مكارم الأخلاق ص٤١٩.

٧ ـ خوفه (تقواه ، والورع عن محارمه) .
٨ ـ رجاءه .
٩ ـ حبّه .
١٠ ـ حبّ من يحبّه .
١١ ـ الرّغبة إليه .
١٢ ـ حمده .
١٣ ـ شكره على نعمه .
١٤ ـ شكره على ايّ حال .
١٥ ـ الثّناء عليه .
١٦ ـ طلب شفاعته .
١٧ ـ الرّضا عنه .
١٨ ـ الرّضا بقدره وقضائه .
١٩ ـ الرّضا بقسمته .
٢٠ ـ النّظر الى جميل رؤيته .
٢١ ـ الاعتصام به .
٢٢ ـ الافتقار إليه .
٢٣ ـ النّدم إليه من الذّنوب والآثام والأخطاء .
٢٤ ـ التّوبة والإنابة إليه .
٢٥ ـ طلب العفو منه .
٢٦ ـ الإنابة إليه في كلّ الأحوال .
٢٧ ـ مناجاته .
٢٨ ـ الشّكوى إليه .
٢٩ ـ التوسّل به .
٣٠ ـ ذكره في كلّ الأوقات(*) .

(*) كلما استطاع الانسان ان يذكر الله بلسانه فليفعل ، اضافة الى ذلك إن العمل الصالح المرضي لله هو ترجمة فعلية لذكره ـ عزّوجل .

٣١ ـ الصّلاة له .

٣٢ ـ دعاؤه .

٣٣ ـ التضرّع له .

٣٤ ـ استغفاره .

٣٥ ـ الخضوع له .

٣٦ ـ سؤاله .

٣٧ ـ الاستكانة(*) لعظمته وجلاله .

٣٨ ـ طلب الرفق منه .

٣٩ ـ طلب الرزق منه .

٤٠ ـ البكاء من خوفه .

٤١ ـ الاستعانة به .

٤٢ ـ استمداد القوّة منه .

٤٣ ـ طلب النجاة منه .

٤٤ ـ التعرّض لجوده .

٤٥ ـ نصرته على الأعداء .

٤٦ ـ طلب ستره للعيوب .

٤٧ ـ وقاؤه من البلاء .

٤٨ ـ تقدير رأفته ورحمته .

٤٩ ـ العمل في سبيله .

٥٠ ـ الإستجارة(**) به ، ومن أليم غضبه .

٥١ ـ طلب العطاء منه .

٥٢ ـ استمداد الأمل والتفاؤل منه .

٥٣ ـ الإقبال عليه .

٥٤ ـ مجاهرته بالعصيان (الاعتراف له بالمعصية) .

(*) الاستكانة : الذلّ والخضوع .

(**) الاستجارة : الاستغاثة والالتجاء .

٥٥ ـ التوكّل عليه .
٥٦ ـ التماس قراه(*) .
٥٧ ـ الإناخة(**) ببابه .
٥٨ ـ الإيمان والإحساس بمراقبته .
٥٩ ـ الإخلاص إليه .
٦٠ ـ الهروب إليه .
٦١ ـ طلب اطمئنان النّفس منه .
٦٢ ـ الإيقان به .
٦٣ ـ استمداد البصيرة والوعي والعلم والثقافة منه .
٦٤ ـ حسن الظنّ به .
٦٥ ـ الثّقة بثوابه .
٦٦ ـ تجنّب الغفلة عن الاستعداد للقائه .
٦٧ ـ الإبتهال إليه .
٦٨ ـ التعرّض لنفحات رَوْحِه(***)
٦٩ ـ طلب السّتر منه .
٧٠ ـ الطّمع في إحسانه .
٧١ ـ طلب مرضاته .
٧٢ ـ طلب مغفرته ورحمته .
٧٣ ـ إلتماس إبعاد العذاب ، منه .
٧٤ ـ الشّهود على النّفس ـ عنده ـ بالإهمال والتّضييع .
٧٥ ـ طلب التّوفيق منه ، في الدّنيا والآخرة .
٧٦ ـ طلب الإحلال في بحبوحة(****) جنّاته .

(*) القِرى : مايُقدم للضيف ، والمقصود طلب الرزق منه .
(**) الإناخة : من أناخ الجملَ : أبركهُ . والمقصود الإقامة ببابه .
(***) النّفحات : العطايا . والرّوح : الرّحمة ، والعدل الذى يريح المشتكي .
(****) البحبوحة : الرّغد والطّيب والسّعة .

٧٧ ـ إلتماس قشع الإرتياب والشّكوك ، منه .
٧٨ ـ طلب تثبيت الحقّ في النّفس ، منه .
٧٩ ـ طلب نزع الباطل من الضّمير ، منه .
٨٠ ـ الجهاد في سبيله .
٨١ ـ الإخلاص في معاملته .
٨٢ ـ طلب اللّحوق بالصّالحين والأبرار ، منه .
٨٣ ـ إلتماس الهداية منه .
٨٤ ـ طلب التّسهيل في العسر والشّدة ، منه .
٨٥ ـ الرّغبة فيما عنده .
٨٦ ـ طلب السّعادة منه .
٨٧ ـ الإستشفاع بنبيّه .
٨٨ ـ طلب ختم العمل بالخير ، منه .
٨٩ ـ طلب قضاء الحاجات ، منه .
٩٠ ـ الشّوق إليه .
٩١ ـ الإقتراب منه .
٩٢ ـ طلب الأمان منه .
٩٣ ـ الإستعانة به .
٩٤ ـ التعرّض لنفحات برّه .
٩٥ ـ استقلال العمل في سبيله .
٩٦ ـ استلهام الأفكار منه .
٩٧ ـ الإيمان بغيبه .
٩٨ ـ تقديسه .
٩٩ ـ الأُنس به .
١٠٠ ـ التمسّك بعروة عطفه .
١٠١ ـ طلب التّزهيد في الدّنيا منه .
١٠٢ ـ حسن الإرتباط والتّعامل معه .

وهكذا فلكي نحسن معاملة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومن ثمّ معاملتنا أنفسنا ، والنّاس ، واجبنا التزام هذه القواعد ، والإستقامة عليها .

التعامل مع النفس

قال الإمام عليّ (ع) :

« رأس الدّين مخالفة الهوى »[٢٥] .

يهتمّ الدّين اهتماماً بالغاً بالنّفس الإنسانية وتهذيبها وتزكيتها ، وذلك لأنّها منطلق الأعمال والممارسات ، فإذا صلحت ، صلحت حياة الإنسان ، وصلُح تقدّمُه ورقيُّه وحضارتُه . وهذا ما يميّز الدّين عن العقائد والأيديولوجيّات الأخرى التي تؤمن برقيّ المجتمعات وتقدّمها وتهمل الإهتمام بالنّفس الإنسانية وتقويمها .

والأزمة الأخلاقية السلوكيّة التي تعيشها المجتمعات الغربيّة والماديّة والمتغرِّبة ، هي نتيجة البعد عن الدّين ، أو بقاء رسمه في النّفس فقط . وإذ غاب الدّين في هذه المجتمعات ، أُطلقت الحرّية للنّفس لكي تفعل ما تشاء وتريد ، وحدث ما حدث ويحدث ، ولا نجاة لتلك المجتمعات إلّا بالعودة الى الدّين .

ومن هنا فإنّ من أولّيات الدّين والإلتزام به : تهيئة النّفس ، بتهذيبها ، وإصلاحها ، ومجاهدتها ، وحملها على مقتضى العقل والحكمة والتّقوى والأخلاق ، ونهيها عن الأهواء الباطلة ، وبعبارة أخرى : حسن التّعامل معها .

إنّ حسن التّعامل مع النّفس قاعدة أوّلية لحسن التّعامل مع النّاس ، وقبل ذلك هو قاعدة رئيسة في التزام الدّين ، وأمر يضمن نجاح الإنسان وسعادته ، في دنياه وآخرته .

فهلّا يحسن المرء معاملة نفسه ، ولا يسيء إليها؟

---

(٢٥) مكارم الأخلاق ، ص ٤١٩ .

لا تسئ إلى أحب الناس إليك

« فتح أبو ذر الرّسالة التي وصلته ، فوجدها قادمة من مكان بعيد ، ومن رجلٍ يعرف أبا ذرّ وشخصّيته ، ومكانته من النّبيّ (ص) ، واطّلاعه الواسع بأحاديث الرّسول (ص) وحِكمه ، ولذا فهو يطلب في رسالته ، نصيحةً من أبي ذرّ ، جامعة » .

وعندما انتهى أبو ذرّ من قراءة الرسالة ، كتب في جوابها :

« لا تُعادِ أحبّ النّاس إليك ، ولا تُسيء إليه » .

فلمّا وصل الجواب إلى الرّجل وقرأه ، لم يفهم منه شيئاً ، فتساءل في نفسه : ماذا يريد أبو ذرّ بهذا : « لا تعادِ أحبّ النّاس إليك » ؟

إنّ هذا ـ لعمري ! ـ من أوضح الواضحات ، أفيُعقل أن يعادي الإنسان أحبّ محبوب لديه ، وأن يسيء إليه ؟ فالذي أدريه أنّه لا يسيء إليه فحسب ، بل ويفديه بماله وروحه .

ثمّ فكّر في نفسه وقال :

يجب أن لا أنسى شخصّية كاتب هذه الوصيّة (أبو ذرّ) ، إنّه لقمان هذه الأمّة وحكيمها ، فلأطلب منه توضيحاً لما أوصاني به . فكتب إليه رسالة أخرى ، طالباً منه توضيح ما كتب .

فكتب أبو ذرّ في الجواب :

إنّ مقصودي من أحبّ وأعزّ الأشخاص لديك هو (نفسك) ، ولست أقصد شخصاً آخر ، فأنت تحبُّ نفسك أكثر ممّا تُحبُّ الآخرين ، ولذلك قلت لك : « لا تُسيء إلى أحبّ الناس إليك » ، ومعناه : أن لا تُسيء إلى نفسك ، ألا تعلم بأنّ كلّ ذنب وكل جُرم يرتكبه الإنسان يعود ضرره على نفسه ؟ »[٢٦] .

* * *

(٢٦) الشّهيد مرتضى المطهرى : قصص الأبرار ، ج١ .

بين معاملة النفس ومعاملة الناس

قد يتساءل البعض :

في موضوع التّعامل مع النّاس ، هل هناك علاقة ارتباط بين هذا التّعامل وبين التّعامل مع النّفس ؟

وهل هناك فاصل بين الإنسان ، ونفسه ؟

وأليس الإنسان هو نفسه ؟

وتكون الإجابة على ذلك كالتّالي :

إنّ نفس الإنسان جوهرة ثمينة ، وهي أوّل النّاس واقربهم بالنّسبة له ، بلا ترديد . وهي أشبه شيء بالدّابة الجامحة المستعصية ، التي تريد أن يُطلق لها العنان ، فترتكب ما يحلو لها من الأعمال ، والأفعال ، والمعاصي ، والذّنوب ، والأخطاء . والعقل المؤدّب ـ الذي هو قوام الدّين ونظامه وعماده ـ هو ذلك العقال ، أو اللّجام الذي يمنعها من الإنطلاق والإنفلات في طريق الهوى والضّلال وممارسة الأخطاء ، وبالتالي إبقاءها ضمن حظيرة الدّين .

يقول الرسول الأعظم (ص) :

« أعدى عدوّك ، نفسك التي بين جنبيك »[٢٧] .

وبما أنّ النّفس هي ألدّ الأعداء بالنّسبة للإنسان ـ مع أنها أحبّ النّاس إليه ـ فهي يجب ان تُجاهَد ، ومتى ما جُوهدت ، تمكّن المرءُ أن يجعل منها مطيّة ومركباً للخير ، واستطاع أن يختار لها ما يحب ويحسن العمل به من الخير والصّلاح والطاعة والفضيلة ، وترك ما يجب أن تنتهي عنه من الشرّ والفساد والفجور والرّذيلة .

يقول تعالى :

﴿ ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكّاها ، وقد

---

(٢٧) ميزان الحكمة ، ج٦ ، ص ٩٥ .

خاب من دسّاها ﴾[٢٨] .

ومتى ما طهّر الإنسان نفسه وهذّبها وقوّمها ، وجعلها تحت إمارة العقل والدّين وتقوى الله ، استطاع أن يهيّء الأرضية الصّالحة لعمله وتصرّفه في جميع مجالات الحياة وميادينه ، وتمكّن من ضمان الإستقامة فيها . ومن تلك الميادين الهامّة ، وأوسعها ، ميدان التّعامل مع النّاس ومعاشرتهم ، هذا التّعامل الذي يدخل طرفاً أساسّياً في جميع أنواع المعاملات بين أفراد النّوع الإنساني بلا استثناء . فالإنسان سواء كان في بيته ، أو في موقع عمله : في الإدارة ، أو المؤسسة ، أو المتجر ، أو المصنع ، أو الحقل ، أو في الشارع ، أو في أيّ مكان آخر ، هو يعاشر الآخرين ويتعامل معهم ، وهذا التّعامل ينبغي له أن يكون حسناً وقويماً ، وقائماً ، على أساس الحق والخير والصلاح والفضيلة .

وميدان التّعامل مع النّاس هو من أبرز الميادين التي تختبر فيها نفس الإنسان . وهو يعتمد على إصلاح النّفس وتهذيبها وتزكيتها . فمن يزّكي نفسه ويهذّبها ويصلحها ، يصبح مؤهّلاً لأن يتعامل مع النّاس بشكل حسن وناجح ، ومن لا يزّكيها ولا يهذّبها ولا يصلحها ، لا يصبح مؤهلاً لذلك بطبيعة الحال .

وقد يقول قائل :

يبدو أن لا علاقة بين إصلاح النّفس وبين التّعامل مع النّاس ، إذ هناك أناس فسقة ، وفجّار ، ويرتكبون الموبقات والكبائر كالزّنا ، وشرب الخمر ، والسّرقة ، ولعب القمار ، وغير ذلك ، ولكنّهم يتعاملون مع النّاس بشكل جيّد ، فيحترمونهم ، ويقدّرونهم ولا يسيئون إليهم .

والرّد على ذلك :

إنّ ممارسة الفسوق والفجور والموبقات هي في حدّ ذاتها إساءة من الإنسان الى الإنسان ، وخصوصاً تلك الممارسات التي تأخذ الطّبع الإجتماعي . وقبل كلّ شيء إنّ ممارسة الموبقات والسّيئات هي الإساءة العظمى في تعامل الإنسان مع خالقه ـ جلّ وعلا ـ ، وإساءة الى نفسه .

---

(٢٨) ٧ ـ ١٠ / الشمس . دسّاها : أفسدها وأغواها ، و أخملها وأخسّ حظّها .

ونادراً ما يتعامل الشرّيرون وأهل السّوء والفسقة والفجّار مع النّاس بصورة حسنة ، لأنّ كيان شخصيّاتهم يقوم على السّوء ، وإذا وجد فيهم من يحترم النّاس ولا يسيء إليهم ، فذلك لوجود بقايا الفطرة والوجدان ، أو أن حالة العصيان مقصورة على النّفس دون ربطها بالتّعامل مع الآخرين ، إلّا أنّ حالة العصيان والإنحراف مهما قُصِرت على النّفس ، فإنّ آثارها الاجتماعية السّلبية تظهر من خلال التّعامل مع الآخرين ، الأمر الذي يؤكد أنّ إصلاح النّفس (الواقع الدّاخلي) هو الأرضية السّليمة لإصلاح جميع أعمال الإنسان وتصرفاته وسلوكيّاته في الواقع الخارجي .

الأمر الآخر : لا يُضمن استمرار حسنِ التّعامل ، مع سوء النّفس(*) ، ولا يكفي أن تكون علاقة الإنسان بالنّاس حسنة ، بينما علاقته مع نفسه سيئة ، فمثل الذي يُحسن التّعامل مع الآخرين ويسيء التّعامل والعشرة مع نفسه ، كمثل الذي يعطي المعروف للأبعدين ، وينسى الأقربين له ، بينما القاعدة تقول « الأقربون أولى بالمعروف » . وحيث أنّ النّفس هي أقرب المقرّبين له ، وأحبّ المحبوبين بالنسبة إليه ، أفلا يكون من حقّ الحبيب أن يُتعامل معه بشكل يليق بمنزلته ومكانته ؟ .

والسؤال هو :

كيف يجب أن يكون التّعامل مع هذا الحبيب ؟

وكيف يمكن للإنسان ، إحسان التّعامل والعشرة معه ، لكي يحسن التّعامل والعشرة مع النّاس ، ولكي يُحسن جميع تصرّفاته في الحياة ؟ .

مجاهدة النفس

بعث رسول الله (ص) سريّةً ، فلما رجعوا قال : « مرحباً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر ، وبقي عليهم الجهاد الأكبر » .

(*) هذا على افتراض اجتماع سوء النفس ، وحسن التعامل . والحق أنّ سوء النفس وفسادها هو الطريق الى سوء التعامل في الواقع الخارجي .

قيل : يا رسول الله ! وما الجهاد الأكبر ؟!

قال : « جهاد النّفس » .

ثم قال (ص) : « أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه »[٢٩] .

* * *

كانت اللّيلة ليلة أُمّ سلمة ، فذهب النّبي (ص) إلى بيتها ليقضي ليلته هناك . وعندما أسدل الظلام سدوله ، وضرب السّكون سُرادِقِه[*] على البيت ، نهض النّبيّ (ص) من فراشه دون أن تحس به أم سلمة ، وانتحى زاوية من البيت . فلما انتبهت ، دُهشت لعدم وجوده على الفراش ، فداخلها ما يُداخل النّساء عادةً ، فهبّت تطلبه في جوانب البيت ، فألفته قائماً في زاوية منه ، يدعو ويبكي ، ويقول :

« اللهمّ لا تنزع منيّ صالح ما أعطيتني ابداً ، اللهمّ لا تُشمتِ بي عدوّاً ولا حاسداً أبداً ، اللهمّ لا تردّني في سوءٍ استنقذتني منه أبداً ، اللهمّ ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً » .

فاثرت فيها حالة الرسّول تلك تأثيراً شديداً ، فانفجرت باكية ، فانتبه النبيّ (ص) لبكائها ، فذهب إليها ، وسألها : « ما يُبكيكِ » ؟

فأجابت : لم لا ابكي ؟!

أنت بالمكان الذي أنت به من الله ، ومع هذا تسأله أن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبداً ، فكيف بي ؟

فقال (ص) :

« يا أُمّ سلمة ، وما يؤمنني وقد وكل الله يونس بن متّى إلى نفسه طرفة عين ، وكان منه ما كان »[٣٠] ؟

---

(٢٩) بحار الأنوار ، ج٧٠ ، ص٦٥ .

(*) السُرادِق : الخيمة ، أو الفسطاط الذي يُمدّ فوق صحن البيت .

(٣٠) قصص الأبرار ، ج١ .

هكذا يعلّمنا رسول الله (ص) كيفيّة التّعامل مع النّفس ، فلكي لا يكلنا الله إلى أنفسنا ، يلزم لنا أن نجاهدها كما لو كانت عدواً بالنّسبة لنا .

أرايت الواحد منّا كيف يتعامل مع عدوٍّ له ويجاهده ؟

إنّه يعدّ ما استطاع من قوّة ، وإرادة ، ويترصّد بالعدوّ أي ثغرة لكي يهجم عليه ، وأيّ ثغرةٍ يحاول النّفوذ والهجوم منها ، ويستخدم الذّكاء والحذاقة في إلحاق الهزيمة به . وهكذا الحال بالنّسبة للنّفس ، فهي يجب أن تعامل وتجابه بالقوّة والشّدة ، لا باللين والميوعة . ومن صور هذا التّعامل : إجهادها وعدم الرّفق بها ، والرّدّ منها عند الشّهوات ، وتجنّب خدعها ، وعدم تحقيق لها ما يكرهه العقل ، واختيار اصعب الأعمال ، إذ أنّ أفضل الأعمال ما أُكرِهت النّفس عليه .

يقول الإمام عليّ (ع) في وصف المتّقي :

« إن استصعبتْ عليه نفسه فيما تكره ، لم يُعطِها سؤلها فيما هوِيَت »[٣١].

ومتى ما جاهد الإنسان نفسه ، تمكّن من خلق الأرضية السّليمة لتحقيق الفلاح في الدّار الآخرة ، والدّار الدّنيا ، وأصبح لِبنة صالحة في الاجتماع ، وكان بوسعه أن يتعامل مع الله ، ومع عباد الله بوجه يرضيه ـ سبحانه وتعالى ـ .

أما عن كيفيّة مجاهدة النّفس ، فمن أبرز وجوه ذلك : نهيها عن أهوائها الباطلة .

نهي النفس عن هواها

قال الإمام الصّادق (ع) في حديث طويل :

« من اتّبع هواه وأُعجب برأيه ، كان كالرّجل الذي اشتهر بين العامّة من النّاس بالخير ، والإحسان إلى الآخرين ، فكانوا يعظّمونه ويبجّلونه ، وكان ذكره يتردّد على الألسن ، والمدح والثّناء يُزجى إليه من كلّ حدبٍ وصوب ، وكانت شهرته بالتّقوى والصّلاح قد طغت حتّى فاضت بها القلوب والأفواه » .

---

(٣١) نهج البلاغة .

« أمّا الكلام عن شرفه وسخائه ، فقد كان يدور في كلّ نادٍ ، ويتكرّر في كل مجلس . فاحببت أن أشاهده عن كثب ، ومن حيث لا يعرفني .

وذات يوم رأيته وقد احدق به خلق كثير ، فدنوت منه متنكراً ، فوجدت النّاس مسحورين به ، وهو ما يزال يراوغهم حتّى فارقهم . فتبعته من حيث لا يعلم ، كي أعرف أيّ طريق يسلك ، وايّ مكان يريد ، وماذا يفعل ، وما هي الأعمال الحسنة التي يقوم بها ؟ .

« وبعد برهةٍ رأيته يقف أمام حانوت خبّاز ، وما هي إلّا لحظة حتّى انتهز فرصة انشغال صاحب الحانوت ، فتناول رغيفين ، وأخذ طريقه . فتعجبت منه ، وقلت في نفسي : لعلّه قد اشتراها سابقاً ، ودفع ثمنها سلفاً ، أو أنّه سيدفعه آجلاً . ثمّ قلت في نفسي : إذا كان قد اشتراها ، فلماذا اغتنم فرصة إنشغال صاحب الحانوت ؟! .

« ثمّ لم أزل أُتابعه ، وأنا في خضم هذا الفكر ، حتّى مرّ ببائع رمّان ، فتوقّف عنده هنيهة ، وما زال يراقبه حتّى تغفّله ، وأخذ منه رمانتين ، وتابع سيره . فدُهِشت لأمره ، وقلت في نفسي : لعلّه قد اشتراها أيضاً . ثم تساءلت : ولكن لماذا أخذ الرّمّانتين في غفلةٍ من بائع الرّمان ؟! .

« ثمّ لم أزل أُتابعه حتّى مرّ بمريض ، هنا بلغ عجبي منتهاه عندما وجدته يضع الرّغيفين والرُّمّانتين بين يديه . وهنا اقتربتُ منه ، وقلت له : أنا رأيت منك عملاً عجيباً ، وبيّنت له كلّ ما شاهدته منه ، وسألته أن يوضح لي ذلك ، فنظر إليّ ، وقال : ألستَ جعفر بن محمد ؟ .

« ـ بلى ، حدسك صحيح ، أنا جعفر بن محمد .

« فقال : أنت ابن رسول الله ، ولك حسب ونسب اصيل ، ولكن ما ينفعك شرف أصلك من جهلك ؟

« فقلت : ايّ جهل رأيته منّي ؟

« قال : جهلتَ قول الله ـ عزّ وجل ـ : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ،

ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلاّ مثلها ﴾ ، وإنّي لمّا سرقتُ الرّغيفين كنت قد اقترفت سيئتين ، ولما سرقت الرُّمّانتين كنت قد اقترفت سيئتين أيضاً ، فهذه أربع سيّئات ، فلمّا تصدّقت بكلّ واحدة منها ، كان لي اربعون حسنة ، فانتقص من أربعين حسنة اربع سيّئات ، فيبقى لي ست وثلاثون حسنة .

« فقلت له : ثكلتك أمُّك ، أنت الجاهل بكتاب الله ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ إنّما يتقبّل الله من المتّقين ﴾ ؟ . إنّك لمّا سرقت رغيفين كانا سيّئتين ، ولمّا سرقت الرُّمانتين كانتا ـ أيضاً ـ سيّئتين ، ولمّا دفعتها إلى غير صاحبها ، وبغير أمر صاحبها ، كنت قد اضفت أربع سيّئات ، ولم تضِف اربعين حسنة إلى اربع سيّئات .

« قال الإمام (ع) :

« وتركته وهو على هذه الحال يلاحقني ببصره ، وانصرفت .

« وعندما انتهى الإمام (ع) من نقل هذه القصّة إلى أصحابه ، توجّه إليهم ، وقال : بمثل هذا التّأويل القبيح المستنكر يضلُّون ويُضِلّون »(*) .

* * *

يقول تعالى :

﴿ وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى ﴾[٣٢] .

قد يسأل السّائل :

ما الهوى ؟

الهوى : هو الحبّ بالمعنى السّلبي ، والإفراط في حبّ الذّات ، وكلّ ما من شأنه جعل النّفس تخالف هدى العقل والدّين وتسير في خطّ الشّهوات . إنّ من طبيعة الإنسان أنّه يحبّ ذاته ، إلاّ أنّ هذا الحبّ يجب أن يكون معتدلاً ، لا

(*) وسائل الشيعة ، ج ٢ ص ٥٧ .

(٣٢) ٤٠ــ٤١ / النّازعات .

مفرِطاً . ومتى ما افرط الإنسان في حبّ ذاته ، أصبح أنانياً ، ومتى أصبح كذلك ، فإنّه يفعل كلّ ما من شأنه خدمة الذّات والتذاذها دون النّظر إلى مراقبة الله ـ تعالى ـ ، ودون النّظر إلى النّاس وإعطائهم حقوقهم ، ومعاملتهم بالتي هي أحسن .

وكقاعدة عامّة في نهي النّفس عن هواها : في أيّ عمل يريد المرء القيام به ، أو في أيّ خطوة يريد خطوها ، لينظر إذا كانت نفسه تتّجه إلى العمل وفق ما يأمر به الله والعقل ، فليعمل ذلك لأنّه طاعة لله ، وخلاف هوى نفسه . وإذا كانت تتّجه إلى مخالفة ما يأمر به الله والعقل فذلك هو الهوى ، ويجب أن يخالفه .

فعلى سبيل المثال :

إنّ نفس الإنسان قد تدعوه لإساءة الظنّ بفلان المؤمن لأنّه قال كلمةً فيه . فمخالفة هوى نفسه تقتضي أن يحافظ على ثقته بأخيه والصّورة الحسنة له ، وأن يتصرّف وفق هدى الرّب والعقل ، فهما يوجّهانه إلى أن لا يظننّ كلمة خرجت من أخيه سوءاً ، وهو يجد لها في الخير محتملاً .

مثال آخر :

وقد يمن الله على أخٍ للإنسان بنعمة ، فتسوّل له نفسه أن يتمنّى زوال النّعمة عن أخيه وانتقالها إليه . فمخالفة الهوى تقتضي أن يفرح الإنسان ، ويُسرّ ، وأن يشكر الله على أنعامه على أخيه بهذه النّعمة ، ويسأله ـ عزّ وجلّ ـ أن يديم النّعم عليه ، لا أن يتمنّى زوالها عنه .

مثال ثالث :

وقد يتناقش المرء مع طرفٍ آخر ، فيتبينّ للأوّل خطأ ـ الآخر ، فيصرّ على أنّه ليس مخطئاً ـ وانّما هو مصيب ، وهذا تعصّب للذّات واتّباع لهواها ، ومخالفته تقتضي أن يسلّم بخطأه إذا كان مُخطئاً .

ومخالفة الهوى ، ونهي النّفس عنه ، قاعدة يجب على الإنسان أن يقيم نفسه عليها في جميع جوانب حياته ـ ومنها تعامله مع النّاس ـ إذ الشيطان قد يدخل إلى

نفسه من أتفه القضايا وأبسطها ، ويزّين له طريق الهوى . وبمعرفة هذه القاعدة الأساسية ـ وهي مخالفة هوى النّفس ـ وتطبيقها ، يتمكن الإنسان من حسن تعامله مع ربه ، ومع نفسه ، ومع النّاس . ومتى ما خالف هواه ، انعكست آثار ذلك على جميع جوانب حياته ، ومن تلك الجوانب ، التّعامل مع النّاس والعشرة معهم . فمن يخالف هواه تكن معاملته للنّاس قائمةً على استخدام العدل و الإنصاف معهم ، وإعطائهم حقوقهم ، وتقديرهم ، واحترامهم ، والتّواضع لهم ، وفعل كلّ ما من شأنه الإسهام في إحسان معاملتهم . ومعرفة حقّ النّفس ، والتزام حدود ذلك من أهمّ الأسس التي تضمن مخالفتها لهواها .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« أوصيكم بمجانبة الهوى ، فإنّ الهوى يدعو إلى العمى ، وهو الضّلال في الآخرة والدّنيا »(٣٣)

ويقول (ع) أيضاً :

« خالف الهوى تسلم »(٣٤)

ويقول (ع) :

« ردع النّفس عن الهوى الجهاد الاكبر »(٣٥) .

معرفة حق النفس

« كان مالك الأشتر ضخم الجثّة ، طويل القامة ، يرتدي قميصاً وعمّة ، قد طبعت الحرب على وجهه آثارها ، وعلمّته بعلائمها ، وحكت عن بطولاته في ميادينها بتقاسيم وجهه .

« بينما كان يمشي ذات يوم في سوق الكوفة ، وإذا باحد السّوقة تحدّثه نفسه بالإزدراء به والإستهزاء بزيِّه ، فرماه ببندقة ، وبدون أن يعيره الأشتر إلتفاتاً ،

(٣٣) مستدرك الوسائل ، ج٢ ، ص٣٤٥ .
(٣٤) الغرر والدّرر .
(٣٥) المصدر السابق .

واصل السّير حتّى توارى عن الأنظار .

« عندها قيل المسّوقي : ويحك ، أتعرف من رميت ؟!

« ـ لا ، لم اعرفه ، عابر مثل آلاف المارّة .

« ـ إنّه مالك الأشتر النّخعي ، صاحب أمير المؤمنين (عليّ بن أبي طالب) وقائد جيشه .

« ـ أهذا هو مالك الذي ترتعد فرائص الأسد خوفاً منه ، ويرتجف العدوّ من إسمه ؟!

« ـ نعم ، هو بعينه .

« فهرول الرّجل من ساعته راكضاً خلف مالك ليعتذر إليه عمّا بدر منه . إلاّ أنّ مالكاً كان قد دخل أحد المساجد ، فلمّا وصل الرّجل وجده قائماً يصلّي . فلما انتهى من صلاته ، انكبّ الرّجل على قدميه يقبّلهما .

« فقال له مالك : ما هذا ؟

« ـ أعتذر إليك عمّا صدر منّي ، أنا الذي استهزأت بك وتجرأت عليك !

« ـ لا بأس عليك ، فوالله ، ما دخلت المسجد إلاّ لأستغفرنّ لك »[٣٦] .

* * *

تقدّم هذه القصّة التي نُقِشت كلماتها في صفحات التّاريخ ، درساً في جانب احترام النّاس ، وعدم السّخرية بهم ، واجتناب ازدرائهم وإيذائهم ، وفي الحلم والتّسامح معهم ، وعدم مقابلة الإيذاء بالإيذاء ، ومقابلته بالعفو والصّفح . وبمراجعة الأسباب وراء إساءة معاملة النّاس ، يتبينّ أنّ الإبتعاد عن العدالة مع النّفس ، هي من أهمّها . إذ من حق النّفس على الإنسان أن يجعل كلّ جوانب تصرّفاته في الحياة ـ ومنها تعامله مع النّاس ـ مرضية لله بلسانه ، وسمعه ، وبصره ، ويده ، ورجله ، وبطنه ، وفرجه ، لأنّ إيذائهم ذو جانبين :

---

(٣٦) سفينة البحار ، مادّة شتر ، ص ٦٨٦ .

إيذائهم من جانب ، وإيذاء لنفسه بهضمه حقوقها من جانب آخر .

يقول الإمام زين العابدين (ع) عن حقّ النّفس ، في رسالة الحقوق :

« وحقّ نفسك عليك : أن تستعملها بطاعة الله (عزّ وجلّ) .

« وحقّ اللسان : إكرامه عن الخنى(*) ، وتعويده الخير ، وترك الفضول التي لا فائدة لها ، والبرّ بالنّاس ، وحسن القول فيهم .

« وحقّ السّمع : تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لايحلّ سماعه .

« وحقّ البصر : أن تغضّه عمّا لا يحلّ لك ، وتعتبر بالنّظر به .

« وحقّ يدك : أن لا تبسطها إلى ما لا يحلّ لك .

« وحقّ رجليك : أن لا تمشي بهما إلى ما لا يحلّ لك ، فبهما تقف على الصِّراط ، فانظر أن لا تزلّ بك فتتردّى في النّار .

« وحقّ بطنك : أن لا تجعله وعاءاً للحرام ، ولا تزيد على الشّبع .

« وحقّ فرجك : أن تحصنه عن الزّنا ، وتحفظه من أن يُنظر إليه »(٣٧) .

ومعرفة حقّ النّفس تتطلّب معرفة النّفس ذاتها ، فمن لا يعرف نفسه حقّ المعرفة ، لا يستطيع أن يكون عادلاً معها فيعطيها حقوقها . ومتى ما عرف الإنسان نفسه سُهل عليه أن يعرف غيره ، وإذا ماأحسن تعامله مع نفسه ، فإنّه يحسن معاملة الآخرين .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« من عرف نفسه كان لغيره أعرف »(٣٨) .

فلكي يعرف المرء الآخرين ويحسن معاملتهم ، هلاّ يعرف نفسه ، واقرب الأقربين بالنسبة إليه ؟

(*) الخنى : الفحش في الكلام .

(٣٧) مكارم الأخلاق ، ص٤١٩ .

(٣٨) ميزان الحكمة ، ج٦ ، ص١٤١ .

وهلّا يراقبها ويحاسبها على ما تأتي به من أفعال وتصرّفات ؟ .

مراقبة النفس ومحاسبتها .

« جاء رجل إلى النّبيّ « محمّد » (ص) ، وشكا إليه أذىً من جاره ، فقال له النّبيّ (ص) : إصبر لعلّه يغيّر طريقته . وبعدها جاءه مرّة ثانية ، فقال له النّبيّ (ص) : إصبر ! .

« ثمّ جاء مرّة ثالثة ، فقال له النّبيّ : إذا كان يوم الجمعة ، أخرج أثاث بيتك ، وضعه على قارعة الطّريق ، حتّى يراه من يذهب لصلاة الجمعة ، فإذا سألوك ، فأخبرهم بالخبر . ففعل الرّجل بوصيّة الرّسول (ص) ، فأتاه جاره معتذراً ، وقال له : ردَّ متاعك إلى بيتك ، فلك الله عليَّ أن لا اعود »(٣٩) .

* * *

يقول الإمام عليّ (ع) :

« إجعل من نفسك على نفسك رقيبا ، . . . »(٤٠) .

الحقيقة التي يجب أن يأخذها كلّ إنسان ببالغ الإهتمام والإعتبار أنّ أفعاله وتصرّفاته خاضعة لمراقبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذه المراقبة توجب ضرورة مراقبة النّفس لذاتها ومحاسبتها .

قال تعالى :

﴿ إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾(٤١)

وقال سبحانه :

﴿ وكان الله على كلّ شيء رقيباً ﴾(٤٢) .

وجاء في الدّعاء الذّي علّمه الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) لكميل بن زياد :

---

(٣٩) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٦٦٨ ، باب حقّ الجوار .

(٤٠) الغرروالدّرر .

(٤١) ١ / النّساء .

(٤٢) ٥٢ / الأحزاب .

« ... فاسألك بالقدرة التي قدّرتها ، وبالقضيّة التي حتمتها وحكمتها ، وغلبت من عليه أجريتها ، أن تهب لي في هذه الليلة وفي هذه السّاعة كلّ جرمٍ أجرمته ، وكلّ ذنبٍ أذنبته ، وكلّ قبيحٍ أسررته ، وكلّ جهلٍ عملته ، كتمته أو اعلنته ، أخفيته أو أظهرته ، وكلّ سيئة أمرت بها الكرام الكاتبين الذين وكّلتهم بحفظ ما يكون ، وجعلتهم شهوداً عليّ مع جوارحي ، وكنت أنت الرّقيب عليَّ من ورائهم ، والشّاهد لما خفي عنهم ... »[٤٣] .

أرأيت الواحد منّا كيف يراقب الآخرين ، ويحاسبهم على ما يفعلونه من أعمال وتصرّفات ترتبط به ، فيكون دقيقاً معهم ؟ إنّ هذه الحالة يجب أن تُمارس ـ في الدّرجة الأولى ـ مع النّفس والذّات ، بجعلها أوّل المراقَبين والمحاسَبين . إنّ المرء إذا كان له شريك في عمل أو ملك ، أو مال فإنّه يحاسبه بدّقة ، وإذا كان له خصم فإنّه يطالبه بأداء حقوقه كاملة غير منقوصة ، فهلّا تعاملنا مع أنفسنا على هذا المنوال ؟ إنّ حبّ الذّات ، والخضوع لأهوائها يجعلان الإنسان يستهين بأخطائه ، وقد لا يعتبرها أخطاءاً ، فهلّا نكون منصفين مع أنفسنا ؟ .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« جاهد نفسك ، وحاسبها محاسبة الشّريك شريكه ، وطالبها بحقوق الله مطالبة الخصم خصمه »[٤٤] .

إنّ نقطة الإنطلاق في معاملة المرءِ ، النّاسَ ، هي نفسه التي بين جنبيه ، إذ عليه أن يحسن معاملتها لكي يحسن معاملة النّاس . ومعاملة النّفس تتمثّل في الإنصاف معها واعطائها حقوقها ، ومجاهدتها ، ومخالفة هواها الباطل ، ومراقبتها ومحاسبتها ، وعلى هذا يقوم صرح نجاح الإنسان وسعادته في الحياة الدّنيا ، والحياة الآخرة . إنّ المرء بمجاهدته لنفسه ومخالفة هواها ومحاسبتها ومراقبتها يحتاج إلى عنصر الصّبر على ذلك ، ويتعرّض لمرارة ومعاناة ، إلّا أنّ هذه المرارة والمعاناة هي متعة يفتقر إليها كلّ من لا يجاهد نفسه ، وهي تؤتي آثاراً يانعة في الدّنيا والآخرة .

---

(٤٣) مفاتيح الجنان .

(٤٤) ميزان الحكمة ، ج٢ ، ص١٤٢ .

ثمرات مجاهدة النّفس

كما النّبتة التي تُراعى حقّ الرّعاية ، تعطي ثمارها ، وكما مجاهدة العدوّ بقوّة وإخلاص تعطي انتصاراً ، كذلك فإنّ مجاهدة النّفس ، وحسن التّعامل والعشرة معها تعطي آثاراً وثمرات تنعكس على الإنسان وتصرّفاته وسلوكه في الواقع الدّاخلي والخارجي . ومن تلك الآثار والثّمرات ما يلي :

١ ـ كمال العقل .

٢ ـ استكمال ثواب الرّب .

٣ ـ قهر النّفس .

٤ ـ تزكيتها وتطهيرها .

٥ ـ ملكها .

٦ ـ زمّها عن المعاصي(*) .

٧ ـ عصمتها في موارد الشرّ .

٨ ـ ردعها .

٩ ـ انطلاقها في الخير والحقّ .

١٠ ـ ارتفاع الدّرجة .

١١ ـ الصّلاح .

١٢ ـ التغلّب على العادات السيّئة .

١٣ ـ التحلّي بالأخلاق والعادات الحسنة .

١٤ ـ حلول الحكمة .

١٥ ـ فرار الشّيطان .

١٦ ـ إكمال التّقى .

١٧ ـ حسن المعاملة مع النّاس .

ويمكن بيان سلسلة من قواعد التّعامل والعشرة مع النّفس فيما يلي :

(*) زمّ : ربط وشدّ . زمّ البعير : خطمه . والمقصود ربط النّفس وشدّها عن المعاصي وحبسها عنها .

١ ـ ملازمة تقوى الله والورع عن محارمه
٢ ـ مجاهدة النّفس ، ونهيها عن هواها .
٣ ـ مراقبتها .
٤ ـ محاسبتها ولومها .
٥ ـ إصلاح سريرتها .
٦ ـ إصلاح علانيتها .
٧ ـ اختيار الخير .
٨ ـ ترك الباطل .
٩ ـ لزوم العقل .
١٠ ـ جهادها بالعلم .
١١ ـ عدم ائتمانها .
١٢ ـ تجنّب جِذَعِها .
١٣ ـ سياستها (حسن قيادتها) .
١٤ ـ رياضتها (ترويضها على طاعة الله) .
١٥ ـ تنزيهها عن الفجور والشّر .
١٦ ـ استدراك فسادها .
١٧ ـ الاشتغال بعيوبها .
١٨ ـ ذمّها .
١٩ ـ عدم الرّضا عنها .
٢٠ ـ الإستعانة بالحقّ عليها .
٢١ ـ تعاهد النّقص فيها .
٢٢ ـ إجهادها وعدم الرّفق بها .
٢٣ ـ عدم التّسامح معها .
٢٤ ـ عدم ظلمها .
٢٥ ـ عدم غشّها .
٢٦ ـ عدم إضلالها .

٢٧ ـ الردّ منها عند الشّهوات .
٢٨ ـ إقامتها على كتاب الله عند الشّبهات .
٢٩ ـ تهذيبها وتأديبها .
٣٠ ـ ترك العادات السّيئة .
٣١ ـ التحلّي بالأخلاق الفاضلة .
٣٢ ـ تجنّب مخالطة أبناء الدّنيا وقرناء السّوء .
٣٣ ـ أن يكون الإنسان ، نفسَه .
٣٤ ـ معرفة النّفس .
٣٥ ـ أن يكون الإنسان طبيب نفسه وواقيها ومعالجها .
٣٦ ـ تقبّل النّقد البنّاء من الآخرين .
٣٧ ـ نقدها (النّقد الذّاتيّ) .

وهكذا فلكي نحسن التّصرف في الحياة ، والتّعامل مع النّاس ، واجبنا أن نحسن معاملة خالقنا ، بالتزام دينه ، وإصلاح أمر آخرتنا لكي نصلح أمر دنيانا ، ثمّ إقامتها على أساس الدّين . وبكلمة : أن نجعل الدّين أساساً لكلّ تصرّفاتنا وأعمالنا ومعاملاتنا .

الأساس الثاني : العقل

قال تعالى :

﴿ وما يذّكّر إلّا أولو الألباب ﴾[٤٥] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« العقل أقوى أساس »[٤٦] .

وقال (ع) أيضاً :

« قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له »[٤٧] .

يكفي في الإشارة إلى عظمة العقل ، أنّه أوّل وأحسن وأكرم مخاوق خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو مخاوق روحانيّ ، وأنّ الدّين يقوم عليه . ولبالغ ضرورته للإنسان ، فإنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل من المهمّات الأولى في رسالات الأنبياء ، إثارة دفائن عقول النّاس لكي يستضيئوا بها في حياتهم ، ويسيروا على هديها .

قال الإمام الباقر (ع) :

« لما خلق الله العقل استنطقه ، ثمّ قال له : أقبل ، فأقبل ، ثمّ قال له : أدبر

(٤٥) ٢٦٩ / البقرة .

(٤٦) الغرر والدّرر .

(٤٧) بحار الأنوار ، ج١ ، ص٩٤ .

فأدبر ، فقال : وعزّتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً أحسن منك ، وإيّاك آمر وإياك أنهي ، وإيّاك أثيب وإيّاك أعاقب »[48] .

إنّ العقل ـ كمال الدّين ـ مثله كمثل النّبراس الذي يضيء في وسط البيت وفي ثناياه ، فإذا ما انطفأ ، بات السّاكنون في دُجُنّة الظلام .

ومن هنا فإنّ الذّين يجيدون استعمال عقولهم ـ وفي الوجوه الصّالحة ـ هم الذّين يعمر حياتهم النّور والضّوء ، بينما الذّين لا يجيدون استعماله ، ويمارسون خلاف ما يأمر ويهدي إليه ، يعيشون في متاهات الضّلال والضّياع ، وهم مدعوّون للعودة إلى عقولهم واستعمالها في الوجوه الصّالحة . بل يمكن القول أن قسماً من المشكلات التي يصطدم بها الإنسان في الواقع الخارجي ، هي بسبب غياب العقل ، أو سوء استعماله .

والعقل هو أساس الدّين ، بل الدّين نتيجة للعقل ، كما تذكر الأحاديث الشريفة : « الدّين والأدب نتيجة العقل »[49] . وإذ أنّ الدّين قائم على العقل ، فإنّ العقل بدوره يحتاج الى الدّين والأدب ، وإلاّ فإنّ العقل إذا لم يتحلَّ بالدّين والأدب ، فإنّه يصبح وسيلة استعمال في الوجوه غير الصّالحة . وهذه من المشكلات الرئيسية ، بل هي أخطر الأزمات الحضارية التي يعيشها الإنسان في العصر الحديث ، إذ العقول تستعمل ولكن دون مراعاة قيد « الوجوه الصّالحة » التي يوجِّه إليها الدّين والأدب . وإذا فقد العقل قيد « العمل في الوجوه الصّالحة » صحّ القول بأنه عُطّل أو اسيء استعماله ، أو لم يُستعمل مُطلقاً .

إنّ العقل أساس لكلّ أمر صالح ، وهو الأساس الرّاسخ الذي يجب أن يُبنى عليه كيان الإنسان وشخصيّته وجميع أعماله وتصرّفاته في الواقع الخارجي ، وهو الأساس لكلّ خيرٍ ، وحقّ ، وصلاحٍ ، وفضيلة .

قال الإمام عليّ (ع) :

---

(٤٨) أصول الكافي ، ج١ ، ص٢٦ .

(٤٩) الغرر والدّرر .

«العقل صلاح كلّ أمر»[٥٠].

وكلّ خطوةٍ يخطوها الإنسان في الحياة هي بحاجة الى استعمال العقل. ومن العقل تأتي الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه، وبه تُسبر أغوارها وتُستخرج. ومن العقل تأتي الأخلاق الفاضلة، والعادات الحسنة.

وبالعقل يُعبد الله ويُطاع وتُحسن معاملته، وبه تعقل النفس وتُلجم، وتُحسن معاملتُها. وبه تُحسن معاملة النّاس، وعليه يقوم صرحها.

ويسأل السائل:

لِمَ كان العقل أساساً أوّليّاً لمعاملة النّاس؟.

وكيف يكون ذلك؟.

وتكون الإجابة على ذلك كالتّالي:

من البداهة الأوليّة أنّ شخصيّة الإنسان تقوم على العقل، إذ هو قوامها ونظامها الذي بدونه ترتبك وتضطرب وربّما تنهار. فالكلّ منّا قد شاهد المجانين أو المتخلّفين عقليّاً، ورأى بأمّ عينه كيف يتصرّفون، ولأنّهم فقدوا العقل، أوأصيبوا باختلالٍ فيه، فقد باتت شخصيّاتهم مرتبكة مضطربة تفتقد القوام والنّظام، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كلّنا يرى بعينه كثيراً من الذين يسيئون العمل والتّصرف، مع أنهم يمتلكون العقل السليم. وسوء تصرّفهم نابع إمّا من جهلهم، وإمّا من مخالفتهم لهدى العقل المؤدب. وما أكثر الذين يمتلكون العقل، ويسيئون استعماله بتوظيفه في غير الوجوه الصّالحة.

إنّ فاقد العقل معذور، لأنّه لا عقل له، والجاهل بإمكانه أن يتعلّم ويسير على هدى العقل، ولكن كيف يُعذر من يمتلك العقل ويتصرّف ويمارس خلافه؟.

وحيث أنّ معاملة النّاس تمثل جزءاً كبيراً لا يستهان به من أمور الإنسان وتصرفاته، وأنّ هذه الأمور والتصرّفات لا يصلح حالها إلّا باستعمال العقل، فإنّ

---

(٥٠) الغرر والدّرر.

معاملة النّاس ـ بدورها ـ لا تُصلح ولا تُحسن إلاّ باستعماله أيضاً . إذ أنّ العقل هو الذي يضمن إنصاف الإنسان من نفسه ، وإنصاف الآخرين بحفظ حقوقهم وعدم التعدّي عليها ، وهو الذي يضمن حبّ الإنسان لأخيه الإنسان ، وإحترامه ووده له ، والتزام الآداب والأخلاق الحسنة في التّعامل معه ، وبالتّالي إحسان معاملته .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« رأس العقل ـ بعد الدّين ـ التودّد إلى النّاس ، واصطناع الخير إلى كلّ برٍّ وفاجر »[٥١] .

إنّ مقدّمة العقل ، التزام الدّين ، لأنّ الدّين هو الذي يضمن له أن يكون قويماً ومؤدّباً ، إذ الدّين هو القانون والنّظام والمنهج الإلهي ، فإذا شذّ العقل عنه ، لم يُضمن استقامة العقل نفسه ، وبات على طريق الإنحراف . ولضرورة حسن التّعامل مع النّاس وأهمّيته ، اعتبره الرّسول الأعظم (ص) مقدّمة العقل بعد الدّين ، معبّراً عن ذلك بالتودّد ، وهو التقرب من النّاس وإظهار الحبّ المخلص لهم . كما اعتبر اصطناع الخير إلى الأبرار والفجّار حجةً عليهم لكي ينيبوا إلى حديقة الدّين والعقل .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« رأس العقل ـ بعد الإيمان ـ التحبّب إلى النّاس »[٥٢] .

وهكذا فإنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ حينما خلق العقل بهذه العظمة ، فإنّه ـ جلّ وعلا ـ خوّله دوراً يتلاءم وعظمته ، بجعله أساساً وقواماً ونظاماً تقوم عليه حياة الإنسان وجميع أموره ، ومصيره في الدّار الآخرة .

فلكي يضمن الإنسان صلاح جميع أموره ، ومنها : حسن تعامله مع النّاس ، واجبه أن يقيمها على أساس العقل ، واستعماله في « الوجوه الصّالحة » .

---

(٥١) بحار الانوار ، ج٧٤ ، ص٤٠١ .

(٥٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣١ .

الأساس الثالث : العلم

قال الرسول الأعظم (ص) :

« العلم رأس الخير كلّه ، والجهل رأس الشرّ كلّه »[٥٣] .

*

كما هو معروف ، العلم هو : إدراك الشّيء بحقيقته ، وهو المعرفة والتيقّن ، وضدّه الجهل . ويحصل العلم والمعرفة للإنسان باستعمال العقل ، وتعبّر الأحاديث الشريفة عن العلم لأنّه مصباح العقل .

ويكفي للتّدليل على عظمة العلم أنّه :

١ ـ اصل كلّ خير .

٢ ـ رأس كلّ الفضائل وغايتها .

٣ ـ السبب إلى المنازل الرفيعة والشّرَف .

٤ ـ دليل الإنسان في الحياة ، وهاديها فيها .

٥ ـ « حجاب من الآفات » .

٦ ـ منجد الإنسان .

٧ ـ مُؤنسه .

٨ ـ ضالّة المؤمن ، وشيئه الذي يبحث عنه .

---

(٥٣) المصدر السابق ، ج٧٧ ، ص١٧٥ .

٩ ـ عماد الدّين والإيمان .

١٠ ـ الحياة ، وبه تكون .

١١ ـ حياة النّفس ، وإنارة للعقل ، وأمانة للجهل .

١٢ ـ به يطاع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعبد ، ويُعرف ، ويؤحّد ، وبه يعرف الحلال والحرام .

١٣ ـ خير من المال .

١٤ ـ وسيلة التقدّم والرّقي والحضارة .

ولمّا كان العلم بهذه العظمة فإنّ أنجح النّاجحين هو من يمتلكه ، كما أنّ أخسر الخاسرين هو من حُرم منه . إنّ ما من خطوةٍ يخطوها الإنسان ، او عمل يقوم به إلّا وهو بحاجة ضروريّة الى العلم ، سواء كان ذلك العمل صغيراً أو كبيراً ، وفي أيّ زمان ، وفي أيّ مكان .

إنّ العلم هو هادي الإنسان في هذه الحياة ، وبدونه يصبح كالأعمى الذي يتخبّط هنا وهناك . ولكن أيّ علم هو الهادي له ؟ لا شكّ أنّه العلم الحقّ الذي يؤيّده الدّين والعقل المؤدّب ، والذي يحقّق شرط مرضاة الله ، أمّا العلم الذي لا يحقّق هذا الشّرط ، فهو جهل في حقيقته . ومن هنا فإنّ العلم يجب أن يكون دينيّاً لا بمعنى أن ينحصر في علوم الدّين كالفقه وغيره ، وإنّما بمعنى أن يكون تحت إمامة الدّين لكي يُضمن له سلامة السّير واستقامته ، ولكي لا يستعمل في الوجوه غير الصّالحة .

والإنسان لا غنى له في ايّ عمل يقوم به عن العلم والمعرفة الحقّة ، إذ هما بمثابة النّور الذي يضيء له طريق العمل والسّلوك ، ومن هنا فالوعي والبصيرة والثقافة والعلميّة هي أمور ضرورية له في كلّ شأن من شؤون حياته ، ومنها تعامله مع بني البشر .

وقد يتساءل المتسائل :

ما علاقة التّعامل مع النّاس بالعلم والمعرفة والعلميّة ؟ .

إنّ العلميّة المطلوبة في التّعامل مع النّاس لا يقصد بها أن يكون الانسان حائزاً

على درجة كبرى في الجانب الأكاديميّ لكي يحسن معاملة النّاس . وانّما المقصود أن يكون بعيداً عن الجهل والأميّة ، وممتلكاً حدّاً كافياً من العلم والمعرفة والوعي والبصيرة والثقافة التي تمكنه من إحسان معاملة النّاس .

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنّ من النّاس من هم على درجة لا بأس بها من العلم والمعرفة والثقافة ، ولكنّهم لا يحسنون معاملة النّاس ، فكم هم الإختصاصيّون والأطباء والمدراء والمهنيّون والموظّفون و . . . الذين هم على درجة علميّة لا بأس بها ، إلاّ أنّهم يسيئون التّعامل معهم ! . وذلك يرجع إمّا إلى تكبّرهم على النّاس وتعاملهم معهم بأسلوب فوقيّ ، وإمّا إلى ضعف وعيهم في هذا المجال . وكم هناك من أناس أميّين ، ولكنهم يمتلكون بصيصاً من النّور ، ونيّة صادقة ، ووجدان وضمير مخلصين ، فتجدهم يحسنون معاملة النّاس ومعاشرتهم ومخالطتهم ! . إلاّ أنّ الجهل والأمية يقودان إلى سوء التّعامل مع الناس ، في الغالب ، بل إنهما مشكلتان تقودان أصحابهما إلى العمل والتصرّف والسلوك في شتى المجالات والميادين التي يدخلونها أو يشاركون فيها . ومن هنا فلا غرابة من انتشار الغيبة والنّميمة ، وعدم حفظ اللسان ، وغيرها من الأخلاق والعادات السيئة في التّجمعات الجاهلة والأميّة .

وعليه فلكي يحسن الإنسان تعامله مع النّاس ، خليق به أن يقيم هذا التّعامل على أساس العلم والمعرفة الحقّين في هذا المجال ، والحد الأدنى من ذلك امتلاك المعرفة التي تضمن إحسان هذا التّعامل .

الأساس الرابع : الوجدان والضمير الصالحان

قال الإمام عليّ (ع) :

« صلاح الظّواهر عنوان صحّة الضّمائر »[٥٤] .

« طوبى لمن صلحت سريرته ، وحسنت علانيته ، وعزل النّاس شرّه »[٥٥] .

« من حسنت سريرته ، حسنت علانيته »[٥٦] .

*

أغلبنا قد سمع أو يسمعُ شخصاً يصف آخر بأنّ له وجداناً صالحاً وضميراً حيّاً ، وقد يسمع شخصاً ينعت آخر بأنّه عديم الوجدان أو الضّمير .

فما هو الوجدان[*] ؟ .

وما هو الضّمير[**] ؟ .

وما علاقتهما بسلوك الإنسان وتعامله مع النّاس ؟ .

---

(٥٤) الغرر والدّرر .

(٥٥) المصدر السّابق .

(٥٦) المصدر السّابق .

(*) الوجدان في عرف البعض هو النّفس وقواها الباطنة ، والوجدانيّ : مايجده كلّ أحد من نفسه ، أوما يُدرك بالقوى الباطنة .

(**) الضّمير : باطن الإنسان .

المعلوم أنّ لكلّ إنسان واقعين : داخليّ ، وخارجيّ . فالواقع الدّاخلي هو الجانب السرّي أو الباطنيّ منه ، والواقع الخارجي هو الجانب الظّاهر أو العلني ، وفيه تظهر تصرّفاته وأعماله وسلوكياته باستعمال الجوارح والحواسّ . والوجدان والضّمير لفظان يتوجّهان للتّعبير عن الواقع الداخلي للإنسان .

ولو راجع كلّ منّا نفسه لوجد أنّ هناك نيّاتٍ وقصوداً وأفكاراً وتصوّرات وأحكاماً ومواقف تعمل في داخله ، تشكّل مساحة من وجدانه وضميره ونفسه ، هذه النيّات والقصود والأفكار والتّصورات والأحكام والمواقف التي ينبغي لها أن تُقام على أساس الحقّ والخير ، وأن تكون متطابقة مع ظاهر الإنسان وتصرّفاته في الواقع الخارجي ، مع العلم بأنّ هناك بعض الظّروف الاستثنائية تتطلّب من الإنسان أن يظهر خلاف ما يبطن لضرورة(*) .

وكثيراً ما تناول القرآن الكريم والسنّة الشريفة مسالة إصلاح وإخلاص النيّة والوجدان والضّمير، وتطابق ذلك مع ظاهر الإنسان في كثير من الآيات والأحاديث ، وذلك لأنّ النّفس ـ وبالتّحديد باطن الإنسان ـ هي نقطة الإنطلاق ـ فإذا صلح داخلها صلح واقعها الخارجي ، وعكس ذلك صحيح تماماً .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« إنّ السّريرة إذا صحّت قويت العلانية »(٥٧) .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« لكلّ ظاهرٍ باطن على مثاله ، فما طاب ظاهره ، طاب باطنه ، وما خبث ظاهره ، خبث باطنه »(٥٨) .

(*) كمثال على هذه الظروف : لو أنّ عاملاً في سبيل الله ابتلى بالمصائب والمحن ووجهت اليه تهم لها أساس من الصحة ، فإن عليه أن ينفيها ، ويظهر خلاف مايبطن ليبعد الأذى عن نفسه وعن غيره ، وعن مسيرالعمل عموماً .

(٥٧) بحارالأنوار ، ج٧٢ ، ص٢٨٩ .

(٥٨) الغرر والدّرر .

بل إن فساد الظاهر وحده قد يؤدّي إلى فساد الباطن والوجدان والضّمير، للإرتباط الوثيق بينهما.

يقول الإمام عليّ (ع):

«عند فساد العلانية تفسد السّريرة»(٥٩).

ومهما حاول الإنسان أن يخفي باطنه وضميره ووجدانه، فإنّ تصرّفه وسلوكه في الواقع الخارجي، ترجمة حقيقية لذلك الباطن، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

يقول الإمام عليّ (ع):

«ما اضمر أحد شيئاً إلاّ ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه»(٦٠).

ويقول الشّاعر:

ومهما تكنْ عند امرىء من خليقةٍ
وإنْ خالها تُخفى على النّاس، تُعْلَمِ

إنّ من أهمّ أسس ودعائم التّعامل مع أمور الحياة، ومنها التّعامل الصّالح والضّمير الحيّ، وبعبارة أخرى: الباطن الصّالح. وذلك لأنّ الإنسان إذا كان وجدانه وضميره صالحين، ظهرت آثار ذلك بالإيجاب على معاملته للنّاس في الظّاهر والواقع الخارجي، أمّا إذا كان باطنه سيئاً تجاههم فإنّ معاملته لهم تمسي سيئة، حتّى وإن تظاهر بأنّها حسنة.

يقول الرّسول الأعظم (ص):

«من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين النّاس، ومن اصلح جوّانيه أصلح الله برّانيه، ومن أراد وجه الله أناله الله وجهه ووجوه الخلق»(٦١).

وإصلاح النّفس ـ كما مرّ ذكره ـ يعتمد على إصلاح العلاقة مع الله ـ سبحانه

---

(٥٩) المصدرالسابق.

(٦٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨، ص١٢٣.

(٦١) بحارالانوار، ج٧١، ص٣٦٥.

وتعالى ـ فإذا صلحت هذه العلاقة صلاحاً حقيقياً ، انعكست آثار ذلك بالايجاب على باطنه وواقعه الدّاخلي ، وبالتّالي على ظاهره وواقعه الخارجي ، هذا الواقع الذي يمثل التّعامل مع النّاس مساحة كبيرة منه .

وهكذا فلكي يضمن الإنسان توجّهه للخير والحقّ والفضيلة ، ويحسن تعامله مع النّاس ، يتوجّب عليه بعد إصلاح علاقته بالله ، أن يصلح وجدانه وضميره (الواقع الباطني) ، . ان يكون مع فطرته(*) التي فطره الله عليها ، إذ أن هذه الفطرة كفيلة بأن تحافظ على صلاح وجدانه وضميره. وبالمحافظة على الفطرة واصلاح الوجدان والضّمير تحسن معاملة النّاس في الواقع الخارجي .

(*) الفطرة التي فطر الله ـ سبحانه ـ النّاس عليها هي معرفته ، لأنّه خالقهم وبارئهم من العدم . وجاء في الاحاديث الشريف بما مضمونه : أن كلّ انسان يولد على الفطرة ، وأبواه هما اللذان يهوّدانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه .

الأساس الخامس : الأخلاق الحسنة

قال الرّسول الأعظم (ص) :

« الخُلُق وعاء الدّين »[٦٢] .

وقال (ص) ايضاً :

« الخُلُق الحسن نصف الدّين »[٦٣] .

وقال (ص) :

« الإسلام حسن الخُلُق »[٦٤] .

وقال (ص) :

« الخُلُق المحمود من ثمار العقل »[٦٥] .

وقال (ص) :

« يا بني عبد المطّلب ! إنّكم لن تسعوا النّاس باموالكم ، فالقوهم بطلاقة الوجه ، وحسن البشر »[٦٦] .

---

(٦٢) كنز العمال ، خ٥١٣٧ .

(٦٣) بحارالانوار ، ج٧١ ، ص٣٨٥ .

(٦٤) كنزالعمّال ، خ٥٢١٥ .

(٦٥) الغرر والدرّر .

(٦٦) جامع السّعادات ، ج١ ، ص٣٤٤ .

وقال (ص) :

« ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهنّ فلا يُعتدّ بشيء من عمله : تقوى تحجزه عن محارم الله ، وحلم يكفّ به السّيئة ، وخلق يعيش به في النّاس »[٦٧] .

*

ما هي الأخلاق ؟.

ولم كانت أساساً أوّليّاً في معاملة النّاس ؟.

الأخلاق الحسنة هي الفضائل والمناقب والخصال النّاجمة عن استثمار العقل ، والتّي جاء الدّين لكي يدعو اليها ويشيعها بين النّاس كوسيلة تعامل ـ سليمة ـ فيما بينهم . وقد تعرّف بأنّها السّجايا والطّباع الحسنة . ويدخل ضمن مفهوم الأخلاق ، والعادات والتّقاليد الحسنة المؤيّدة عقلاً وشرعاً .

والخُلُق الحسن هو حدّ التوسّط والإعتدال بين رذيلتين حسب نظريّة الوسط(*) ، ومثال ذلك : الإنفاق المعتدل ، وهو وسط بين رذيلة التّقيّد ، ورذيلة الإسراف . والشجاعة وسط بين الجبن والتّهور ، والتّواضع وسط بين ذلّة النّفس المنهيّ عنها ، والتكبّر . وحسب هذه النّظرية تتبينّ النّسبيّة في الأخلاق والتزامها ، بمعنى أنّ المرء المتواضع ـ على سبيل المثال ـ يمتلك نسبة معيّنة من التّواضع ، ليست ضمن رذيلة التّفريط ولا ضمن رذيلة الإفراط .

وفي تناولها لموضوع الأخلاق ، توضّح الأحاديث الشّريفة أنّ الأخلاق على ضربين بالنّظر إلى الطّبع والتطبّع : منها ما يُجبل الإنسان عليه ، ويُدعى سجيّة ، أو طبعاً ، ومنها ما يكتسبه ويتصبّر عليه ، ويُدعى نيّةً ، أو تطبّعاً(**) .

---

(٦٧) المصدر السابق ، ص٣٤٤ .

(*) يرى بعض علماء الاخلاق أنّ نظرية الوسط ذات أصل اغريقيّ ، ولايرى أنّ الاخلاق هي حدود التوسّط والاعتدال بين الرّذائل ، محتجاً لذلك بأنّ بعض الفضائل ـ كالعدل والصّدق ـ ليس وسطاً بين رذيلتين . راجع : فلسفة الأخلاق ، الشيخ محمّد جواد مغنية .

(**) من الأمثلة السّائرة : «الطّبعُ أغلَبُ » ، و «الطبعُ يغلبُ التطبُّع » . ويعني أنّ الطبّع حالة موجودة في الانسان ، وهو متعوّد عليها . أما التطبع فهو محاولة ايجاد تلك الحالة لدى الذات ، او تكلفها=

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« الخُلُق منحة يمنحها الله من شاء من خَلْقِه ، فمنه سجيّة ، ومنه نيّة ، قلت : فأيّهما أفضل؟ قال : صاحب النيّة أفضل ، فإنّ صاحب السّجيّة هو المجبول على الأمر الذي لا يستطيع غيره ، وصاحب النّية هو الذي يتصبّر على الطّاعة ، فهذا أفضل »(*) .

والعقل والدّين يرشدان الإنسان ويدعوانه إلى التخلّق بالأخلاق الحسنة والتطبّع بها ، لأنّ فيها مصلحته الأكيدة ، والأولى به أن يستجيب لإرشادهما ودعوتهما ، فإن كانت الأخلاق سجايا فيه فهو متحلٍّ بها ، وإلاّ فليتطبّع بها وليتخلّق ، حتى تصبح طبعاً فيه وخلقاً وعادة .

وقد يسأل السّائل :

ما علاقة الأخلاق بالدّين والعقل ؟ .

إذا مُثل العقل بالشّجرة الطّيبة العظيمة ، فإنّ الأخلاق الحسنة من ثمارها ، وبناءاً عليه فعلاقة الأخلاق(**) بالعقل هي علاقة الفرع بالأصل ، والنّتيجة بالسّبب . ولأنّ العقل ـ كما تقدّم ذكره ـ هو أوّل وأحسن وأكرم مخلوق خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولأنّه المعيار الذي به يعرف الخير من الشرّ ، والمخاوق الذي على اساسه يثاب الإنسان ويعاقب ، كانت الأخلاق ثمرة له . إنّ الأخلاق الحسنة حقّ وخير ، لأنّها نابعة من مصدر الحقّ والخير ، وميزان معرفتهما ، والدّاعي إليهما وهو العقل .

وبناءاً عليه فمن يقيم أمور حياته على أساس العقل ، يضمن لها أن تقوم على أساس الأخلاق ، فواجد العقل ومستعمله في الوجوه الصّالحة يعطي الأخلاق

=وتصنعها بغية التعّود عليها . وبديهيٌّ أن العادة تغلب مايُراد التعّود عليه ، والأخير هو الأصعب لأنه يحتاج الى التصبّر .

(*) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٣٩٥ .

(**) لفظة «أخلاق» المطلقة ، تعني الأخلاق الحسنة لزيادة استعمالها وتداولها في هذا السبيل . وأوّل مايتبادر الى ذهن الانسان حين سماع لفظ « أخلاق » هو الأخلاق الحسنة .

الحسنة ، وفاقده ومستعمله في غير الوجوه الصّالحة ، لا يعطيها بطبيعة الحال .

وإذ أنّ العقل هو أقوى الأسس والدّين يقوم عليه ، كانت الأخلاق الحسنة من صميم الدّين ومن أبرز أهدافه . ومن هنا يقول الرّسول الأعظم (ص) : « إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق » . وبتمثيل الدّين بالجوهرة النّفيسة ، فإنّ الأخلاق يمكن تمثيلها بالظرف النّفيس الحسن الذي توضع فيه ويتلائم وقيمتها . ولذلك فإنّ الأخلاق الحسنة هي المحيط الصّالح ، أو البيئة الصّالحة لوجود الدّين ونموّه ، كما أنّ الدّين هو الطّريق إلى المحيط الصّالح ، وبه تُستصلح البيئة الاجتماعيّة الفاسدة .

إنّ بعض الأحاديث الشريفة تصف الأخلاق بأنّها الدّين ، أو نصفه ، لأنها من صلب أهدافه ، وأمور أساسيّة فيه ، وتشّكل مساحة كبيرة منه ، ولذا فالمعتنق للدّين لا بدّ أن تكون الاخلاق أمراً طبيعياً فيه ، وعنواناً له ، اذ لا قيمة لدين الانسان اذا لم تكن الاخلاق نتيجة طبيعية له ، مقرونة به .

وحيث أن الاخلاق ثمرة للعقل العظيم ، ومن صلب أهداف الدّين العظيم ، كانت عظيمة لعظمتها . ويكفي للتدليل على عظمة الاخلاق ، أنها أوّل ما يُوضع في ميزان المرء يوم القيامة ، إذ أنّها ضرورة لا غنى للانسان عنها ، يحتاجها في التّعامل مع ربّه ، ومع نفسه ، ومع النّاس ، باعتبارها قواعد لتنظيم السّلوك الانساني . فمن يمتلك هذه القواعد يضمن اساساً هاماً من أسس النّجاح والسّعادة ، ومن لا يمتلكها يعيش الفشل والشّقاء والعذاب .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« بحسن الخلق يطيب العيش » .[٦٨]

ويقول الامام الصّادق (ع) :

« من ساء خلقه عذّب نفسه »[٦٩].

---

(٦٨) الغرر والدرر .

(٦٩) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٢٤٦ .

وبالأخلاق يُسع النّاس ، فقد لا يملك الإنسان مالاً ، أو قد يكون المال الذي يملكه لا يغطّي جميع متطلّباته ، ومنها المتطلّبات الاجتماعية ، كأن يساعد هذا ، ويواسي ذاك ، ويتصدق على ثالث . ولا شك أنّ للمال دور كبير في الحياة ، إلاّ أنّه ليس كل شيء . فحينما يجد الانسان أن ماله لا يسع الآخرين ، فهناك جانب آخر يمكنه أن يسعهم به ، وهو جانب ذو إطار واسع ، ألا وهو الجانب الأخلاقي . فبسريرته الصّادقة ، وظاهره الأخلاقي ، وكلماته المؤدّبة ، وآدابه السمحة ، ونفسه المهذّبة ، وتصرّفاته السويّة يمكنه أن يحسن معاملة النّاس ، ويجمعهم من حوله .

إنّ جزءاً كبيراً من الحكمة في تشريع الأخلاق يتمثّل في تقويم وتسوية تعامل النّاس فيما بينهم بشكل يحقق لهم السّعادة في الدّنيا ، والرّضوان في دار السلام . ومع ذلك فإن قسماً من النّاس يتصور الأخلاق ويتعامل معها على أنها « تكتيكات » مؤقتة للضّحك على ذقون النّاس ، والانتفاع منهم والحصول على المصالح . ولكنّ الأخلاق تأبى ان تكون كذلك ، فهي ـ إن صحّ التّعبير ـ « استراتيجية » دائمة ، تتطلّب ـ مبدئياً ـ هدم الخلقيّات السّيئة ، وكنس الشوائب والرّواسب النّفسية العالقة ، ثم أنها عمليّة عطاء للنّاس قبل ان تكون عملية اخذ ، سواء كان العطاء والأخذ معنويين أو ماديّين .

ومن هنا فإنّ من يعتبر الاخلاق مجرّد مقدّمات للأخذ من الناس فقط ، هو واقع في الفهم الخاطىء لحقيقة الاخلاق والحكمة والغاية منها ، والواجب عليه ان يعيد النّظر في ذلك الفهم ، لكي تأتي ممارساته أخلاقية خالصة لوجه الله تعالى ، مقبولةً لدى عقلاء النّاس ، نابعةً من نفس مزكّاة .

ولا تتحقّق الأخلاق في الانسان من دون صلاح الوجدان والضّمير والنيّة ، فإذا كانت السّريرة غير صالحة ، والظاهر صالح ، فإنّ ممارسات الانسان تصبح متكلّفة ، إذ أنّها متناقضة مع داخله ، وقد تؤدي به الى النّفاق ، وهو آفة فرديّة واجتماعية خطيرة ، وكذلك إذا كانت السّريرة صالحة ، والظّاهر غير صالح ، فإن ممارساته تكون خلاف سريرته . وفي كلتي الحالتين يحتاج سلوك الانسان الى تقويم وتسوية ، لكي لا يصاب بالتّناقض بين ظاهره وباطنه .

يقول الامام علي (ع) :

« طوبى لمن ذلّ في نفسه ، وطاب كسبه ، وصلحت سريرته ، وحسنت خليقته ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من لسانه ، وعزل عن الناس شره ، ووسعته السُّنّة ، ولم يُنسب الى البِرعة »[٧٠] .

إنّ الاخلاق مقدّمة أعمال البرّ والخير ، وهي أساس ضروريّ لمعاملة النّاس ، وبدونه ترتبك هذه المعاملة وتضطرب ومن ثم تنحرف . وبالاخلاق تثبت مودة الانسان لأخيه الإنسان ، وبها يكثر المحبوب له ، وتأنس النّفوس به ، وهذا هو السرّ في أنّ الأخلاقيين يتمتّعون بحبّ النّاس وودّهم ، واجتماعهم عليهم ، بينما ينفضّ النّاس من حول سيئي الأخلاق ، وينفرون منهم .

يقول تعالى :

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾[٧١] .

ولو تأمل المرءُ ، الأخلاقَ لوجد أنّ غالبيتها ـ أو قسماً كبيراً منها ـ يأخذ الطّابع الاجتماعي المعاملاتيّ . خذ على سبيل المثال : البشاشة ، وطلاقة الوجه ، وحسن البشر ، والتبسّم ، وطيب الكلام ، والتّواضع ، والصّدق ، والعدل ، والوفاء بالوعد والعهد ، وأداء الأمانة ، إن كلًّا منها معتمد على الاجتماع والاتّصال والتّماس . فالبشاشة تظهر في شخص يتعامل مع طرف آخر ، وطلاقة الوجه تعبير من طرف مقدّم الى طرف آخر ، وهكذا الحال بالنّسبة لحسن البشر ، والتبسّم ، وطيب الكلام ، والتّواضع ، وكذلك بالنّسبة الى كل الأخلاق الإجتماعية بلا إستثناء .

وإذ أنّ الأخلاق الاجتماعية او اخلاق التّعامل تعتمد على التّماس مع النّاس ، فإنّ المرء تُبتلى خلقيّته ليس حينما يكون بمعزل عن النّاس ، وإنّما عندما يكون في تماسّ معهم ، وهذا هو المقصود من الخلق الذي يعيش به الانسان في الناس كما تتطرّق اليه الاحاديث الشريفة ، الأمر الذي يوجب عليه ان يجعل أخلاقه تماس .

---

(٧٠) نهج البلاغة ، ص٤٩٠ .

(٧١) ١٥٩ / آل عمران .

وهكذا فلكي يجعل الانسان تعامله مع النّاس حسناً ، خليق به أن يقيمه على اساس الاخلاق المحمودة ، وأن يجعل الأخلاق الحسنة ديدنه الذي لا يحيد عنه ، وقرينه الملازم له ، إذ الأخلاق خير طريق ، وخير قرين للمرء ، وحدّها ـ كما في الاحاديث الشريفة ـ تليين الجانب (التّواضع) ، وتطييب الكلام ، ولقاء الإخوان والنّاس ببشر حسن .

الأساس السادس : العدل واعطاء الناس حقوقهم

قال تعالى :

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[٧٢].

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« العدل أقوى أساس »[٧٣].

« استعدى رجلٌ على عليّ بن ابي طالب (ع) ، عمرَ بن الخطّاب ، وعليّ جالس ، فالتفت اليه فقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك . فقام فجلس معه ، وتناظرا ، ثم انصرف الرّجل ورجع عليّ الى محلّه ، فتبيّن عمرُ التّغيّر في وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ما لي اراك متغيّراً ؟ أكرهت ما كان ؟ قال : نعم . قال : وما ذاك ؟ قال : كنّيتني بحضرة خصمي ، هلاّ قلت : قم يا عليّ فاجلس مع خصمك ؟! فاعتنق عمرُ علياً ، وجعل يقبّل وجهه ، وقال : بأبي أنتم ! بكم هدانا اللّه ، وبكم أخرجنا من الظّلمات الى النّور[٧٤] .

---

(٧٢) ٩٠ / النّحل .

الاحسان : فِعلُ الحَسن ، وجعل الشيء حسناً ، والعلمُ علما حسناً . يقال : سعيد يُحسِن القراءة ، أي يعرفها معرفةً حسنةً . أحسن اليه وبه : عمل معه حسنا ، واعطاه الحسنة . ويرى بعض مفسّري القرآن الكريم أن الإحسان هو الإعطاء بأكثر من الإستحقاق .

(٧٣) الغرر والدّرر .

(٧٤) قصص الأبرار .

العدل : إعطاء كل ذيّ حقّ حقّه ، وهو الانصاف ، وهو وضع الشيء في موضعه . وتعتبر العدالة أمّاً لكثير من الفضائل والصّفات الأخلاقية ، أي عن طريق إحلالها في النّفس يتمكّن الانسان من التحلّي بالعديد الكثير من المناقب والفضائل والخصال الجميلة . ويعرّفها بعض الفقهاء بأنها الملكة الباعثة على ملازمة تقوى الله وخشيته والخوف منه . وهناك من يرى أنّ العدالة هي كمال القوى العمليّة(قوّة الغضب ، وقوّة الشّهوة) ، كما أن هناك من يعرّف العدل بالحكمة ، إذ كلّ منهما يصدق عليه وضع الشّيء في موضعه .

والعدل ليس أساساً أوّلياً للتّعامل مع النّاس فحسب ، بل هو أساس أولي للعالم وأموره ككلّ ، وأبرز وجوه ذلك أنّه الأساس الذي يجب ان تقوم عليه الدّول والحكومات والحضارات ،لكي تسوي علاقة الانسان بأخيه الانسان ، وتتقوّم وتنتظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبين الرئيس والمرؤوس ولا صلاح للناس والجماهير الاّ باستعمال الحاكم العدل(*) ، وايفاء الحقوق .

ومن هنا صحّ القول أنّ من الأزمات الحادّة التي تعصف بالعالم ، أزمة الابتعاد عن العدالة من قِبَل القائمين على الأمور ، هذه هي الأزمة التي هي سبب أوّلي لنشوء أغلب الأزمات والمشكلات الأخرى على اختلاف صورها وأشكالها .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« العدل أساس به قِوام العالم »(٧٥) .

ويقول (ع) ايضاً :

(*) إن من أهم مجالات التّعامل فيما بين النّاس : التّعامل بين الحاكم والمحكوم وبالعكس ، فمن واجب الحاكم أن يوفي النّاس حقوقهم ، ومن أبرز تلك الحقوق : حق الحياة ، والأمن ، والسّلام ، والحرّية ، وابداء الرأي : و . . . كما من واجب الرعية أن تطيع الحاكم فيما يرضي الله تعالى . ومن طبيعة الناس أنّهم يميلون الى من يعدل معهم و يعطيهم حقوقهم ، ويحسن اليهم ، ويكفّ الاذى عنهم ، ويحبّونه . وينفرون ممن يظلمهم ويهضمهم حقوقهم ، ويسيء اليهم ، وهذه من أبرز الأسباب الموضوعية لقيام المحكومين بوجه الحاكمين .

(٧٥) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٨٣ .

« بالعدل تُصلح الرّعيّة »[٧٦] .

والعدالة ليست مطلوبة من الحاكم وواجبة عليه فحسب ، بل أنّ كلّ إنسان هو مأمور من قِبَل الله تعالى بالتوسّل بالعدل واستعماله وعلى كلّ الأصعدة والمواضع : في علاقته بخالقه ، وبنفسه ، وببني البشر وهم النّاس . ولو أنّ كلاًّ منّا أعطى كل شيء ـ في الحياة ـ حقّه ، وأعطى الآخرين حقوقهم بصورة عادلة ، وأحسن إليهم ، لانتظمت أمور حياته ، واستطاع أن يحرز النصيب الوافي فيما يرتبط بالتّعامل الحسن مع النّاس ، وكسبهم ، والتّأثير فيهم .

وهنا ذكر للحقوق ، كما وردت في « رسالة الحقوق »(*) المرويّة عن الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام .

يقول (ع) :

« حقّ الله الأكبر عليك : أن تعبده ولا تشرك به شيئاً ، فإذا فعلت بإخلاص جعل الك على نفسه أن يكفيك أمر الدّنيا والآخرة » .

« وحقّ نفسك عليك : أن تستعملها بطاعة الله عزّ وجل .

« وحقّ اللسان : إكرامه عن الخنى ، وتعويده الخير ، وترك الفضول التي لا فائدة لها ، والبرّ بالنّاس وحسن القول فيهم .

« وحقّ السّمع : تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لا يحلّ سماعه » .

« وحقّ يدك : أن لا تبسطها إلى ما لا يحلّ الك .

وحقّ رجليك : أن لا تمشي بهما إلى ما لا يحلّ لك ، فبهما تقف على الصراط ، فانظر أن لا تزلّ بك فتتردى في النّار .

« وحقّ بطنك : أن لا تجعله وعاءاً للحرام ، ولا تزيد على الشّبع .

« وحقّ فرجك : أن تحصنه عن الزّنا ، وتحفظه من أن يُنظر إليه .

---

(٧٦) الغرر والدّرر .

(*) جدير بالمرء أن يعرف هذه الحقوق ، ويتأمّلها ، وتفصيليّاتها ، ويحوّلها الى واقع ملموس في حياته .

« وحقّ الصّلاة : أن تعلم أنّها مرقاة إلى الله ـ عزّ وجلّ ـ ، فإذا علمت ، قمت مقام الذّليل ، الحقير ، الرّاغب ، الرّاهب ، الرّاجي ، الخائف ، المسكين ، المستكين ، المتضرّع ، المعظّم لمن كان بيديه بالسّكون والوقار ، وتقبل عليها بقلبك ، وتقيمها بحدودها وحقوقها .

« وحقّ الحجّ : أن تعلم أنّه وفادة إلى ربّك ، وفرار إليه من ذنوبك ، وفيه قبول توبتك ، وقضاء الفرض الذي أوجبه الله عليك .

« وحقّ الصّوم : أن تعلم أنّه حجاب ، ضربه الله ـ عزّ وجل ـ على لسانك ، وسمعك ، وبصرك ، وبطنك ، وفرجك ، ليسترك به من النّار ، فإنْ تركتَ الصّوم خرقتَ ستر الله عليك .

« وحقّ الصّدقة : أن تعلم أنّها ذخرك عند ربّك ـ عزّ وجل ـ ، ووديعتك التي لا تحتاج إلى الإشهاد عليها ، وكنت بما تستودعه سرّاً أوثق منك بما تستودعه علانية ، وتعلم أنّها تدفع البلاء والأسقام عنك في الدّنيا ، وتدفع عنك النّار في الآخرة .

« وحقّ الهدي : أن تريد به الله ـ عزّ وجل ـ ، ولا تريد به خلقه ، ولا تريد به إلّا التعرّض لوجه الله ـ عزّ وجل ـ ونجاة يوم تلقاه .

« وحقّ السّلطان : أن تعلم أنّك جُعِلت له فتنة ، وأنّه مبتلى فيك بما جعله الله ـ عزّ وجل ـ له عليك من السّلطان ، وأنّ عليك أن لا تتعرّض بسخطه(*) فتلقى بيدك إلى التهلكة ، وتكون شريكاً له فيما يأتي إليك من سوء .

« وحقّ سائسك بالعلم : التّعظيم له ، والتّوفير لمجلسه ، وحسن الإستماع إليه ، والإقبال عليه ، وأن لا ترفع صوتك عليه ، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتّى يكون هو الذي يجيب ، ولا تحدّث في مجلسه أحداً ، ولا تغتاب عنده أحداً ، وأن تدفع عنه إذا ذُكر عندك بسوء ، وان تستر عيوبه ، وتُظهر مناقبه ، ولا تجالس له عدوّاً ، ولا تعادي له وليّاً ، فإذا فعلت ذلك شهدت لك ملائكة الله بأنّك

(*) إنّ من التعرّض بسخط السّلطان : السكوت على ظلمه ، وفي ذلك القاء باليد الى التهلكة ، ومشاركة له فيما يرتكب من مساوىء .

قصدته ، وتعلّمت علمه لله ـ جلّ اسمه ـ لا للنّاس(*) .

« وأمّا حقّ سائسك بالملك : فأن تطيعه ، ولا تعصيه إلّا فيما يسخط الله ـ عزّ وجل ـ فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

« وأمّا حقّ رعيّتك بالسّلطان : فأن تعلم أنّهم صاروا رعيّتك لضعفهم وقوّتك ، فيجب أن تعدل فيهم ، وتكون لهم كالوالد الرّحيم ، وتغفر لهم جهلهم ، ولا تعاجلهم بالعقوبة ، وتشكر الله ـ جلّ وعلا ـ على ما آتاك من القوّة عليهم .

« وأمّا حقّ رعيّتك بالعلم : فأن تعلم أن الله ـ عزّ وجل ـ إنّما جعلك قيّماً لهم فيما آتاك من العلم ، وفتح لك من خزائنه ، فإنْ أحسنت في تعليم النّاس ، ولم تخرق بهم ، ولم تتجبّر عليهم ، زادك الله من فضله . وإن أنت منعت النّاس علمك ، أو خرقت بهم عند طلب العلم منك ، كان حقاً على الله ـ عزّ وجل ـ أن يسلبك العلم وبهاءه ، ويسقط من القلوب محلّك .

« وأمّا حقّ الزّوجة : فأن تعلم أنّ الله ـ عزّ وجل ـ جعلها لك سكناً وأنَساً ، فتعلم أنّ ذلك نعمة من الله عليك ، فتكرمها ، وترفق بها . وإنْ كان حقّك عليها أوجب فإنّ عليك أن ترحمها لأنّها أسيرك ، وتطعمها وتسقيها ، وتكسوها ، وإذا جهلتْ عفوتَ عنها .

« وأمّا حقّ مملوكك : فأن تعلم أنه خَلْقُ ربّك ، وابن أبيك وأمّك ، ومن لحمك ودمك ، لم تملكه لأنّك صنعته دون الله ـ عزّ وجل ـ ، ولا خلقتَ شيئاً من جوارحه ، ولا أخرجتَ له رزقاً ، ولكنّ الله ـ عزّ وجل ـ كفاك ذلك ، ثمّ سخّره لك ، وائتمنك عليه ، واستودعك إيّاه ، ليحفظ لك ما تأتيه من خير إليه ، فأحسن إليه كما أحسن الله إليك ، وإن كرِهتَهُ استبدلته ، ولا تُعذّب خلق الله ـ عزّ وجل ـ ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

(*) للإطلاع على تفاصيل في التعامل المتبادل بين المعلم والطالب ، يُراجع (منية المريد في آداب المفيد والمستفيد) للشيخ المفيد (محمد بن محمد بن النّعمان بن عبد السلام البغدادي) المتوفي سنة ٤١٣هـ .

« وأمّا حقّ أمّك : فأن تعلم أنّها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحداً ، وأعطتك من ثمرة قلبها مالا يعطي أحدٌ أحداً ، ووقتكَ بجميع جوارحها ، ولم تُبالِ أن تجوعَ وتطعمك ، وتعطش وتسقيك ، وتتعرى وتكسوك ، وتضحى وتظلّلك ، وتهجر النّوم لأجلك ، ووقّتْكَ الحرّ والبرد لتكون لها ، وأنّك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه .

« وأمّا حقّ أبيك : فأن تعلم أنه أصلُك ، وأنّه لولاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك ، فاعلم أنّ أباك أصل النّعمة عليك فيه ، فاحمد الله ، واشكره على قدر ذلك ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ ولدك : فأن تعلم أنّه منك ، ومضاف إليك في عاجل الدّنيا بخيره وشرّه ، وأنّك مسؤول عمّا ولّيته به من حسن الأدب والدّلالة على ربّه - عزّ وجل - والمعونة له على طاعته . فاعمل في امره عمل من يعلم أنّه مُثابٌ على الإحسان إليه ، معاقب على الإساءة إليه .

« وأمّا حقّ أخيك : فأن تعلم أنّه يدك ، وعزّك ، وقوّتك ، فلا تتّخذه سلاحاً على معصية الله ، ولا عدّةً للظالم بخلق الله ، ولا تدعْ نصرته على عدوِّه ، والنّصيحة له ، فإن أطاع الله ، وإلاّ فليكن الله أكرم عليك منه ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ مولاك المنعم عليك : فأن تعلم أنّه أنفق فيك ماله ، وأخرجك من ذلّ الرّق ووحشيته إلى عزّ الحرّية وأُنسها ، فأطلقك من أسر الملكيّة ، وفكّ عنك قيد العبوديّة ، وأخرجك من السِّجن ، وملّكك نفسك ، وفرّغك لعبادة ربّك . وتعلم أنّه أولى الخلق بك في حياتك وموتك ، وأن نصرته عليك واجبة بنفسك ، وما احتاج إليه منك ، ولا قوة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ مولاك الذي أنعمت عليه : فأن تعلم أنّ الله - عزّ وجل - جعل عتقك له وسيلة إليه ، وحجاباً لك من النّار ، وأنّ ثوابك في العاجل ميراثه إذا لم يكن رحِمٌ مكافأةً بما أنفقت من مالك ، وفي الآجل الجنّة .

« وأمّا حقّ ذي المعروف عليك : فأن تشكره ، وتذكر معروفه ، وتكسبه المقالة

الحسنة ، وتُخلص له الدّعاء فيما بينك وبين الله ـ عزّ وجل ـ ، فإذا فعلت ذلك كنتَ قد شكرته سِرّاً وعلانية ، وإن قدرتَ على مكافأته يوماً ، كافيته(*) .

« وأمّا حقّ المؤذّن : فأن تعلم أنّه مذكّرٌ لك ربك ـ عزّ وجل ـ ، وداعٍ لك إلى حظّك ، وعونك على قضاء فرض الله ـ عزّ وجل ـ ، فاشكره على ذلكَ شكرك للمحسن إليك .

« وأمّا حقّ إمامك في الصّلاة : فأن تعلم أنّه يقلّد السّفارة فيما بينك وبين ربك ـ عزّ وجل ـ ، وتكلّم عنك ولم تتكلّم عنه ، ودعا لك ولم تدعُ له ، وكفاك هول المقام بين يدي الله ـ عزّ وجل ـ فإنْ كان نقص كان به دونك ، وإن كان تمام كنت شريكه ولم يكن له عليك فضل ، وحفظ نفسك بنفسه ، وصلاتك بصلاته ، فتشكر له على قدر ذلك .

« وأمّا حقّ جليسك : فأن تلين له جانبك ، وتنصفه في مجاراة اللّفظ ، ولا تقوم من مجلسك إلاّ بإذنه ، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك ، وتنسى زلاّته ، وتحفظ خيراته ، ولا تُسمِعه إلاّ خيراً .

« وأمّا حقّ جارك : فحفظه غائباً ، وإكرامه شاهداً ، ونصرته إذا كان مظلوماً . ولا تتّبع به عورة ، فإن علمتَ عليه سوءاً سترته عليه ، وإن علمت أنّه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه ، ولا تسلمه عند شديدة ، وتقيل عثرته ، وتغفر ذنبه ، وتعاشره معاشرة كريمة ، ولا قوة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ الصّاحب : فأن تصحبه بالتفضّل والإنصاف ، وتكرمه كما يكرمك ، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة ، فإن سبق كافأته ، وتودّه كما يودّك ، وتزجره عمّا يهمّ به من معصية الله . وكن عليه رحمة ، ولا تكن عليه عذاباً ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ الشّريك : فإن غاب كافيته ، وإن حضر رعيته ، ولا تحكم دون حكمه ، ولا تعمل برأيك دون مناظرته ، وتحفظ عليه من ماله ، ولا تخونه فيما عزّ

(*) كافيته : مخفّف كافأته ، أي اعطيته مكافأةً على صنيعه لك .

أو هان من أمره ، فإنّ يد الله ـ عزّ وجل ـ مع الشّريكين ما لم يتخاونا ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ مالك : فأن لا تأخذه إلاّ من حِلّه ، ولا تُنفقه إلاّ في وجهه ، ولا تُؤثِر على نفسك من لا يحمدك ، فاعمل فيه بطاعة ربّك ، ولا تبخل فيه فتبوء بالحسرة والنّدامة مع التّبعة ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وأمّا حقّ غريمك الذي يطالبك : فإن كنتَ موسراً أعطيته ، وإن كنت معسراً ارضيته بحسن القول ، ورددته عن نفسك ردّاً لطيفاً .

« وحقّ الخليط(*) : أن لا تغرّه ، ولا تغشّه ، ولا تخدعه ، وتتّقي الله ـ تبارك وتعالى ـ في أمره .

« وحقّ الخصم المدّعي عليك : فإنْ كان ما يّدعي عليك حقّاً ، كنت شاهده على نفسك ، ولا تظلمه ، وأوفيته حقّه ، وإن كان ما يدّعي عليك باطلاً رفقتَ به ، ولا تأتي في أمره غير الرّفق ، ولا تسخط ربّك في أمره ، ولا قوّة إلاّ بالله .

« وحقّ خصمك الذي تدّعي عليه : فإن كنتَ مُحِقّاً في دعواك ، أجملتَ معاملته ، ولا تجحد حقّه ، وإن كنتَ مبطلاً في دعواك ، اتّقيتَ الله ـ عزّ وجل ـ وتبتَ إليه وتركتَ الدّعوى .

« وحقّ المستشير : إنْ علمتَ له رأياً حسناً ، أشرتَ عليه به ، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم .

« وحقّ المشير عليك : أن لا تتّهمه فيما لا يوافقك من رأيه ، وإن وافقك حمدت الله ـ عزّ وجل .

« وحقّ المستنصح : أن تؤدّي إليه النّصيحة ، وليكن مذهبك الرّحمة والرّفق به .

« وحقّ النّاصح : أن تلين له جناحك ، وتُصغي إليه بسمعك ، فإن أتى

(*) الخليط : المخالط ، كالجليس والمُجالِس .

بالصّواب حمدتَ الله ـ عزّ وجل ـ ، وإن لم يوفّق رَحِمته ، ولم تتّهِمه ، وعلمت أنّه أخطأ ، ولم تؤاخذه بذلك ، إلاّ أن يكون مستحقّاً للتّهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على حال ، ولا قوة إلاّ بالله .

« وحقّ الكبير : توقيره لشيبه ، وإجلاله لتقدّمه إلى الإسلام قبلك ، وترك مقابلته عند الخِصام ، ولا تسبقه إلى طريق ، ولا تتقدّمه ، ولا تستجهله ، وإن جهل عليك احتملته وأكرمته لحقّ الإسلام وحرمته .

« وحقّ الصّغير : رحمته في تعليمه ، والعفو عنه ، والسّتر عليه ، والرّفق به ، والمعونة له .

« وحقّ السائل : إعطاؤه على قدر حاجته .

« وحقّ المسؤول : أنّه إن أعطى فاقبل منه الشّكر ، والمعرفة بفضله ، وإن منَع فاقبل عذره .

« وحقّ من سرّك بشيء لله تعالى : أن تحمد الله ـ عزّ وجل ـ أوّلاً ، ثمّ تشكره .

« وحقّ من ساءك : أن تعفو عنه ، وإن علمتَ أنّ العفو يضرّ ، انتصرتَ ، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ .

« وحقّ أهل ملّتك : إضمار السّلامة لهم ، والرّحمة بهم ، والرّفق بمسيئهم ، وتألّفهم ، واستصلاحهم ، وشكر محسنهم ، وكفّ الأذى عنهم ، وأن تحبّ لهم ما تحبّ لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن يكون شيوخهم بمنزلة أبيك ، وشبّانهم بمنزلة أخيك ، وعجائزهم بمنزلة أمّك ، والصّغار بمنزلة أولادك .

« وحقّ أهل الذّمة : أن تقبل منهم ما قبل الله ـ عزّ وجل ـ منهم ولا تظلمهم ما وفوا لله ـ عزّ وجل ـ على عهده »[٧٧] .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، واجبه أن يقيمها على أساس العدل

---

(٧٧) مكارم الأخلاق ، ص٤١٩ ـ ٤٢٤ .

وإعطائهم حقوقهم بشكل عادل ، وإن أحسن فذلك نور على نور ، فإنّ الله - تبارك وتعالى - يحبّ العدل والإحسان ويأمر بهما .

الأساس السابع : معرفة الطبيعة البشرية

قال الرسول الأعظم (ص) :

« ألا إنّ بني آدم خُلقوا على طبقات : ألا وإنّ منهم البطيء الغضب السّريع الفيء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك ، ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء »[٧٨] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« النّاس كالشّجر ، شرابه واحد ، وثمره مختلف »[٧٩] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« النّاس معادن كمعادن الذّهب والفضّة . . . »[٨٠] .

تقدّم ذكر أنّ من طبيعة الإنسان أنّه مفطور على التآلف مع بني نوعه والتأنّس والإجتماع بهم ، بل حتّى الطفل الرّضيع الذي هو في الأطوار الأولى للنّمو العقليّ يشعر بالأنس بأمّه وبمن معه من النّاس ، ويحسّ أنّه يفقد شيئاً ضرورياً حينما لا يجد أمّه أو أحداً آخر من النّاس ، فيشعر بالوحشة فيبكي . وأغلبنا ـ بل ربّما كلّنا ـ قد شاهد طفلاً رضيعاً يبكي لعدم وجود مؤنسٍ من نوعه معه ، ومع مجيء المؤنس

---

(٧٨) صحيح التّرمذي .

(٧٩) الغرر والدّرر .

(٨٠) فروع الكافي ، ج٨ ، ص١٧٧ .

ووجوده يشعر الطّفل بالأنس والسّرور . ومع تقدّم الإنسان في النموّ العقلي والبدني ، تزداد حاجته إلى الآخرين ، ويزداد إدراكه ومعرفته بطبيعتهم البشرية ، وحالتهم النّفسيّة .

وهنا سؤال :

إذا كان الإنسان مفطوراً على الإجتماع مع بني البشر والتّعامل معهم ، وأنّه بحكم هذه الفكرة ذو معرفة ـ إلى حدٍّ ما ـ بطبيعتهم البشريّة ، هذه المعرفة التي تمكّنه من التّعاطي و التّعامل معهم ، فما الدّاعي إلى معرفة طبيعتهم البشريّة ؟

والإجابة على ذلك يمكن القول :

مع أنّ الإنسان يمتلك مؤهّلات التّعامل مع الآخرين من بني نوعه ، إلاّ أنّه لا غنى له عن معرفة(*) طبيعتهم البشرية بشكل كافٍ لكي يضمن لتعامله معهم أن يكون في حدود الحسن والمعقول ، خصوصاً وأنّ البيئة والتّربية والثقافة الذّاتية لها دور في تحقق هذا الأساس أو عدمه .

مما ينبغي للمرء معرفته عن طبيعة النّاس البشريّة هو معرفة القدر الكافي عن نفسيّاتهم ، وهو ما يمكن تسميته بسيكولوجيّة التّعامل مع النّاس . إنّ معرفة القدر الكافي من الجانب النّفسي أو السّيكولوجي للنّاس يعين المرء كثيراً في تعامله معهم ، وإحسان هذا التّعامل ، والنّجاح فيه . ومن هنا نجد الأفراد الذين يعرفون شيئاً ما عن الصّفات النّفسيّة لمن يتعاملون معهم ، هم قادرون على التّعامل معهم بصورة حسنة . بخلاف الأفراد الذين يجهلون الصّفات النّفسيّة للآخرين ، إذ يكون تعاملهم معهم صعباً مشوباً بالتوتّر ، وربما سيئاً .

فعلى سبيل المثال : أنّ المدراء والقادة والرؤساء الذين يعرفون الطبيعة البشريّة لمداريهم ومقوديهم ومرؤوسيهم ويعرفون حالاتهم النّفسيّة ، أو أسرار التأثير فيهم ، يمكنهم التّعامل معهم بصورة لائقة وناجحة . أمّا المدراء والقادة والرؤساء

(*) بديهةً أنّ الدّين والعقل والعلم هي وسائل لاغنى عنها في معرفة الطبيعة البشرية للناس وحالاتهم النفسية . ولعلم النّفس دور كبير في هذا السبيل .

الذين لا يعرفون تلك الطبيعة ، غالباً ما يكونون في توتّر وسوء معاملة مع مرؤوسيهم ، الأمر الذي يترك الآثار السّلبيّة على علاقاتهم مع المرؤوسين وعلى سير العمل . ولذا فإنّ من الصّفات والمهارات الإدارية التي ينبغي توفرها في شخصية المدير والقائد والرئيس ، معرفة الطبيعة البشريّة ، والناحية النفسيّة أو السيكواوجيّة للمدارين والمقودين والمرؤوسين .

والإنسان أينما وُجد مع النّاس في تعامل أو معاملة ، هو بحاجة إلى معرفةٍ نفسيّةٍ عنهم ، سواء كان في بيته وفي تعامله مع زوجته وأبنائه و . . . أو كان في عمله ، أو في المجلس ، أو الدائرة ، أو الشّارع ، أو في أيّ مكان آخر . وهو قبل أن يتعامل مع عقول ، يتعامل مع أنفس ومشاعر وعواطف ، وأهواء ، وحالات نفسيّة مختلفة .

إنّ النّاس ـ كما تعبّر عنهم الأحاديث الشريفة ـ ليسوا نسخة واحدة في الصّفات النّفسيّة والأخلاقيّة ، وإنّما هم كالشّجرة ذات الشّراب الواحد ـ وهو الماء ـ ولكن ثمرها مختلف ، إذ منه الحلو ، والحامض ، والمالح ، والمرّ ، والأحمر ، والأصفر ، و . . . وهم كالمعادن المختلفة ، فمنهم : الذّهب ، والفضّة ، و . . . .

وحيث أنّ النّاس كذلك فمن الأولى والأصلح التّعامل معهم بما يتوافق وطبيعتهم ، ومعدنهم وصفاتهم النّفسيّة ، وخصوصاً إذا كانت تلك الصّفات واقعاً فيهم لا يمكنهم التخلّص منه(*) . فعلى سبيل المثال : أنّ الشّخص المعروف بسرعة الغضب ، ينبغي مراعاة هذه الخصلة فيه ، بتجنّب إثارته ، واستعمال اسلوبٍ تعامليّ مناسب معه ، وبهذا الأسلوب يمكن التّعامل معه بشكل حسن ، وكسبه ، وكذلك الشّخص البطيء الغضب ، يستعمل معه الأسلوب الذي يلائم بطء غضبه ، ولا يعني ذلك تعمّد إثارة غضب النّاس ، بل المطلوب احترام مشاعرهم وحفظها . وحسب نوع مشاعر الطّرف الآخر ، كان من ذوي المشاعر الرقيقة أو المتحمّلة ، ينبغي التّعامل معه بالأسلوب الذي يتلاءم ومشاعره .

(*) تعتبر الصّفات النفسية اللاإيجابية المتوارثة عن طريق النسل ، الأصعب من حيث قابليتها للتغيّر والتغيير ، بالقياس الى الصفات النفسية اللاإيجابيّة الأخرى الناجمة عن التربية والبيئة (المحيط) السيئين .

وتعتمد معرفة الطبيعة البشريّة(*) للشّخص الآخر ـ في جزء كبير منها ـ على معرفة درجة الحلم وتحملّ الغضب التي هو عليها ، ومعاملته بما يتناسب وهذه الدرجة . إنّ القوّة الغضبيّة للإنسان تمثّل احدى القوى العمليّة فيه ، وعن طريقها يُبدي التّفاعل وردّ الفعل ، ويدافع عن نفسه وعن كلّ ما يخصّه ويتعلّق به ، ويشجب ويستنكر ، والنّاس على درجات في امتلاك هذه القوّة وفي كيفيّة استعمالها . وبمراعاة درجة الحلم التي يمتلكها الشّخص الآخر ، ودرجة الحالة الغضبيّة له ، وعموم حالته النّفسيّة ، تُحسن معاملته .

كذلك من معرفة الطّبيعة البشريّة للشّخص الآخر ، معرفة ميوله ورغباته النّفسيّة وغيرها ، وبعبارة أخرى : معرفة ما يحبّه ويميل إليه . وبتلبية هذه الميول والرّغبات ـ ما أمكن ـ للشّخص الآخر ، تحسن معاملته ، شريطة أن لا يكون إشباع الميول والرّغبات يحلّ حراماً ، أو يحرّم حلالاً . ومن أوجه التّعامل مع الشّخص الآخر بالنّظر إلى طبيعته البشريّة : التحدّث فيما يسرّه ويطيب له ، وتشجيعه ، وامتداحه على إجاداته ، وحفظ كرامته ، و . . . .

وكثيرون هم الذين يحسنون معاملة النّاس ، لأنّهم يعرفون طبيعتهم البشريّة ، وحالاتهم النّفسيّة ، ويتعاملون معهم على أساس ذلك . وكثيرون ـ أيضاً ـ هم الذين يحدث بينهم وبين الآخرين نوع من التوتّر في التّعامل لا لأنّهم ليسوا أخلاقيّين ، ولا لأنّهم لا يعطون الآخرين حقوقهم ، وإنّما لضعف في معرفة أو في مراعاة الجانب البشريّ والنّفسيّ لمن يتعاملون معهم، ولو أنهم إمتلكوا معرفة سيكولوجية عمّن يتعاملون معهم لكان تعاملهم سليماً، وعلى ما يرام .

وهكذا فلكي يجعل الإنسان تعامله مع النّاس سليماً ، ينبغي له أن يكون عارفاً بطبيعتهم البشريّة ، عالماً بالقدر الكافي عن صفاتهم النّفسيّة التي لها ارتباط وثيق بالتّعامل(*) .

(*) معرفة الطبيعة البشريّة للشخص الآخر تتضمّن جانبين : أحدهما معرفة المشتركات المعنويّة والنفسيّة التي يشترك فيها مع أفراد النّوع البشريّ ، والآخر : الصفات النفسيّة التي يمتلكها ، والحالة النفسية التي هو فيها .

(*) من الأمور الّتي لاغنى للمرء عنها في حياته : التّجربة ، إذ أن التّجربة درس وعبرة وموعظة وعلم ◄

مستفاد مستحدث . وكما أنّ التّجربة مهمّة في مختلف مجالات حياة الإنسان ، كذلك هي مهمة في مجال التّعامل مع النّاس ، بإعتباره من أوسع المجالات . فهو عن طريق التّجربة التّعاملية يستطيع أن يحاسب نفسه ، ويقوّم تعامله مع النّاس . فإذا كان قد إرتكب خطأً فيما مضى ، أو أساء معاملة ، فإنه يتفادى ذلك في معاملاته المستقبلية ، وبذلك يكون قد إستفاد من تجربته في هذا المجال . كذلك عن طريق الاستفادة من تجارب الآخرين في هذا السّبيل ، سواء كانت التجارب ناجحة أو فاشلة ، يستطيع أن يهتدي بها في تعامله مع النّاس فيما يأتي .

القسم الثاني

الأسس الفنية
في معاملة الناس

كما أنّ لمعاملة النّاس أسس أوّليّة تقوم عليها وتضمن حسنها وسلامتها، كذلك لها ـ إنْ صحّ التّعبير ـ أسس فنّيّة لا غنى عنها، وهذه الأسس ـ في حدّ ذاتها ـ تأتي كنتائج طبيعيّة لالتزام الأسس الأوليّة.

إنّ الدّين، والعقل، والعلم، والوجدان الصّالح، والأخلاق، والعدالة، ومعرفة الطّبيعة البشريّة، هي أكبر رأسمال الإنسان، وهي الرّكائز الراسخة التي يجب أن يُقيم عليها بنيان حياته، وتعامله مع بني نوعه، وبغياب أيٍّ منها ترتبك حياته، وتضطرب معاملاته، وعليه فإنّ تلك الأسس يجب أن تقوده إلى فنّ معاملة النّاس وحسنها وجمالها.

وفنّ معاملة النّاس يوحي بأمرين: أوّلها: إحسان المعاملة وجعلها جميلة، استناداً الى معرفة بقيم ومبادىء صالحة والتزامها، والآخر كونها بحاجة إلى الفنّ والذّوق والمهارة. فلكي يحسن المرء معاملة النّاس خليق به التزام وإتقان أسسها الفنّية، وهي كما يلي:

ترك اللّوم والعتاب

قال الإمام عليّ (ع):

« عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردد شرّه بالإنعام عليه »[1] .

وقال (ع) أيضاً :

« احتمل اخاك على ما فيه ، ولا تكثر العتاب فإنه يورث الضّغينة ، ويجرّ الى البغضة ، واستعتب من رجوت عتباه »[2] .

وقال (ع) :

« الإفراط في الملامة يشبّ نار اللجاجة »[3].

وقال (ع) :

« لا تكثرنّ العتاب فإنه يورث الضّغينة ، ويدعو الى البغضاء»[4].

وقال (ع) :

« العتاب حياة المودّة»[5].

وقال (ع) :

« لا تعاتب الجاهل فيمقتك ، وعاتب العاقل يحبّك»[6].

يقول احد الكتّاب :

« عندما كنت فتىً يافعاً ، حاولتُ جاهداً أن ألفت الأنظار إليّ إرضاءً لغروري ، وأنانيتي ، فكتبت يوماً رسالة الى شخص أعرفه وكان يومئذٍ مؤلّفاً ذائع الصّيت . قلت له فيها : .

« إنّني أُعِدّ مقالاً لإحدى المجلاّت عن مشهوري المؤلّفين ، ثم رجوته أن يفضي اليّ بطريقته في التأليف ، وكنت قد تلقّيت قبل ذلك رسالة من كاتب شهير ذُيّلت بهذه الحاشية : « أمليْتَ ولم تُراجعْ » . فوقعت هذه الحاشية من نفسي موقعاً

(١) نهج البلاغة ، ص٥٠٠ .

(٢) ميزان الحكمة ، ج١ ، ص٥٦ .

(٣) شرح الغرر والدّرر ، ج٧ ، ص٣٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص٢٣١ .

(٥) المصدر السابق ، ص٢٣١ .

(٦) المصدر السابق ، ص٢٣١ .

عميقاً ، وأحسست أنّ الكاتب لا بدّ ان يكون كثير العمل ، عظيم الشّأن ، ولم أكن كثير العمل ، ولا عظيم الشّأن ، ولكن اردت ان اقع من نفس هذا الرّجل هذا الموقع ، فختمتُ رسالتي اليه بهذه الحاشية : « أمليتَ ، ولم تُراجِعْ » ! .

« ولم يتكلّف الرّجل عناء الرّدّ على رسالتي ، واكتفى بأن ردّها اليّ برجوع البريد ، وعليها هذه العبارة : « إنّ سوء أدبك لا يفوقه الاّ سوء أدبك » . ولا شك أنّني كنت استحقّ هذا التأنيب ، ولكنّي بشر ، ولهذا امتعضت ، وثرت ثورة مُضْرِية ، حتّى أنّني حين قرأت نعي هذا الرّجل بعد ذلك بعشر سنوات ـ وكم يخجلني أن أقول هذا ! ـ لم استشعر غير الالم الذي سبّبته لي عبارته ! » .

* * *

سؤال يطرح فيما يتعلق باللوم والعتاب :

كيف يجب ان نتعامل مع الناس بالنّظر الى اللوم والعتاب ؟

هل المطلوب منّا ان نعاتب الآخرين على أخطائهم وتقصيراتهم ، أم نسكت ونرضى عليها ؟

أم المطلوب ان نكون معتدلين وسطين في العتاب ، طبقاً لقاعدة « لا افراط ولا تفريط » ؟ .

أم المطلوب ان نحسن الى الآخرين بدلاً من ان نعاتبهم ، ونلومهم ؟
وهل كلّ خطأ يصدر من الآخرين ، يستحق النّقد واللوم والعتاب ؟ .

ومحاولة في الاجابة على هذه الاسئلة ينبغي القول :

إنّ المرء ـ قبل كلّ شيء ـ عليه ان ينتقد نفسه ويلومها ويعاتبها، وينشغل بعيوبها لكي يصلحها ، لأنّ إصلاح النّفس ـ كما تقدّم ذكره ـ هو نقطة الانطلاق في معاملة النّاس . إنّ نفس الانسان باعتبارها أحبّ المحبوبين وأقرب المقرّبين اليه ، قد لا يلومها ولا يعاتبها ، ويلوم الآخرين ويعاتبهم دفاعاً عن نفسه ، أو تبريراً لموقفه ، أو ذوداً عن كبريائه وعزّته ، أو استصغاراً لأخطائه وتقصيراته وعيوبه ، واستعظاماً لأخطاء وتقصيرات وعيوب الآخرين ، وهذا ليس صحيحاً ، وخلاف

العقل والحكمة . ومشكلة الناس ان نسبة كبيرة منهم لا يلومون انفسهم على شيء بالغاً ما بلغ من الخطأ ، وأنّ المخطىء منهم يلومه كلّ امرىء الاّ نفسه .

وكمثال على ذلك يذكر احد المؤلّفين قصّته فيقول :

« في السّابع عشر من شهر مايو عام ١٩٣١ اعتقل في مدينة نيويورك سفّاح طاغية لم تشهد المدينة منذ نشأتها مجرماً في مثل عتوّه وجبروته : ذلك هو « كرولي ذو المسدّسين » .

« في ذلك اليوم ، ضرب خمسمائة رجل من رجال الشّرطة الأشداء سياجاً صارماً حول منزل عشيقته ، وحاولوا إجلاء « كرولي » عنه بواسطة الغازات المسيلة للدموع . فلمّا خابت هذه المحاولة ، صعدوا بمدافعهم الرّشاشة الى أسطح المنازل المجاورة وجعل حيّ « وست اند »الأنيق ، في قلب نيويورك ، يهتز لهزيم المدافع ساعة كاملة! .

« وعندما اعتقل كرولي ، صرّح قائد الشّرطةبقوله . إنّ ذا المسدسين من أخطر المجرمين الذين عرفتهم نيويورك . لقد كان يقتل لمجرّد قذفه بريشة طائر!

« ولكن كيف كان كرولي ينظر الى نفسه ؟!

« بينما كان رجال الشرطة منهمكين في إطلاق النّار على المنزل الذي احتمى به ، كان كرولي عاكفاً على كتابة خطاب موجّه الى « كلّ من يهمّه الأمر » وقد جاء فيه : إنّ بين جوانحي قلباً محيّراً ، ولكنّه رحيم ، قلباً لا يحمل ضغينة لأحد ولا يبغي شرّاً لمخاوق!

« وقد حكم على كرولي بالإعدام على الكرسيّ الكهربائي . فلمّا جيء به الى غرفة الإعدام في سجن « سنج سنج » لم يقل : هذا جزائي على ما سفكت من دماء بريئة ، وإنّما قال : هذا هو جزائي على دفاعي عن نفسي » .

* * *

وإذا كان الأشرار والمجرمون والقتلة لا يلومون أنفسهم ، فكيف نتوقّع من الناس الطيبين والمحترمين الذين نتصل بهم ونجتمع ونتعامل معهم ان يقبلوا اللوم

والعتاب ؟ .

قد يكون في ذهن الانسان شخص يريد من صميم قلبه ان يقوّم طباعه ، ويهذّب خلقه ، ويهديه الى سواء السّبيل . إذا كان كذلك فهو امر جميل يشكر عليه ويثاب . ولكن لم لا يبدأ المرء من نفسه أوّلاً ، هذا المحبوب الذي هو من وجهة النّظر الغريزية أحبّ بكثير من الاهتمام بالغير ؟ وكما يقال : عندما تبدأ معركة المرء بينه وبين نفسه فهو عندئذٍ شخص يستحقّ الذكر . وكما قال كونفشيوس : لا تتبرم بالجليد المتراكم على عتبة جارك قبل ان تزيل ما تراكم على عتبة دارك أوّلاً .

ولكن اذا كان لا بدّ من الّلوم والعتاب فكيف يجب التصرّف ؟

إنّ اللوم والعتاب تارة يكون من اجل إهانة الطّرف الاخر ، أو تحطيم شخصيته ، وتارة اخرى يكون من اجل تقويم سلوكه وتصرّفه . فالنّوع الأول مرفوض أساساً ، والنّوع الثاني هو الجدير بالدّراسة ، والتّقديم بالكيفيّة الفضلى .

إنّ المرء ينبغي له ان يتذكّر في معاملته الناس انّه لا يعامل ـ في الغالب ـ أهل منطق بل أهل عواطف ، ومشاعر ، وأنفس مليئة بالأهواء والكبرياء والغرور . واللوم والعتاب ـ وخصوصاً فيه ـ شرارة خطيرة تؤدي الى التّمادي في العناد الى الفعل المزجور عنه(٧) أو الى الشيء مورد العتاب ، وقد تؤدي الى العناد في الخصومة ، وتوريث الحقد والعداوة ، وفي وسعها أن تضرم النّار في وقود الكبرياء . وهناك من النّاس من هم حسّاسون جداً لسماع اللوم والعتاب ، ويبدون ردّات فعل قويّة حيال ذلك .

وينبغي للمرء ان يتذكر دائما ان كثيرا من التّصرفات الصّغيرة الخاطئة التي تصدر من الآخرين ، هي ليست بحاجة الى لوم أو عتاب ، ويمكن له تحمّلها أو تجاوزها وكأنها شيئاً لم يكن . واذا ما لام المرء الآخرين على كلّ شيء مهما كان صغيراً وعاتبهم عليه ، فلا غرابة ان يدقّ إسفيناً في جسم معاملته لهم ، ويجدهم ينفرون منه ، ولا يتقرّبون اليه ، وحينها لا يلومنّ إلاّ نفسه .

---

(٧) يجب أن لايُفهم من هذا أن يكفّ المرء عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ، بل عليه أن يلتزمه كفرع من فروع الدين ، بتقديمه بصورة فنيّة مؤثرة .

أمّا في القضايا الاكبر، فيجب ان لا ينسى المرء الطريقة المثلى في تقديم اللوم والعتاب، على اعتبار أنهما - والحال هذه - وسيلة للنّقد البنّاء، وتقويم التصرّفات وتصحيحها.

ولكن بأي طريقة يجب أن يكون؟

هل بالكلمات اللاذعة، الجارحة لمشاعر الآخرين؟!

هل بالأسلوب الهجوميّ؟!

أم بالاسلوب اللبق، الايجابي، غير المباشر جهد الامكان؟.

حقيقةً، لا شيء أفضل من تحاشي اللوم أو العتاب الصّادر من الأهواء، أو ذلك الذي هو لأمرٍ تافهٍ صغير. ولا أفضل من الاعتدال المرفق بالطريقة الفنيّة لتقديم اللوم والعتاب في القضايا التي تستدعي نوعاً منه. إنّ المرء بدلاً من أن يعاتب الآخرين ويلومهم بكلمات جافّة لاذعة، يمكنه ان يحسن اليهم بعمل يذكّرهم بخطئهم، وبذلك يضمن أمرين: حسن معاملتهم، والإشارة الحسنة لهم لكي يعترفوا بخطئهم، ويصحّحوا ممارساتهم.

وعليه فليكن لومنا او عتابنا للآخرين عامل تقريب لهم منّا، وتشجيع، لا عامل تنفير وتثبيط وتحطيم، وليكن كريشة الفنّان التي تداعب اللوحة الفنيّة برفق ورعاية، ولنعلم ان وطأ اللوم على الآخرين ليس شيئا بسيطاً، وأنّ من كثر لومه وعتابه، انفضّ النّاس من حوله، وعاش وحيداً.

من جهة اخرى انّ الناس كأصابع اليد الواحدة، متفاوتون في الصّفات والمشاعر والعواطف، وفي تقبل اللوم والعتاب. فالعقلاء وأقوياء النّفس يعتبرون العتاب البنّاء وسيلة للحبّ لأنّ فيه توجيهاً وتقويماً لهم، وهنا يكون العتاب حياة للحبّ.

أمّا الجهلاء والحمقى فإنّك إن عاتبتهم كرهوك ومقتوك، وأحسّوا وكأن جبلاً إنهار فوق رؤوسهم.

إنّ من طبيعة الناس أنهم لا يميلون الى ان يُلامُوا ويعاتبوا، ولا الى من يلومون

ويعاتبون ويوبخون ، ولكي يحسن المرء معاملتهم ، خليق به ان يعاتبهم بالاحسان اليهم ، وان لا يكثر من اللوم والعتاب ، ويتجنّبها على التّوافه والجزئيات . وأن يتوجه في البدء الى لوم نفسه وعتابها على الاخطاء ، وان ينشغل بعيوبه ليصلحها قبل ان ينتقد الآخرين ويلومهم .

قال بعض الشّعراء :

إذا كنت في كلِّ الأمور مُعاتباً
صديقك لم تَلْقَ الذي لا تُعاتبه
فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنّه
مُقارفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبه

التواضع للناس

قال تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبّهم ويحبّونه أذلةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين ﴾[٨] .

وقال الامام علي(ع) :

« التّواضع زكاة الشّرف »[٩] .

وقال (ع) أيضاً :

« التّواضع ينشر الفضيلة »[١٠] .

وقال (ع) :

« التّواضع أن تعطي النّاس ما تحبّ أن تُعطاه »[١١] .

---

(٨) ٥٤ / المائدة .

(٩) الغرر والدّرر .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) اصول الكافي ، ج٢ ، ص١٢٤ .

وسئل الامام الرضا(ع) : ما حد التّواضع الذي اذا فعله العبد كان متواضعاً . فقال :

« التّواضع درجات : منها ان يعرف المرء قدر نفسه فينزلها منزلتها بقلب سليم ، لا يحبّ ان يأتي الى احد إلاّ مثل ما يُؤتى اليه ، إن رأى سّيئة درأها بالحسنة ، كاظم الغيظ ، عافٍ عن النّاس ، والله يحبّ المحسنين »[١٢] .

وقال الرّسول الاعظم (ص) :

« أفضل النّاس من تواضع عن رِفعة »[١٣] .

وقال الامام عليّ(ع) :

« ثلاث هنّ رأس التّواضع : أن يبدأ بالسّلام من لقيه ، ويرضى بالدّون من شرف المجلس ، ويكره الرّياء والسّمعة »[١٤] .

وقال (ع) :

« ثمرة التّواضع المحبة ، ثمرة الكِبْر المسبّة »[١٥] .

ذات يوم مرّ الامام موسى بن جعفر (ع) برجل من أهل السّواد ، دميم المنظر ، وكان الامام راكباً فنزل من فرسه ، وجلس عنده ، ودخل معه في حديث طويل . وعندما أراد الابتعاد عنه ، قال له .

« هل لك حاجة نقضيها لك » ؟

فاستغرب بعض الحاضرين ، وقالوا : يا ابن رسول الله ! أتنزل هذا رغم منزلتك ، وشرفك وعلمك ؟!

فقال الامام لهم :

« ولم لا ؟! إنّه عبد من عبيد الله ، وأخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ،

(١٢) المصدر السابق ، ص١٢٤ .

(١٣) بحارالانوار ، ج٧٧ ، ص١٧٩ .

(١٤) كنزالعمّال ، خ ٨٥٠٦ .

(١٥) الغرر والدّرر .

يجمعنا وإياه خير الآباء ، آدم ، وأفضل الأديان ، الإسلام » .

* * *

ويُروى أنّ الامام الرضا (ع) دعا الى سفرة في خراسان، فجمع عليها مواليه وعبيده من السّود وغيرهم ، فقال له احد المدعوّين من الاثرياء :

جعلتُ فداك ، او عزلت هؤلاء (يعني الموالي والعبيد) .

فقال الامام (ع) :

« صه يا هذا ! إنّ الرّب ـ تبارك وتعالى ـ واحد ، والأمّ واحدة ، والأب واحد ، و . . . . » .

* * *

قد يسأل السّائل فيقول :

ما التّواضع ؟

ولمن التّواضع ؟

وما دور التّواضع في معاملة الناس ؟

التواضع هو التذلّل ، وهو ضد الكبر والتّكبّر والاستعلاء . وهو الخضوع النّابع من الشّعور بالقوة والعزّة ، وطيب الباطن ، وتقدير الآخرين واحترامهم . وليس هو الذلة النّابعة من الشّعور بالنّقص ، والضّعف والحقارة ، والحاجة الى الآخرين ، وان كان من التواضع معرفة قدر النّفس . انّ المرء حينما يشعر أنّه عبد كريم للّه ، وأنّ تواضعه لإخوانه المؤمنين وعموم الناس الطيّبين انّما هو تواضع لله ، فإنه يشعر بالعزّة والرفعة ، لا بالذلّة والضّعة .

إن قسماً من الناس يتصوّر ان التّواضع إذلال المّنفس لا ينبغي إتيانه ، وهذا تصّور خاطيء وهناك قسم اخر منهم يتكبرون ، ويستعلون إذا تذلّل الاخرون لهم بل ويذهبون الى تعميق الشّعور بالضّعة في الآخرين ، وقد يتصّورون أنّهم أرفع منزلة من الآخرين ، وأنهم يستحقون تواضع الناس لهم، وهذا ليس من الصّحة في شيء . إنّ التواضع ـ في حدّ ذاته ـ رفعة المرء ، ومرقاة الى الوقار والشّرف ، أمّا

أصحاب الكبر والاستعلاء على النّاس فهم الذين يسقطون من أعينهم ، ويفقدون توقيرهم . وهل يميل النّاس الى من يتكبّر ويستعلي عليهم ؟! .

أمّا لمن نتواضع ؟ فالتّواضع يجب ان يكون للّه أوّلاً ، لأنه الخالق الجبّار المتكبّر العزيز ، وبارئنا من العدم ، ونحن عبيده الأذلاء له . إنّ من يتواضع للّه يرفعه ، ومن يتكبّر عليه يضعه ، وهذه سنّة من سننه ـ جلّ وعلا ـ . ثم التّواضع للأنبياء والأئمة ، والقيم والمبادىء الالهية التي نذروا حياتهم من أجل الدّعوة لها ثم لنعم الله وآلائه ، ثم للإخوان والأصدقاء وعموم الناس .

وهنا يبرز سؤال :

هل كلّ النّاس جديرون بالتّواضع لهم ؟

كلاّ !

إنّ الجديرين بالتّواضع لهم هم الإخوان المؤمنون وعموم الناس الطيّبين أيّاً كان دينهم ، ولغتهم ولونهم ، وطبقتهم ، وقوميّتهم . أمّا الظّالمون ، والمستكبرون ، والمتكبّرون ، ومن هم في دائرتهم فليسوا خليقين بالتواضع لهم ، بل إن التكبر على المتكبّر عبادة في الاسلام ، لا لذات التكبّر ، وانما الى الحالة الاجتماعية السّليمة .

ويعتبر التّواضع من الأسس الضّرورية الهامّة والفنيّة في معاملة النّاس ، وعن طريقه يدخل الانسان الى قلوبهم ، ويكسبهم ، ويجعلهم يحبّونه وينجذبون اليه كما تنجذب الفراشات الى نور المصباح . أما المتكبّر والمستعلي فلا ينجذب الناس اليه ، وينفرون منه كما تنفر الاغنام المجتمعة من وحشٍ غريب مداهمٍ لهم .

وأن يتواضع المرء للنّاس ، هذا يعني أموراً كثيرة ، منها : أن يجعل باطنه ـ كما ظاهره ـ متواضعاً ، اذ لا قيمة من الظّاهر المتواضع مع وجود الضّمير المستعلي . وأن يجعل نفسه كأحدهم ، فهم كما تقدم يرغبون وينجذبون الى من يتواضع لهم ويتذلّل ، ويبتعدون وينفرون عمن يتكبّر عليهم ويستعلي . ومن التّواضع أن يقوم المرء بما يقومون به ، وأن لا يتميّز على اقرانه ، فمقياس التميّز هو التّقوى والعمل الصّالح ، وأن يعطي النّاس ما يحبّ أن يُعطى ، وأن يعرف قدر نفسه فلا ينسب اليها ما لا تتمتع به من خصال وكفاءات وقدرات ، وان لا يجب ان يأتي الى أحد

إلا ، بمثل ما يؤتى اليه ، وأن يردّ العمل السيء بالعمل الحسن ، وان يكون حليماً هادىء الاعصاب ، يعفو عن الناس ، ويبدأهم بالسّلام والتحية ، ويجلس حيثما انتهى به المجلس ، وأن يكون كارها للرياء والسّمعة في العمل، مقتدياً بعظماء التّاريخ ورموزه . .

إنّ أعظم الرّموز والقدوات للإنسان في التّواضع، هم الأنبياء والائمة ـ عليهم السلام ـ والصّالحون . فرسول الاسلام محمد (ص) ـ وهو النبّي العظيم ـ كان في قومه كأحدهم ، يعقل البعير ، ويكنس المنزل ، ويحلب الشاة ، ويخصف النّعل ، ويرقع الثوب بيديه ، وياكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا تعب ، ويشتري من السّوق ، ولا يمنعه الحياء أن يلعق الطّعام بيده .

* * *

« عن الحسن الصّيقل قال : سمعت أبا عبد الله (الامام الصّادق) (ع) يقول : مرّت إمرأة بدويّة (بذيّة) برسول الله (ص) يأكل وهو جالس على الحضيض(*) ، فقالت : يا محمد ، والله إنّك لتأكل أكل العبد وتجلس جلوسه ، فقال لها رسول الله (ص) : ويحكِ ! أيّ عبد أعبد . قالت : فناولني لقمة من طعامك ، فناولها ، فقالت : لا والله ، الّا التي في فمك ، فأخرج رسول الّله (ص) اللقمة من فمه ، فناولها ، فأكلتها »[١٦] .

* * *

ومع الناس كان (صلوات الله وسلامه عليه) يصافح الغنيّ والفقير ، والكبير والصغير ، والاسود والابيض ، وكان هو المبادر بالسلام عليهم . ولم تكن له حُلّة لمدخله وأخرى لمخرجه ، وإذا ما دُعي ولو من قبل شخصٍ أشعث أغبر ، كان يستجيب لدعوته ، ولا يُحقر ما دُعي اليه أبداً ، وإن كان خبزاً ، أو ماءاً .

والامام عليّ بن ابي طالب (ع) ـ وهو الحاكم على خمسين ولاية ـ كان على عظمته ، وسلطانه ، وشرفه ، يمشي في الأزقة ، ويساعد المحتاجين ، ويتفقد

(*) الحضيض : القرار من الأرض عند أسفل الجبل .

(١٦) الصّياغة الجديدة ، ص٥٠ .

المساكين ، ويلبس الملابس المتواضعة ، ويحمل حاجيّاته على كتفيه ، وكان النّاس يأتون اليه ، ويقولون :

يا أمير المؤمنين ، دعنا نحمل عنك .

فيردّهم قائلاً :

« صاحب العيال أحقّ بحمله » .

* * *

« وكان (ع) يأبى التّرفع عن رعاياه في المخاصمة والمقاضاة ، بل إنه كان يسعى الى المقاضاة إذا وجبت لتشبعه من روح العدالة . من ذلك أنّه وجد درعه عند عربيّ مسيحيّ من عامّة النّاس ، فأقبل به الى أحد القضاة واسمه شُريح ، ليخاصمه ويقاضيه .

« ولما كان الرّجلان أمام القاضي ، قال عليّ : إنّها درعي ولم أبع ولم أهَبْ ! فسأل القاضي الرّجل المسيحيّ : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال العربي المسيحي : ما الدّرع الاّ درعي ، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب ! وهنا التفت القاضي شريح الى عليّ ، وقال : أصاب شريح ، بما بيّنه ! فقضى شريح بالدّرع للرّجل المسيحيّ ، فأخذها ، ومشى أمير المؤمنين ينظر اليه !

« إلاّ أنّ الرّجل لم يخطُ خطواتٍ قلائل ، حتّى عاد يقول : أمّا أنا فأشهد أنّ هذه أحكام أنبياء ! أمير المؤمنين يدينني الى قاضٍ يقضي عليه ! ثم قال : الدّرع - والله ! - درعك يا أمير المؤمنين ، وقد كنت كاذباً فيما ادعيت ! وبعد زمن شهد الناس هذا الرّجل وهو من اصدق الجنود وأشدّ الأبطال بأساً وبلاءاً في قتال الخوارج يوم النّهروان »[١٧] .

* * *

وفي رواية :

« قال عيسى بن مريم (ع) للحواريّين : لي اليكم حاجة ، إقضوها لي .

---

(١٧) جورج جرداق : عليّ وحقوق الإنسان ، ص٨٧ ، ٨٨ .

فقالوا : قُضيت حاجتك يا روح الله .

فقام فغسل أقدامهم ، فقالوا : كنّا احقّ بهذا منك .

فقال : إن أحق النّاس بالخدمة ، العالم ، إنّما تواضعت هكذا لكي تتواضعوا بعدي في النّاس كتواضعي لكم .

ثم قال عيسى (ع) :

« بالتّواضع تعمر الحكمة لا بالتكبر وكذلك في السّهل ينبت الزّرع لا في الجبل »(١٨) .

والإمام الحسين (ع) ذلكم الرّمز التّاريخي الخالد ، كان ـ ولا يزال ـ قدوة وأسوة للنّاس في الاخلاق الكريمة ، ومنها التّواضع ولين الجانب . وينقل التّاريخ أنّه (ع)« مرّ على فقراء يأكلون كسراً من أموال الصّدقة ، فسلّم عليهم فدعوه الى طعامهم ، فجلس معهم ، وقال : لولا أنّه صدقة لأكلت معهم ، ثم دعاهم الى منزله ، فأطعمهم ، وكساهم ، وأمر لهم بدراهم »(١٩) .

وهكذا فلكي يضمن المرء أساساً هامّاً من أسس التّعامل مع الناس ، ولكي يدخل الى قلوبهم ، ويصبح محبوباً محشوداً ، مرفوعاً بينهم، عليه بهذا الأساس ، والمبدأ العظيم الذي طبّقه والتزمه كلّ الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ والصّديقون والصّالحون ، ألا وهو :

« التّواضع » .

تقدير النّاس والإهتمام المخلص بهم:

قال الرسول الأعظم(ص) :

« جُبلت القلوب على حبّ من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها »(٢٠) .

هل جرّبت اصطياد الطّيور بالأفخاخ ؟

---

(١٨) الإمام الشّيرازي : الصّياغة الجديدة لعالم الايمان والحريّة والرّفاه والسلام ، ص ٦٦١ .

(١٩) باقر شريف القرشيّ : حياة الإمام الحسين ، ج٢ ، ص١٢٥ .

(٢٠) ميزان الحكمة ، ج٨ ، ص٢٥١ .

إذا كنت قد جربت ، ماذا كنت تفعل ؟

لا شك أنك ـ في البداية ـ تنصب الفخّ في مكان مُغْرٍ آمنٍ ، وتضع فيه طعماً مغرياً للطيّر ، ثم تقوم بحركاتك الهادئة الحانية بالاحسان الى الطّير ، وتوجيهه برفق ، واهتمام الى مصيدتك ، فتصطاده . ولو أنّك فعلت خلاف ذلك ، لرأيت أنّك كلّما وجّهت الطير الى المصْيدة ، وهديته اليها ، كلما نفر ، وطار بعيداً عنها .

وهكذا الحال بالنسبة للناس ، فهم أشبه شيء بالطيور الحائمة ، فلا يمكن للمرء اصطيادهم ، وتكوين علاقات انسانيّة ، وصداقات موفّقة معهم إلا إذا أحسن اليهم ، وقدّرهم ، واحترمهم ، وأظهر الاهتمام المخلص بهم . وبديهةً ان المقصود ـ هنا ـ من اصطياد الناس ليس كسبهم من اجل الضّحك على ذقونهم ، ولا بهدف كسب المنافع والمصالح المادّية من ورائهم ، وانّما المقصود : التّعامل معهم كبشر بما يستتبع ذلك من أخذ وعطاء ، على أساس صدق النيّة والاخلاص .

وقد يسأل السائل :

كيف يقدّر المرءُ ، الناس ، وكيف يُظهر اهتمامه المخلص بهم ؟ .

يجيب على ذلك أحد الكتّاب فيقول :

« منذ سنوات مضت ، كنت أدرس فنّ كتابة القصّة في أحد معاهد الآداب والفنون . ورغبنا ـ نحن الطّلبة ـ في أن نستدرج مجموعة من أعلام القصّة ، ذوي الأوقات الثمينة الضيّقة لنفيد من تجاربهم . فكتبنا لهم نبثّهم إعجابنا بفنهم ، ونشرح شغفنا بقصصهم ، ولهفتنا على سماع نصائحهم الغالية ، وتعلّم أسرار نجاحهم . وقد وقّع هذه الخطابات أكثر من مائة وخمسين طالباً . ولم ننْسَ أن نذكر في خطاباتنا تلك ،أنّنا نعلم سلفاً كثرة مشاغلهم ، الأمر الذي قد يتعذّر عليهم الحضور شخصياً . ومن ثمّ أرفقنا قائمة تتألف من عدّة أسئلة لكلّ منهم ، تتعلق بحياته الشخصيّة ، وطريقته في الكتابة ، راجين الإجابة عنها . فماذا تظن كانت النّتيجة ؟ .

لقد ترك هؤلاء المشاهير ، أعمالهم ، وانصرفوا عن أبراجهم العاجية ،

وحضروا بأنفسهم الى المدينة التي بها المعهد ليمدّوا لنا يد المساعدة » .

* * *

هكذا إذن هي قلوب الناس ، إذا قدّرها المرء واحترمها واهتم بها باخلاص ، أقبلت عليه برغبة وشوق ، كما يقبل النحل على رحيق الازهار ، وان لم يقدّرها ، او ان ازدراها أو اساء اليها ، ولم يقدّم لها الاهتمام ، نفرت منه كما تنفر الطيور من فزّاعة منصوبةٍ في مزرعة .

* * *

والتّقدير وإظهار الاهتمام المخلص هو خلق عظماء التاريخ في معاملة الناس . إنّ أئمة أهل البيت (ع) كانوا يهتمون حتى بأعدائهم ، ـ فضلا عن محبّيهم ، وأنصارهم ، ومريديهم ـ رفقاً بهم ، وتحنناً عليهم ، ومن أجل اصلاحهم ، ولكي لا يدخلون النار بسببهم .

ويذكر التاريخ انّه حينما خرج أبو الاحرار الامام الحسين (ع) من مكّة متوجهاً الى العراق ، مع اهل بيته ، وأنصاره ، مرّ على منطقة يقال لها « شراف » ، وعند السّحر أمر فتيانه أن يملأوا بالماء ما لديهم من القُرب والاوعية ، ويكثروا ، ففعلوا ، ثم واصلوا المسير .

وفي منتصف النهار قال له بعض اصحابه :

سيّدي أبا عبد الله !

إنّنا لنرى من بعيد سعفات النّخل وهي تتمايل . فقام الامام الحسين (ع) ، وأنعم النظر ، ثم قال للرجال : بل هي حركات الرّماح والأسنّة ! .

فأراد الامام الحسين (ع) أن يلتجىء الى مكان ليستريح ، فالتجأ الى جبل يقال له « ذو حسم » . وحينما وصل الى الجبل وضرب أبنيته ، فوجىء بألف فارس ، يقودهم الحرّ بن يزيد الرّياحي . وكان الحرّ قد كلفّه عبيد الله بن زياد ـ والي يزيد بن معاوية على الكوفة ـ بأن يجعجع بالامام الحسين إلى مكة ، لا يرجعه الى مكّة ، ولا يوصله الى الكوفة .

والشّاهد المنظور في هذه القصّة ، أنّ الحرّ وفرسانه قد اصابتهم حالة من الظمأ الشديد ، فأمر الامام الحسين (ع) أصحابه بأن يسقوهم ، ويُرشفوا خيولهم ، فشربوا ، ورشفوا خيولهم . حتى أنّ من ضمنهم علي بن طعّان المحاربي ، لم يكن ليستطيع أن يمسك بالقربة ليشرب ، لاهتزاز في يديه من شدّة ما أجهده الظّمأ ، فجاء اليه الامام الحسين (ع) بنفسه - بأبي وأمّي وسقاه الماء حتّى ارتوى[٢١] !

وكثيراً ما كان الامام الحسين (ع) يظهر الاهتمام بأعدائه ويشفق عليهم ، ويتقطع ألماً لحالهم ، حتّى إنه بكى في يوم عاشوراء ، ولما سئل عن السبب في بكائه أجاب :

« انّني أبكي على هؤلاء القوم لأنهم يدخلون النّار بسببي » !

* * *

وإذا كان تقدير الاعداء والاهتمام بهم هو أسمى درجات التّقدير والاهتمام ، أليس من ألأولى بالمرء ان يقدّر الناس الطّيبين ويهتم بهم ؟

إنّ التّقدير المخلص المنزّه والبعيد عن الملق هو من أهم الاسس والاساليب في معاملة الناس وكسب ودّهم والتّأثير فيهم ، ذلك لأن قلوب الناس ونفوسهم مجبولة على حبّ من يقدّرها ويهتم بها ويحسن اليها ، وعلى كره من لا يقدّرها ولا يهتم بها ، ويسيء اليها ، وأنها مجبولة على التقرب ممن تألفها .

يقول الامام علي (ع) :

« قلوب الرّجال وحشيّة ، فمن تألفها أقبلت عليه »[٢٢] .

ومن وجوه التّقدير والاهتمام بالناس الشّعور بأهميتهم ، واشعارهم بهذه الأهمية ، وإنّ إشعارهم بأهميتهم يفعل فيهم الشيء الايجابي الكثير .

* * *

وفي هذا السبيل يذكر أحد علماء النّفس قصّة فيقول :

---

(٢١) مقتل الحسين ، ص٢١٣ - ٢١٤ ، بتصرّف في العبارة .

(٢٢) نهج البلاغة ، ص٤٧٧ .

« لديّ مريضة تحوّل زواجها قبيل مرضها الى مأساة مفجعة . كانت تنشد الابناء ، والمركز الاجتماعي ، والسّعادة في حياتها ، ولكن الحياة ضربت بأمانيها عرض الحائط ! . لم يكن زوجها يحبها ، وأبت عليها الاقدار ان تنجب أطفالاً . فلما أُصيبت بالجنون ، أصبحت تتصوّر في تخيلاتها انّها طُلقت من زوجها وتزوجت من رجل عظيم ، وأصرّت على ان تُنادى بإسم اخر . أمّا عن الاطفال فهي تتخيل الآن أنّها تُنجب مولوداً في كل ليلة . وفي كلّ مرّة أزورها فيها ، تقول لي : هل علمت يا دكتور أنني رُزقت بمولود ليلة أمس ؟! »

أتظن ان جنون هذه السّيدة فاجعة أليمة ؟

« لقد وسعني ان أردّ لهذه السيدة عقلها لما فعلت ! لقد حصلت الان على السعادة التي كانت تنشدها ، وأرضت إحساسها بالأهمية الذي لم ترضِه دنيا الحقيقة .

« فاذا كان بعض الناس يتلهّفون على العظمة والاهمية حتّى يردوا موارد الجنون ، فأي معجزات تلك التي نستطيع أنت وأنا أن نأتي بها لو أشبعنا في الناس تلك الرّغبة ؟!

* * *

وما أشبه قلوب الناس بالوحوش التي لا تألف ! ولكن ما ان يبدأ المرء باستئناسها ، حتى تتحول الى حمائم اليفة ، تتحشدّ من حوله حبّاً فيه ، ورغبة اليه .

يقول الامام عليّ (ع) :

« قلوب الرّجال وحشيّة ، فمن تألفها أقبلت عليه »[٢٣] .

وإذ أن الامر كذلك ، فمن غير المعقول ان يكسب المرء إنساناً ويجعله يميل اليه ، ويرغب فيه ، من دون ان يشعره بأهميّته .

وهل يمكن للمرء ان يسمع أنّ إنساناً كسب ودّ آخر بتجاهله له ؟!

---

(٢٣) شرح الغرر والدّرر ، ج٧ ، ص١٤ .

إنّ من يتجاهل الناس ، ولا يشعر بأهميتهم ، ولا يشعرهم بهذه الأهميّة ، لن يجني الّا عدم شعورهم بأهميته، وعدم اشعارهم له بتلك الأهمية ، وذلك لأنّ من طبيعة الإنسان أنه يريد أن يصبح شيئاً مذكوراً .

وفي هذا الصّدّد يقول « جون ديوي » :

« إنّ أعمق دافع الإنسان الى العمل هو الرّغبة في أن يكون شيئاً مذكوراً » .

ولا شكّ أنّ هناك دوافع للعمل أقوى من الدّافع الذي ذكره « ديوي » ، وهي الدوافع الدّينية ، أو الدّافع الدّيني ، إذ أن مقولة« ديوي » تنطبق على المجتمع المادّي الذي تنعدم أو تضمحل فيه الرّوح الدّينية ، والدّافع الدّيني . أمّا في المجتمع الدّيني الايماني ، فإن أعمق دافع الإنسان الى العمل هو الامتثال للّه ، والشّعور بالواجب الملقى عليه ، هذا الواجب الذي يحدد مصيره وعاقبته في الدّار الاخرة ، وليس رغبته في ان يكون شيئاً مذكوراً . وبعبارة أخرى : إن ابتغاء رضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو اكبر دافع للإنسان المؤمن الى العمل ، سواء فيما يرتبط بالعبادات ، أو فيما يرتبط بالأعمال والمعاملات الاخرى .

ومع الايمان بأن اكبر دافع للإنسان الى العمل هو الدّافع الديني ـ وهو الدّافع الذي يجب ان تقام البنية التحتيّة للإنسان عليه باعتباره الدّافع السّليم والعقلائي والفطريّ ـ فإنه لا يُنكر ابداً دور الوجدان الداخلي ، ورغبة الانسان في ان يكون شيئا مذكوراً حتى في ظل المجتمع الايماني . فلا ترديد في أنّ تقدير الآخرين ، ومعرفة قدرهم ، والاهتمام بهم ، وإشعارهم بأهميتهم ورغبتهم في ان يكونوا شيئاً مذكوراً ، هي امور هامّة في دفعهم الى العمل ، وفي كسبهم والتأثير فيهم .

ومن أوجه تقدير المرء للآخرين واشعارهم بأهميتهم ، احترامهم وتعديد الصّفات الطيّبة فيهم من دون ملق ، وهو بذلك لن يخسر شيئاً ، بل انه لن يجني الا الودّ والكسب والتأثير في الطّرف الآخر حينما يقدّره ويشعره بأهميّته ، ويعدّد الصّفات الطيّبة فيه باخلاص .

قد يلتقي المرءُ عاملَ التّنظيفات ـ على سبيل المثال ـ ، فيقول له بإخلاص بعد تقديم السّلام عليه : إن الدّور الذي تقوم به هو دور اجتماعيّ جدير بالتّقدير ، إذ

يكفي أنّك تنثر رائحة ورود النّظافة في شوارع المدينة - أو القرية - وتجعل النّاس يتنفّسون هواءً طيّباً طاقاً ، وبذلك تسهم في محافظتهم على صحّتهم . ثمّ يعدّد فيه أخلاقه الحسنة ، وصفاته الطّيبة ، وإخلاصه في عمليّة التّنظيف .

إنّ هذه الكلمات التي يقولها المرء لعامل التّنظيفات ، تجعل الأخير يشعر باهمّيته ، وباحترام مهنته ، ويزداد ثقة بنفسه ، ويشعر أن المجتمع مشجع له ، متكافل معه . بل ربّما لو كان كسولاً أو مقصّراً - فإنّ هذه الكلمات الطّيبة تجعل منه فرداً نشطاً ، وفعّالاً في أداء مهمّته ، ومن الممكن أن يتحوّل إلى صديق لمن يقدّره ويشعره بأهمّيّته ، ويقدّم له التّقدير والاحترام ، ويذكره بخير في حياته وبعد مماته . ان كثيراً من النّاس يصيبهم المرض إذا أعجزهم اكتساب عطف النّاس عليهم واهتمامهم بهم .

وهذا يقود إلى أنّ تشجيع الآخرين ، ومدحهم وإطرائهم والثّناء والعطف عليهم من الأمور الضّرورية الهامّة في تقديرهم ، وإحسان التّعامل معهم وكسبهم والتأثير فيهم . مع العلم بأنّ التّشجيع يجب أن يكون مخلصاً نابعاً من القلب ، وأن الإطراء أو المديح يجب أن يكون متوازناً(*) ، مخلصاً بعيداً عن التملّق ، وبإمكان المرء أن يمتدح أقلّ إجادة بما يناسبها .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« الثّناء بأكثر من الاستحقاق ملق ، والتّقصير عن الاستحقاق عيّ وحسد »(٢٤) .

ان بثّ الحماسة في نفوس النّاس أمر عظيم في معاملتهم ، والسّبيل إلى ذلك : إجزال التقدير والانصاف في الثناء والمديح ، وليس اقتل للروح المعنوية للمرء من عدم تقديره ، وعدم إشعاره بأهمّيّته ، ونقده ولومه ، وتجاهل مدح إجادته .

وهكذا فلكي يحسن الإنسان معاملته مع النّاس ، خليق به أن يقيمها على

(*) إن الإجزال في المديح مطلوب من الذين لايمدحون مطلقاً ، أو يقصرون في المديح ، لأنهم إن مدحوا ربما لم يبلغوا حدّ الاعتدال .

(٢٤) نهج البلاغة ، الحكم .

أساس التّقدير المخلص النّابع من القلب ، ومنه :

- احترام الطّرف الآخر والعطف على رغباته المشروعة .
- الاهتمام المخلص بالنّاس .
- الشعور بأهمّيتهم .
- إشعارهم بتلك الأهمّية .
- تعديد الصّفات الطّيّبة فيهم .
- الإبتعاد عن الملق والتملّق في معاملتهم .
- تشجيع الآخرين ، وبث روح الحماس والإيجاب فيهم .
- الإعتدال في الإطراء والثّناء والمديح ، والإنصاف في ذلك ، معهم .

خلق الرّغبة الجامحة في الطّرف الآخر...

قال الإمام عليّ (ع) :

« رغبة العاقل في الحكمة ، وهمّة الجاهل في الحماقة »[٢٥] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« إنّا معاشر الأنبياء أُمِرنا أن نخاطب النّاس على قدر عقولهم »[٢٦] .

*

لو أنّ امرءاً يزاول صيد السّمك باستخدام الشّص[*] (السّنارة) وضع في شصّه الطعام الذي يحبّه هو ويرغب فيه ويشتهيه ، ولم يضع فيه الطُعم الذي يرغب فيه السّمك كالجمبري والدّيدان ، وما شابه ذلك ، أتراه يكون موفّقاً في صيده ؟!

بطبيعة الحال ، كلا !

(٢٥) شرح الغرر والدّرر ، ج٧ ، ص٧٨ .

(٢٦) ميزان الحكمة ، ج١٠ .

(*) الشّص : حديدة عقفاء يصاد بها السّمك ، وتُسمى السّنارة .

إنّ السّمك ينجذب الى الطُّعم الذي يرغب فيه هو ، لا الى ما يرغب فيه الصّياد.

وإذ أنّ الناس ينجذبون الى ما يرغبون فيه ويحبّونه ـ كما السمك ـ ، اليس من الاولى ان نستعمل مثل هذا « المنطق » في التعامل معهم ، وفي كسبهم والتأثير فيهم ؟

لا شك أنّ النّاس يرغبون فيما يحبّونه ، وحيث ان الامر كذلك فعلى المرء ان يتحدّث لهم عما يحبّون ، أمّا اذا حدثهم بما يحبّ هو فقد لا يشاطرونه هذا الحبّ . ومن هنا فمن الطرق المفضية الى التأثير في الطرف الاخر ، تحديثه فيما يحبّ هو ويرغب فيه ، ودلالته على طريقة الحصول عليه .

وهذه من القواعد المهمّة في محاولة حمل الشّخص ، أو الطرف الاخر على فعل شيء ، مع ضرورة التنبّه الى كون الشيء الذي يرغب فيه الناس ويحبونه والفعل الذي يريدهم المرء ان يقوموا به موافِقين المشّرع والعقل المؤدب والحق والخير والفضيلة لا مناقضين لها . إذ ليس من الصّحيح ان ينساق المرء في الكلام عمّا يحبّه النّاس كيفما كان ،وليس من الصحيح أيضاً ان يفعل ما هو خلاف الشرع والعقل . وإذا كان هذا الأمر يتّبع في المجتمعات المادّية وغير الدّينية فإنه غير جائز في المجتمعات الايمانية وفق النّظرة الدّينية ، الا لاضطرار ، او ضرورة ، والضّرورة تقدّر بقدرها .

انّ خلق الرّغبة الجامحة في الطّرف الاخر لكي يفعل ما يريده المرء عن طريق الدّخول اليه ممّا يحبّه ويرغب فيه ، طريقة فنيّة هامّة في التعامل مع الناس ، كبارهم وصغارهم ، بل حتّى مع بعض الحيوانات كالعجول والقردة . فإذا كان امرؤٌ يزمع أن يقنع صديقاً له ـ مثلاً ـ عن التدّخين ، فالافضل ان لا يحدّثه بما يرغب فيه هو ، وإنما بما يرغب فيه صديقه المدّخن ، كأن يبينّ له أن التدّخين يعيقه من صعود الجبال الذي يهواه مثلا ، وبذلك قد يقتنع بالكفّ عن التدّخين .

وعن التأثير في سلوك الحيوانات ، يقول أحد الكُتّاب :

« أراد (ر . و . ا) ، وابنه الصّبي ـ ذات يوم ـ أن يحملا عجلاً صغيراً على

العودة الى زريبته ، ولكنّهما أخطئا إذ وضعا نصب أعينهما ما يرغبان فيه وحسب : ظلّ الرّجل يدفع العجل ، وظلّ ابنه يجرّ على غير طائل ! فقد فعل العجل الصغير مثلهما فعلا تماماً ، وضع نصب عينيه ما يرغب هو فيه ، فثبّت قوائمه في الارض ، وأبى أن يتزحزح عن مكانه قيد شعرة !

« وشاهدتْ زوجة الرّجل هذا المشهد من نافذة دارها ، ولم تكن ـ كزوجها ـ تكتب الفصول ، وتؤلّف الكتب . ولكنّها كانت تعرف ما يريده صغار العجول ، فأسرعت الى العجل الصّغير ، ووضعت إصبعها بحنان الأمومة في فمه ، وتركته يمتصه راضياً » .

* * *

يقول « هاري ا . أوفرستريت » في كتابه « التّأثير في التّصرف الإنساني »[٢٧] : كلّ نشاط إنشائيّ مصدره رغبة متأصّلة في النّفس . ومن ثم فأفضل نصيحة للذين يشتغلون بإقناع النّاس ، سواء في العمل ، أو في البيت ، أو المدرسة ، أو في ميدان السّياسة هي هذه : أخلق أوّلاً في « الشّخص الآخر » رغبة جامحة في أن يفعل ما تُريد .

إنّ هذه القاعدة وإن كانت مهمّة في التّعامل مع كلّ النّاس بلا استثناء ، فهي ضرورية الاستعمال مع من لا يبدون موافقة او طاعة مباشرة بفعل ما يريده المرء منهم أن يفعلوا .

* * *

وعن التأثير العملي لهذه القاعدة ، كتب احد المؤلّفين :

« اعتدت أن استأجر الرّدهة(*) المطلة على الحديقة في فنادق احدى المدن ، لمدة عشرين ليلة في كلّ موسم ، لألقي فيها سلسلة من المحاضرات . وفي بداية أحد المواسم ، فوجئتُ بإخطارٍ من الفندق ، يطالبني بايجار يبلغ ثلاثة أضعاف ما اعتدت ان أدفع ، وقد أتاني هذا الاخطار بعد ان وُزِعت تذاكر الدّعوة ، وظهرت

(٢٧) Harry A. Overstreet, "Influencing Human Behaviour".

(*) الرّدهة : أوسع مكان في البيت ، وتُدعى بلفظ معّرب « صالة » من لفظة « saloon » الانكليزية .

الاعلانات في الصّحف .

« ولم ارغب ـ طبعاً ـ في الزّيادة ، ولكن ما فائدة أن أُحدِّث أصحاب الفندق فيما ارغب فيه ؟

وذهبت الى مدير الفندق ، وقلت له : لقد صُدمت ـ حقيقة ـ عندما وصلني إخطاركم ، ولكنّي لا ألومكم على الاطلاق ، بل ربّما او كنت في مكانكم ، لفعلت بالضّبط ما فعلتموه ، فإنّ من واجبك كمدير لهذا الفندق ، (أن تجني أكثر ما يمكن من الارباح) ، فإذا توانيت في ذلك فربّما أُقلت من وظيفتك ، ولكن أرجوك ان تسمح لي بتعديد الفوائد ، والمضارّ التي قد تعود عليكم اذا أصريتُم في طلب زيادة في الايجار .

« قلت هذا ، ثمّ تناولت ورقةً وقلماً ، ورسمت بالقلم خطاً عمودياً يقسم الورقة الى قسمين ، كتبتُ في أعلى القسم الأوّل كلمة « الفوائد » ، وفي أعلى القسم الثاني كلمة « المضارّ » وكتبت تحت الفوائد هذه العبارة : « الاحتفاظ بالرّدهة خالية » .

« ثم تابعت حديثي للمدير :

« وطبعاً يفيدكم ان تحتفظوا بالرّدهة خالية ، لتؤجرّوها للمحفلات ، مما يعود عليكم بربح يفوق مما تعود به عليكم سلسلة من المحاضرات .

« والآن لننتقل الى المضارّ . فأولاً بدلاً من ان تزيدوا دخلكم ، ستقلّلونه ، بل الحقيقة أنّكم ستفقدونه تماماً ، لأنّني لا أعتزم أن ادفع هذا الأجر الباهظ . ثم ان هناك « فائدة » أخرى لكم ، تلك هي أن المحاضرات سوف تجتذب الى فندقكم طائفة من المثقّفين ، ذوي المراكز والوجاهة ، وهذا فيما اخال خير اعلان للفندق ، أليس كذلك ؟ بل في الحقيقة أنّكم اذا أنفقتم ٥٠٠٠ ريال على الاعلان عن فندقكم ، في الصحف ، لما امكنكم ان تأتوا بمثل هذه النّخبة من النّاس ليشاهدوا فندقكم .

« ثم سلّمت الورقة للمدير قائلاً :

« كم أُقدّر ان تقدّروا هذه الفوائد ، والمضارّ ، حق قدرها ، ثم تعطوني

كلمتكم الأخيرة .

« وفي اليوم التّالي ، تسلّمت خطاباً من المدير ، يخبرني فيه أنّه قرر زيادة الايجار بمقدار ٥٠ في المئة فقط ، بدلاً من ٣٠٠ في المئة !!

« والمهمّ في هذا كلّه أنّني حصلت على هذا التّخفيض دون ان انبس بكلمة مما أرغب فيه ، وما حضرت لأجله ، بل كنت أتكلم ـ على طول الخطّ ـ عمّا يرغب فيه محدّثي ، وأُريه كيف يحصل عليه !

« ولنفترض أنني فعلت مثلما يفعل سائر الناس .. هب أنّني اندفعت الى مكتب مدير الفندق قائلا : ماذا تعني برفع الأجر بنسبة ٣٠٠ في المائة ، في حين أنّك تعرف أن تذاكر الدّعوة قد وُزعت ، وأنّ الإعلانات قد نُشرت في الصّحف .. ثلاثمائة في المئة ؟! هذا ابتزاز .. هذه سرقة .. لن أدفع شيئاً من هذا ، فما الذي كان يحدث عندئذٍ ؟ سينشب ـ بالطبع ـ جدال عنيف وأنتم تعلمون كيف ينتهي الجدال عادة ! وحتّى لو أقنعتُه بأنّه مخطيء ، لمنعه كبرياؤه عن الاقرار بخطئه ! »

* * *

وربّما يقول قائل :

إنّ من اللّف والدّوران أن المرء إذا أراد اقناع شخصاً آخر بفعل عمل خير ما ، أن ينطلق معه من الشيء الذي يرغب فيه ويحبّ ، ويكفي أن يقول مايريد بصورة مباشرة ، ولا داعي للحشو .

والحقّ أنّ النّاس ليسوا على درجة واحدة بالنّظر الى اقتناعهم بفعل ما يريده الآخرون منهم من أعمال ، بل أنّ كبرياء الانسان ـ وربما عناده ـ قد يمنعه من القيام بالعمل المراد منه حتّى وان كان مقتنعاً به داخلياً . ومن هنا فإن من أسرار النّجاح في معاملة الناس : القدرة على إدراك وجهة نظر الشّخص الاخر ، والنّظر الى الاشياء بالمنظار الذي ينظر به اليها ، مع التأكيد على أنّ الأعمال المراد أن يفعلها الشّخص الآخر ، ورغباته هو يجب أن تكون في إطار الشّرع والعقل والحكمة والحقّ والخير والفضيلة ، اذ ليس من الشرع والعقل حثّ الشّخص الآخر بعمل

خلافهما ، والانطلاق من رغبات له تناقض الشّرع والعقل .

ويقول الكاتب السّابق :

« كان أحد طلابتي شديد القلق على طفله الذي كان معتلّ الصّحة ، فاقد الشهيّة للطّعام ، واستعمل وزوجته الطّريقة المعتادة : نهرا الطفل ولاماه ، « أمّك تريد أن تأكل هذا » . . « أبوك يرغب في أن تنمو وتصبح رجلاً » . . فهل أهتمّ الطّفل بهذه « الرّغبات » ؟! كلا ! وهل يتوقّع إنسان ـ بالغاً ما بلغ من الغباء ـ أن يستجيب طفل في الثالثة لوجهة نظر أب في الثلاثين ؟!

« وقد أدرك تلميذي (أبو الطفل) خطأ تفكيره أخيراً ، فجعل يسائل نفسه : « ماذا يريد الطّفل ؟ وكيف أوفّق بين ما أريد ، وما يريد ؟ » .

« وحين بدأ يفكّر على هذا النّحو ، سرعان ما حُلّت المشكلة . فقد كان للطّفل درّاجة يحلو له ان يركبها ويذرع بها الطّريق الممتدة أمام بيته ، ولكنّه كان يهاب صبيّاً يكبره سنّاً يقطن بالقرب منه ، ويلذّ له دائماً أن يُنحي الطفل عن درّاجته ليركبها هو عنوةً واقتداراً ، فكان صاحبنا الصّغير يهرع الى أمّه باكياً ، فتخرج المصّبي وتستخلص منه الدّراجة !

« فماذا كان الطّفل يريد ؟ لقد كان يريد ـ طبعاً ـ (*) الانتقام من هذا الصّبي الذي طالما جرح كبرياءه ، وأذلّ إحساسه بالأهميّة !

« وعرف أبوه هذا ، فأقبل عليه يمنّيه بأنّه يسعه أن ينتقم من غريمه هذا لو أنّه أكل ما تريده أمّه أن يأكله ، وعندئذٍ حُلّت المشكلة ! فقد أبدى الطّفل استعداده لأن يتناول أصناف الطّعام بلا استثناء لكي ينمو ويكبر ، ويتسنى له ان يؤدّب ذلك (الصبي) الذي طالما أصاب عزة نفسه في الصّميم » .

وكما أنّ خلق الرّغبة في الشّخص مفيد في اقناعه بفعل ما يراد منه ، فإن تجاهل تلك الرّغبة ، أو عدم أخذها بعين الاعتبار قد يجعل الشّخص الآخر نافراً

(*) من التربيّة الصّالحة تعويد الطفل الصغير على العفو والصفح والتسامح مع نظرائه ، لا على الانتقام ، مع تعويده على الدفّاع عن نفسه .

رافضاً .

* * *

وعن هذا يقول نفس الكاتب السّابق :

« . . . كنت ادخل عيادة اختصاصي شهير في أمراض الأنف والأذن والحنجرة . وقبل ان يفحص الطّبيب حنجرتي ، سألني : ما عملي ؟ . إنّ اهتمامه لم يكن منصباً على مرضي بقدر ما كان منصباً على «مقدرتي المالية» ! ولم يكن شاغله مدى المساعدة التي يمكنه ان يسديها لي ، بل مدى ما يستطيع ان يحصل عليه منّي .

وماذا كانت النتيجة ؟

لقد غادرت عيادته وكلّي ازدراء له . والعالم غاصّ بمثل هذا الطبيب . . . أناس يسيطر عليهم الجشع ، والأنانية ومن ثم فالذي يسعى مخلصاً لخدمة غيره ، بميزة عظيمة ، هي أنّ منافسيه ليسوا من الوفرة بمكان » .

ومن الامور التي تساعد في ترغيب الشّخص الآخر أو الطرف الآخر ـ واقناعه بفعل ما يراد منه ، وتؤدي دوراً في كسب ودّه وحبّه ، وضع النّفس موضعه ، وفهم عقليّته ومخاطبته على قدرها .

وأن يضع المرء نفسه موضع الطّرف الاخر ، وفهم عقليّته ، هذه الكلمة تحمل اكثر من معنى ، من ذلك : أن يتصوّر المرء نفسه كما لو أنّه في موقع الطّرف الآخر ، كيف كان يتصرّف . وهنا بعض الأمثلة البسيطة :

قد يشاهد المرء موظّفاً من موظّفي البريد ، وهو يؤدي معاملات لآخرين بانفعال ، وكدر ، وعدم راحة بال ، فيقول المرء : كيف يتصرّف هذا الانسان ؟! انّ تصرّفه غير صحيح ولا عقلائي . ولو أنّه وضع نفسه مكانه ، لربّما تصرّف مثله أو أسوأ منه . ولا يعني هذا عدم وجود أخطاء في التصرّفات ، بصرف النّظر عن متاعب الشّخص الآخر ومعاناته في العمل .

وقد يدخل الشّخص بقاليّة ، لشراء بعض المستلزمات ، ويحدث أنّ صاحب

البقّالية يعاني من مشكلات خاصة ، فينهره الأخير ولا يتعامل معه بشكل لائق . ولو أنّ الشّخص كان مكان صاحب البقاليّة لكان يعاني مثلما يعاني ، ولربّما تعامل مع الآخرين بنفس الطّريقة .

وقد يقوم المرء بزيارة الى مستشفى لتلقي علاج ، أو لعيادة صديق ، ويحدث ان يطلب خدمة او مساعدة من ممرّضة ألمّ بها التّعب والنّصب من جرّاء عملها الإنساني المزدحم المتعب ، فيحصل ان تحدّثه بأسلوب جافّ ، ولو أنّه كان في مكانها لربّما فعل اكثر ممّا فعلت . ولا يعني هذا ان يلتمس المرء الأعذار للنّاس في كلّ تصرّف خاطىء يقومون به ، وإن كان ايجاد الاعذار والتماسها ، من الطّرق التي تساعدهم على تلافي أخطائهم ، مع العلم بأن إختلاق الاعذار للناس لتبرير أخطائهم ـ وخصوصاً الكبيرة منها ـ قد تجعلهم يصرّون على ممارسة الأخطاء ، ويتمادون فيها ، ويتشجعّون عليها .

وعليه فالمعنى الآخر لوضع النّفس موضع الطّرف الآخر وفهم عقليّته ، أن لا يبرر المرء اخطاء النّاس وتجاوزاتهم غير العادية ، ويختلق لهم الاعذار ، من أجل السكوت على أخطائهم ، وعدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، أو من أجل ان يضحك على ذقونهم ، ويحصل منهم على مكاسب ماديّة ، كما يحدث في الغرب ، . وفي المجتمعات غير الايمانية الاخرى ، وانّما المطلوب تقدير وضع الشّخص ، وفهم عقليّته ، ومخاطبته بمستواها ، ليس الا .

والمعنى الثالث لهذه الكلمة ان يخاطب المرء ، الناس ، ويتعامل معهم على قدر عقولهم . فحتّى الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر أمرهم ـ سبحانه وتعالى ـ بمخاطبة النّاس على قدر عقولهم . وكمثال على مخاطبة الشّخص الآخر على قدر عقله(*): قد يكون المرء طبيباً، ويأتي إلى عيادته شخص أميّ، لم ينل درجة من الوعي والعلم والمعرفة ، فعلى الأوّل أن لا يزدريه ، وأن لا ينظر اليه

(*) هذه القاعدة مفيدة حتّى على صعيد الأحاديث الطيبة بين طرفين ، فليس من اللائق أن يتحدث اخصائي الذرة والالكترونات ـ مثلاً ـ عن أمور علامية دقيقة ضمن تخصّصه مع رجل أمّي أو عديم المعرفة بتلك الأمور .

بنظرة فوقية ، وأنّه دونه ، بل عليه أن يتواضع له ، ويتعامل معه على قدر عقله ، وسيجد الطّبيب أن هذا الشخص ينجذب اليه ، ويكون هو قد كسبه .

وقد يكون المرء مديراً أو مسؤولاً أو موظفاً في ادارة ، او في شركة ، أو في أي موقع أخر ، ويزوره شخص ما لإجراء معاملة ما ، فإن على المرء ان يتعامل معه على قدر عقله .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة الناس ويكسبهم الى جانبه ، خليق به ان يخلق فيهم الرّغبة الجامحة في ان يفعلوا ما يريد ، و :

● أن يحدثهم فيما يطيب لهم من الحقّ والخير . ويدلهم على طريقة الحصول عليه .

● أن يقدر وجهة نظرهم ، وينظر الى الاشياء من المنظار الذي ينظرون به إليها، شريطة ان تكون نظرتهم محقّة ومشروعة وعقلائية .

● وان يضع نفسه موضعهم ، ويفهم عقليّتهم ، ويتعامل معهم ويخاطبهم على قدرها .

تداشي الجدال

قال الله ـ سبحانه وتعالى :

﴿ وجادلهم بالتي هي احسن ﴾[٢٨] .

ويقول الامام علي (ع) :

« لا محبّة مع كثرة مراء »[٢٩] .

ويقول (ع) أيضاً :

« ثمرة المراء : الشّحناء »[٣٠] .

❋

كما أنّ الجدال في الله وآياته بغير علم يورث الشك والضّلالة وفساد اليقين ، كذلك فإنه في معاملة الناس يفسدها ويدقّ إسفيناً فيها . ولا يعني هذا ان الجدال منهيّ عنه مطلقاً ، لكنّ المنهيّ عنه هو الجدال بغير التي هي احسن . ومن هنا فالمطلوب ، هو الجدال « بالتي هي احسن » .

إنّ ما من إنسانين يجتمعان ، ويتبادلان الآراء ، الاّ ويحصل بينهما تفاوت فيها . وليس المقصود من هذا ان المطلوب من الناس ان تختلف مع بعضها ، لأنّ

---

(٢٨) ١٢٥ / النّحل .

(٢٩) الغرر والدُرر .

(٣٠) المصدر السابق .

الاختلاف وان كان قضيّة موجودة في الحياة ، فإن الدّين لا يدعو لها إذا كانت مدعاة الى عدم الإئتلاف، وهدم الآراء ، وشقّ الوحدة . إنّ من آداب الإختلاف : الاحترام المتبادل بين الشّخصين أو الجهتين المختلفتين .

وقد يلتقي شخصان ويتحادثان في موضوع ما ، فيتصلّب أحد الطّرفين لرأيه ، بصرف النّظر عن كونه على الصّواب ، أو على الخطأ .

وقد يشترك المرء في جلسة شورائيّة مع بعض إخوانه وأصدقائه ، لمناقشة موضوع معيّن ، فليعلم أنّه عقل ، واخوانه مجموعة عقول ، ومن هنا فإن مسألة الاختلاف في الآراء ووجهات النّظر تكون واردة ، وان كان هناك اتّفاق على الأطر العامة . وتبادل الآراء ووجهات النّظر بشكل موضوعي ، هادىء ، هادف ، هو من المجادلة بالتي هي احسن ، المذكورة في القرآن الكريم . أمّا أن يتحوّل الحوار ، أو النقاش ، أو تبادل الآراء الى حلبة مصارعة ، وينشب التعصّب الفكري ، فهذا من الجدال السّلبي . . الجدال الذي لا تحمد عواقبه ، ولا يؤيده الاسلام والقرآن ، والجدير بأن يُتجنّب . ولا يعني هذا أنّ المرء بترك الجدال العقيم يتنازل عن آرائه إذا كان محقاً ، بل ما فائدة التعصّب للفكرة المحقّة مع مجادلة الطّرف الآخر واصراره على صحة فكرته او رأيه ؟ . إنّ المرء بدل ان يصرف الوقت والجهد في إيصال أفكاره وآرائه المحقّة الى إنسان مجادل ، عليه أن يتوقّف عن الجدال ، ويوصل أفكاره وآراءه الى من هو أهل لها ، ومن يتقبلها .

هب أنّك اختلفت في الرأي مع طرف آخر في قضيّة ما . فهنا يحدث أمر من أمرين : إمّا ان يكون هو المخطىء وأنت المحقّ ، وإمّا العكس . فإذا كنت انت المخطىء فسلّم بخطئك ، وإذا كنت انت المحِقّ ، فلا بأس ان تبيّن له رأيك بشكل محدّد ، واضح ، وبالتي هي احسن . وإذا أصرّ الطّرف الآخر على ان فكرته هي السّليمة ، وانت تعلم يقيناً أنّها ليست كذلك ، وجادلك من أجل إخضاعك لآرائه ، فإنّ أفضل طريقة لإنهاء هذا الجدال ، هو أن تتجنّبه . لأنّ هذا الجدال سيتحول الى نقاش عقيم من جهة ، ومن جهة اخرى إن معاملتك للطّرف الآخر ، وعلاقتك الاجتماعية لا يستبعد أن يدقّ فيها اسفين الشّحناء

والتّباغض والتباعد ، فضلاً عن أنّ شخصيتك قد تُهان ، أو تسقط اذا استمريت في الجدال .

إن الجدال العقيم ، أو المراء هو الزّاوية الحادة التي يخلق بالمرء أن يتجنبها ، وهو مدعاة الى أمور غير محدودة منها :

- إمراض القلوب على الإخوان أو الاصدقاء أو النّاس .
- نشوب الخصومة .
- إفساد الصّداقة القديمة .
- تحليل العلاقات الوثيقة .
- حدوث القطيعة .
- ذهاب بهاء الشّخصية .
- الحقد .
- الوقوع في الغلط والخطأ .
- سقوط الحجة .
- الايباق (الوقوع في الموبق) .
- انبذار الشرّ في النّفس .

وكثيرة هي الأحاديث الشّريفة التي تدعو الانسان الى ترك الجدال والمراء سواء كان مُحقاً أو مُبطلاً . إنّ من حقيقة الايمان ان يترك الانسان المراء وإن كان محقّاً ، كما أنّ من التواضع ذلك . والمراء مذموم سواء كان مع العلماء أو الجهلاء أو الحلماء أو السّفهاء ، أو مع أي طبقة أو فئة أخرى من الناس .

* * *

يقول احد خبراء علم النّفس الاجتماعي :

« منذ سنوات مضت التحق بمعهدي رجل مولع بالجدال والتحدّي . كان

يشتغل وسيطاً لاحدى شركات سيّارات النّقل ، ولكنه لم يُصادف نجاحاً يذكر ، ولهذا لجأ إليّ ، فاستكشف أنّ سرّ إخفاقه هو طول باعه في اللّجاجة ، والجدال ! وعندئذٍ لم يكن همّي الأوّل أن أعلّم هذا الرّجل كيف يتكلّم ، بل كان همّي الأوّل أن أدرّبه على ألاّ يتكلّم ! والرّجل الآن في القمّة بين وسطاء شركة (س) للسيّارات ، في مدينة « ن » ، فكيف تأتّى له ذلك ؟ .

« ها هي قصّته كما رواها :

« دخلت يوماً مكتب عميل كنت أرغب في أن أبيعه سيارة جديدة ، فما أن علم بمهمّتي حتى صاح : ماذا؟! سيارة من (س) ، إنّها أسوأ السيّارات جميعاً ، بل إنّني لا أقبلها لو أعطيتني إيّاها بدون مقابل ! إنّني سأشتري سيّارة من شركة (ص) ! وعندئذٍ قلت له : خيراً ما تفعل يا سيّدي ! إنّ شركة (ص) شركة طيّبة ، وبائعوها رجال طيّبون .

وسرعان ما زالت عن الرّجل حدّته الأولى ، فلم يبق هناك مجال للجدل ما دمتُ قد أقررتُه على وجهة نظره ! إنّه لن يقضي طول اليوم يقول : إن سيّارة (ص) أحسن ما دمت أنا قد وافقته على ذلك . وانتهزت فرصة سكوته ، فَرِحتُ أطرق نواحي القوّة في سيّارة (س) ، والفروق الدقيقة بينها وبين سيّارات (ص) ، فلم أُغادر مكتبه ذلك الصّباح حتّى كنت قد بعته سيّارة جديدة .

« وقد مرّ بي زمن كانت فيه عبارة جارية كتلك التي فاه بها العميل ، تجعل الدّم يغلي في عروقي ، فأشنّ على العميل حرباً عواناً ، وأهاجم سيّارات (ص) في قسوة عنيفة ، وكلّما ازددت هجوماً على (ص) ، كلّما استمسك المشتري برأيه في افضليّتها ، وكلّما أمعن المشتري في الجدال ، كلّما كان أدنى إلى شراء بضاعة منافسي !

وأنا إذ أنظر اليوم إلى الماضي، أعجب كيف وسعني أن أبيع شيئاً على الإطلاق ! لقد ضيّعت سنين من عمري ، على غير طائل في الجدال والشّجار » .

* * *

إنّ الجدال أو المراء العقيم غير محمود ، سواء كان المرء المجادل محقّاً أو مبطلاً .

والأخطر في المراء في الباطل أنّه لا يزيد المرء إلاّانحرافاً عن الحقّ ، وعمىً عنه .

يقول الإمام علي (ع) :

« من كثر مراءه بالباطل ، دام عماؤه عن الحقّ »[٣١] .

* * *

والجدال العقيم ليس مذموماً فقط في المعاملات اليوميّة بين النّاس ، بل حتّى في مجال الدّعوة إلى الإسلام ، والعمل الإسلامي ، يلزم أن يكون العمل منظّماً ومقنّناً ، وأن تكون المجادلة بالتي هي أحسن هي الأسلوب المتّبع في ذلك . وعليه فليس المطلوب من المؤمنين أن يدخلوا في نقاشات ، وحوارات ، ومجادلات عقيمة سواء مع الكفّار ، أو مع المتعصّبين لأفكارهم الباطلة ، أو مع غيرهم . بل الأفضل أن يصرفوا أوقاتهم وجهودهم إلى إيصال الدّين إلى من هو أهل له .

إنّ المرء قد يقنع كافراً ، أو معانداً ، أو متعصّباً ، أو غيره عن طريق الإخضاع بالجدال والمراء ، ولكن ليثق المرء تماماً أنّ ذلك الاقتناع ﴿ **كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف** ﴾[٣٢] .

* * *

والانسان إذا جادل ، وتحدّى ، وناقض ، ربّما استطاع أن ينتصر أحياناً ، ولكنّ هذا الانتصار كالعصى الجوفاء التي نخرتها دابّة الأرض . والانتصار الأجوف إنْ هو إلاّ خسارة لحسن العلاقة بالطّرف الآخر ، ولا شكّ أنّ حفظ العلاقة الحسنة بالنّاس أفضل من انتصارٍ أجوفٍ .

إنّ من النّاس من يجادل ويماري وهو جاهل لم يستنر بالعلم . ومنهم من أصبح الجدال العقيم أو المراء عادةً فيه وتقليداً ، فهو يماري في كلّ شيء مهما كان صغيراً ، محقّاً كان أو مبطلاً . ومن تعوّد على الجدال العقيم لن يجني إلاّ المتاعب ، وانفضاض النّاس عنه . وهل يجني زارع الشّوك إلاّ الشّوك نفسه ؟ .

---

(٣١) الغرر والدّرر .

(٣٢) ١٨ - ابراهيم .

وقد يجادل المرء في شيء يظنّه حقيقةً ، وهو في حقيقته وهم ، والأفضل ترك الجدال ، وإن كان المرء محقاً .

* * *

يقول أحد الدّارسين :

كُنت ومجموعة من زملائي نتباحث في مادّة من موادّنا الدراسيّة ، وذات يومٍ وبينما كنّا في وقت الإستراحة تعرّضنا الى ذكر حيوان الخفّاش : هل يبيض أم يلد ؟ وحدث بيني وبين زميل لي حادّ الطّبع ، إختلاف في الرّأي ، قلت : إنّ الخفّاش حيوان ثدييّ ، ويطير ، وهو يلد ولا يبيض . فقال الزميل : بل هو يبيض ولا يلد . ثمّ أكدّت له مرّة أخرى ـ وأنا واثق من صحّة ما أقول ـ أنّ الخفّاش يلد ولا يبيض ، واستشهدت بآراء الزّملاء الآخرين ، ولكنّه أصرّ على رأيه الأوّل . فقلت : حسناً ، سوف أتوقف عند هذا الحدّ ، وأطلب منك التّأكد من صحّة ما أقول . وبذلك أنهيت الجدال بأن اجتنبته ، وحافظت على علاقتي الأخويّة بزميلي .

* * *

وترك الجدال ، لاجتناب الزّوايا الحادّة المتسبّبة عنه ، أمر يحتاجه المرء أينما جمعه المقام مع النّاس وتعامل معهم ، سواء في بيته ، مع زوجته وأبنائه ووالديه ، و . . . ، أو في عمله ، أو في الشارع ، أو في المجالس ، أو في المحفل ، أو في أيّ مكان آخر .

فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، ويحفظ حالة الحبّ المتبادل بينه وبينهم ، عليه أن يتّبع قاعدة تحاشي الجدال العقيم ، وأن يعلم أن أفضل السّبل في التّعامل مع الجدال ، هو تجنّبه .

حفظ كرامة الطّرف الآخر .

قال الرسول الأعظم (ص) :

« أذلّ النّاس من أهان النّاس »[33] .

*

ينقل التّاريخ أنّ فقيراً جاء إلى الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، وسأله شيئاً لقضاء حوائجه ، فأعطاه الإمام ، ثمّ بكى (ع) . فتساءل أصحابه بغرابة عن سبب بكائه ، فقال الإمام بما مضمونه : بكيت لأنّه أراق ماء وجهه باضطراره إلى السّؤال ، وأخاف أن لا يكون لي أجر عند الله .

*

لكلّ إنسان شخصيّة وكرامة وعزّة وماء وجه ، يريد لها أن تبقى محفوظة محترمة . والإسلام ـ هو الدّين الذي يصون كرامة الإنسان ـ لا يجيز لنا أن نريق ماء وجوهنا لأحد ، لأنّ كرامتنا ليست ملكاً لنا ، وإنّما هي ملك لله ، فكيف بإراقتنا لماء وجوه الآخرين ؟!

إنّ إراقة ماء وجوه الآخرين ليست بالأمر البسيط ، لأنّها إذلال لهم ، وكسر لخواطرهم ، وخلاف تكريمهم واعطائهم وزنهم . ومن هنا فإنّ الإسلام لا يجيز لنا أن نريق ماء وجوه النّاس ، ويأمرنا بالمحافظة على شخصيّاتهم ، بأن نقدّرها ، ونحترمها ، وأن لا نهينها ، ولا نحرجها ، وأن نحافظ على مشاعرها وعواطفها .

والأمر الذي يجب أن يدركه كل إنسان : أنّ مشاعر النّاس وأحاسيسهم ليست من الحديد الصّلب ، ولا من الخرسانة المسلّحة ، بل هي كالزّجاج الذي يتكسّر على إثر صدمة صغيرة ، وإذا ما انكسر الزجاج ، صعبت إعادته إلى حالته الأصليّة .

يقول الإمام علي (ع) في الشّعر المنسوب إليه :

واحرصْ على حفظ القلوب من الأذى ... فرجوعُها بعد التّنافر يصعُب
إنّ القلوبَ إذا تنافر وُدُّها ... مثل الزّجاجةِ كسرُها لا يُشعبُ

وأينما جمعت المرء مع غيره من النّاس معاملة ، في بيته مع زوجته ووالديه

---

(33) بحار الأنوار ، ج78 ، ص192 .

واخوانه ، أو في عمله ، أو في أي مكان آخر ينبغي له أن يصون ماء وجوه الآخرين .

بل حتى الطّفل ـ هذا الكائن الضّعيف ـ لا ينبغي لنا أن نجرح مشاعره ، ونريق ماء وجهه ، سواء كان بمفرده ، أم كان أمام آخرين ، لأنّ ذلك يحدث فيه جرحاً داخليّاً ، قد لا يلتئم بيسر . ولقد كان رسول الله محمد (ص) يقول لبعض الآباء حينما يأتون إليه بأطفالهم ليؤذّن في آذانهم ، فيبولون على ثياب النّبي ، فكان الآباء ينهرونهم ، كان (ص) يقول لهم بما معناه :

دعوه يكمل بوله ، فإنّ هذا الثّوب يطهّره الماء ، وماذا يطهّر نفسيّة الطّفل ؟(*) .

إنّ إيذاء مشاعر الآخرين ، يحدث فيهم جرحاً غائراً ، ولو فكّرنا مليّاً في هذا الأمر ، ولم ننتصر لِأنانا ، لما سعينا إلى إيذاء تلك المشاعر ، وسعينا الى حفظها من الإهانة والأذى .

* * *

وفي هذا السبيل يذكر أحد الكتّاب قصّة ، فيقول :

« كانت شركة أجهزةِ كهربائية ، كبيرة تواجه مهمّة دقيقة ، هي إقالة مسؤول من رياسة أحد أقسامها .

« كان هذا الرّجل عبقريّاً في الكهرباء ، ولكنّه ما أن عُيّن رئيساً لقسم الحسابات بالشّركة حتى أظهر عجزاً فاضحاً ، وبرغم ذلك لم تجرؤ الشّركة على انتقاده أو الإساءة إليه . لم يكن لها غنىً عنه ، وكان هو شديد الحساسيّة مُرهف

(*) جاء في كتاب (مكارم الأخلاق) ، ص٢٥ :

« وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم) يُؤتى بالصبي الصّغير ليدعو له بالبركة ، أو يُسميه ، فيأخذه فيضعه في حجره تكرمة لأهله ، فربّما بال الصبيّ عليه ، فيصيح بعض من رآه حين يبول ، فيقول (صلى الله عليه وآله وسلم) لاتزرموا بالصبي « لاتقطعوا بوله » ، فيدعه حتى يقضي بوله ، ثم يفرغ له من دعائه أوتسميته ، ويبلغ سرور أهله فيه ، ولايرون أنه يتأذى ببول صبيتهم ، فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده » .

الشّعور ، فكيف حسموا هذه المشكلة الدّقيقة ؟ لقد خلعوا عليه لقباً جديداً ، جعلوه : المهندس المستشار للشّركة ، ثمّ نصبوا شخصاً آخر لرئاسة قسم الحسابات . وقد سُرّ الرّجل بهذا اللقب ، وسُرّ كذلك مدير الشّركة ، فقد حلّوا مشكلة دقيقة حسّاسة دون جلبة ولا ضوضاء ! » .

« ولو أنّهم جاءوا الى الرّجل واراقوا ماء وجهه ، كأن قالوا له : أنّك لا تصلح لرئاسة قسم الحسابات ، فإنّه سيشعر بذّلة وانكسار كبيرين ، وربّما تصلّب في أن يبقى رئيساً لقسم الحسابات ! » .

* * *

من الأمور التي تعمل على إراقة ماء وجوه الآخرين : الملامة ، والعتاب ، والتّوبيخ ، والنّقد الجارح ، والمنّ على الآخرين بالخدمات والمساعدات المقدّمة لهم ،وخصوصاً أمام المجموع ، إنّ إراقة ماء وجه الطّرف الآخر حينما يكون بمفرده أمر مهين ، والأشدّ إهانة منه إراقة ماء وجهه بين النّاس .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« إيّاك أن تكرّر العَتب ، فإنّ ذلك يغري بالذّنب ، ويهون العتب »[٣٤] .

فحينما تُكثِر العتاب لشخص ، فإنّ ذلك قد يدعوه إلى الاستهانة بالمعاتبة ، وقد يجعله يقع في ممارسة الذّنوب والأخطاء ، بسبب ما أريق من ماء وجهه .

ويقول (ع) أيضاً :

« طعنُ اللسان أمضى من طعنِ السِّنان »[٣٥] .

وربّ كلمةٍ تقولها لشخص ـ وقد تتصور أنّها عاديّة ـ تجرحه ، وتغيّر ألوانه ، وقد تمرضه ، وربّ رمزٍ أو إشارة تفعل فيه كما تفعل الكلمة المهينة الجارحة ، أو كما يفعل الفعل المحرج .

وكما يقول الشّاعر :

---

(٣٤) الغرر والدّرر .

(٣٥) المصدر السابق .

جراحات السِّنانِ لها الْتِيامُ ولا يَلْتَامُ ما جَرَحَ اللسانُ

*

وحفظ كرامة النّاس ، وتلافي إراقة ماءوجوههم ،علاوة على أنّها تضمن ودّهم وحبّهم للمرء ، فهي وسيلة جيّدة للإصلاح بينهم . إنّ بإمكان المرء أن يوفق بين شخصين يوشك كلّ منهما أن يطبق على عنق الطّرف الآخر ، إذ بإمكانه أن يسعى بحكمة وراء نقطة أو نقاط الإتّفاق بين الطّرفين المتنازعين ، فيؤكدها ويزيدها وضوحاً وجلاء ، وليعمل على أن يصون لكلّ منهما ماء وجهه ، وأن يدعه يحتفظ به .

وفي مجال النّقاش ، ومحاولة إقناع الشّخص بالفكرة الذّاتيّة ، تكون قاعدة حفظ كرامة الطّرف الآخر ، وصيانة ماء وجهه من الأهميّة بمكان . إذ ينبغي للمرء حينما يريد كسب شخص آخر إلى وجهة نظره الصّحيحة، أن يقدر وجهة نظر الشخص الآخر، وأن لا يسفهها، لكي لا يراق ماء وجه هذا الشّخص، حتّى وإن كانت وجهة نظره خاطئة.

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس خليق به أن يحفظ لهم كرامتهم ، وأن يجعلهم يحتفظون بماء وجوههم ، فلا يريقه .

التوسل بالرفق واللين والتسامح والرحمة

قال الله ـ جلّ وعلا ـ مُبيِّناً لرسوله الكريم محمد (ص) ، وللإنسانية جمعاء ، منهاج التّعامل مع النّاس :

﴿ ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك ﴾[٣٦] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« الرفق مفتاح النّجاح »[٣٧] .

وقال (ع) أيضاً :

« من عامل بالرِّفق غنِم »[٣٨] .

وقال (ع) :

« من رفق لصاحبه وافقه ، ومن أعنف أحرجه وفارقه »[٣٩] .

وقال (ع) : « لا يجتمع العنف والرِّفق »[٤٠] .

---

(٣٦) ١٥٩ / آل عمران .

(٣٧) الغرر والدّرر .

(٣٨) المصدر السابق .

(٣٩) المصدر السابق .

(٤٠) المصدر السابق .

وقال الله ـ سبحانه وتعالى :

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم ﴾[41] .

*

من القواعد الأساسيّة في معاملة النّاس ، والدّخول إلى قلوبهم ، وكسبهم ، والتأثير فيهم : استعمال الرّفق والّلين والتّسامح معهم . وذلك لأنّ الإنسان يعيش مع بشر ـ مكرّمين من الله (سبحانه) لهم مشاعر ، وعواطف فضلاً عن عقول ، وإرادات ، لا مع حيوانات ، وبهائم . بل حتّى هذه الأخيرة ، لا تفضّل أن يتعامل معها النّاس بالعنف ، وإنّما تفضّل الرّفق ، والّلين ، والرّحمة .

خذ على سبيل المثال : القطط ، فهذه إن عاملتها بالعنف والقسوة ، فلربّما واجهتك بالخدش والتّكشير عن أنيابها . ولكنك لو قمت ـ عوضاً عن ذلك ـ بتمرير راحة يدك على شعرها بعطف ورحمة وشفقة ، لأحسّت بالأمن والأمان منك ، وراحت تُداعبك في هدوء وارتياح ، فرحة مسرورة بك ، وبتعاملك . بل حتّى القطط المتوحّشة ، وغير الأليفة ، حينما تُعامل معاملة ليّنة رفيقة ، وتتعوّد على ذلك ، تتحوّل تدريجيّاً من قطط غير أليفة ، إلى قطط اليفة ! وإذا كان الأمر هكذا بالنّسبة للحيوانات والبهائم ، فكيف بالنّاس الذين هم مكرّمون على كل الخلائق ؟

* * *

يقول أحد المزارعين :

ذات يوم أردت أخذ بقرةٍ لي إلى زريبتها في آخر النّهار ، ولكنّها كانت ترفض التحرّك من مكانها ، فقمت أجرّها من رسنها بقوّة ، وولدي يدفعها من الخلف ، ولكنْ من دون جدوى ، إذ أبت أن تبرح مكانها . وفي الأثناء تنبّهت زوجتي إلى الأمر ، فقالت : دعوها ، سأفعل ما يجعلها تذهب إلى زريبتهابسهولة ويسر . ثم أنّها عمدت إلى تناول كميّة قليلة من البرسيم ، وجاءت وألقت بها أمامها ،

---

(٤١) ١٥٩ / آل عمران .

فجعلت البقرة تأكل من البرسيم ، وزوجتي تقودها برفق ولين ، وبسهولة ويسر حتى أدخلتها إلى الزّريبة .

* * *

وإذ أنّ البهائم التي سخرّها الله لخدمة الإنسان و مصلحته تفضّل التّعامل معها برفق ولين ورحمة . أليس خليقاً بالمرء أن يتعامل مع النّاس ، مستعملاً معهم الرفق واللين والرّحمة ؟

إنّ النّاس ـ بطبيعتهم ـ لا يميلون إلى العنف والعنيفين في التّعامل ، بل يميلون إلى الرفقاء اللينين الرّحماء ، ولا يميلون إلى الغليظين الغضبين ، بل إلى الرُّؤفاء الحلماء الذين يجعلونهم يشعرون بالاستقرار والوئام والسّعادة .

وفي هذا يقول العلاّمة محمد مهدي النّراقي :

« ثمّ التّجربة شاهدة بأنّ إمضاء الأمور ، وإنجاح المقاصد ، موقوف على الرّفق واللين مع الخلائق ، فكلّ ملكٍ كان رفيقاً بجنده ورعيّته انتظم أمره ودام ملكه ، وإن كان فظّاً غليظاً اختلّ أمره وانفضّ النّاس من حوله ، وزال ملكه وسلطانه في أسرع زمان . وقس عليه غيره من طبقات النّاس من العلماء والأمراء وغيرهما ، من ذوي المناصب الجليلة ، وأرباب المعاملة والمكاسبة ، وأصحاب الصنائع والحِرف »[٤٢] .

* * *

ومن الأساطير التي تنقل في باب حسن اللين والرّفق ، وفائدتهما في التّعامل ، الأسطورة التّالية :

يقال أنّ الشمس والرّياح اختلفتا . هذه تقول أنّها أقوى وأفعل ، وأشدّ بأساً ، وتلك تزعم هذه الصّفات لنفسها دون الأخرى . وأخيراً قالت الرّياح الشمس :

(٤٢) محمد مهدي النّراقي : جامع السّعادات ، ج١ ، ص٣٤٠ ، الطبعة الرابعة . الشيخ الجليل النّراقي من أعلام المجتهدين ، ولد في « نراق » ، وهي قرية من قرى كاشان بايران عام ١١٢٨هـ ، وتوفي عام ١٢٠٩هـ في النجف الاشرف بالعراق .

ـ أترين ذلك العجوز المتدثّر بمعطفه ؟ أتحدّاكِ أن تجعليه يخلع معطفه بأسرع مما أستطيع !

فقبلت الشمس التّحدي ، وأهابت بالرّياح أن تثبت قوها ، واسرعت الشّمس فاختبأت وراء غمامة ثقيلة ، بينما زمجرت الرّياح ، وراحت تصول ، وتجول . ولكنّها كلّما ازدادت عصفاً ، كلّما أحكم الرّجل معطفه حول جسده ، وتشبث به . فلّما يئست الرّياح بإخفاقها ، القت سلاحها ، وهنالك بزغت الشّمس من وراء الغمامة ، وابتسمت في دعة ورفق ، فما لبث العجوز أن تخلّص من معطفه !

وعندئذٍ قالت الشّمس للرّياح :

ـ إنّ للرفق واللين قوّة تفوق ما للغلاظة والعنف !

* * *

إنّ الرّفق مقدّمة النّجاح ، ومفتاحه ، وهو السبيل الحسن إلى كسب النّاس والتأثير فيهم . ومن هنا فالرّفقاء بالنّاس اللّينون معهم ، هم الذين يدخلون إلى قلوب النّاس ، فيحبّهم النّاس ، ويأنسون بهم ، ويكونون على استعداد من أجل خدمتهم ومساعدتهم ، بخلاف العنيفين والغليظين معهم . وإذا شبّه المرء الرفيق بالنّاس اللين معهم بنقطة العسل ، فإنّ هذه النقطة قادرة على أن تجذب أفواجاً من النّمل . وإذا شبّه المرء الغليظ مع النّاس العنيف معهم ببرميل من المُرّ(*) ، فإنّ هذا البرميل لن يقدر على جذب نملة واحدة ، فهلّا يجعل المرء من نفسه نقطة العسل ؟

* * *

إنّ استعمال الرّفق واللين ـ بدلاً من الغلاظة والعنف ـ هو الذي جعل أحد المستأجرين يكسب ودّ المؤجّر ، ويخفّض الأخير قيمة الإيجار ، فماذا كانت القصة؟

« حدث أنّ رجلاً كان يستأجر شقّة في بناية ، وكان جيرانه يسعون لتخفيض الإيجار ، ولكنهم جميعاً أخفقوا في ذلك ، نظراً إلى أنّ صاحب البناية شديد

(*) المُرّ : الحنظل ، العلقم .

البخل .

يقول الرّجل : في البداية كتبت له رسالة ، وأخبرته بأنّني سأخلي المسكن بمجرّد أن ينتهي عقد الإيجار ، إذا لم يخفض سعره . ولكنّ هذه المحاولة بدت ميئوساً منها ، لأنّ سكّاناً آخرين جرّبوا مثل هذا التّهديد من دون أن ينفع ، فقلت في نفسي : لم لا أستعمل أسلوباً آخر ؟ فقرّرت أن استخدم اللين بدل العنف ، والرّفق بدل الغلاظة ، والمديح بدل الذّمّ .

وبينما كنت أفكّر في الأمر ، دخل عليّ صاحب الشّقة ، ومعه أمين سرّه والرّسالة التي فيها التّهديد . فرحّبت به باحترام بدل أن أكيل له كلمات التجريح ، ولم أتحدّث عن إيجار السّكن ، بل بدأت أتحدّث عن جمال شقّته وامتيازاتها ، ونقاط الجودة فيها ، وأبديت له التّقدير المخلص ، ثمّ أردفتُ قائلاً :

إنّ ما أحصل عليه من الرّاتب لا يكفيني لكي استمّر في استئجار هذه الشقّة .

وفوجىء المالك بهذا الموقف الرّقيق ، لأنّه ـ كما يبدو ـ كان يتوقّع التّجريح ، وقد هيّأ ردّاً على ذلك .

ولكنّه ماذا يفعل وقد واجهته برفق ولين ؟

فماذا كانت النتيجة ؟

إنّه ومن دون أن أطلب منه خفض قيمة الإيجار بدأ يتحدّث لي عن الأخلاق غير الحسنة لبقيّة المستأجرين ، وقال : إنّني تلقّيت أربعة عشر خطاباً في شهر واحد ، بعضها جارح ومهين ، ولم أخضع لها إطلاقاً .

ثمّ أردف قائلاً :

فيا لها من سعادة هانئة ، أن أجد مستأجراً مثاليّاً راضياً مثلك !

وحينما أراد أن يخرج من باب الشقّة ، التفت إليّ ، وسألني في حنان : أمِن زخرفة أستطيع أن أُزيّن بها مسكنك ؟ » .

* * *

ويقال أنّه حينما صنعوا عجلاتِ المسيّارة ، كان جلّ تفكيرهم ينصبّ على أنّ

السيّارة التي تزن قرابة طنّ واحد ، تحتاج إلى عجلات قويّة جدّاً لتحملها . ولكنّهم نسوا أنّه حينما تكون العجلات قويّة وصلبة ، فستقاومها الأرض ، فكانت العجلات تتصدّع وتتمزّق . وفي نهاية المطاف توصّلوا إلى حلّ يعتمد على الرّفق بدل الشدّة ، فاستعملوا الهواء المضغوط في إطار الكاو تشوك (المطاط) ، لكي تستطيع العجلات أن تتحمّل ثقل السيّارة وقوّة الأرض معاً . وهكذا تخلّصوا من خطر تمزّق السيّارة ، كما تخلّصوا من الإرتجاجات ، والأصوات الصّاخبة التي تنبعث من العجلات الحديديّة القاسية .

* * *

إنّ الغلاظة والعنف تولّد في الطّرف الآخر الحنق والبغضاء . فإذا كان قلب الشّخص الآخر مفعماً بالحنق على المرء والبغضاء له ، فإنّ هذا الأخير لن يسعه أن يكسب ودّه ، ويقنعه بوجهات نظره وآرائه . ومن هنا فإنّ الآباء والأزواج ، والمديرين ، و . . . إذا أرادوا كسب أولادهم وأزواجهم ومرؤوسيهم ، . . . والوصول إلى الأغراض التي يريدونها منهم ، فإنّ عليهم أن يتوسّلوا بالرّفق ، واللين ، واللطف .

*

والدّين لا يطالبنا بالرّفق واللين في معاملة النّاس فحسب ، بل حتّى في العقاب . إنّ المرء في تعامله مع النّاس ، وفي الحالة العاديّة من الاقتدار ، قد يرفق بهم ، ولكنّه حين يكون مقتدراً فقد يغلظ حين يعاقب ، ومن هنا فالرّفق محمود حتّى في العقاب .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« إذا عاقبتَ فارفق »[٤٣] .

وبالاضافة الى التوسّل بالرّفق واللين في الحالة الطّبيعيّة وحين العقاب ، ينبغي للمرء في معاملته النّاس أن يستعمل التّسامح وتقديم التنازلات . إنّ المواقع

(٤٣) نهج البلاغة .

والمواطن كلّها لا تحتاج من المرء إلى أن يدافع عن نفسه ، بتصلب في آرائه ، بل إن هناك الكثير من المواطن يفضّل فيها للمرء أن يتسامح ويتنازل . ولا يظنّ أنه بتسامحه وتنازله سيكون مقصّراً أو خاسراً ، بل سيكون ناجحاً ومختاراً للأسلوب الصّحيح .

وبالإضافة إلى التّسامح والتّنازل ، يخلق بالمرء أن يكون ـ في تعامله مع إخوانه والنّاس ـ رؤوفاً رحيماً . إنّه بحاجة إلى أن يتأدّب بآداب خالقه الرّؤوف الرّحيم ، وإلى أن يتأسّى بالرسّول الأكرم محمد (ص) الذي كان رؤوفاً رحيماً بالنّاس عطوفاً عليهم ، وهكذا كان المؤمنون معه . ففي الوقت الذي كانوا فيه شديدين على من أعلنوا الحرب على الإسلام ، كانوا فيما بينهم رحماء ، رؤفاء ، أذلّاء ، متواضعين .

إنّ المرء في تعامله مع النّاس عليه أن يُحيي ضميره ووجدانه بالرفق بهم واللين والتسامح والرّحمة معهم . وإنّها لكارثة كبرى حينما يميت الإنسان ضميره ووجدانه ، ويميت فيه أخلاق الرّفق ، واللين ، والتّسامح مع النّاس ، إذ حينما لا يفكّر إلاّ في المصالح والمنافع المادّية والسّعي للحصول عليها ، ولو باستخدام العنف وعدم الرّحمة وظلم الآخرين . إنّه ـ والحال هذه ـ يتحوّل إلى سبع ضارٍ ، لا يهمّه أن يقتل في سبيل تلك المصالح والمنافع والمطامع ، ومحصّلة ذلك أن تصبح عاقبته سيئة في الدّنيا والآخرة ، كما حدث للرّجل الذي قتل ولدَي مسلم بن عقيل ـ دون أدنى لين ورفق ورحمة ـ طمعاً في المال والفرس ، فما الذي جرى ؟

* * *

يقول المؤرخ والرّاوي أبو مخنف :

« لمّا قُتل الحسين ـ عليه السلام ـ أُسِر من عسكره غلامان صغيران ، فأتي بهما الى عبيد الله بن زياد (لعنه الله) ، فدعا بسجّان له ، وقال له : خذ هذين الغلامين ، واسجنهما ، ومن طيّب الطّعام فلا تطعمهما ، ومن بارد الماء فلا تسقهما ، وضيّق عليهما سجنهما .

« قال : فأخذهما السّجان ، ووضعهما في السجن الى ان صار لهما سنة كاملة ،

ضاقت صدورهما ، فقال الصّغير للكبير : يا اخي ! يُوشك أن تفنى أعمارنا ، وتبلى أبداننا في هذا السّجن ، أفلم تخبر السّجان بخبرنا ، ونتقرب اليه بمحمد المصطفى (صلى الله عليه واله وسلم) ، فقال : هكذا يكون :

« فلمّا جنّهما الليل ، أتى السّجان اليهما بقرصين من شعير ، وكوز من ماء ، فقام إليه الصّغير ، فقال له : يا شيخ ! أتعرف محمّداً المصطفى ؟ قال : وكيف لا اعرفه ، وهو نبيّي ، وشفيعي يوم القيامة . قال له : يا شيخ ! أتعرف عليّ بن ابي طالب ؟ قال : وكيف لا أعرفه ، وهو امامي ، وابن عم نبّيي . قال له يا شيخ ! أتعرف مسلم بن عقيل ؟ قال . بلى ، أعرفه ، وهو ابن عم رسول الله ، فقال له يا شيخ ! نحن من عترة مسلم بن عقيل ، نسألك من طيّب الطّعام فلا تطعمنا ، ومن بارد الماء فلا تسقينا ، وقد ضيّقت علينا سجننا ، فما لك وما لنا لصغر سنّنا ؟ أما ترعانا لأجل سيّدنا رسول الله ؟

« فلمّا سمع السّجان كلامهما ، بكى بكاءاً شديداً ، وانكب على أقدامهما يقبّلهما ، ويقول : نفسي لنفسكما الفداء ، وروحي لروحكما الوقا ، يا عترة محمد المصطفى ! واللّه لا يكون محمد خصمي في القيامة : هذا باب السّجن مفتوح ، فخذوا أيّ طريق شئتما يا حبيبيَّ ! سيروا بالليل واكمنا بالنهّار .

« قال : فلّما خرجا ، لم يدريا الى ايّ جهة يمضيان . فلما جهجه الصّبح عليهما ، دخلا بستاناً ، وصعدا على شجرة ، واكتنّا بها . فلما طلعت الشّمس ، واذا بجارية قد رأتهما ، فأقبلت اليهما ، وسألتهما عن حالهما ، وطيب قلوبهما ، وقالت لهما :

« سيراً معي الى مولاتي فإنها محبّة لكما » . فسارا معها ، فسبقتهم الجارية ، فأعلمت مولاتها .

« فلما سمعت بهما ، قامت حافية اليهما ، واستقبلتهما بالبشرى ، وقالت لهما : ادخلا على رحب وسعة . فلما دخلا أنزلتهما في مكان لم يدخل إليه أحد من الناس ، وخدمتهما خدمةً تليق بهما .

« ثم ان ابن زياد نادى في شوارع الكوفة ، أن من جاءني بأولاد مسلم بن

عقيل فله الجائزة العظمى . فلمّا جن الليل ، اقبل اللعين الى داره ، وهو تعبان من كثرة الطّلب .

فقالت له زوجته الصّالحة : أين كنت ، فإنّي أرى في وجهك آثار التّعب ؟! قال : إن ابن زياد قد نادى بأزقة الكوفة ، أن من جاءني بأولاد مسلم بن عقيل ، كان له عندي الجائزة العظيمة ، وقد خرجت في الطّلب فلم اجد لهما أثراً ولا خبراً .

« فقالت له زوجته : يا ويلك ! أما تخاف من الله ؟! ما لك وأولاد رسول الله تسعى الى الظّالم بقتلهم ! ، فلا تغرّنك الدّنيا . فقال : أطلب الجائزة من الأمير . قالت : تكون أقل الناس ، وأحقرهم عنده ، إن سعيت بهذا الامر . فبينما هو بين النائم واليقظان ، اذ سمع الهمهمة من داخل البيت . فقال لزوجته : ما هذه الهمهمة ؟ فلا تردّ عليه الجواب ، كأنها لا تسمع . فقعد وطلب مصباحاً ، فتناوم اهل البيت كأنّهم لم يسمعوا ، فقام وأشعل المصباح ، وأراد فتح الباب ، فقالت له زوجته : ما تريد من فتح الباب ؟! ومانعته ، فقاتلها ، ومانعها وفتح الباب ، وإذا بأحد الولدين قد إنتبه ، فقال لأخيه : يا أخي ، إجلس فإن هلاكنا قد قرب . فقال له أخوه : وما رأيت يا أخي ؟! .

« قال : بينما أنا نائم ، واذا بأبي واقف عندي ، واذا بالنبّي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعليّ ، والحسن ، والحسين (عليهم السلام) وقوف ، وهم يقولون لأبي : ما لك تركت اولادك بين الكلاب والملاعين ؟ فقال لهم أبي : وها هما بأثري قادمين .

« فلّما سمع الملعون كلامهما ، جاء إليهما ، وقال لهما : من أنتما ؟! قالوا : من آل الرّسول . ومن أبوكم : قالوا : مسلم بن عقيل . فقال الملعون : إنّي أتعبتُ اليوم فرسي ونفسي في طلبكما وأنتما عندي .

« ثمّ إنه لطم الأكبر منهما لطمةً أكبّه على الارض ، حتّى تهشّم وجهه وأسنانه من شدة الضّربة ، وسال الدم من وجهه وأسنانه ! ثم انّه كتّفهما كتافاً وثيقاً ! فلّما نظرا الى ما فعل بهما اللعين ، قالا : ما لك يا هذا ! أتفعل بنا هذا الفعل ،

وامرأتك قد أضافتنا ، واكرمتنا ؟! أما تخاف الله فينا ؟! أما تراعي يُتمنا وقربنا من رسول الله ؟!

« ولم يعبأ اللعين بكلامهما ، ولا رحمهما ، ولا رقّ لهما ، ثمّ دفعهما الى خارج البيت ، وبقيا مكتفين الى الفجر ، وهما يتوادعان ، ويبكيان لما جرى عليهما .

« وأمّا الملعون ، فلمّا اصبح الصّبح أخرجهما من داره ، وقصد بهما جانب الفرات ليقتلهما ، وزوجته وولده وعبده خلفه ، وهم يخوّفونه بالله تعالى ، ويلاومونه على فعله . فلم يرتدع اللعين ، ولم يلتفت اليهم حتّى وصل الى جانب الفرات .

« وأشهر اللعين سيفه ليقتلهما ، فوقعت زوجته على يديه ورجليه تقبّلهما ، وتقول له : يا رجل ! إعف عن هذين الولدين اليتيمين ، واطلب من الله ما تطلبه من أميرك عبيد الله بن زياد ، فإن الله يرزقك عوض ما تطلبه منه أضعافاً مضاعفة ! فزعق الملعون عليها زعقة الغضب حتّى طار عقلها ، وذهل لُبّها .

« ثمّ قال العبد : يا أسود ! خذ هذا السيف ، واقتل هذين الغلامين ، واتني برأسيهما حتّى أنطلق بهما الى عبيد الله بن زياد ، وآخذ جائزتي منه ، ألفي درهماً ، وفرساً .

« فلمّا همّ بقتلهما قال احد الغلامين : يا أسود ! ما أشبه سوادك بسواد بلال مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أسود ! ما لك ومالنا تقتلنا ؟! إمضِ عنّا حتّى لا نطالبك بدمنا عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . فقال لهما العبد : يا حبيبيَّ من أنتما ؟ فإنّ مولاي أمرني بقتلكما . فقالوا : يا أسود ! نحن من عترة نبيّك محمّد (صلى الله عليه واله وسلم) ، ونحن من أولاد مسلم بن عقيل ، أضافتنا عجوزكم هذه الليلة ، ومولاك يريد قتلنا !

« قال : فانكبّ العبد على أقدامهما يقبلهما ، ويقول : نفسي لنفسكما الفداء ، وروحي لروحكما الوقا ، يا عترة محمد المصطفى ! والله لا يكون محمد خصمي يوم القيامة ثم رمى سيفه من يده ناحيةً ، وطرح نفسه في الفرات ، وعبر الى الجانب الاخر ، فصاح به مولاه : عصيتني ؟! فقال : أطعتك ما دمت لا تعصي الله ،

فلّما عصيت الله ، عصيتك ، أحبُّ إليّ من أن أعصي الله وأطيعك .

« فقال اللعين : والله ! ما يتولى قتلكما أحد غيري . فأخذ السيف ، وأتى اليهما ، وسلّ السّيف من جفنه . فلّما همّ بقتلهما ، جاء اليه ولده ، وقال له : يا أباه ، قدّم حلمك ، وأخرّ غضبك ، وتفكّر فيما يصيبك في القيامة .

« قال : فضربه بالسّيف فقتله . فلّما رأت الحرمة ولدها مقتولاً ، اخذت بالصّياح والعويل ، فتقدم الملعون الى الوالدين ، فلّما رأياه ، تباكيا ، ووقع كلّ منهما على الآخر يودّعه ، ويعتنقه ، والتفتا اليه ، وقالا له : يا شيخ ! لا تدعنا نطالبك بدمائنا عند جدّنا يوم القيامة . خذنا حيّين الى ابن زياد يصنع بنا ما يريد . فقال : ليس الى ذلك سبيل . فقالا له : يا شيخ ! بِعنا في السّوق وانتفع بأثماننا ، ولا تقتلنا ، فقال ، لا بدّ من قتلكما . قالا له : يا شيخ ! ألا ترحم يتمنا ، وصغر سِنّنا ؟! فقال لهما : « ما جعل الله لكما في قلبي من الرّحمة شيئاً ! » . فقالا : يا شيخ ! دعنا نصلي كلّ منّا ركعتين . قال : صلّيا ما شئتما إن نفعتكما الصّلاة .

« قال : فصلّيا أربع ركعات . فلّما فرغا رفعا طرفيهما الى السّماء وبكيا وقالا : يا عدل ! يا حكيم ! أحكم بيننا وبينه بالحق . ثمّ قالا له : يا هذا ! ما أشدّ بغضك لأهل البيت ! فعندها عمد الملعون ، وضرب عنق الأكبر ، فسقط الى الارض يخور في دمه . فصاح أخوه ، وجعل يتمرّغ بدم أخيه ، وهو ينادي : وا أخاه ! وا قلّة ناصراه ! وا غربتاه ! هكذا ألقى الله وأنا متمرّغ بدم أخي ! فقال له الملعون : لا عليك ، سوف ألحقك بأخيك في هذه الساعة ، ثمّ ضرب عنقه ، ووضع رأسيهما في المخلاة(*) ، ورمى بأبدانهما في الفرات .

« وسار بالرأسين الى عبيد الله بن زياد . فلّما مثل بين يديه وضع المخلاة ، فقال له : ما في المخلاة يا هذا ؟ قال : رؤوس أعدائك ، أولاد مسلم بن عقيل . فكشف عن وجهيهما ، فإذا هما كالأقمار المشرقة ، فقال : لم قتلتهما ؟ قال : بطمع الفرس والسّلاح . فقام ابن زياد ثمّ قعد ثلاثاً وقال : ويلك ! وأين ظفرت بهما ؟

(*) المِخلاة : مايُجعل فيه العلف ، ويُعلّق في عنق الدّابة .

قال : في داري ، وقد أضافتهم عجوز لنا . فقال ابن زياد : أفلا عرفت لهما حقّ الضّيافة ، وأتيت بهما حينَ اليّ ؟! فقال : خشيت أن يأخذهما احد منّي ، ولا أقدر على الوصول اليك .

« وأمر ابن زياد ان يغسلوهما من الدّم ، فلّما غسلوهما وأُتي بهما اليه ، ونظرهما ، فتعجّب من حسنهما ، وقال له : يا ويلك ! حين أردت قتلهما ، ما قالا لك ؟ قال : قالا لي : يا شيخ ! ألا تحفظ قرابتنا من رسول الله ؟! . قال : فما قلت لهما ؟ قال : قلت لهما : ما لكما من رسول الله قرابة . قال : فماذا قالا لك ايضاً ؟ قال : قالا لي : ألا ترحم صغر سنّنا ؟! فقلت لهما : « ما جعل الله لكما في قلبي من الرّحمة شيئاً » . قال : فما قالا لك ايضاً ؟ قال : قالا لي : إمضِ الى السوق فبِعنا ، وانتفع بأثماننا ، فقلت لهما لا بدّ من قتلكما . قال : فماذا قالا لك أيضاً ؟ قال : قالا لي : ألا تمضي بنا الى ابن زياد يحكم فينا بأمره ؟ . فقلت لهما : ليس الى ذلك سبيل . قال : فماذا قالا لك ايضاً ؟ قال : قالا لي : دعنا نصلّي كلّ واحد منّا ركعتين ، فقلت لهما : صلّيا إن نفعتكما الصّلاة ، فصلّيا أربع ركعات ، فلمّا فرغا من الصّلاة ، رفعا طرفيهما الى السّماء ، ودعيا ، وقالا : يا حيُّ ! يا حكيم ! أحكم بيننا وبينه بالحقّ .

« ثم نظر ابن زياد الى نُدمائه ، وكان فيهم محبٌ لاهل البيت ، وقال له : خذ هذا الملعون ، وسر به الى موضع قتل فيه الغلامين ، واضرب عنقه ، ولا تدعنّ دمه يختلط بدمهما ، وخذ هذين الرّأسين ، وارمهما في موضع رمى به أبدانهما .

« قال : فأخذه ، وسار به ، وهو يقول : والّله ، لو أعطاني ابن زياد جميع سلطته ، ما قبلت هذه العطيّة ! وكان كلّما مرّ بقبيلة أراهم الرّأسين ، وحكى لهم القصّة ، وما يريد أن يفعل بذلك اللعين .

« ثمّ سار به الى موضع قُتل فيه الغلامان ، فقتله بعد أن عذّبه بقلع عينيه ، وقطع أذنيه ، ويديه ، ورجليه ، ورمى بالرّأسين في الفرات .

« قال : فخرجت الأبدان ، وركبت الرؤوس عليها بقدرة الله (تعالى) ، ثم تحاضنا ، وغاصا في الفرات . ثم إنّ ذلك الرّجل المحِبّ أتى برأس ذلك اللعين ،

فنصبه على قناة(*) ، وجعل الصِّبيان يرجمونه بالحجارة »[٤٤].

إنّ من أهمّ الاخلاق التي تضمن للمرء استعمال الرّفق واللين والتسامح والرّحمة مع الناس ، الحلم . وخلافه الغضب ، هذه الآفة التي تجعل المرء طائشاً ، وتفسد عقله ، وتبعده عن الحقيقة ، وقد تجعله غليظاً عنيفاً ، لا ليّناً رفيقاً. يقول الامام عليّ(ع) في ذمّ الغضب ومدح الحلم :

« الغضب مركب الطّيش »[٤٥] .

« الغضب يفسد الألباب ، ويُبعد عن الصّواب »[٤٦] .

« العاقل : من يملك نفسه إذا غضب ، وإذا رغب ، وإذا رهب »[٤٧] .

« ضادّوا الغضب بالحلم »[٤٨] .

« بلين الجانب تأنس النّفوس » [٤٩] .

« كن ليّناً من غير ضعف ، شديداً من غير عنف »[٥٠] .

« من لانت عريكته ، وجبت محبّته »[٥١] .

وهكذا فلكي يزين المرء تعامله مع النّاس ، ويكسبهم الى جانبه ، عليه أن يتوسّل بالرّفق واللّين والتّسامح والرّحمة معهم ، ويدع الغلظة والعنف والتصلّب والشدّة ، وليعلم أن الرّفق وسيلته الى النجاح في معاملة الناس ، هذا النّجاح الذي يشكل جانباً هاماً من جوانب السّعادة في حياته .

(*) قناة : رُمح ، أو عصا .

(٤٤) فخرالدين الطريحي النجفي : المُنتخب .

(٤٥) الغرر والدّرر .

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) المصدر السابق .

(٤٩) المصدر السابق .

(٥٠) المصدر السابق .

(٥١) المصدر السابق .

اللباقة واللباقة في التحدث

قال الامام عليّ (ع) :

« اللسان سَبُعٌ ، إن خلّي عنه عَقَر »[٥٢] .

وقال (ع) أيضا :

« من حسُن كلامُه ، كان النُّجحُ أمامَه »[٥٣] .

قيل أنّه في معرض للألعاب البهلوانية ، بدا مدرّب ومعه مجموعة من الأسود المستأنسة المدرَّبة، في قفص حديديّ كبير متين مُحكم . ثم أخذ المدرّب يُري المتفرّجين والمشاهدين : كيف أنّه يقترب من الأسود ويلاعبها دون أن تمسّه بسوء . وبينما هو كذلك ، إذ انقضّ عليه واحد من الأسود ، فعقره ، وأرداه صريعاً حتى فارق الحياة . ثم إن إدارة المعرض أرجعت الأسود إلى مكانها الأوّل ، وقامت بإحضار طعام طيّب للأسد الذي قتل المدرّب ، ولكنّه لم يأبه به من فرط ما أصابه من النّدم حسب رأي إدارة المعرض ، ثم أحضروا لبوة وقرّبوها إليه فانقضّ عليها وقتلها . وبعد ثلاثة أيّام فارق الأسد الحياة .

* * *

والشاهد المراد في هذه القصّة ليس أنّ الوحش لا يمكن استئناسه وإيلافه ،

(٥٢) نهج البلاغة ، الحِكم . خُلّي عنه : تُرِك وشأنه . عقر : جرح ، قتل ، افترس .

(٥٣) الغرر والدّرر . النُّجح : النّجاح .

وانّما الشاهد : الوحشيّة ذاتها ، إذ الوحش حينما يُخلى عنه ويترك ، يجرح ، وينخر ، ويفترس . والكلّ منّا يعلم أن لغة السّباع والوحوش ليست هي اللطف والرفق واللين ، وانّما هي الجرح والعقر والافتراس .

واذا كان الأمر كذلك ، فإنّ في فم كلّ واحد منّا يرقد سَبْعٌ كاسِرٌ له أنياب حادة قاطعة ، ولكنّه من نوعٍ آخر .

وربّما يسأل السّائل ـ وهو يعرف الإجابة مُسبقاً : ما هو هذا السّبع ؟

إنّه اللسان !

إنّ لسان الانسان ، هذا العضو الذي لا يتعدى كونه قطعة لحمٍ ذات وزنٍ قليل محدودٍ ، يمكن ان يتحوّل الى سَبُعٍ ضارٍ ، يجرح ، ويعقر ، ويفترس فيها اذا خُلي عنه وتُرك وشأنه : يجرح الآخرين ويعقرهم ، وفي محصلة الامر يتفرغ لصاحبه فيعقره ويرديه

ولأنّ اللسان وحش كاسِرٌ ، وسبعٌ ضارٍ ، فإنّ الأسلوب الموضعي المتّعامل معه يتمثّل في حفظه ، ومنعه من جرح النّاس وعقرهم ، وتوجيهه في طريق الخير والحقّ والصّلاح والفضيلة(*) . وليس من نافلة القول : أن كثيراً من الأذى الذي يصيب النّاس هو بسبب ألسنة من يتعاملوا معهم . إن قسماً من النّاس قد يطلقون لألسنتهم أعِنتها ، ويجعلونها لا تلوي على شيء ، وبالتالي فإمّا يقعون في جانب جرح النّاس وإيذائهم بكلماتهم النّابية والجافة ، وإمّا يقعون في وحل الثرثرة وفضول الكلام ، فيتحوّلون الى مصانع لانتاج الكلمات بشكل مذهل ، وإمّا أنّهم يقعون في الجانبين معاً ، وهنا يكون الامر أدهى وأمر وبذلك يخسرون ودّ النّاس لهم بإساءتهم معاملتهم . وليس من العقل والحكمة في شيء ان يوجّه المرء لسانه في أيّ من الجانبين ، ولا في أي جانب من جوانب السّوء والشّر الاخرى . وانّما العقل والحكمة يقتضيان ان يجعل المرء من لسانه مركباً للخير ، وواسطة له ، وأن يتحكم فيه ويخزنه كما يخزن دراهمه ودنانيره ، وأن يتكلم في الموقع المناسب ،

(*) ومن أوجه الخير والفضيلة : احترام الناس ، وتشجيعهم على الخير ولدلالتهم عليه ، وبث روح الإيجاب فيهم ، والدّفاع عن حقوق الانسان .

ويسكت في الموقع المناسب ، فإذا كان الكلام في بعض المواطن من فضّة ، فانّه من ذهبٍ في مواطن أخرى .

إنّ اللسان يجب ان يُجعل صانع الكلمة الحسنة التي هي عنوان النّجاح ووسيلته . وحسن الكلام يجب ان ينظر اليه من ناحيتين :

١ - توجيه اللسان في طريق الخير والفضيلة ، وجعله واسطة لذلك .

٢ - تحسين الكلام بحيث يكون لائقاً لبقاً ، وهو ما يمكن أن يدعى باللّياقة واللبّاقة في التحدّث .

إنّ اللياقة(*) هي المناسبة والحسْن ، واللباقة - عموماً - هي الليونة في الاخلاق ، واللطافة ، والظّرافة . وأن يكون الكلام لائقاً يعني ان يكون مناسباً وحسناً ، وان يكون لبقاً يعني ان يكون ليّناً ، ولطيفاً ، وظريفاً .

ومن المهمّ التنبه اليه ان اللياقة واللباقة في الكلام مع النّاس يجب ان تكون منبعثة من الاخلاص ، والنيّة الصّادقة ، والسّريرة الصّالحة . لا كما يفعل بعض التّجار حيث يحسّنون الكلام للناس عن بضائعهم المغشوشة من أجل أن يقبضوا ثمناً جيداً عنها . ولا كما يفعل اولئك الذين يواجهون النّاس بلسان لائقٍ لبقٍ ، لكنهم يروغون منهم كما تروغ الثّعالب ، لسوء نيّاتهم وضمائرهم .

يقول الامام عليّ (ع) في الشّعر المنسوب اليه ، بشأن هذا النّوع من النّاس :

وإذا الصديق رأيته متملّقاً ... فهو العدو وحقّه يُتجنّب
لا خير في ودّ امرئٍ متملقٍ ... حلو اللسان وقلبه يتلهّبُ
يلقاك يحلفُ أنّه بك واثقٌ ... وإذا توارى عنك فهو العقربُ
يعطيك من طرفِ اللسان حلاوةً ... ويروغُ منك كما يروغ الثّعلبُ

واللياقة واللباقة في الكلام من القواعد الفنيّة التي يحتاجها المرء في تعامله مع النّاس ، وفي كسبهم الى وجهة نظره إذ أنّ لسانه هو الوسيلة الأولى ، أو الاكثر

(*) لياقة الكلام : كونه أخلاقياً وعقلانياً .
ومن لياقة الكلام ولباقته أن يكون فصيحا بليغاً ، وهذه من مهمّات علم الأدب ، وبالتحديد علم البلاغة بفروعه الثلاثة : علم المعاني ، و علم البيان ، وعلم البديع .

استعمالاً في التعامل معهم . فالانسان الذي يجيد كيف ومتى يتكلم ، ومتى يسكت ، وكيف يختار الكلمات اللائقة ، وكيف يحاور او يناقش الشخص الآخر ، لا شك أنه يجيد جانباً هامّاً من جوانب التّعامل مع النّاس ، وكسب ودّهم ، والتأثير فيهم .

ومن اللياقة واللباقة في الكلام ، البدء في النّقاش بنقاط الاتفاق وتأكيدها ، والحصول من الطّرف الآخر على موافقات .

* * *

يقول أحد الكتّاب :

« قال « ج . ا » وسيط شركة « و . هـ » للمنتجات الكهربائية :

« كان في بلدنا عميل تتلهف شركتنا على معاملته . وبعد ثلاثة عشر عاماً من المحاولات المتكرّرة ، والمساعي الدّائبة ، أفلحنا في أن نبيعه شيئاً من منتجاتنا . على أنّني ما أن زرته بعد هذه الصفقة بقليل حتّى فاجأني العميل بقوله : « ج . ا » ! إنّني لن اشتري منكم شيئاً ما حييت .

« ـ لماذا ؟

« ـ لأنّ محركاتكم شديدة الحرارة ، لا استطيع حتّى أن ألمسها بيدي أثناء اشتغالها !

« ـ إذا كان ما تقوله صحيحاً ، يا سيّد « س » ، فلا ينبغي أن تشتري منّا شيئاً بعد اليوم . إنّ من حقّك أن تحصل على محرّكات لاتزيد حرارتها عن المعدّل الذي حدّده اتّحاد المنتجات الكهربائية الوطني . أليس كذلك ؟

« ـ نعم .

« ـ لقد قرّر اتّحاد المنتجات الكهربائية الوطني ألّا تزيد درجة حرارة المحرّك على ٧٢ درجة فهرنهيت فوق درجة حرارة الغرفة التي يُدار فيها المحرك . أليس كذلك ؟

« ـ نعم . و لكن محرّكاتكم تزيد عن ذلك بكثير .

«ولم أُجادله ، بل سألته :

« ـ كم درجة حرارة الغرفة ؟

« ـ ٧٥ درجة فهرنهيت ، على وجه التّقريب .

« ـ حسناً ، إذا كانت درجة حرارة الغرفة ٧٥ درجة ، أضف إليها ٧٢ درجة أخرى ، لأصبح المجموع ١٤٧ درجة فهرنهيت .

« ـ نعم .

« وعندئذ قلت مقترحاً :

« ـ أفلا يحسن بك ـ إذن ـ أن تبعد يديك عن المحرّك أثناء دورانه ؟

«فقال أخيراً :

« ـ أظنّك على صواب !

« وقبل أن أنصرف في ذلك اليوم ، أوصاني بما قيمته ٣٥٠٠٠ ريال من الآلات » .

* * *

إنّ اللياقة واللباقة في الحديث يجب أن لا تُستعمل بحال للاحتيال على النّاس ، وجني المصالح منهم ، بل يجب ان تكون خُلقاً يعتمد على الإخلاص والنّية الصّادقة . ويتلازّم على من يستعمل اللياقة واللباقة من أجل المادّة والمصالح بعيداً عن مبادىء الدّين والعقل المؤدّب ، أن يعيد النّظر في فهمه لمعنى اللياقة واللباقة ، وإن كانت المصالح المتبادلة المشروعة ، البعيدة عن الاستغلال والانتهاز والاحتيال . لا بأس بها .

واللياقة واللباقة ـ كخلق وأدب ـ مطلوبة في الحديث العاديّ ، وفي الحوار الكلامي ، وفي المباحثة ، والنّقاش . .ومن اللباقة إعطاء الطّرف الآخر فرصة التحدّث الكافية ، وإبداء الآراء .

ومن الحالات غير الايجابيّة التي تحدث في هذا المجال : أن يرى المرءُ قسماً من

النّاس إذا تحادثوا ، أو تحاوروا ، أو تناقشوا مع غيرهم ، ينظر إليهم وكأنّهم في غابة ، فلا مراعاة لآداب الكلام والحديث عندهم ، فهذا يتكلّم ، والآخرون يتكلّمون في نفس الوقت ، ومحصّلة ذلك : حدوث غوغاء كلاميّة متعبة ، وربّما مصحوبة بالانفعال والصّياح ، والغضب والتعصّب .

ومما يُؤسف له بشدّة أنّ قسماً من النّاس في مجتمعاتنا ، ينقصهم عنصر اللياقة واللباقة في التّحدّث والحوار ، مع أنّ الاسلام أرشدنا إلى خلق اللياقة واللباقة منذ اكثر من ١٤٠٠ عام . ولو أنّ أولئك التزموا نظاماً في الحديث ، واستعملوا اللياقة واللباقة ، لوفّروا على أنفسهم جهداً ووقتاً ، ولتوصلوا إلى ما يُراد الوصول إليه بكلّ سهولة ويسر ، مضافاً إلى هذا تحقّق حسن التّعامل مع الآخرين .

واللياقة واللباقة يعينان المرء على التحدّث بسهولة ويسر ، وتوضيح ما يراد توضيحه بقدرة وكفاءة . كما أنّهما تفيدان المرء في تبيين ما يريد تبيينه بصورة فنّية ، يكون لها وقعاً ايجابياً على الطّرف الآخر .

* * *

ومن طريف ما ينقل عن اللياقة واللباقة في التحدّث وبيان الآراء ، أنّ ملكاً من الملوك حلم ذات يوم بأنّ اسنانه كلّها تساقطت ، فانزعج ولم يعلم ماذا يكون ذلك ، فاستدعى مفسّراً للأحلام ، فقال المفسّر : إنّ جميع أقربائك يموتون قبلك ، فقتله ، ثمّ أحضر له آخر ، فقتله كذلك ، ثمّ أُحضر له ثالث فقال : انّ تفسير رؤياك يا سيادة الملك أنّك أطول أقربائك عمراً إنشاء الله تعالى . فأمر له بجائزة، مع العلم بأنّ مضمون الآراء الثلاثة واحداً .

* * *

وهكذا فلكي يكون المرء على طريق النّجاح في تعامله مع النّاس ، واجبه أن يحفظ لسانه ، وأن يستعمله في وجوه الخير والفضيلة ، وأن لا يستعمله في إيذاء الآخرين وجرح مشاعرهم والإساءة إليهم ، وخليق به أن يتوسّل باللياقة واللباقة ـ وبإخلاص ـ في الحديث العاديّ والحوار ، وفي المباحثة والمناظرة ، وفي النّقاش وبيان الآراء ، وفي غير ذلك .

مخاطبة دوافع الخير والفضيلة في الناس

قال الإمام عليّ (ع) :

« كفى بفعل الخير حسن عادة »[٥٤] .

*

في داخل كلّ إنسان نفخة من الرّوح ، وطينة من الحمأ المسنون ، خيِّراً كان أو شرّيراً . فحتى ذلك الشرّير حينما تُخاطب جذور الخير والدّوافع النّبيلة فيه ، ويُتوسّل بها في التّعامل مع ، فإنّه يشعر في قرارة نفسه أنّ مُخاطِبَه ذو فضلٍ عليه ، وأنّ مُخاطِبَه يقدّره ، ويحترمه ، وبالتالي فإنّه يخجل من أن لا يتعامل مع مخاطِبِه بطريقة لائقة . هذا بالنّسبة للإنسان الشرّير ، فكيف بالخيِّر ؟

بلا ترديد ، أنّ الدّوافع النّبيلة ، ودوافع الخير والفضيلة(*) أكثر استيقاظاً في الإنسان الخيِّر ، منه في الشرّير ، ذلك لأنّ الأوّل هو البيئة الصّالحة للخير . وحيث أنّ الأمر كذلك ، فإنّ التوسّل بالدّوافع النّبيلة والخيِّرة في النّاس ومخاطبتها ، قاعدة لا يستهان بها في جذبهم ، وكسبهم ، والتّأثير فيهم ، وتغيير طباعهم . وكم من أناسٍ أشرار انتقلوا من جحيم الشرّ ، إلى جنة الخير بفعل من توسّل بدوافع الخير

---

(٥٤) المصدر السابق .

(*) ممّا هو جدير بالاشارة اليه أنّ التوسل الى دوافع الخير والفضيلة لدى أصحاب الضمائر الحيّة ، من الأساليب المهمّة والمؤثرة في الدّفاع عن حقوق الإنسان ، وايقاف الانتهاكات لتلك الحقوق .

والفضيلة والنّبل فيهم ! فكان هذا التوسّل هو بمثابة إنقاذ الغريق من أحضان الموت .

وقد يسأل السائل : كيف التوسّل بدوافع الخير والفضيلة في النّاس ؟

إنّ ذلك يتم بمخاطبة جانب الخير في الإنسان وإثارته .

ومثال على ذلك : أن يقول المرء لشخص : انّني أثق بك ، وأصّدق وعودك ، فإنّه حتّى لو كان هذا الشّخص ممّن ليسوا ثقةً وغير صادقي الوعود ، لا بدّ أنه سيحاول أن يحتفظ بتلك الصّورة التي ارتسمت للمرء عنه . وكما يقال : حينما تبني للإنسان قصراً من الزّجاج في قلبك ، فلن يحاول أن يرميه بحجر !

وحينما تطلب من إنسان القيام بعمل ، وتبدأ طلبك بأن تقول له : إنّني أتوسّم فيك الخير ، وإنّي لواثق من أنّك لن تردّ طلبي ، فإنّه سيقوم بالعمل لك ، ولن يردّك خائباً .

وقد تسأل : لماذا ؟

والجواب : لأنّك رسمت له صورة جميلة في ذهنك وقلبك ، وتوسّلت بدوافع الخير والنّبل والنّجابة في أعماقه .

وما من إنسانٍ إلّا ويحبّ الخير في قرارة نفسه ، خيّراً ، أو بالغاً ما بلغ من الشرّ . والتّعامل معه على أساس استثارة دوافع الخير والنّبل ، لا بدّ وأن يثير فيه الرّغبة فعلاً ، ويجعل كلّ خليّة من خلاياه تتّجه نحو العمل الصّالح . بل أن قسماً من الأشرار لا يحتاجون في إصلاحهم سوى تقديرهم ، والتوسّل لدوافع الخير فيهم . والإنسان حتّى لو كان شرّيراً فقد لا يعترف بأنّه كذلك ، ولربّما يعتقد أو يدّعي بأنّه يتوسّل في معاملاته مع النّاس بطريقة صالحة ، أفلا تكون مخاطبة أصل الخير فيه وسيلة لائقة لإصلاحه ، وإصلاح معاملته النّاس ؟

وعن تأثير هذا الأسلوب في الشخص الآخر ، يُقال أنّ صحفيّاً أراد أن يلتقط صورة فوتوغرافية لأحد المشاهير في حالة غير لائقة ، فالتفت إليه الأخير ، وقال له : إنّ مثل هذه الصّورة لن تروق لأمّي ، ولن ترضيها . وسَرَت هذه الكلمات في مسامع الصّحفي ، وحرّكت مشاعره ، فامتنع عن التقاط الصّورة . والسّبب أنّ

الآخر توسلّ بدافع خيّر ونبيل في الإنسان ، وهو حبّه لأمّه ، ومحاولته جلب رضاها .

* * *

إنّ النّاس منهم الأمناء المخلصون ، ومنهم ليسوا كذلك . وحتّى هؤلاء الأخيرين يستحيلون إلى أناس من نوع آخر حينما يُعاملون على أنّهم منصفون مخلصون . وكم من أناس مشاكسين عنيدين تحوّلوا إلى منصفين بفعل مخاطبة دوافع الخير والفضيلة والنّبل فيهم ، والتوسّل إليها ! ومن أولئك : المستأجر المشاكس ، فماذا كانت قصّته ؟

* * *

« يُقال أنّه كان لدى صاحب شركة كبيرة مستأجر مشاكس ، لا يفتأ يهدّده بإخلاء مسكنه بين آن وآخر . وقبل انقضاء عقد الإيجار بأربعة شهور ، أنذر هذا المستأجر بأنّه سيخلي مسكنه ، بغضّ النّظر عن العقد المُبرم بينهما .

« قال السيّد صاحب الشركة وهو يروي القصّة :

« قضى هذا الرّجل في بيتي فصل الشّتاء بطوله ، وهو أسوأ فصول السّنة ، وأكثرها ازدحاماً براغبي السّكن ، ومن ثمّ أيقنتُ أنّه إذا أخلى مسكنه ، فسيتعذّر عليّ ايجاد بديلاً منه قبل حلول الشّتاء الثّاني . ورأيت بعين خيالي مائتين وعشرين دولاراً ـ هي المبلغ المتبقّى في عقد الإيجار ـ تذروها الرّياح . وكنت في حالة كهذه أهرع إلى المستأجر ، وأنصحه ساخراً ، أن يقرأ العقد مرّة ثانية ، فإذا اعتزم إخلاء المسكن ، وجب أن يدفع باقي الإيجار نقداً وعدّاً !

« ولكنّني بدلاً من تمثيل هذا المشهد ، قرّرت أن أجرّب أسلوباً آخر . فذهبت إلى المستأجر العنيد ، وبدأت حديثي معه كالتالي :

« لقد أستمعت إلى قصّتك ، ولكنّني ما زلت مستريباً في أنّك تنوي الإنتقال حقّاً . إنّ خبرة أعوام طويلة في تأجير المنازل قد علّمتني شيئاً عن الطّبيعة الإنسانيّة ، وقد توسّمت فيك ـ من البداية ـ رجلاً يحافظ على وعده ، وما زلت

عند حسن ظنّي بك . ولهذا أقترح عليك أن تُنحي قرارك جانباً لبضعة أيّام ، وتفكّر في الأمر ، فإذا أتيت إليّ في أوّل الشّهر المقبل ـ عندما يحلّ موعد الإيجار ـ وأخبرتني أنّك ما زلت مصراً على الإنتقال ، فإنّي أعدك أن أتنازل عن حقوقي كافّة ، وأسلّم بأني كنت مخطئاً في ظنّي ! على أنّني ما زلت أعتقد أنّك رجل يحافظ على كلمته ، ويقوم بتنفيذ وعده ، إذ نحن آخر الأمر ، إمّا آدميّون أو قردة ، والخيار عادةً متروك لنا .

« فلمّا أقبل الشهر التّالي ، أتى الرّجل ودفع الإيجار ، ثمّ حدّثني بأنّه تناقش وزوجته في الموضوع ، فقرّ رأيهما على أنّه أكرم لهما واشرف أن يُوفيا بتعهّداتهما لي ! » .

* * *

وثمّة نقطة من المهمّ ذكرها ، أنّ بعض النّاس تحت تأثير ظروف خاصّة ـ كتحقيق منافع ، أو كسب رضا السّلطان ، أو التزلّف له ـ قد يُطفىء جذوة الخير ويميت دوافع النّبل فيه ، فيُمسي يخالف عقله مهما توسّلت بالدّوافع النّبيلة فيه ، فلا يستجيب لنداء العقل ويصرّ في عناده وتعنته . وهذا كما مرّ في قصّة وَلَدي مسلم بن عقيل ، الصّغيرين اليتيمين ، فكلّما توسّل الغلامان بدوافع الخير والفضيلة والنّبل في ذلك الجلاّد ، واستلطفاه واسترفقاه ، أصرّ الأخير على تنفيذ القتل ، حتّى قتلهما صبراً : ظلماً وعدواناً .

والآن إذا شاء المرء تغيير طباع النّاس إلى الأفضل ، وجعلهم يفعلون ما يريدهم أن يفعلوه من أعمال الخير ، خليق به أن يخاطب دوافع الخير والفضيلة والنّبل فيهم ، وأن يتوسّل إليها ، فهذه قاعدة هي من الأهمّيّة بمكان في معاملة النّاس واستصلاحهم .

القسم الثالث

كيف يكسب المرء
ود الناس وحبهم له ؟

التودد الى الناس

قال الإمام عليّ (ع) :

« بالتودّد تكون المحبّة »[1] .

وقال (ع) أيضاً :

« أقرب القرب مودّات القلوب »[2] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« رحم الله عبداً اجترّ مودّة النّاس إلى نفسه فحدّثهم بما يعرفون ، وترك ما ينكرون »[3] .

وقال (ع) أيضاً :

« ثلاث تورث المحبّة : الدّين ، والتّواضع ، والبذل »[4] .

*

التّودّد : طلب المودّة ، واجتلاب الودّ ، والتّحبّب ، فأن يتودّد المرء إلى

---

(١) الغرر والدّرر .

(٢) المصدر السابق .

(٣) وسائل الشيعة ، ج١١ ، ص٤٧١ .

(٤) بحارالأنوار ، ج٧٨ ، ص ٢٢٩ .

أنْ يُحبِّبَ المرء النّاس إليه ، ويصبح محبوباً بينهم ، تلك رغبة وغاية يجدُّ في طلبها كلُّ النّاس واهتمام من الاهتمامات الأساسيّة لكلّ منهم . فما من إنسانٍ إلاّ ويحبّ جمّاً أن يحوز على حبّ عائلته ، وإخوانه ، وأصدقائه ، وزملائه في العمل ، وعموم النّاس ، لأنّ « المرء بأخيه » وببني نوعه .

إنّ كسب وُدّ النّاس وحبّهم بعدٌ عظيم من أبعاد النّجاح ، والسّعادة الإنسانيّة . فهل هناك أعظم سعادة من أن يكون المرء محبوباً ، مودوداً ، محفوداً محشوداً بين بني البشر ؟ وهل هناك أمَرُّ وأشقى من أن يمسي غير متمتّع بحبّ النّاس وودّهم ، ويعيش بعيداً عنهم وخارج ألبابهم وقلوبهم ؟

لقد أعطى الدّين المحبّ اهتماماً عظيماً ، إذ أنّه القاعدة العريضة والمتينة التي يقوم عليها صرح الإجتماع الحضاريّ النّاجح ، وفي سبيل ذلك جاء الدّين بمجموعات كثيرة من النّصوص التي تهتمّ بشؤون المحبّة والمودّة المتبادلة بين النّاس ، تلك النّصوص التي يخلق بالمرء أن ينشىء بنيان معاملته النّاس على أساسها وهداها « وهل الدّين إلاّ الحب » ؟

ومن أجل أن يحبّب المرءُ ، النّاس إليه ، جاءت القواعد التّالية :

النّاس ، يعني : أن يطلب مودّتهم ، ويتحبّب إليهم ، كي يصبح محبوباً إلى

النّاس ، يعني : أن يطلب مودّتهم ، ويتحبّب إليهم ، كي يصبح محبوباً من قِبَلهم ، مودوداً بين ظهرانيهم .

إنّ التودّد والتّحبب إلى النّاس ، يقود إلى كسب مودّتهم ومحبّتهم ، وبهذه المحبّة يكون قريباً منهم والى قلوبهم . وعليه فمن أبرز ثمار المحبّة : القرب ، والقرابة من النّاس . قد يكون المرء بعيداً عن النّاس بالنّظر إلى النّسب ، ولكن المحبّة تجعله قريباً منهم ، وقد يكون قريباً منهم من جهة النّسب ، ولكنّه لا يتحبّب إليهم ولا يحبّهم ، فيمسي بعيداً عنهم . ومن هنا كانت المودّة أقرب الأرحام بالنّسبة للإنسان ، وأن لا قرابة أقرب من محبّات القلوب . بل حتى القرابة هي أحوج إلى الحبّ والودّ ، من الحبّ والودّ إلى القرابة .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« القرابة الى المودّة أحوج من المودّة الى القرابة »[٥] .

وقد يتساءل المرء : كيف التودّد والتحبّب إلى النّاس لكسب محبّتهم ومودّتهم ؟

بطبيعة الحال أنّ التودّد إلى النّاس والتحبّب إليهم عمليّة تفاعل ، لا تنتج من لا شيء ، وإنّما تعتمد على عطاء يقدّمه الإنسان إليهم ، فهي عطاء يستتبعه أخذ . ويتمثّل العطاء في التّواضع للنّاس ، وحسن الخلق معهم ، والرّفق بهم ، وحسن البشر وطلاقة الوجه معهم ، وخدمتهم والبذل لهم ، والإنصاف في معاشرتهم ، والوفاء لهم ، وتحديثهم بما يعرفون ويؤمنون به ، وترك ما ينكرونه .

وهنا سؤال : هل المطلوب من الإنسان أن يتحبّب إلى النّاس ويحبّهم بصورة مطلقة ، أم أنّ هناك معايير وحدود تنظم هذا الحبّ ؟

لا شك أنّ الإنسان في حبّه للنّاس ينبغي له أن ينظر إلى مناظرتهم له في الخلقة ، ويتعامل معهم على أساس ذلك . وفي الطّرف الآخر ينبغي له أن يحفظ المقاييس المبدئية في الحبّ ، فيجعل حبّه في الله ، وبغضه في الله أيضاً . بمعنى

---

(٥) نهج البلاغة ، الحِكَم .

آخر : الحبّ على أساس حبّ الله والإيمان والالتزام بمبادئه .

يقول تعالى :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتبَ في قلوبهم الإيمان . . . ﴾[٦]

ومن هنا فالإنسان حينما يقيم حبّه للنّاس وفق معايير سليمة ، يتقوّم حبّه وبغضه ، فيعرف ما ومن يحب ، وما ومن يبغض . أمّا إذا ضاعت المعايير السّليمة المحّب فيه ، اختلطت عليه الأمور ، وأصبح الخير والشرّ عنده سواء ، ولم يعد يفرّق بين حقّ وباطل ، وخير وشرّ ، وحسن وقبيح ، وفضيلة ورذيلة . وعليه ، فهل المبطلون ، والأشرار ، وأتباع الرّذيلة ، ومن هم على شاكلتهم ، جديرون بالحبّ والودّ ؟

بطبيعة الحال ، كلّا ! .

بل إن من الحكمة ووضع الشيء في موضعه ، أن يضع المرء تودّده وتحبّبه ، ومودّته ومحبّته في موضعها ، فيتحبّب إلى من هو أهل المتحبّب فيحبّه ، ولا يتحبّب إلى من ليس أهلاً لذلك . ومن الجديرين بالتحبّب لهم : الأخيار ، والأكياس (الفطنين) ، العلماء ، المؤمنون ، المتّقون ، العقلاء ، أولياء الله ، الأوفياء . ومن غير الجديرين بالتحبّب لهم : أضداد المتقدّمين .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« من وضع حبّه في غير موضعه ، فقد تعرّض للقطيعة »[٧] .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« لا تبذلنّ ودّك إذا لم تجد موضعاً »[٨] .

---

(٦) ٢٢ / المجادلة . حادّ : عادى وغاضب . يُوادُّون : يحابُّون ، يُحِبُّون ، يودُّون .

(٧) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص١٨٣ .

(٨) الغرر والدّرر .

ويقول (ع) أيضاً :

« إياك أن تحبّ أعداء الله ، أو تصفي ودّك لغير أولياء الله ، فإنّ من أحبّ قوماً حُشر معهم »[٩] .

وبعد أن يعلم المرء وضع الحبّ في موضعه المناسب ، عليه أن يتخلّق بالتّواضع لمن هم جديرون بالحبّ والودّ ، إذ التّواضع هو العنصر الأساس لنموّ الحبّ فيما بين النّاس ، والتّواضع يحتاج الى التّقرب والدّنوّ منهم ، أمّا التكبّر والإبتعاد فهما يؤدّيان إلى نفورهم وابتعادهم .

وممّا يُؤسف له أنّ بعض النّاس يبتعد عن النّاس ولا يتقرّب اليهم ، وينتظر منهم أن يحبّوه ، بل ربّما يفتخر البعض بأنّ النّاس يتقرّبون إليه ويتودّدون ، وهو يبتعد عنهم ، وهذا من اللؤم والحماقة . إنّ المرء خليق به أن يتودّد الى النّاس ، ويغتنم فرصة إقبالهم عليه ، ومن يبتعد حين التّقرب منه ، ليس جديراً بأن يُتقرّب إليه .

يقول الإمام عليّ (ع) :

زهدُك في راغبٍ فيك نُقصان حظّ ، ورغبتك في زاهدٍ فيك ذلّ نفس »[١٠] .

وهكذا فلكي يكسب المرء ودّ النّاس وحبّهم له ، جدير به أن يتقرّب إليهم ويتودّد ويتحبّب ، مع جعل التحبّب والحب وفق المعايير المبدئيّة .

---

(٩) المصدر السّابق .

(١٠) نهج البلاغة ، الحِكَم .

اسباغ التقدير المخلص

قال الإمام عليّ (ع):

« من أحسن إلى النّاس استدام منهم المحبّة »[11].

*

يقول أحد الكتّاب:

« كنت أنتظر دوري في الصّف المنتظم أمام مكتب البريد لأسّجل خِطاباً، فلاحظت أن الموظّف المنوط به التّسجيل متبرّم بعمله، مالّ منه: يزن المظاريف، ويناول الطّوابع، ويردّ باقي النقود، ويحرّر الإيصالات.. حلقة مُفرغة من العمل المتشابه الذي عهده سنة بعد أخرى. فقلت في نفسي: فلأحاول التّحبب إلى هذا الشاب.

« وبديهيّ أنّني إذا أردت أن اتحبّب إليه، فيجب أن أقول له قولاً لطيفاً لا عن نفسي، وإنّما عنه هو! وسألت نفسي: ترى ما الذي يستحقّ أن أُبدي إعجابي به؟

« والإجابة عن هذا السؤال عسيرة أحياناً، خصوصاً حيال الغرباء، ولكنّها في تلك المناسبة بالذّات كانت ميسورة، فسرعان ما لمحت شيئاً اعتزمت أن أبدي له

---

(١١) الغرر والدّرر.

إعجابي به .

« وبينما الشابّ يزن مظروفي ، قلت له في لهجة مخلصة : « لكم أتمنّى لو كان لي مثل شعرك الفاحم اللّماع ! » . فنظر إليّ الشابّ وهو نصف ذاهل ، وقد أشرق وجهه سروراً ، وقال في تواضع : « حقّاً إنّه ليس في بهائه الأوّل » . فأكّدت له أنّه ما زال جميلاً أخّاذاً . وقد سرّ لذلك أيّما سرور ، وقال : إنّ كثيرين قبلي أبدوا إعجابهم بشعره !

« وأراهن أنّ هذا الشابّ قد ذهب إلى منزله ظهر ذلك اليوم وهو يكاد يسير على الهواء ! وأراهن أنّه ما أن دلف إلى منزله حتّى قصّ ما جرى بيني وبينه إلى زوجته ، وأراهن أنّه تطلّع إلى صورته في المرآة ، وقال لنفسه : « حقّاً ! إنّه شعر جميل !

ثم يضيف الكاتب :

«تسألني : ماذا جنيت من رواء ذلك؟ أويتحتّم عليّ أن أجني شيئاً؟ أفترضى أن تمثل للأنانيّة البغيضة ، فلا تهب شيئاً من السّعادة لغيرك من النّاس دون أن تنتظر جزاءً ولا شكورا ؟ أفترضى أن تظلّ نفسك مطبقة بعضها على بعض ، كالثّمرة الفجّة التي تضرّ ولا تنفع ؟ إذن لاستحققت الخيبة والإخفاق في الحياة !

« بلى . لقد جنيتُ شيئاً ، ولم أتكلّف في سبيله مالاً وجهداً : جنيت الإحساس بأنّني وهبت هذا الشابّ شيئاً دون أن يكون في طوقه هو أن يهبني شيئاً في مقابله ، وهذا ـ ولا شكّ ـ إحساس يرضيك ، ويظلّ ماثلاً بذاكرتك أمداً طويلاً » .

* * *

إنّ كلّ ملاطفةٍ تقديريّة ، وكلّ قولٍ أو فعلٍ أو إحسانٍ من شأنه تقدير الشّخص الآخر وجعله يحسّ بأهميّته هي أمور حسنة ، فامتداح الكاتب المتقدّم لشعر موظف البريد جعل الأخير يشعر بالأهميّة والسّرور ، وإنْ كان الأفضل للكاتب أن يقدّر فيه هذا العمل الخيّر ، وهذه الخدمة التي يقدّمها للنّاس . إنّه بهذه الخدمة يكون واسطة في تواصل النّاس بالتّكاتب والتّراسل البريديّ ، أفلا

تكون خدمته الخيّرة هذه محطّاً للتّقدير ، بقطع النّظر عن أنّه يتقاضى في مقابلها مستحقّات ماليّة ؟

* * *

حقّاً إنّ إسباغ التّقدير المخلص على الآخرين ، وجعلهم يحسّون بأهمّيّتهم ، مبدءاً على جانب عظيم من الأهمّيّة في السّلوك الإنساني ، وفي التّعامل مع النّاس وكسب ودّهم وحبّهم ، والدّخول إلى قلوبهم . إنّ التّقدير مأخوذ من معرفة القَدْر ، وما من إنسانٍ إلاّ ويمتلك ما يُقدّر به ، ويحبّ أن يقدّر عليه ، بل أنّ كونه بشراً ، هذا في حدّ ذاته يستحقّ التّقدير والإحساس بأهمّيته .

وما أكثر وجوه التّقدير التي يمكن للمرء أن يريها الآخرين ، وتجعله محبوباً بين النّاس ! ومن تلك الوجوه :

- احترام مشاعر وأحاسيس الشّخص الاخر .
- تقدير وظيفته ومهنته .
- تقدير كفاءاته وخبراته .
- تطييب الكلام معه .
- حفظ ماء وجهه .
- العطف على رغباته الخيّرة .
- تقدير أفكاره ، وآرائه ، ووجهات نظره .
- إخباره بالحبّ له ، والإهتمام به .

* * *

حدّثني صديق وقال :

كان لي صديق أعزّه كثيراً في نفسي ، وأُجلّه وأحترمه ، وكان كثيراً ما يظهر تقديره واحترامه المخلصين لي ، وفي المقابل كنت أقدّره وأجلّه وأحترمه بإخلاص ، إلاّ أنّه لم يحدث لي أن زرته في منزله لكي أعبّر له عمليّاً عن تقديري المخلص له وإحساسي بأهمّيته ، ومن الأسباب في ذلك التّأجيل والتّسويف في زيارته ، كون منزله بعيداً عن منزلي نسبيّاً .

ويضيف الصّديق قائلاً :

وذات عصريّةٍ كنت خارجاً من منزلي متوجّهاً شطر جارٍ لي لأزوره ، فصادف أن التقيت بهذا الصّديق الذي يقدّرني وأقدّره عند إحدى زوايا البيوت ، فتوقفت عنده وسلّمت عليه ، ودخلت معه في حديث وديّ قصير ، ثمّ قلت له من كلّ قلبي : « إنّك محفوظ في قلبي ، وإنّي لأكنُّ لك كلّ التقدير المخلص والاحترام المنزّه ، ولَكَمْ فكّرت في زيارتك ، ولكنّ التّأجيل كثيراً ما منعني من ذلك » . وما أن قلت له هذه الكلمات المخلصة النّزيهة ، حتّى اشرق وجهه ، وتفتّحت أساريره ، خصوصاً وأنّه معروف بالدّعابة والمطايبة مع النّاس ، وشعرت أنّ كلماتي التّقديريّة قد حرّكت كلّ خليّة من خلاياه . ثمّ اعرب لي أنه يشاطرني نفس التّقدير والاحترام والشّعور ، ودخل معي في حديثٍ أخويّ امتدّ زهاء عشرين دقيقة بالرّغم من أنّه كان على موعدٍ مع شخص آخر في ذلك الوقت ، وسأل عن موقع بيتي بالضّبط لكي يزورني في المستقبل .

وإذ أسأل نفسي : ما الذي جعل هذا الصديق يقبل عليّ بكلّه ، ويحبّني ، ويودّني ؟ فيكون الجواب : إنّه التّقدير المخلص النّزيه ، والإشعار بالاهتمام به ، وبأهميّته .

* * *

إنّ النّاس يُقبلون على من يحبّهم ، ويحبّون من يقدّرهم ويحسن إليهم ، ولكي يجعل المرء ـ نفسه ـ محبوباً بينهم ، خليق به أن يعي هذه القاعدة السلوكيّة البالغة الأهمية . ولقد صدق الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) حينما قال :

جبلت القلوب على حبِّ من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها »[١٢] .

والآن ، هل ترغب في أن يحبّك النّاس ويودّوك ؟ لا شك في ذلك ، وإن الأمر في غاية البساطة ، وهو أن تحبّهم وتودّهم ، وتقدّرهم بإخلاص فإذا قدّمت للرّجل طبقاً من سكّرٍ ، فسوف لن يقوم إلاّ بشكرك عليه ، أو بتقديم طبقٍ مماثلٍ لك ، أو أفضل منه .

---

(١٢) نهج البلاغة ، الحِكَم .

وإسباغ التّقدير المخاص يجب أن يكون واسطة الإنسان في كسب ودّ النّاس وحبّهم له أينما كان ، سواء كان في منزله : في تعامله مع زوجته ، وأولاده ، و . . . ، أو في عمله ، أو في المطعم ، أو في الشارع ، أو . . .

فمثلاً : لكي يسعد المرء حياته الزّوجيّة ، فليعمل على أن يقدّر هذا المخلوق الذي ربط مصيره بمصيره . فحتّى لو وجد وجبةً ما أعدّتها زوجته لم تكن بالصّورة اللائقة أو المطلوبة ، فلا يتبرّم ولا يمتعض ، بل عليه أن يقدّر بإخلاص هذه الخدمة التي قامت بها له ، وما تقوم به من سائر الخدمات الأخرى . ولا سبيل إلى كسب ودّ الزوجة وحبّها كما التّقدير المخاص المنزّه .

وقد يدخل المرء مطعماً لتناول وجبة ، ويحدث أن يتأخّر خادم المطعم في إحضار الطّعام له ، أو يأتيه بطعام هو غير ما يريد ، فإنّ عليه أن لا يمتعض ، وأن لا يهين الخادم . وبإمكانه أن يقول له : آسف لإزعاجك ، حبّذا لو تسرع قليلاً في إحضار الطّعام إذا سمحت ، أو عذراً انّني أريد الأكلة الكذائيّة التي طلبتها . وسيجد أنّ خادم المطعم يُسرّ بخدمته ، وذلك لأنّه قدّره وأظهر احترامه له .

وهكذا ، فلكي يحبّب المرءُ الناس إليه ، حريّ به أن يقدّرهم بإخلاص ونزاهة ، وأن يظهر اهتمامه بهم ، ويجعلهم يشعرون بأهميّتهم .

كيف يصبح المرء محبوبا ؟

قال الرسول الأكرم (ص) :

« ضعْ عينَك على منْ شئتَ ، وأحبّ لأخيك ما تُحبُّ لنفسك ، واكرهْ له ما تكرهُ لنفسك »[١٣] .

*

لو قُدّم لكلّ واحدٍ منّا هذا السؤال :

هل تريد استحسان النّاس لك ، واعترافهم بقدرك وقيمتك ؟ لكان الجواب : نعم .

ولو قُدّم لكلّ واحدٍ منّا هذا السؤال الآخر :

هل تكره لنفسك أن تستمع إلى من يداهنك ، ويتملّق لك دون تقديرك ؟ لكان الجواب : نعم ، أيضاً .

وإذا كان المرء يريد استحسان النّاس له ، واعترافهم بقدره وقيمته ، ويأبى لنفسه أن لا يقدّره النّاس ، أليس النّاس ـ أنفسهم ـ يحبّون أن يعاملوا بإعتراف المرء بقدرهم وقيمتهم ، ويأبون لأنفسهم أن لا يقدّرهم ؟

لا شك في ذلك أبداً ، فالنّاس يحبّون أن يُعاملوا كما يعاملون ، فهم يحبّون من

---

(١٣) ميزان الحكمة .

يحبّ لهم الخير ويكره لهم الشرّ ، كما يحبّ هو الخير لنفسه ، ويكره لها الشرّ .

إنّه لمبدأ عظيم جدّاً ، ما أن يلتزمه المرء حتّى يدخل إلى قلوب النّاس سريعاً ، فيحبّونه من كلّ أعماقهم ، كما يحبّهم هو من كلّ أعماقه . وهل هناك حبّ أسمى من أن يحبّ المرء النّاس ما يحبّه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ؟ . مبدأ ظلّ الحكماء على مرّ العصور يبحثون عنه ، كأنّه ضالّتهم ، ووجّه النّاسَ إليه كلُّ الأنبياء والرّسل : أرشد إليه السيّدُ المسيح ـ عليه السلام ـ قبل تسعة عشر قرناً ، ونادى به رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل أكثر من أربعة عشر قرناً .

فما أجمل الإنسان حينما يحبّ النّاس ما يحبّه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لها ! إنّه يصبح محبوباً بينهم ، يذكرونه بكلّ خير ، ويفرحون مسرورين حين ملاقاته ، ويشعرون بالوحشة حين مفارقته ، مثله كمثل العندليب : لا يملّ النّاس من جماله ، ومن ألحان تغريده . يُسبغ الحبّ والتّقدير على من يلقاه من بني البشر ، ويشاركهم آمالهم ، وآلامهم ، وقضاياهم ، ويسعى في خدمتهم ، وفي قضاء حوائجهم .

وما أخسر ذلك الإنسان الذي يسيطر عليه حبّ الذّات ، والرّوح الأنانيّة ، والجشع ، فلا يهمّه أن يشقى الناس جميعاً ، ويظلّ هو سعيداً ـ وأين هو من السعادة ؟ ! ، وأن يصبحوا في عناء وتعب ، ويكون هو في راحة ورفاه ! وما أبعد حبّ النّاس وودّهم له ، ذلك الذي لا يفكّر إلاّ في أناه ، وفي منافعه الشخصيّة حتّى لو كانت على حسابهم !

من هنا لكي يصبح المرء محبوباً بين النّاس خليق به أن يعي جيّداً ويطبّق هذه القاعدة السلوكيّة الانسانيّة : « احب لأخيك ما تحبّ لنفسك ، واكره له ما تكره لها » .

ولينظر المرء في معاملاته التي يجريها مع النّاس في يومه وليلته ، ليرى هل هو في تماس مع هذه القاعدة أم بعيد عنها ؟ فإذا كان من المطبّقين لها فليسْع للأفضل ، وإذا لم يكن ، فليعمل على تقويم سلوكه على ضوئها . وليعلم أنّ عظماء التّاريخ أخذوا مكانهم في افئدة محبّيهم من النّاس ، لأنّهم ـ إضافة إلى أبعاد عظمتهم

الأخرى ـ كانوا يطبّقون هذا المبدأ العظيم .

وفي جميع الجوانب الحياتيّة ينبغي للمرء أن يستعمل هذه القاعدة ، إن أراد كسب ودّ النّاس وحبّهم ، وحتى في الأمور الصّغيرة ، لأنّ تطبيقه لهذه القاعدة في الأمور الصّغيرة ، يؤهّله إلى أن يطبّقها في الأمور والقضايا الأكبر ، فمن لا يحبّ لأخيه ـ على سبيل المثال ـ أن يكون مقدّراً بين النّاس ، لا يستطيع أن يحبّ له أن يكون مصيره إلى الجنّة . ومن لا يستطع أن يكره لأخيه ـ على سبيل المثال ـ أن يكون سيّء المظهر ، لا يستطيع أن يكره له أن يمسي فقيراً مُعدماً في حياته .

ومن الأمثلة البسيطة . أنّ بعضاً من النّاس إذا أرادوا أن يشربوا الماء ، تجدهم يهتمّون جيّداً بغسل كؤوسهم ، وتنظيفها ، ولكن حينما يطلب منهم الآخرون ، الماءَ ، لا يعيرون اهتماماً لنظافة الكؤوس ، طالما أنّهم لن يشربوا الماء الذي بها ، ويكتفون بصبّ الماء فيها ، وتقديمها كيفما كانت . وقِسْ على ذلك الكثير من التّصرفات الصّغيرة ، والكبيرة التي يهتمّ الإنسان بها حينما تكون تخصّه هو ، ولا يعيرها أيّ اهتمام ـ أو يعيرها حداً أدنى منه ـ حينما تخصّ الآخرين . وهذه هي الرّوح الأنانيّة ، النّابعة من الإفراط في حبّ الذّات والتّقصير في حبّ الآخرين ، تلك الرّوح التي يمقتها الاسلام أشدّ المقت ، والتي يعجّ بها الغرب ، حيث المجتمعات الرأسماليّة ، وحيث أن قيمة المرء ومكانته بما يملك من رأسمال ، إذ لا يهمّ الفرد أن يبيت الآخرون فقراء ، ويصبح هو رأسماليّاً مليونيراً .

وأن يحب المرء لأخيه وللنّاس ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ولهم ما يكره لنفسه ، فضلاً عن أنها قاعدة تفعل فعل السّحر في قلوب النّاس لكسب مودّتهم ، ومحبّتهم ، فهي خلق يقوم على العدل والإنصاف . . إنصاف الآخرين من نفسه . وبهذا الخلق يتعامل النّاس فيما بينهم وهم متعاونون ، متكافلون ، مشتركون في الامال والآلام ، كأنّهم أفنان في شجرة واحدة ، أو أوراق في غصن واحد .

وفي مجال التّعامل مع النّاس ، كما يحبّ المرء أن يقدّره النّاس ، ويهتمّوا به ، فهم أيضاً يحبّون أن يقدّرهم ، ويهتمّ بهم ، ويشعرهم بأهميّتهم . ومن هنا فتقدير

النّاس ، وجعلهم يشعرون بأهمّيتهم من الأمور التي يجب أن تدرج في الحبّ للنّاس كما الحبّ للنّفس ، ومن الأمور التي تجعل المرء محبوباً بين إخوانه ، وبين البشر عموماً .

إنّ المرء ليحبّ أن يقدّر ، وتُحترم وظيفته ، وهكذا فإنّ عليه في المقابل أن يقدّر النّاس ويحترم وظائفهم . فعلى سبيل المثال : إنّ تقديم السّلام ، وإسداء الشكر لساعي البريد ، هذا الموظف الذي يقوم بخدمة طيّبة للنّاس ، يجعله منشرح الصدر ، مسرور النّفس ، وسعيداً ، ويعطيه ثقة بنفسه ، ويحفّزه على الإخلاص في العمل ، والإحسان للآخرين ، وكلّ ذلك بسبب التّقديروالاهتمام به .

وكلمة مديح مخاصةٍ نزيهةٍ يقولها المرء لزوجته ، كأن يقول لها : أقدّر فيك أخلاقك الحسنة ، أو يقول لها : أقدّر الخدمات الجليلة التي تقومين بها في المنزل . إنّ هذه العبارات ، وأمثالها تجعل الزّوجة مسرورة تشعر بالسّعادة ، وتعمّق حالة الحبّ بينهما ، وكلّ ذلك لأنّ زوجها منحها التّقدير ، وأعرب لها عن أهمّيتها ، أي أحبّ لها كما يحب لنفسه ، إذ قدّرها كما يحبّ هو أن تقدّره .

وكثيرة هي العبارات الطيّبة التي تجعل الشّخص الآخر سعيداً ، يشعر بالتّقدير ، والإحترام ، والأهمّيّة ، وتجعله يميل إلى حبّ القائل ووده ، نحو : « آسف لإزعاجك . . . » ، « هل أطمع في . . . » ، « هل تتفضّل بـ . . . » ، « هل تسمح لي أن . . . » ، « إنّي أشكر لك . . . » ، « أقدّر فيك . . . » ، « يعجبني فيك . . . » ، « أرجو المعذرة . . . » ، « لو تكرّمت . . . » ، « أمن خدمة أقدّمها لك . . . » ، « ما تقوم به كخدمة إنسانيّة . . . » ، « أنت شخص لك دور هام في . . . » .

* * *

وعن آثار إظهار التّقدير للشخص الآخر كتب صاحب معهدٍ للعلاقات الإنسانيّة :

« إرتحل السيّد (س) عقب انضمامه إلى معهدي بمدّة وجيزة إلى إحدى المدن، بصحبة زوجته، ليزورا بعض أقاربهما، وهناك قصدا عمّه لزوجته

عجوز ، حيث تركته زوجته ، وخرجت لتزور بعض أقاربها الآخرين . ولمّا كان يتحتّم على السيّد (س) أن ينهي إلى طابة فصله بنتيجة تطبيقه لمبدأ « إظهار التّقدير للنّاس » ، فقد فكّر في أن يبدأ بالعمّة العجوز .

« وألقى السيّد (س) نظرةً في أرجاء البيت فاحصة ، ليرى أيّ الأشياء فيه يسعه أن يبدي تقديره له . وما لبث أن سأل العمّة العجوز : ألم يُشيّد هذا البيت في نحو عام ١٨٩٠ ؟ ، فأجابته العجوز : بلى ، هذا على وجه التّحديد هو العام الذي بُني فيه .

« فقال : إنّه يذكّرني بالبيت الذي وُلدتُ فيه . إنّه جميل ، قويّ البناء ، فسيح الأرجاء ، متعدّد الغرف ، وإنه لمن سوء الحظّ أنّ مثل هذه البيوت لم تُعد تُشيّد في هذه الأيّام . وأقرّته السيّدة العجوز قائلة : نعم ، فإنّ شباب هذه الأيّام لا يهتمّون بالبيوت الجميلة ، وكلّ ما يريدونه هو شقة ضيّقة ، وثلاجة كهربائيّة ، وسيّارة يسرحون بها طيلة اليوم . ثمّ أردفتْ في صوتٍ مرتجفٍ لفرط ما تحمل من الذّكريات السّعيدة : لقد قام هذا البيت على الحبّ ، حلمنا به : زوجي وأنا ، وظللنا نحلم به مدى سنوات ، قبل أن نخرجه إلى حيِّز الوجود ، ولم نستخدم مهندساً ، بل وضعنا تصميمه بأنفسنا .

« ثمّ طافت به العمّة العجوز حول المنزل ، فأبدى تقديره الصّادق للتذكارات الجميلة التي جمعتها خلال رحلاتها مع زوجها : من أوانٍ خزفيّة ، ولوحات ، وستائر حريريّة .

« يقول السيّد (س) : فلمّا فرغنا من جولتنا في أنحاء المنزل ، اقتادتني العمّة إلى الحديقة ، حيث المرآب ، وهناك وجدتُ سيّارة فخمة تكاد تكون جديدة لم تُمس ، وقالت لي العمّة في لهجة رقيقة :

« لقد إشترى زوجي هذه السيّارة الدّقيقة قبل أن يقضي نحبهُ بمدّة قصيرة ! ، ولم أركبها قط منذ وفاته . إنّك يا سيّد (س) تقدّر الأشياء الجميلة ذات الذّكرى العزيزة ، فخُذ هذه السيّارة ، إنّها لك مع أخلص تحيّاتي . وأخذت بهذه المفاجأة ـ وقلت : كيف يا عمّتي ؟ ، انني أقدّر كرمك طبعاً ، ولكنّي لا أستطيع

أن أقبل عطيّتك . إنّني لست حتّى قريباً لك ، ولديك أقارب كثيرون ، يودّون أن تكون لهم هذه السيّارة . فهتفت السيّدة العجوز في ازدراء : أقارب ؟ ! نعم ، لديّ أقارب لا همّ لهم سوى انتظار موتي ، كي يظفروا بهذه السيّارة ! ولكن بُعداً لهم ! . فعُدت أقول لها : حسناً ، إذا كنت لا تريدين أن تعطيها لأحد منهم ، فلماذا لا تبيعيها؟ فهتفت مرّة أخرى : أبيعها؟! أتريدني أن أبيع هذه السيّارة؟! أو تظنّ أنّني أطيق أن أرى الغرباء يروحون أمامي ، ويغدون بها ، وهي التي اشتراها زوجي أنا ؟ ! إنّني سأهديها لك يا سيّد (س) ، فأنت تقدّر التذكارات حقّ قدرها . وحاولتُ التخلص بشتّى السّبل من قبول السيّارة ، ولكنّي كففتُ خشية أن أؤذي مشاعرها ! »

* * *

والآن ، فلكي يُصبح المرء محبوباً بين النّاس ، كاسباً لمودّتهم ومحبّتهم منصفاً لهم من نفسه ، عليه أن يلتزم هذه القاعدة العظيمة : « أحبَّ للنّاس ما تحبّ لنفسك ، واكره لهم ما تكره لها »

لكي يسر الناس بالمرء

قال الإمام عليّ (ع):

« السّرور يبسط النّفس، ويثير النّشاط »[١٤].

وقال (ع) أيضاً:

« ما اودع أحدٌ قلباً سروراً، إلاّ خلق الله من ذلك السُّرور لطفاً »[١٥].

*

لو راقب الواحد منّا نفسه حينما يكون مسروراً، فبماذا يشعر؟

بلا ترديد إنّه يشعر بانبساط في نفسه، وبإنشراحٍ في صدره، وبإنفتاح في آفاقه، ويتحفّز في نشاطه، وتنعكس آثار ذلك النّشاط على جسمه وعلى أعماله. ويحدث خلاف ذلك فيما إذا لم يكن مسروراً.

وحيث أنّ الأمر كذلك، فبماذا يكافىء النّاسُ، المرءَ حينما يعمل على إدخال السّرور إلى قلوبهم، وما يستتبع ذلك من بسط أنفسهم وإثارة النّشاط فيهم؟ أليسوا يكافئونه بالمودّة والمحبّة؟

أجل! إنّ النّاس لا يُقدِّمون إلاّ الحبّ والودّ لمن يسرّهم، ويبسط نفوسهم،

---

(١٤) الغرر والدّرر.

(١٥) المصدر السابق.

ويثير النّشاط فيهم . لأنّه - والحال هذه - يكون كالوردة التي تقدّم لمشاهدها جمالها وألوانها وعطرها ، وليس للمشاهد إلاّ أن يقدم لها إنجذابه وحبّه ودّه . أليس كذلك ؟

والآن هل يريد كلّ واحدٍ منّا أن يصبح وردةً بين النّاس ؟

لا شكّ في تلك الإرادة . ولذا ليس على الواحد منّا إلاّ أن يسرّ قلوب النّاس ، لأنّ إدخال السّرور عليهم من المفاتيح السّحريّة التي تفتح قلوبهم له ، وتجعلهم يودّونه ويحبّونه . وإذا ما أدخل المرءُ السّرور إلى قلوب النّاس ، فلن ينبثق من هذا السّرور إلاّ اللطف والودّ والحبّ من قبلهم .

ومن أهمّ الأمور التي تجعل الآخرين مسرورين و سعداء ، أن يجدوا من يتحدّث لهم في الأمور التي يحبّونها وتسرّهم وتلذّ لهم(*) .

وهنا سؤال :

هل هناك حدود يلتزمها المرء حينما يتحدّث للآخرين في الأمور التي تسرّهم وتلذّ لهم ؟ أم أنّ له أن يتكلّم فيما يسرّهم ويلذّ لهم كيفما كان ذلك الكلام ، وبصورة مطلقة ؟

بديهةً أنّ المطلوب من المرء - لكي يُسرّ به النّاس - أن يتحدّث لهم في المشروع ممّا يسرّهم ويلذّ لهم ، وليس في أيّ حديث . بعبارة أخرى : ليس المطلوب من المرء لكي يسرّ النّاس ويُسرّون به ، أن يتنازل عن رسالة الحقّ في حياته ، ويدوس على القيم والمبادىء ، فيتكلّم فيما يطيب لهم ويرضي شهواتهم وغرائزهم حتّى لو كان ذلك على حساب الإلتزام بقيمة الحقّ ، إذ «لا يُطاع الله من حيث يُعصى » .

وفي مجال إحقاق الحقّ والدّعوة إليه يمكن للمرء في البدء أن ينطلق من الطّرف الآخر من القضايا التي يحبّها ويرغب إليها ، بحيث لا يحلّل حراماً ، ولا يحرّم حلالاً ، ثمّ يعرّج بأسلوب فنّي على ما يريد تبيانه من الحقّ له ، ودعوته إليه . لأنّه

(*) ومن الأمور الأخرى التي تدخل السّرور الى قلوب الآخرين : بثّ روح الايجاب فيهم ، وتشجيعهم فيما يقومون به من أعمال خيّرة ، وامتداح اجاداتهم ، وحسن البشر ، وطلاقة الوجه ، والابتسام .

حينما يتكلّم فيما يسرّ الطّرف الاخر ، يكون قد قطع مرحلة من مراحل دخوله إلى قلبه ، وبالتّالي كسبه ، والتّأثير فيه .

يقول الإمام عليّ (ع) ؟ :

« سرور المؤمن بطاعة ربّه ، وحزنه على ذنبه »[١٦] .

❊

ومع الحديث مع الطرف الآخر بما يسرّه ويطيب له من أهمّ الأمور التي تجعله يُسر بالمحدِّث ، فإنّ هناك قسماً من النّاس ينتظرون من غيرهم أن يحبّونهم ، ولكن أفراد ذلك القسم حينما يتحدّثون ، ينصّب حديثهم على أنفسهم وقراباتهم وعلى الأمور التي تسرّهم ويحبّونها هم ويميلون إليها ، دون أن يحدّثوا الطّرف الآخر بما يحبّ ، وبما يسرّه ويلذّ له ويطيب ، الأمر الذي يجعله يشعر بالضّجر منهم ، وضعف الميل إليهم ، والبرود في حبّه لهم . ومن هنا فالتّحدث فيما يسرّ الشّخص الآخر ويلذّ له ، من الأمور اللطيفة التي تُساعد في الدّخول الى قلبه .

❊ ❊ ❊

في مقال له عن « الطبيعة الإنسانيّة » كتب أحد أساتذة الأدب :

« عندما كنت في الثّامنة من عمري ، اعتدت أن أُمضي عطلة نهاية الأسبوع في ضيافة عمّتي . وذات مساء حضر لزيارة عمّتي رجل في منتصف العمر ، لم أكن رأيته من قبل ، وكنت في ذلك الحين شغوفاً بالقوارب ، فما أن علم الزّائر بذلك ، حتّى صبّ حديثه معي عن القوارب ، وكلّ ما يتّصل بها .

« وقد ترك حديثه في نفسي أحسن الأثر وأبقاه . فلمّا انصرف ، سألت عمّتي : من هو ؟ ، وما سبب اهتمامه بالقوارب ؟ ، فأنبأتني عمّتي أنّه محامٍ ، وأنه لم يهوَ القوارب في يوم من الأيّام ! فسألتها : لماذا ـ إذن ـ صبّ حديثه كلّه عن القوارب ؟ . فقالت : لأنّه رجل لطيف الشّمائل ، رأى أنّك مهتمٌّ بالقوارب ، فتكلّم عن الشيء الذي عرف أنه يهمّك أكثر من سواه » .

---

(١٦) المصدر السابق .

وهكذا فإذا جمع المجلس المرء مع شخص ، أو جماعة ، وكانوا يتحدّثون في موضوع خيّرٍ يميلون إليه ، ويرغبون فيه ، فلا يزدرِ فيهم ذلك الميل والرّغبة ، بل ليشجّعهم علي ذلك ، وإن استطاع أن يشاركهم فلا بأس بذلك ، شريطة أن يكون الحديث في الحدود المشروعة ، وسيجد أنّهم يسرّون به ، ويحبّونه ، وينجذبون إليه كما ينجذب النّحل إلى رحيق الأزهار .

وحيث أنّ إدخال السّرور على النّاس وسيلة مؤثّرة في مجال كسب ودّهم وحبّهم ، فإن من الخليق بالمرء لكي يكون محبوباً ، أن يتوسّل بكلّ ما من شأنه إدخال السّرور إلى قلوبهم ، ومن ذلك : استعمال المداعبة والمفاكهة والمطايبة(*) ، فبديهةً أنّ النّاس تنجذب إلى المرء الدّعب الفكِه المطايب ، وتحبّه .

والآن فلكي يُسرّ النّاس بالمرء ، ويصبح محبوباً بينهم ، ليكن حكيماً في أن يُدخل السّرور إلى قلوبهم ، وأن يتحدّث فيما يسرّهم ويلذّ لهم ويطيب وأن يُعلّل طبعه ومعاملته بشيء من الدّعابة والمطايبة .

(*) راجع القسم الرابع ، فصل : مداعبة الناس ومطايبتهم . ومن الأمور التي تدخل السرور الى قلب الشخص الآخر : طرائف الحكم ، والنوادر والفكاهات والطرائف ، والمزح المعقول ، وعموم المداعبات والمطايبات المعقولة والمشروعة .

الابتسام

قال الرّسول الأعظم (ص) :

« إنّ بِشر المؤمن في وجهه ، وقوّته في دينه ، وحزنه في قلبه »[17] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« ضحك المؤمن تبسّم »[18] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« البشر يؤنس الرّفاق »[19] .

وقال (ع) أيضاً :

« حسن البشر من علائم النّجاح »[20] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« البشر الحسن ، وطلاقة الوجه ، مكسبة للمحبّة ، وقرب من الله ، وعبوس الوجه ، وسوء البشر مكسبة للمقت ، وبعد من الله »[21] .

---

(١٧) المصدر السابق .

(١٨) ميزان الحكمة ، ج٥ ، ص٤٨١ .

(١٩) الغرر والدّرر .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) تحف العقول ، ص٢١٧ .

وقال (ع) أيضاً :

« ثلاث من أتى الله بواحدة منهنّ أوجبَ الله له الجَنة : الإنفاق من إقتار ، والبِشر لجميع العالم ، والإنصاف من نفسه »[٢٢] .

الأمر الذي ينبغي أن يعرفه كلّ أنسان أنّ الأشياء المضمرة في داخل المرء تظهر في الواقع الخارجي عن طريق أفعاله التي يمارسها ، أو كلماته التي ينطقها ، أو قسمات وجهه التي تعبّر عن حالته النّفسيّة . إنّ قسمات وجه المرء ربّما هي اكثر تعبيراً عن حالته النّفسية من الثّياب التي يرتديها ، والملابس التي يتزيّن بها . ومن هنا فإنّ النّاس تستكشف سرور المرء وفرحه ، أو حزنه وتجهّمه ، من خلال تعبيرات وجهه ، فالسّرور والفرح والإنشراح عنوانه القسمات المنبسطة ، والحزن والتجهّم والعبوس عنوانه القسمات المنقبضة . ولا شكّ أنّ كُلّاً منّا شاهد وجهاً طلقاً ، وآخر عبوساً ولاحظ تقاسيم الوجه في كلّ من الحالتين .

وحيث الأمر كذلك ، فهل المطلوب من المرء في معاملته النّاس أن يكون حسن البشر ، طليق الوجه ، أم أن يكون سيّء البشر ، عابس الوجه ؟

بديهةً أنّ طلاقة الوجه وحسن البشر هما الخلق الذي ينبغي للمرء أن يقابل النّاس به في معاملته لهم ، بل إن الاحاديث الشريفة توجّه الإنسان إلى أن يكون طليق الوجه ، حسن البشر ، وإن كان في داخله محزوناً ، وهذه من صفات المؤمنين بالله ، المخلصين له ، إذ أنّ المؤمن يسوءه أن يكون محزوناً في داخله فيشرك إخوانه والنّاس في حزنه ، ويسعده أن يبقى النّاس مسرورين وإن كان حزيناً(*) .

والإبتسام أو التبسّم هو عنوان تحسن البشر ، وطلاقة الوجه ، هذا العنوان الذي ينبغي أن يكون طبعاً وعادةً في المرء في معاملته ، النّاس ، سواء كان في منزله ، أو في عمله ، أو في ايّ مكان آخر . إنّ المرء حينما يبتسم أو يتبسّم ، يبدو كالشّمس المشرقة التي ترسل على الكون ضياءها ودفئها وجمالها . ولا معبّر عن

---

(٢٢) جامع السعادات ، ج١ ، ص٣٤٥ ، الطبعه الرابعة .

(*) حينما يكون المرءُ حزيناً لسبب ما ويظهر ـ رغم ذلك ـ بشره وطلاقة وجهه للناس ، فهو بذلك يقصر حالة الحزن على نفسه ، ويشيع السرور ـ وهو حالة الايجاب ـ بينهم .

سرور المرء وحسن بِشره وطلاقة وجهه كما الإبتسام .

* * *

وفي هذا الشأن حكى بعضهم فقال :

دُعيت ذات ليلةٍ إلى وجبة عشاء ، وكان من ضمن المدعوّين رجل غنيّ ، كان يحاول جاهداً أن يطبع في المدعوّين اثراً حسناً . وكان قد أنفق الكثير على ملابسه التي كان يرتديها على ما بدا واضحاً ، ولكنّ قسمات وجهه ظلّت على منأى من زينة المحبّة الخالصة ، والمودّة الصّافية . كانت تعبيرات وجهه تنطق بالجمود والأنانيّة ، وقد غاب عن باله أن التّعبير الذي يرتسم على قسمات وجه المرء اكثر تعبيراً من الملابس والثّياب التي يرتديها .

* * *

هل يرغب المرء اشاعة السّرور والسّعادة في نفس من يلقاه ؟

إنّ من أبسط الأمور التي تعود بالخير الكثير ، وتشيع السّرور والسّعادة في المنزل ، وفي العمل ، وفي كلّ مكان : الإبتسامة . إنّها فعل من غير مؤونة ، وصنيع من دون تكاليف .

فما أجمل الإنسان ، وما اسعده بين النّاس حينما يمنح الأبتسامات المخلصة لمن يلقاه ، كما تمنح الوردة العطريّة النّضرة ، رائحتها الأرجة ، وألوانها المنسّقة لمشاهديها !

وما أجمل ابتسامة الطّفل ، البريئة النّزيهة !

وما أجملنا حينما نبتسم كما يبتسم !

أجل ! ليس من المبالغة في شيء ، إذا قيل : انّ تعبيرات الوجه تتكلّم بصوتٍ أعمق أثراً من صوتِ اللسان . إنّها تخاطب المرء المقدّمة إليه ـ نيابة عن صاحبها ـ قائلةً : إنّي أظهر لك الحبّ والودّ المخلَصين ، وانّك تمنحني السّعادة ، وتشعرني بالحبّ والأُنس .

حقّاً أنّ الابتسام يفعل الشيء الكثير في الشّخص الآخر ، ومن هنا فهو قاعدة

اكثر من هامّة في حياة الإنسان ، وفي تعامله مع النّاس ، وفي كسب مودّتهم ومحبّتهم . فهم ينجذبون ويندفعون إلى ذلك الإنسان الحسن البشر ، الطّايق الوجه ، البسّام ، لا إلى ذلك العبوس ، السيّء البشر ، المنقبض الوجه ، المتجهّم ، ويندفعون إلى قسمات الوجه المنبسطة ، المنشرحة التي يتقاطر منها ندى حسن البشر والطّلاقة والابتسام ، لا إلى قسمات الوجه المنقبضة العابسة التي يخيّم عليها ثقل الهمّ ، والغضب ، والإمتعاض .

والإبتسام فنّ لا غنى للمرء عنه مهما كانت وظيفته أو حرفته . حاكماً كان ، أو مديراً ، أو موظّفاً ، أو . . . ، أو تاجراً . وعن الدّور الحسن الذي يلعبه الإبتسام ، وأهميّته في الجانب الاقتصادي ، والإجتماعيّ على وجه العموم ، قال أهل الصّين القدامى :

« إنّ الرّجل الذي لا يعرف كيف يبتسم ، لا ينبغي له أن يفتح متجراً » .

وبالفعل فإنّ الأخلاقيين ، والإجتماعيّين ، وحسني البشر ، وطليقي الوجه ، والبسومين من أصحاب الدّكاكين والحوانيت والمتاجر الذين يرحبّون بالزّبائن والمشترين ويبشّون لهم ويبتسمون ، إنّ هؤلاء هم المحبوبون ، والذين يتهافت النّاس ويتزاحمون على محلاّتهم ودكاكينهم وحوانيتهم . وبالعكس فإنّ النّاس تنفر من الباعة الذين هم أشبه بقنابل على أهبة الإنفجار ، بقصر النّفس ، وضيق الصّدر ، وسوء البشر ، وعبوس الوجه ، والانقباض والغضب ! . ولا غرابة إذا وُجد زبون اعتزم على أن لا يكرّر دخوله إلى أحد المحلاّت ، لسوءِ بِشرِ صاحبه . ولا غرابة أيضاً أن يعود الابتسام بالنّجاح والسّعادة على صاحبه .

* * *

يقول أحد أساتذة علم النّفس عن دور الابتسام في نجاح الإنسان وسعادته :

« سألت عشرات من رجال الأعمال ـ من طلبتي ـ أن يبتسموا لشخص معيّن طوال اليوم لمدّة اسبوع ، ثمّ يحدّثوا زملاءهم في الفصل عن النّتائج ، وإليك « عيّنة » من هذه النّتائج :

قال « و . ب . ش » الذي يعمل وسيطاً في سوق الأوراق الماليّة :

إنّي متزوّج منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ، وقلّما ابتسمت لزوجتي خلال هذا العمر الطّويل ! بل قلّما حدّثتها أكثر من بضع عبارات ، ابتداءً من السّاعة التي أصحوا فيها حتّى أغادر البيت قاصداً إلى عملي . لقد كنتُ أسوأ مثلٍ للرّجل العبوس ، المتجهّم . فلمّا طابت أن أحدّث زملائي عن تجاربي في الإبتسام ، فكّرت أن أُجرّب الإبتسام مع زوجتي .

ففي الصّباح التّالي ، بينما أنا أمشّط شعري أمام المرآة ، تطلّعت إلى صورتي ، وقلت لنفسي : اسمع يا « و . ب . ش » ، إنّك ستمحو اليوم هذا العبوس المخيِّم على سحنتك ، ستبتسم دائماً ، وستبدأ في التّوّ واللحظة . وإذ جلستُ إلى مائدة الإفطار ، حيّيت زوجتي بهذه الكلمات :

ـ صباح الخير يا عزيزتي ، وابتسمتُ وأنا أقول ذلك .

ووعدتها أن تنتظر منّي هذه التّحية على الدّوام . وقد جرّ هذا الموقف الجديد على بيتنا ، في خلال الشّهرين الماضيين ، سعادةً لم نذق مثلها خلال العام الماضي كلّه .

والآن إذْ أقصد إلى مكتبي ، أُحيّي عامل المصعد بقولي : « صباح الخير »(*) ، وأشفع هذه التّحية بابتسامة مشرقة ، وأبتسم للصّراف في شبّاك المحطّة ، وعندما أقف على قاعة البورصة أبتسم لرجالٍ لم يروني أبتسم من قبل . وسرعان ما وجدت كلّ إنسانٍ يبتسم لي بدوره ، وأعجب من هذا ، أن الإبتسامات أصبحت تدرّ عليّ مزيداً من المال في كلّ يوم !

وبشركتي ـ في مكتبي ـ وسيط آخر ، لديه كاتب شابّ ، مرح النّفس ، منبسط الأسارير دائماً . وإذ رأى مدى التّغير الذي طرأ عليّ ـ لأوّل مرّة ـ ، ظنّني جامداً ، عبوساً ، لا تطاق عشرته ، ولكنّه غيّر ظنّه بي !

وأنا الان أهب كلمات التّقدير والمديح لكلّ من القاه ، كما امتنعت عن

(*) الأفضل أن تكون التحية هكذا : « السّلام عليكم » ، وتُشفع بالقول : صبّحكم الله بالخير ، أو صباح الخير ، أو . . . إن كان الوقت صباحاً ، أو تُشفع بالقول : مسّاكم الله بالخير ، أو مساء الخير ، أو . . . إن كان الوقت مساءًا .

التحدّث إلى النّاس فيما أرغب فيه ، وأصبحت أحاول ـ دائماً ـ الوقوف على وجهة نظر الشّخص الآخر . فأنا الآن شخص مرحٌ سعيدٌ ، كثير الأصدقاء .

وحسن البِشر والتبسّم علاوة على أنّه الخلق الذي يعمل على كسب المرء لمودّة النّاس ومحبّتهم ، فهو من علامات نجاح الإنسان ، سواء على صعيد كسب محبّة النّاس ، وإنشاء العلاقات ، وتكوين الصّداقات ، أو على صعيد النّجاح في الأعمال والمشاريع ، وتحقيق الأرباح . ومن هنا فإدخال السّرور على النّاس وكسب محبّتهم بإخلاص من علائم نجاح الإنسان في الحياة على كافّة الأصعدة الإجتماعيّة .

وفي هذا الصّدد يقول أحد الكتّاب :

« قال لي مدير إحدى شركات المطّاط الكبرى : ان الرّجل قلّما ينجح في عمله ما لم يُقبل عليه بروح الدّعابة والمرح . إذن فهذا الرّجل الذي يُعدّ من أقطاب الصّناعة ، لا يؤمن بالحكمة القديمة القائلة أنّ الجهد وحده وسيلة النّجاح ! ثمّ استطرد يقول : « عرفت رجالاً نجحوا في اعمالهم لأنّهم كانوا يقبلون عليها كإقبالهم على وسائل التّسلية والترفيه عن النّفس ، ثمّ رأيت هؤلاء الرّجال أنفسهم وقد حصروا همّهم كلّه في العمل ، فإذا هو قد امتلأ غضاضةً ، وإذا هم قد فقدوا استمتاعهم به فأخفقوا » .

ولأهميّة حسن البشر ، وطلاقة الوجه ، والإبتسام في معاملة النّاس ، فلا غرابة أن يختار رجال الأعمال والرؤساء والمدراء معاونيهم ، أو أمناء سرّهم من طليقي الوجه ، وحسني البشر ، لأنّ هؤلاء فضلاً عن أنهم يقومون بالأعمال المطلوبة منهم ، فهم يسرّون النّاس ويكسبون ودّهم وحبّهم ، الأمر الذي من شأنه إنجاح العمل ، وتحقق الرّبح ، وذيوع الصّيت(*) .

إلّا أنّ أمراً يجب التنبّه إليه ، وهو أن الإبتسامة سواء كانت من أجل كسب ودّ النّاس وحبّهم ، أو من أجل النّجاح في الأعمال ينبغي أن تكون مخلصةً نزيهةً نابعةً

(*) إنّ حسن تعامل أصحاب المحلّات التجاريّة وموظفيهم مع الزّبائن وحسن بشرهم معهم وابتسامهم لهم من أحسن أنواع الدّعاية لتلك المحلات .

من القلب . فالإبتسامة النّاثية عن الإخلاص ، والتي لا تتعدى كونها تحريك للشّفتين أو وسيلة لدرّ المصالح ، هي ليست ابتسامة حقيقية ، وهي بالتّالي لا تنطلي على أحد . أمّا الإبتسامة الحقيقيّة فهي النّابعة من القلب ، وهي التي تترك الآثار الطّيبة في نفوس النّاس ، وتأتي بالنجاح في ميادين المشاريع والأعمال .

*

وقد يقول امرؤٌ : إنّني أرغب في أن أكون بسوماً ، ولكنّي لا أجد حافزاً على الإبتسام ، فما العمل ؟

الأمر كما يلي :

ليتعوّد أن يبتسم ، فالخير ـ ومنه الإبتسام المخلص ـ عادة ، كما أنّ الشرّ عادة أيضاً . وليبدأ بفتح نوافذ قلبه ، ويطرد ما ألمّ به من ضجرٍ وسأمٍ وحزنٍ إن وُجد ، ولا يضيع لحظة في التفكير في خصومه ، ثمّ ليحاول أن يبتسم أو أن يقسر نفسه على ذلك . ولا مانع أن يتكلّف أو يتصنّع الإبتسام ـ في البداية ـ كمرحلة لخلق عادة التبسّم ، وشيئاً فشيئاً سيتعوّد على الإبتسام ، وسيصبح التبسّم طبعاً وخُلُقاً فيه وعادة .

إنّ حسن البشر ، وطلاقة الوجه ، والإبتسام المخلص تؤنس النّاس ، والرّفاق ، وتقرّب المرء الى قلوبهم وأفئدتهم ، وأعظم من ذلك أنّها تقرّب المرء من خالقه ـ عزّ وجل ـ . أمّا سوء البشر ، وعبوس الوجه ، فهي تكسب مقت النّاس ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى . فهلّا يتقرّب المرء من الله ومن النّاس ؟

والآن فلكي يحرز المرء علامات هامّة من علامات النّجاح على صعيد الأعمال ، أو على صعيد كسب ودّ النّاس وحبّهم ، ينبغي له أن يكون :

- حسنَ البِشر .
- طليق الوجه .
- مبتسماً ، وبإخلاص .

وإذا لم يكن من عادته الإبتسام ، فليتعلّم هذا الفنّ ـ وليس عيباً أن

يتعلّمه ـ بل العيب أن يبقى عابساً متجهّماً طيلة حياته . وما أبسطه من فنّ ! ليتخلّص من كلّ الأغلال ، والأوزار الدّاخليّة ، وليجعل الإبتسامة تنبع من قلبه ، وتجري من فمه وعلى شفتيه لتبسط قسمات وجهه ، ولن يتكلّف شيئاً ، ولن يخسر ، بل هو الرابح والنّاجح والسّعيد على أية حال .

وليعلم المرء أن حسن البشر، وطلاقة الوجه، والإبتسام هي من أبرز الأمور التي تجعله يطبع أثراً حسناً في من يلقاه لأوّل مرّة، وهي الخلق الذي ينبغي أن يتحوّل فيه إلى عادة في كلّ لقاء ، وبذلك ينجح في أعماله ، ويكسب مودةّ النّاس ومحبّتهم .

الإصغاء الطيب ، وتشجيع المحدث على الكلام

قال الإمام عليّ (ع) :

« من أحسن الاستماع ، تعجّل الإنتفاع »[٢٣] .

وقال (ع) أيضاً :

« عوّد أذنك حسن الإستماع ، ولا تصغ إلى ما لا يزيد في صلاحك »[٢٤] .

*

« في دراسة استغرقت شهرين ، جرت في أمريكا ، وتناولت الإتّصالات الشّخصيّة لثمانية وستّين شخصاً في مختلف الأعمال ، تبينّ أنّ ٧٥ بالمائة من مواضيع النّهار تتمّ بالإتصّال الشّفهي ، بمعدّل ٣٠ بالمائة للحديث ، و ٤٥ بالمائة للإصغاء والإستماع »[٢٥] .

« ويقول مدير التّدريب في أحد المخازن الأمريكيّة الكبرى : هذه إحدى الصّعوبات الكبيرة التي تعترضنا عندما يتولّى البيع موظّفون لا خبرة لديهم . . يدخل الشّاري فيطلب سترة قياسها ٣٨ بكُمّين قصيرين كتلك التي أبصرها في الواجهة . فيهرع البائع الى الرّف المعينّ ، ويتناول من فوقه سترة قياسها ٣٨ ولكن

(٢٣) شرح الغرر والدّرر ، ج٧ ، ص١٦٧ .

(٢٤) المصدر السّابق ، ص١٦٨

(٢٥) سمير شيخاني : علم النّفس في حياتنا اليوميّة ، ص١٠٣ .

بكمّين طويلين . فيكرر الشّاري طلبه مشدّداً على الكلمات القصيرة . ويعود البائع ليلبي الطّلب . إنّ مثل هذا التّصرّف يكلّف مالاً لأنّه يهدر وقتاً بلا فائدة : وقت الشّاري ووقت البائع ، عدا ما يسبّبه من فوضى في رفوف السّلع ومن تكدير الشّاري . ويمضي مدير التّدريب قائلاً : لذا فنحن في الدّروس التي نقدّمها على سبيل التّدريب ، نشدّد على العبارة التّالية : « إصغِ قبل أن تتصرّف »[٢٦] .

* * *

الإصغاء ـ أو الإستماع ـ فنّ يهمله أو لايجيده قسم من النّاس . بل إن كثيرين منهم يجيدون التحدّث اكثر مما يجيدون الاستماع . وهؤلاء قد لا يهمهم ما يقول الطّرف الآخر ، بقدر ما يهمهم أن يكونوا هم المتكلّمون ، والماسكون بدفّة الحديث . ولا يهمهم أيضاً أن يبقى الطّرف الآخر متابعاً لحديثه ، ومسترسلاً فيه ، بل يهمهم أن يقاطعوه ، « ويجدعوا أنفه » ، ويبتروا حبل أفكاره أو حديثه .

ولو تساءل المتسائل :

هل هناك من علاقةٍ بين كسب محبّة النّاس ومودّتهم ، وبين الإصغاء أو الإستماع إليهم ؟ لكان الجواب : أجل . والقصّة التّالية دليل على ذلك .

* * *

يحكي أحد الكتّاب ، فيقول :

« جمعتني بأحد علماء النّبات البارزين ، حفلة عشاء ، أقامها أحد النّاشرين المعروفين . ولم أكن قد تحدّثتُ إلى أحد علماء النّبات من قبل ، لذلك وجدت في الإستماع إليه لذّة كبرى . جلستُ على حافّة مقعدي ، وأصغيتُ إليه وهو يحدّثني عن الحشائش والأزهار ، والحدائق المنزليّة ، وكان من لطف الشّمائل بحيث أوضح لي كيف أحلّ بعض المشكلات المتعلّقة بحديقتي .

وكنّا ـ كما أسلفت ـ في حفلة عشاء . ولكنّي ضربت بقوانين اللياقة عرض الحائط ، وتجاهلت سائر المدعوّين ، ومضيت أتحدّث إلى هذا العالم ساعات

---

(٢٦) المصدر السابق ، ص١٠٣ ، ١٠٤ .

بأكملها! وانتصف الليل ، فتمنّيت للمدعوّين ليلة سعيدة ، وانصرفت ، وعاد عالِم النّبات إلى مضيفنا ، وأجزل له الثّناء عليّ . . فقد كنت على حدّ تعبيره « مثيراً جدّاً » . وكنت هذا وكنت ذاك .

ثمّ اختتم حديثه للمضيف بقوله : حقّاً أن السيّد (. . .) محدّث بارع . محدّث بارع ؟ ! أنا ؟ ! وكيف ؟ ! فإنّي لم أقل شيئاً على الإطلاق . بل ما كان لي أن أقول شيئاً قبل أن أغيّر موضوع الحديث ، فلست أعلم من النّبات أكثر مما أعلم عن تشريح طائر « البِطريق »(*) ! كلما فعلته أنّني استمعت بشغف ، قد فعلت ذلك لأنّني كنت شغوفاً حقّاً بما يقول ، وقد أحسّ هو بذلك ، وسرّه هذا بطبيعة الحال ، فالإستماع المشغف هو أعلى ضروب الثّناء الذي يمكن أن تضفيه على محدّثك » .

* * *

وليجرّب المرء أنْ يلتقي شخصاً ، ويدخل معه في حديث ، وليتجاهل ما يقوله الشّخص بأن لا يستمع إليه جيّداً ، ترى ما هو الشعور الذي يتولّد في هذا الشّخص الآخر ؟ بلا شكّ إنه لا يُسرّ به ، ولا ينجذب إليه . وليجرّب أيضاً أن يلتقي شخصاً آخر ، ويدخل معه في حديث ، وليستمع جيّداً ما يقوله الشّخص . إنّ شعور الشّخص في هذه الحالةيختلف تماماً عن شعور الشّخص في الحالة الأولى . إنّه هنا يُسرّ بمستمعه ، وينجذب إليه ، ويحبّه .

من هنا يظهر السرّ في أنّ الخطيب ، والمحدِّث ، والمعلِّم ، و . . . يهتمّون بتركيز نظراتهم ، وتوجيه كلامهم إلى من يصغي إليهم من الجمهور ، أو المحدِّثين ، أو التّلاميذ ، أو . . . ، لأنّ الأوّلين يشعرون باحترام وتقدير الأخيرين لهم ، ويشعرون بأنّ الطّرف الآخر يشجّعهم على الحديث . تصوّر أنّك دُعيت إلى خطاب على جمع ، وكان هذا الجمع غير مستمع إليك ، منشغلاً بغير خطابك، فهل تتشجّع في الخطابة ؟! . وهل تنجذب إلى مستمعيك ؟! وهل

(*) البطريق ، جمعها بطارق وبطاريق وبطارقة : رتبة من الطّيّور ذات غشاء بين الاصابع ، تعيش في المناطق الشّمالية من الكرة الارضية ، ريشها أسود في الظهر وأبيض في الصدر . ويسمى بنجوين .

تثني عليهم ؟!. كلا! بطبيعة الحال. والإنطباع الذي يرتسم لك عنهم أنّهم غير مشجّعين لك على الخطابة، لأنّهم لا يلتزمون الإصغاء.

والإصغاء ليس مسألة صعبة، بل هو فنّ يعتمد على إتاحة الفرصة الكافية المحدِّث لأن يتحدّث، أو أن يبدي أفكاره، أو آراءه ووجهات نظره، ويعتمد على الاتّصاف بإرادة الصّبر على الصّمت والتحكّم في اداة المنطق، وعدم مقاطعة الطّرف الآخر في حديثه، حتّى يتمّه، أو حتّى يتمّ القسم أو الفكرة التي يعطينا بعدها إجازة المتحدّث، أو إبداء الرّأي والتّعليق، مع العلم بأنّ استئذان الشّخص الآخر المتحدّث، أو إضافة تعليق أو شيء أعتراضي، من الأمور الحسنة في تنظيم الأحاديث، وفي المحافظة على كرامة الطّرف الآخر، وتقديره.

وفقدان إجادة فنّ الإصغاء والإستماع، من الأمور غير الإيجابيّة في مجتمعاتنا، فقد يصادف أن يحضر المرء مجلساً، فيجد فيه اكثر من شخص يتحدّثون، ويبدون الرّأي والتّعليق في نفس اللحظة، وبذلك يتحوّل المجلس إلى مقاطعات كلاميّة فوضويّة، تُذكّر بالأصوات المتعدّدة النّغمات والجهات في سوق من أسواق الخضروات! وهذا الأمر - وياللأسف - يحدث حتّى في صفوف المثقّفين!

وقد يقول قائل: إنّ فنّ الإصغاء مطلوب - فقط - في الإجتماعات والجلسات الرسميّة. ولكنّ الحقيقة أنّه مطلوب في غير ذلك: في النّقاش، بل وحتّى في الإجتماعات الأخويّة العاديّة، و«دردشات» الإستراحة وقضاء الوقت الطيّب. فماذا يضير المرء - في اجتماع أخويّ عاديّ - أن يلتزم حالة تنظيميّة في التحدّث في ذات الوقت، وأن ينتظر حتّى ينتهي من كلامه؟ بل حتّى في المجالس الشعبيّة التي لا تركّز على موضوع معيّن - في حالات كثيرة - ينبغي للمرء أن يجعل من نفسه مستمعاً طيّباً، وأن يتكلّم في الموقع المناسب.

والإصغاء لا يعمل على تنظيم المحادثة بين شخصين أو طرفين فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك هو تقدير واحترام للشخص الآخر، الأمر الذي من شأنه كسب المرء لمحبّة النّاس ومودّتهم. فأن تصغي لمحدِّثك، هذا يعني: أنّك تشعُر وتشعِره

بأهمّيته ، وتقدّم الإهتمام والتّقدير له ، ولما يطرحه من أفكار وآراء ، حتى لو كنت تختلف معه في الأفكار والآراء . وليس غريباً أن تجده يرتاح إليك ، ويهتمّ بما تطرحه . وهذا - كما تقدّم ذكره - هو السرّ في أنّ الخطباء يهتمّون في توجيه نظراتهم ، وكلامهم ، إلى من يعيرهم آذاناً صاغية ، واستماعاً طيّباً ، وإلى من يتلقى الأفكار منهم بكلّ اهتمام .

بل حتّى أولئك النّاس الذين يتّصفون بالجفاف في الطّباع ، والغلظة في الأقوال ، يلينون أمام مستمع ، جيّد ، صبور . إنّ هذا الأسلوب هو الذي جعل مشتري الحلّة يرضي ويقتنع بما استعمله مدير القسم في متجر كبير ، فماذا كانت القصّة ؟

يقول أحد خبراء علم النّفس الإجتماعيّ :

اشترى أحد طلابتي - ذات يوم - حلّة جديدة من متجرٍ كبير معروف . وبعد أيّام اكتشف أنّ صباغ الحلّة رديء ، وأنّ لونها يحيل إذا أصابها شيء من العرق . فأخذ الحلّة ، وعاد بها إلى المتجر ، وقصد إلى البائع الذي باعه إيّاها ، وقصّ عليه القصّة . هل قلت قصّ على البائع ؟ - استغفر الله ، بل حاول أن يقصّ عليه ، ولكنّه لم يستطع ، فقد قطع عليه البائع السّبيل ، وقال له : لقد بعنا آلافاً من هذه الحلل ، وهذه أوّل شكاية نسمع بها ! . تلك كانت كلماته ، أمّا لهجته فكانت أقبح بكثير ، ولم تكن لها إلاّ ترجمة واحدة : أنت تكذب ! أتظنّ أنك ستحملنا على التّبعة ؟ . حسناً ، فسوف ترى لمن تكون الغلبة !

« وعند احتدام المناقشة ، تدخّل بائع آخر في الموضوع ، وقال : كلّ الحلل ذات اللون القاتم يحيل صباغها في أوّل الأمر ، ولا يسعنا أن نفعل شيئاً إزاء ذلك ، خاصّةً للحُلل التي تباع بمثل هذا الثّمن الرّخيص !

« قال تلميذي :

« وكنت في تلك اللحظة مجرّد غاضبٍ وحسب ، فلمّا ألمح البائع الثّاني إلى أنّني اشتريت بضاعة رخيصة ، بدأت أغلي كالمرجل ! وأوشكت أن أقول لهم : خذوا حلّتكم ، واذهبوا بها إلى الجحيم ! . ولكنّ رئيس القسم دخل علينا في تلك

اللحظة ، ووسعه أن يُذهب غضبي ، ويُهدِّىء ثورتي ، وذلك بأن استخدم ثلاثة أشياء :

« اولاً : استمع إلى قصّتي من البداية إلى النّهاية ، دون أن يقاطعني بحرفٍ واحد .

« وثانياً : ما إن أكملتُ حديثي ، حتّى سلّم معي بأنّ لون الصّباغ قد حال فعلاً ، وأنذر البائع ألاّ يبيع شيئاً قطّ ما لم يستوثق من جودته ، ورضى العميل عنه .

« ثالثاً : سألني ماذا أريد أن يفعل بالحلّة ، وأظهر عزمه على أن يفعل حسب ما أشير عليه .

« وكنت إلى بضع دقائق خلت ، على استعداد لأن أقول لهم : احتفظوا ببضاعتكم الرّديئة لأنفسكم ، ولكنّني عندئذٍ أجبته : إنّي أسألكم النّصيحة بدوري ، أريد أن أعرف هل ستظلّ الحلّة تفقد لونها ، ام أنّ هذا طارىء مؤقّت ؟ ! وهنا اقترح عليّ رئيس القسم أن أجرّب الحلّة لمدّة اسبوع آخر ، فإذا لم أرضَ عنها أرجعتُها إليهم .

« وغادرت المتجر راضياً . وقد صلحت حال الحلّة في نهاية الاسبوع ، واستعدتُ ثقتي التّامّة ببضاعة هذا المحلّ . وليس بعجيب أن يصبح هذا الرّجل رئيساً لقسمه . أمّا البائعان فإنّهما سيظلاّن . . . (وكنت على وشك أن أقول أنّهما سيظلاّن مجرّد بائعين طول حياتهما) ، كلا ! بل ربّما أُنزلا درجة إلى قسم حزم البضائع ، حيث لا تكون لهما صلة بالعملاء على الإطلاق » .

* * *

إنّ كثيراً من النّاس لا يوفّقون في طبع أثرٍ طيّب في نفوس من يلتقون بهم للمرّة الأولى ، لأنّهم لا يمنحونهم آذاناً صاغية مستمعة ، وأذهاناً متوجّهة ، وإنّما يكون همّهم في التحدّث ، والكلام الذي سيقولونه . والنّاس ـ في الغالب ـ يفضّلون من

يستمع إليهم(*) وينجذبون إليه ، ويحبّونه ، أكثر ممّن يتكلّم إليهم . فعلى سبيل المثال : إنّ المرضى يفضّلون أن يصغي الطّبيب لهم لكي يتحدّثوا إليه بالتّفصيل عن حالاتهم ، ورحلاتهم مع المرض ، اكثر من أن يبقوا مستمعين له ، ذلك لأنهم علاوة على رغبتهم في الشّفاء ، ينتظرون العطف . وهكذا الحال بالنّسبة لطبقات وفئات النّاس الأخرى .

فالحاجة الى المستمع الطيّب أمر لا ينحصر في طبقة أو فئة معيّنة ، بل كل النّاس على إختلاف طبقاتهم وفئاتهم يحتاجون إلى من يستمع إليهم ويصغي ، وهم ينجذبون ويميلون الى هذا النّوع من النّاس .

ومن الأمور التي هي من الأهميّة بمكان في كسب ودّ النّاس وحبّهم ، وترتبط بالإصغاء ولا تقلّ أهميّة عنه ، تشجيع الشخص الآخر على الكلام ، وإتاحة الفرصة له في ذلك ، وخصوصاً في الكلام عن نفسه(**) . إنّ من النّاس من إذا تحدّث مع الآخرين قصر كلامه على نفسه ، وأقاربه ، وقضاياه الخاصّة به ، ضارباً عرض الحائط رغبة الطّرف الآخر في الحديث عن نفسه ، وعن القضايا التي تخصّه وتتعلّق به . إن إتاحة الفرصة للشخص الآخر في الحديث ، وتشجيعه على الكلام عن نفسه ، وعمّا يخصّه ، من الأمور التي لا يستهان بها في كسب مودّتهم ، والدّخول إلى قلوبهم . وهكذا الحال بالنّسبة لتشجيع المحدّث على الكلام عن نفسه وعمّا يخصّه .

إلّا أنّ ثمّة أمر هام ينبغي أخذه بعين الجدّ والإعتبار ، وهو أنّ الإصغاء ـ أو الإستماع الطيّب ـ يجب أن يكون لما هو مشروع وعقلائيّ ، إذ ليس من المشروع ولا من الصّحيح أن يصغي المرء إلى ما لا يصلحه ، أو إلى مالا يزيده صلاحاً . ومن الأمور التي لا تصلح المرء : إصغاؤه إلى اللغو ، واللّهو ومن صوره الغناء ، والإصغاء إلى الكلام عن الفحشاء ، وتشجيع الرّذيلة ، كالتّشجيع على البغاء ،

(*) إضافة الى أنّ كل النّاس يرغبون الى من يستمع اليهم ، هناك منهم من يغلب عليه الصّمت والسكوت والاستماع الى قول المتحدّث ، أثناء الحديث .

(**) إذا أتاح المرء الشخص الآخر الفرصة للتحدث عن نفسه ، واستمع اليه جيداً يكون بذلك قد فعل أمراً طيّبا لكسب ودّه .

وشرب الخمور ، وتناول المخدّرات ، ولعب القمار ، وما إلى ذلك من الموبقات . وهكذا الحال بالنّسبة لتشجيع المحدِّث على الكلام ، إذ ينبغي أن يُشجّع فيما هو خير وفضيلة ، لا أن يشجع على الكلام عن السوء والشرّ والرّذيلة ، لأنّ في تشجيعه ـ والحال هذه ـ تشجيعاً على الرّذيلة ، ودعوة إليها ، وهذا ما لا يوافقه الدّين والعقل .

وقد يسأل السائل : كيف الطّريق إلى حسن الإصغاء أو الإستماع ، وخصوصاً بالنّسبة إلى من لا يجيده ؟

الأمر في غاية البساطة ، وهو التعوّد على الإصغاء والإستماع الطيبين . فمن يتعوّد على الإستماع الطّيب ، سيصبح الإستماع عادةً فيه وتقليداً بلا أدنى ترديد .

والآن فلكي يكسب المرء ودّ النّاس وحبهم ، حريّ به أن يجعل من نفسه :

● مستمعاً طيّباً لهم .

● ومشجّعاً ، ومتيحاً الفرصة لهم في التحدّث عمّا هو خير وفضيلة ، سواء عن أنفسهم أو ما يخصّهم أو مايرغبون إليه .

تذكر حفظ أسماء الناس

قال الرّسول الأعظم (ص) :

« إذا كان الرّجل غائباً فكنّه ، وإذا كان حاضراً فسمّه »[٢٧] .

وقال (ص) أيضاً :

« أوّل ما يبرّ الرّجل ولده أن يسمّيه بإسمٍ حسن ، فليحسن أحدكم إسم ولده »[٢٨] .

*

حينما يلتقي المرء شخصاً آخر ، ويبدأ معه حديثاً ، ثمّ يسترسل معه في الحديث ، دون أن يبادره بالسّؤال عن إسمه ، ما هو الشّعور الذي في داخل ذلك الشّخص ؟

إنّ أدنى ما قد يتولّد فيه من شعور ، هو أنّ المرء لم يعره اهتماماً جيّداً ، لأنّه تناسى التّعرف على عنوانه العام ، وهو إسمه . بينما لو قدّم له هذا السؤال ، في أوّل اللقاء ـ وهو الأفضل ـ أو في أثناء الحديث : « عفواً ، ما هو إسمكم ؟ » ، أو وددت التّعرف[*] على إسمكم » ، لتحرّكت خلاياه متّجهة إلى المرء ، ولأحسّ

---

(٢٧) ميزان الحكمة .

(٢٨) المصدر السابق .

(*) راجع القسم الرابع ، فصل : التعرف على الناس .

الشّخص الاخر بتفاعله معه ، وذلك يرجع إلى إعارته الإهتمام بإسمه(*) ، وبالتّالي به هو ، إذ أنّ الإسم علاوة على أنه وسيلة لتعريف الإنسان ، فهو يشكّل جزءاً ـ على قدرٍ من الأهميّة ـ من شخصيّته ، والإهتمام بإسمه يعني الإهتمام به شخصيّاً ، الأمر الذي يسهم في كسب مودّته ومحبّته ، والدّخول إلى قلبه .

وإنّه لمن غير اللائق أن يدخل أناسٌ مع آخرين في أحاديث قد تمتدّ لساعات ، دون أن « يجشّموا » أنفسهم السّؤال عن أسمائهم . وذلك يرجع إمّا الى حالة كِبر موجودةٍ فيهم ، أو إلى انعدام أو ضعف اهتمامهم بالجانب العلاقاتي ، أو إلى تقصير أو قصورٍ في الثّقافة المعاملاتيّة ، أو ثقافة التّعامل مع النّاس . وأيّما كانت الحالة ، ينبغي، للمرء ويُفضّل له أن يتعرّف على إسم محدّثه .

وقد يتساءل السّائل : ما هو الدّاعي للتّعرف على إسم شخص ، سيفارقني ، وربّما لن أراه في المستقبل ؟ وما الذي أجنيه من ذلك ؟

والجواب :

وما الذي يخسره المرء حينما يسأل عن إسم من يلقاه ؟ ، بل لربّما أصبح هذا صديقاًحميماً للمرء في الحياة . وكم من أفرادٍ أصبحوا أصدقاء حميمين لآخرين ، بسبب التّعرف على أسماء بعضهم البعض !

إنّ التّعرف على إسم الشّخص الآخر ، فضلاً عن أنّه خلق حسن ، فهو يسهم في كسب مودّة ذلك الشّخص ومحبّته ، والدّخول إلى قلبه . وكلّنا ـ أو أغلبنا ـ جرّب أن تعرّف على إسم من لاقاه ، أو إسم محدّثه ، وأحسّ بذلك

(*) مما تجدر الاشارة اليه أنّ الاسم الحسن هو الذي يوحي الى مبدأ عظيم ، كتوحيد الله والعبودية والحمد له ، أو الى قيمة خلاقية فاضلة ، كالكرم ، والجود والاحسان ، والحلم ، والعفو ، والرأفة ، والرحمة ، واللطف ، والرفق ، والطلاقة ، والبشر الحسن ، و . . . وجاء في الأحاديث الشريفة بما مضمونه : « خير الأسماء ماحُمّد وعُبد » . إنّ إساءة اختيار الاسم المولد قد تسبّب في انعكاسات نفسية غيرمحمودة على شخصيته ، كالشعور بالحقارة ، والضعف ، و . . . ومن هنا تبين أهمية احسان اختيار الأسماء للأولاد ، بنيناً وبنات . ومن النوادر التي تُنقل فيها يرتبط بسوء اختيار الاباء لأسماء أولادهم . أنّ أعرابياً سئل عن اسمه ، فقال : ضَنْك ، (أي ضِيق) ، فقيل له : لقد ضُيّق عليك في اسمك . فقال : إن كان قد ضُيّق في الاسم ، فقد وُسّع في الكُنية ، فقيل له : وماكُنيتُك ؟ ، فقال أبوالبيداء !

الشّعور اللطيف الذي يتولّد فيه . أمّا تجاهل إسم الشّخص والتّعرف عليه ، فهو أمر لا يساعد على التحبّب إليه ، وقد يجعله مدبراً لا مقبلاً .

ويلعب التّواضع دوراً كبيراً في السّؤال عن إسم الشّخص الاخر ، لأنّ المتواضع لا يجد حاجزاً في التّعرف على الآخرين ، بل يكون سعيداً وهو يتعرّف عليهم ، بخلاف المتكبّر الذي ينتظر من الآخرين أن يسألوه عن إسمه ، وربما حتّى لو سالوه عنه ، لم يُقبل عليهم .

* * *

ينقل أحد المؤلّفين قصّة عن أهمّية حفظ وتذكّر الأسماء فيقول :

« قابلته ذات يوم ، وسألته عن نجاحه الباهر ، فقال لي : « الجدّ والإجتهاد » . فقلت : لا تمزح فسألني ماذا أظنّ سرّ نجاحه ؟ فقلت : سمعت أنّ في وسعك أن تنادي عشرة آلاف شخص بإسمهم الأوّل . وكنت مصيباً في ظنّي ، فقد ساعدت هذه المقدرة « ج . ف . » على أن ينصّب « ف . ر . » رئيساً للجمهوريّة .

« أمّا كيف خلق « ج . ف . » هذه القدرة على تذكّر أسماء النّاس ، فأمر هينّ .

« كان إذا إلتقى بصديق جديد ، تعرّف على إسمه الكامل ، واسماء أولاده ، وذويه المقرّبين ، ووقف على طبيعة عمله ، ولونه السّياسي ، وآرائه العامّة . ومن ثمّ يحتفظ بهذه المعلومات في ذهنه كجزء من الصّورة التي اختزنها في مخيّلته لهذا الصّديق. فمتى التقاه ثانية ، وسعه أن يربت على كتفه ، ويسأل عن زوجته وأولاده ، والأزهار الجميلة التي تنبت في حديقة داره . فلا عجب ـ إذن ـ أن يكون له على مرّ الأعوام ، معارف ، وأصدقاء ، يفوق عددهم الحصر ! .

« وقبل أن يبدأ « ف . ر . » حملته الإنتخابيّة بأشهر ، عكف « ج . ف . » على كتابة مئات الرّسائل ـ كلّ يوم ـ لأشخاص يعرفهم في جميع الولايات . ثم استقلّ القطار ، وظلّ مدى تسعة عشر يوماً يجوب أنحاء الولايات ، وقطع في هذه الجولة اثني عشر الف ميلاً !

«وكان إذا حلّ ببلد، قابل معارفه على مائدة الإفطار، أو الغداء، أو العشاء، فيقضي معهم زمناً يلقي عليهم فيه تحيّة قلبية مخلصة، ثمّ يتركهم ليستأنف رحلته. فلمّا آب من رحلته، انتقى من كلّ بلد زاره، رجلاً واحداً وسأله أن يعد له قائمة بكل من قابلهم، وتحدّث إليهم. وقد حوت هذه القوائم آلافاً من الأسماء، ومع ذلك فكلّ اسم ورد في تلك القوائم حظي صاحبه بمحادثة وديّة مع «ج. ف».

«وكانت الرّسائل التي يكتبها «ج. ف.» تبدأ دائماً بهذه العبارة: «عزيزي...»، وكان الإمضاء دائماً «ف.»، أي بإسمه الثّاني.

«ولقد اكتشف «ج. ف.» في وقت مبكّر من حياته أنّ أحبّ الأسماء للإنسان هو إسمه! ومتى ذكرت إسم شخصٍ صادقته، وناديته به في المرّة التّالية التي تلقاه فيها، فثق أنّك أدّيت له مجاملة لطيفة باقية الأثر. أمّا لو نسيت إسمه، أو نطقت به مغلوطاً فقد لا يشعر الطّرف الآخر بأنّك تهتمّ به».

* * *

إنّ حفظ أسماء النّاس، وتذكّرها، وتنمية المقدرة على تذكّرها من الأمور الحسنة التي تسهم في التحبّب إلى النّاس والتودّد لهم.

ومن هنا فالمرء بحاجة إلى أن ينشّط ذاكرته في حفظ أسماء من يلتقي بهم من النّاس. ومن الطّرق الناجحة في تذكّر الأسماء: أن تستمع جيّداً إلى الشخص وهو يدلي لك بإسمه، وأن تردّده اكثر من مرّة، وفي أثناء الحديث(*) لكي يرسخ في ذهنك، وأن تربطه بصورة بصريّة، لأنّ الصّور البصريّة ترسخ في المخّ اكثر من الألفاظ والكلمات. وليس غريباً أن تلتقي شخصاً قابلته من قبل فتقول له: إنّ صورتك ليست غريبة عنّي، وكأنّي رأيتك من قبل. ولكنّك لا تستطيع أن تتذكّر إسمه. والسّبب في ذلك أنّك لم ترسم له صورة متكاملة، أو قابلة للرّسوخ في ذهنك، وقد بقي من تلك الصّورة بعض الأجزاء التي تجعلك تظنّ ـ دون ان توقن ـ بأنّك التقيته مسبقاً.

(*) انّ ترديد إسم الشّخص الآخر في أثناء الحديث، علاوة على أنه يساعد في رسوخ اسمه في الذّهن وحفظه، يجعل الطّرف الآخر مسروراً شاعرا بأهميته، وراغباً الى محّدثه ومحباً له.

وعن حفظ وتذكّر الأسماء ، يُنقل عن نابليون الثّالث (امبراطور فرنسا ، وابن عمّ نابليون بونابرت) ، أنّه على الرّغم من واجبات الملك على عاتقه ، كان ليستطيع أن يذكر إسم كلّ شخصٍ التقى به .

فكيف كان يفعل ؟

غايةً في البساطة . كان إذا لم يسمع اسم محدّثه واضحاً ، قال له : آسف ، لم أستطع أن ألتقط الإسم تماماً . فإذا كان الإسم على شيء من الغرابة ، سأل : كيف يُتهجّى ؟ . ثمّ يأخذ على عاتقه ـ خلال المناقشة ـ أن يكرّر الإسم جملة مرّات ، ويحاول أن يربطه في ذهنه بصورة صاحبه ، وملامحه ، وتعبيراته ، ومظهره العامّ . ومتى خلا لنفسه ، كان يدوّن الإسم على قرطاس ، ثمّ يتأمّله مليّاً ، ويحصر ذهنه فيه ، وبهذا يكوّن فكرة « عينيّة » عن الإسم كما كوّن فكرة « سمعيّة » ، فلا يعود هناك ثمة سبيل لنسيانه .

* * *

وإذا كان من الغربيّين من يهتمّون بحفظ وتذكّر اسماء من يلتقون بهم من أجل تحقيق المنافع والمكاسب المادّية ، مع عدم إهمال الفطرة الإنسانيّة الموجودة فيهم ، والباعثة على التّعامل الحسن مع النّاس ، ومع العلم بأنّ الإنسان أيّاً كان يرغب في ان يكون محبوباً مودوداً ، إذا كان كذلك فإنّ المؤمنين هم الأولى بإحسان تعاملهم مع النّاس ، وخدمتهم ، والبذل والعطاء لهم ، وحفظ وتذكّر أسمائهم .

وتذكّر الأسماء ليست مسألة صعبة ، بل هي سهلة . ولكنّ كثيراً من النّاس يتعذّر في سوء حفظه لأسماء من يلقاهم بإزدحام الأعمال ، وكثرة الإنشغالات . ولكن لو علم أولئك أهميّة التّعرف على النّاس وحفظ وتذكّر أسمائهم لمّا قصّروا في ذلك .

والآن فلكي يكسب المرء حبّ النّاس له ، ينبغي له أن يعلم أن إسم الشّخص الآخر هو شيء محبّب له ، وبحفظه لإسم هذا الشّخص يشعر الأخير بأنّه يهتم به ويُقدّر ، وبذلك يدخل المرء إلى قلبه ، فيحبّه .

أمور أخرى في التحبب إلى الناس

بالإضافة إلى القواعد السّابقة التي بالتزامها المخلص يصبح المرء محبوباً من قِبَل النّاس ، مودوداً بينهم ، هناك أشياء أخرى ـ هي من الأهميّة بمكان ـ تؤدّي دورها في التحبّب لهم ، وكسب مودّتهم ، ومنها :

١ ـ التّواضع .
٢ ـ الإقبال على النّاس .
٣ ـ الحياء الإيجابي .
٤ ـ الإبتعاد عن التكلّف ، والحواجز النّفسيّة غير المحمودة .
٥ ـ الإنفتاح ، والعيش بين النّاس .
٦ ـ الإهداء .
٧ ـ التّقدير .
٨ ـ الإحترام والإجلال .
٩ ـ المجاملة المعقولة .
١٠ ـ الزّيارة .
١١ ـ السّؤال عن الأحوال .
١٢ ـ المكاتبة .
١٣ ـ الثّناء المخلص .
١٤ ـ شكر المعروف .

١٥ ـ التشجيع . (تشجيع الطّرف الآخر على صنيعه المخير ، وتشجيعه على الخير عموماً) .

١٦ ـ الإخبار بالحبّ والتّقدير والإحترام(*) .

١٧ ـ الدّعوة إلى المنزل إلى حديث أخويّ ، أو إلى طعام .

١٨ ـ الألفة والأُنس .

١٩ ـ المجالسة .

٢٠ ـ الإحسان .

٢١ ـ التّوفير .

٢٢ ـ الحبّ .

٢٣ ـ التّراحم .

٢٤ ـ التّعاطف .

٢٥ ـ السّعي في حوائج النّاس وخدمتهم(**) .

٢٦ ـ البرّ والإحسان .

٢٧ ـ إجتناب المراء والجدال العقيم .

٢٨ ـ المداراة .

(*) « مرّ رجل في المسجد وابو جعفر (الإمام الباقر) (ع) جالس وابو عبدالله (ع) ، فقال له بعض جلسائه : والله إني لأحب هذا الرّجل ! ، قال له أبو جعفر (ع) : ألا فأعلمه ، فإنه أبقى للمودّة وخير في الألفة » . بحار الأنوار ، ج ٧٤ ، ص ١٨١ .

(**) قال الله عزّ وجل في حديث قدسيّ : « الخلق عيالي ، فأحبهم إليّ ألطفهم بهم ، وأسعاهم في حوائجهم » أصول الكافي ، ج ٢ ، ص ١٩٩ وقال الرسول الأعظم (ص) : « الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيتٍ سروراً » . المصدر السابق ، ص ١٦٤ . وقال (ص) أيضاً : « إن الله خلق عبيداً من خلقه لحوائج الناس ، يرغبون في المعروف ، ويعدّون الجود مجداً ، والله يحب مكارم الأخلاق » . تحف العقول ، ص ٣٧ .

مـ. الناس من يتميزون بالسعي في حوائج الناس وخدمتهم ، ويصدق عليهم أنهم أفراد الخدمة ...ية ، وهؤلاء محبوبون مودودون في الإجتماع .

القسم الرابع

من أخلاقيات
التعامل مع الناس

تقدّم ذكر أن الإنسان بحاجة ضروريّة إلى الإجتماع والإتّصال مع بني نوعه، وذلك للفطرة الإجتماعيّة التي فطره الله عليها، وبإعتبار أن لا غنى له عن غيره لتلبية عوزه وحاجاته ومتطلباته والإشتراك في عمليّة التّكميل الإجتماعيّ، لبلوغ أهدافه، وأداء رسالته في الحياة، الأمر الذي يجعل تعامله مع غيره من النّاس ضرورة أكيدة.

وإذ أنّ معاملة النّاس ضرورة لا مناص منها، تمليها إرادة الخالق ـ جلّ وعلا ـ والأهداف من خلقة الإنسان، وحاجاته، فإنّ تلك المعاملة ينبغي لها أن تكون سليمة، ولكي تكون سليمة لا بدّ أن تقام على أسس راسخة، ومن تلك الأسس: الأخلاق الفاضلة، كما مرّ ذكره.

إنّ الأخلاق هي القواعد والفضائل التي تقوّم سلوك الإنسان وتنظّمه: في تعامله مع خالقه، ومع نفسه، ومع النّاس، وبدونها ينحرف سلوكيّاً، وتفقد المعاملة مصداقيّتها كمعاملة سليمة. ومن هنا فالأخلاق الحسنة حاجة ضروريّة للإنسان، وضرورة أكيدة في تعامله مع النّاس، كضرورة التّعامل ذاته.

وبناءاً عليه كيف يُتصوّر وضع الإجتماع في غياب الأخلاق؟ وهل يختلف ـ والحال هذه ـ عن مجتمع الغاب؟ في مجتمع الغاب القوي يأكل الضّعيف، ويكون البقاء للأقوى ـ والإجتماع الإنساني ـ مع غياب الأخلاق ـ يتحوّل إلى ما يشبه

مجتمع الغاب ، وحينها تضيع المقاييس السّلوكيّة ، وترتبك حياة الإنسان وتضطرب ، ومن هنا فالأخلاق هي الأساس الذي يجب أن تقوم معاملاته عليه لكي يضمن لها التّقوّم والإنتظام .

إنّ الأخلاق ليست حاجة ثانويّة كما قد يرى البعض ، بل هي ضرورة دينيّة وحياتيّة ، نابعة من حاجة الإجتماع الضّروريّة إليها ، وهذا ما يجعل أكثريّة الأخلاق تتّسم بالطّابع الإجتماعيّ ، لكونها تنظّم سلوك الإنسان في معاملته أخاه الإنسان . كما أنّ الأخلاق ليست مطلوبة في زمان دون زمان آخر ، ولا في مكان دون مكان آخر ، إذ هي من صميم رسالات الأنبياء ، للبشر في كلّ زمان ومكان ، وأساس أوّلي ينبغي أن تقوم تعاملات الإنسان مع الإنسان عليه .

فلكي يجعل المرء تعامله مع النّاس حسناً ، مرضيّاً للخالق ـ جلّ وعلا ـ ومحموداً لدى عقلاء النّاس ، واجبه أن يلتزم الأخلاق ، ويجعلها طباعاً وعاداتٍ وسجايا فيه . وفيما يلي لمحات وإشارات في أخلاقيّات التّعامل مع النّاس ، مبدوّة بما هو شديد الارتباط باللسان ، وحسن استعماله ، وتعويده الخير .

حفظ اللسان وحسن استعماله

قال تعالى :

﴿ ... وقولوا للنّاس حسناً ... ﴾[1] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« ما الإنسان لولا اللسان إلاّ صورة ممثّلة ، أو بهيمة مهملة »[2] .

وقال (ع) أيضاً :

« إنّ في الإنسان عشر خصال يظهرها لسانه : شاهد يُخبر عن الضّمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يُردّ به الجواب ، وشافع يدرك به الحاجة ، وواصف يُعرف به الأشياء ، وأمير يأمر بالحسن ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومعزّ تُسكّن به الأحزان ، وحاضر تُجلى به الضّغائن ، ومونق تلتذّ به الأسماع »[3]

وقال (ع) أيضاً :

« الجمال في اللسان والكمال في العقل »[4] .

---

(١) ٨٣ / البقرة .

(٢) تحف العقول ، ص١٤٧ .

(٣) الفروع من الكافي ، ج٨ ، ص٢٠ .

(٤) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص١٤١ .

وقال (ع) :

« لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه »[٥] .

وقال الإمام الباقر (ع) :

« إنّ هذا اللسان مفتاح كلّ خير وشرّ ، فينبغي المؤمن أن يختم على لسانه كما يختم على ذهبه وفضّته »[٦] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« اللسان ترجمان الجنان »[٧] .

وقال الرسول الأعظم (ص) :

« لا يستقيم إيمان عبدٍ حتّى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه »[٨] .

وقال (ص) :

« سلامة الإنسان في حفظ اللسان »[٩] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« زلّة اللسان أنكى من إصابة السّنان »[١٠] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« فتنة اللسان أشدّ من ضرب السّيف »[١١] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

---

(٥) نهج البلاغة ، حكمة ٤٠ .
(٦) تحف العقول ، ص٢١٨ .
(٧) الغرر والدّرر .
(٨) بحار الأنوار ، ج١٧ ، ص٢٨٧ .
(٩) المصدر السّابق ، ص٢٨٦ .
(١٠) الغرر والدّرر .
(١١) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٢٨٦ .

« ربّ لسانٍ أتى على إنسان »[١٢] .

وقال (ع) :

صلاح الإنسان في حبس اللسان »[١٣] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« إنّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »[١٤] .

وقال (ص) :

« يعذّب الله اللسان بعذابٍ لا يعذّب به شيئاً من الجوارح ، فيقول : يا ربّ ، عذّبتني بعذاب لم تعذّب به شيئاً من الجوارح ؟! فيقال له : خرجت منك كلمةٌ ، فبلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فَسُفِك بها الدّم الحرام ، وانتُهِب بها المال الحرام ، وانتُهِك بها الفرج الحرام »[١٥] .

*

لو وقف المرء مع نفسه ، وأجال الفكر في أعماله وتصرّفاته لرأى أنّها تتألّف من أقوال ، وأفعال ، وتقريرات ، وأنّ كثيراً منها ـ أو اكثرها ـ تتمّ باستعمال اللسان .

وقد يسأل السائل : لماذا ؟

والجواب : لأنّ اللسان هو أحد المميّزات الرّئيسة بين الإنسان والحيوان ، إذ هو وسيلة النّطق والتّعبير لديه ، وميزان العقل فيه ، ورسوله ، والترجمان الحقيقي لما يجول في قلبه وضميره .

وعن طريق اللسان يمارس المرء أموراً كثيرة منها :

١ ـ الإخبار عمّا في ضميره وباطنه .

٢ ـ إطلاق الأحكام واتّخاذها .

---

(١٢) الغرر والدّرر .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) المحجّة البيضاء ، ج٥ ، ص١٩٤ .

(١٥) أصول الكافي ، ج٢ ، ص١١٥ .

٣ ـ ردّ الاجوبة على الأسئلة المقدّمة له .
٤ ـ التوسّط به لإدراك الحاجات ونيلها .
٥ ـ وصف الأمور والأشياء .
٦ ـ الأمر بالحُسن والفضيلة .
٧ ـ النّهي عن القبح والرذّيلة .
٨ ـ تسكين الأحزان ، باعتباره وسيلة السّرور والدّعابة والتّفريح .
٩ ـ إجلاء الأحقاد والضّغائن .
١٠ ـ إلتذاذ السّمع بما يصدر عنه من كلامٍ ذي معنى ، فصيحٍ ، بيّنٍ ، وبديع .

لقد تقدّم أنّ اللسان لا يتعدّى كونه بضعة من اللحم ، ذات وزنٍ قليل قد لا يتجاوز المائتين غرام . ولكنّ هذه القطعة اللحميّة إذا حُفظت ، ووُجّهت في الاتجاه الصالح والصّحيح ، تتحوّل إلى مفتاح تفتح به أبواب الخير . أمّا إذا أُطلق عنان الحريّة لها ، فانّها تتحوّل إلى مفتاح تفتح به أبواب الشرّ ، الأمر الذي يورد المرء في المزالق والمهالك والأزمات ! ومن هنا فليس غريباً أن تكون حصائد الألسنة السّيئة هي التي تكبّ النّاس على مناخرهم في النّار .

وإذ الأمر كذلك فإنّ على المرء أن يتعامل مع لسانه كما يتعامل مع دراهمه ودنانيره . فالمعروف أنّ الأموال في البيوت وفي البنوك ، لكي تحفظ ، تُجعل في صناديق حديديّة سميكة ثقيلة محكمة السدّ . وهكذا بالنّسبة للألسن فلكي تحفظ ، وتوجّه في الوجهة الصّحيحة ، يجب أن تُصَنْدَق(*) ويُختم عليها .

ولِسَعَةِ الدّور الذي يقوم به اللسان في تصرّفات الإنسان ، فإن إيمانه بالله لا تتحقق فيه شروط الاستقامة ومقوّماتها إلا باستقامة النّفس ، وهذه الأخيرة لا تستقيم إلاّ باستقامة اللسان ، ولا يستقيم اللسان إلاّ إذا وقع رهن إشارة العقل المؤدّب . وهذا ما يميّز المرء العاقل عن المرء الأحمق (الجاهل) . فالأوّل يجعل لسانه رهن إشارة عقله ، أمّا الآخر فيجعل عقله رهن إشارة لسانه ، وهنا موقع

(*) تصندق: توضع في صندوق. وصندوق اللسان هو الفم، وبفعل هذا الصندوق يتم الصمت والسكوت وحفظ اللسان.

الإنسان في المزالق والمهالك .

ومن هنا ففي الوقت الذي على المرء أن يوجّه لسانه في الوجوه الصّالحة ، عليه في ذات الوقت أن يسجن لسانه ، ويكّفه عن الورود في الوجوه الطّالحة . وبسجنه وكفّه تتحقّق السّلامة له ، إذ سلامته تتوقّف على حفظ لسانه ، وصلاحه يتوقّف على حبسه .

يقول الشاعر :

إذا شئتَ أنْ تحيَا سليماً من الأذَى   وحظُّك موفورٌ وعرضُك صينٌ
لسانك لا تذكر به عورة امرئٍ   فكلُّك عوراتٌ وللنّاس ألسنُ

إنّ اللسان إذا لم يُحفظ ويوجّه في الإتجاه السّليم ، تكون آثاره خطيرة ، تصل الى منتهى الخطورة في حالات ! . فربّما كانت كلمة من لسانٍ أقتل لإنسان من ضربةِ حسامٍ أو سنان . وكم من فتنةٍ اشتعل أوارها ، وأضرمت نيرانها بسبب اللسان : لعدم حفظه ، وإعطائه الحريّة ! . وكم من إنسان أشرف على الهلاك ، أو هلك بسبب سوء استعمال اللسان : لسانه ، أو لسان غيره !

وإذ أنّ للّسان هذا الدّور وهذه الأهمّية ، فإنّ كثيراً من الأخلاق والأخلاقيات الإجتماعيّة التي يتوجّب على المرء أن يلتزمها في معاملته النّاس ، يدخل استعمال اللسان طرفاً أوّليّاً فيها ـ باعتباره وسيلة التّعبير ـ ويكون التزامها موقوفاً على حفظه ، والتحكّم فيه ، وحسن استعماله ، وتعويده قول الحسن والخير .

* * *

وعن تعويد اللسان قول الحسن(*) والخير ينقل التاريخ أنّه :

مرّ نبيّ الله عيسى (ع) مع أصحابه على خنزير أجرب ، فهمّ أصحابه بشتمه ، والإستهزاء به ، وضربه ، فنهاهم نبيّ الله عن ذلك ، وأمرهم بالإحسان حتّى الى هذا الخنزير الأجرب ، قائلاً لهم : عودوا ألسنتكم قول الخير حتّى مع الحيوانات .

يقول الشّاعر في هذا المعنى :

(*) انّ قول الله ـ سبحانه وتعالى : ﴿ وقولوا للنّاس حسناً ﴾ ، تلخصت فيه كل أخلاقيات التعامل التي تتم بواسطة اللسان .

عوِّد لسانَكَ قولَ الخيرِ تحْظَ به ... إنّ اللسانَ لما عـوَّدْتَ مُعتادُ

* * *

ويقول الإمام عليّ (ع) في الشّعر المنسوب اليه :

وزِن الكلامَ إذا نطقتَ ولا تكنْ ... ثـرثـارةً في كـلِّ نـادٍ تخـطبُ

واحـفظْ لـسـانَـكَ واحـتـرزْ مـن لـفـظه

فـالمـرءُ يـسـلُم بـالـلسـانِ ويـعـطُب[١٦]

والآن فلكي يحسن المرء معاملة الناس ، عليه أن يحفظ لسانه ويحسن استعماله ، ويجعله مركباً للخير .

---

(١٦) ديوان الامام عليّ ، جمع وترتيب : عبد العزيز الكرم . نادي : مجلس . يعطب : يهلك .

التزام الصدق مع الناس

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين ﴾[17] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« إنّ أشدّ النّاس تصديقاً للنّاس أصدقهم حديثاً ، وإنّ أشدّ النّاس تكذيباً أكذبهم حديثاً »[18] .

وقال الإمام علي (ع) :

« الصّدق لسان الحقّ »[19] .

وقال (ع) ايضا :

« الصّدق أقوى دعائم الإيمان »[20] .

*

يُعرّف الصّدق بأنّه تطابق المنطق الإنساني مع الوضع الإلهي . بعبارة أخرى :

---

(١٧) ١١٩ / التّوبة .

(١٨) كنز العمّال ، خ٦٨٥٤ .

(١٩) الغرر والدّرر .

(٢٠) المصدّر السابق .

مطابقة لسان الإنسان (كلامه) لما وضع الله وشرّع من أمور يجب على الانسان الصّدق فيها ، وضدّه الكذب .

وجمال الإنسان وحسن حديثه في الصّدق ، أمّا الكلام بلا صدقٍ ، فلا روح فيه ، باعتباره مناقض لقيمة العدل ، والحقّ ، والخير والنّبل ، والفضيلة . كما أن الكلام بلا صدق هو شرّ القول ، والسّبب إلى فساد الأمور ، بخلاف الصّدق الذي هو (خير القول) ، والسّبب إلى صلاح الأمور .

إنّ اللسان باعتباره الأداة التّعبيرية الاكثر استعمالاً بالنسبة للانسان ، وباعتباره الوسيلة المعبّرة عن مواقفه وحاجاته ، فإنّ عليه أن يستعمله بصورة صادقة في أموره ومعاملاته مع النّاس . ومن أخطر ما يهدّد العلاقة الإنسانية بالتصدّع والانفصام ، الابتعاد عن الصّدق في الحديث ، واللجوء الى الكذب!

والكذب ليس من علائم المؤمنين ، ولا من علائم النّاس الصّالحين ، بل هو من علامات المنافقين الذين يقولون شيئاً ، والحقيقة شيء آخر . وبناءً عليه فإنّ الكذب في التعامل مع الناس هو إساءة كبيرة بحقّهم وخيانة ، ومعول هدم لبنيان ذلك التّعامل . والنّاس بطبعهم يميلون إلى من يصدق حديثه معهم وينفرون ممن يكذب عليهم .

يقول الامام عليّ (ع) ـ عن الصّدق ـ في خطبة له :

« أيها الناس ، إنّه لا يستغني الرّجل ـ وإن كان ذا مالٍ ـ عن عترته ، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم . . . ولسان الصّدق يجعله الله المرء في النّاس خير له من المال يرثه غيره »[21] .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك موارد في معاملة الناس يقبح فيها الصّدق ، ومنها ما يلي :

١ ـ النّميمة .

٢ ـ إخبار الرّجل عن زوجته بما يكرهه .

---

(٢١) نهج البلاغة ، خطبة٢٣ .

٣ ـ تكذيب المرء لشخصٍ عن الخبر .
٤ ـ الصّدق في الجواب على السّؤال الذي يدخل على المسلم مضرّة .

كما أنّ هناك موارد يجوز فيها الكذب ، منها :

١ ـ الإصلاح بين النّاس .
٢ ـ (دفع شرّ الظّلمة) .
٣ ـ المكيدة في الحرب .

فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، واجبه أن يكونه صادقاً في معاملتهم .

حفظ الناس في الغيبة

قال الله تعالى :

﴿ . . . ولا يغتبْ بعضكم بعضاً ، أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . . . ﴾[٢٢] .

وقال الرسول الاعظم(ص) :

« الغيبة أن تذكر الرّجل بما فيه من خلفه »[٢٣] .

وعنه (ص) أنّه قال لأبي ذرّ :

« يا أبـا ذرّ ! إياك والغيبة ، فإنّ الغيبة أشدّ من الزّنا . . . » قلت : يا رسول الله ، وما الغيبة ؟ قال : ذكرك أخاك بما يكره . قلت : يا رسول الله ، فإن كان فيه ذاك الذي يُذكر به ؟ قال : إعلم أنّك إذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبته ، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بَهَتّه »[٢٤] .

* * *

يُنقل عن أحد علماء الاسلام الأعلام المتقدّمين أنّه كان ـ ذات يوم ـ حاضراً في مجلس ، وكان بالمجلس حضور ، يتداولون الاحاديث الممزوجة بالكلام عن

(٢٢) ١٢ / الحجرات .

(٢٣) كنز العمال ، خ٨٠١٤ .

(٢٤) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص٨٩ .

أناس غائبين . فما كان من العالم الاّ أن تناول عباءته ، ونهض من مكانه فجأة ، وخرج من المجلس مهرولاً ، ودموعه تتقاطر على صفحات خدّيه . فذهل من كان حاضراً ، وخرج على أثره أحد الحاضرين لاحقاً إيّاه ، وما أن وصل اليه حتى سأله : شيخنا الكريم ! ما الذي دعا بك الى ترك المجلس وأنت تبكي ؟! وهل ضايقك أحد ، أو أساء معاملتك ؟!

فقال العالم : أعظم المضايقة وأسوأ المعاملة ! انّني لست مستعداً للجلوس في مجلس تُؤكل فيه لحوم البشر (يعني يُغتاب فيه الناس) !

وهكذا عبّر هذا العالم الصّالح عن رفضه القلبيّ ، والعملي لهذا الخلق السيء ، وهو الغيبة ، بمغادرة المجلس ، والبكاء الرّافض لغيبة المؤمن .

* * *

إنَّ تعامل المرء مع النّاس ينبغي أن يكون حسناً في وجودهم معه ، وفي غيابهم عنه ، فكما هو واجبه أن يحفظ إخوانه والناس في حضورهم ، كذلك من واجبه أن يحفظهم في مغيبهم ، إذ الحفظ يجب أن يكون في الحضور والمغيب ، ومن التّناقض وسوء المعاملة ، أن يذكر المرء النّاس في حضورهم بالخير ، وفي غيابهم بالشر ، أو العكس .

والغيبة ـ كما هو معلوم ـ ذكر المرء لأخيه من خلفه بما يكره مما هو فيه ، وهي حصيدة من حصائد سوء استعمال اللسان ، وهي من دلالات النّفاق ، ووسيلة العاجز ، ومن يسعى للتشفّي من النّاس ، ودليل اللؤم . وهي محرّمة في الاسلام كحرمة مال الغير ودمه على الإنسان .

إنّ العاقل من يحفظ إخوانه في غيْبتهم كما في حضورهم ، ولا يجعل لسانه مركباً لغيبتهم ، ولا يعوّد نفسه الغيبة ، لأنّها جرم عظيم ، ونتاجها مقت الله ومقت النّاس . فالله سبحانه وتعالى يبغض ويمقت من يغتاب الناس أشد البغض والمقت ، كما أنّ الناس كذلك يمقتونه ، وهل يحب الناس أن يُتكلم عنهم من ورائهم فيما يكرهون ، وفيما هو فيهم ؟! وهل يحبّون من يقوم بذلك ؟!

وعن النّبي (ص) أنّه قال :

« مررتُ ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ، فقلت : يا جبرئيل ! من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم »[٢٥] .

« وعن الحسين بن عليّ ـ عليهما السلام ـ أنّه قال لرجل اغتاب عنده رجلاً : يا هذا كفّ عن الغيبة ، فإنها إدام كلاب أهل النار »[٢٦] .

والغيبة من الكبائر ، والأمر المثير فيها أنّ صاحبها لا يُغفر له حتّى يغفر له المغتاب .

« عن جابر بن عبد الله وابي سعيد الخدريّ قالا : قال رسول الله(ص) : الغيبة أشد من الزّنا . قيل : وكيف ؟ قال : الرّجل يزني ثم يتوب ، فيتوب الله عليه ، وإنّ صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر له صاحبه »[٢٧] .

والغيبة من الاخلاق السيئة التي عن طريقها تشيع الفاحشة في الاجتماع وتنتشر ، وهي أمر سلبيّ على دين الانسان ، إذ تلتهم أعماله الصّالحة كما تلتهم الدّيدان الأكل من جوف الانسان .

يقول الامام الصّادق(ع) :

« من قال في مؤمن ما رأته عيناه ، وسمعته أذناه ، فهو من الذين قال الله ـ عز وجل : ﴿ انّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾[٢٨] .

وربّ سائل يسأل : هل أنّ كلّ شيء يقال في حقّ الإخوان والناس وهم غُيَّاب ، يُعد من الغيبة ؟ .

ويظهر من الاحاديث الشريفة أنّ الغيبة تصدق على ذكر الناس في مغيبهم في

---

(٢٥) تنبيه الخواطر ، ص٩٣ .
(٢٦) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص١١٧ .
(٢٧) ميزان الحكمة ، ج٧ ، ص٣٣٣ .
(٢٨) بحار الانوار ، ج٧٥ ، ص٢٤٠ .

أمور فيهم ، سترها الله عليهم (أي ان النّاس لا يعرفونها) ، أمّا الأمور الظّاهرة فيهم كالحدّة (الغضب) ، والعجلة فلا تدخل في معنى الغيبة ، وإن كان من الأفضل للمرء أن يتجنّب ذكر مثل هذه الأمور في غير ضرورة أو اضطرار .

يقول الامام الكاظم (ع) :

« من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه مما عرفه النّاس لم يغتبه ، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه ممّا لا يعرفه الناس ، اغتابه »[٢٩] .

ويقول الامام الصّادق (ع) :

« الغيبة ان تقول في أخيك مما ستره الله عليه ، وأمّا الأمر الظّاهر فيه مثل الحدّة والعجلة فلا »[٣٠] .

وقد يسأل السائل : إذا كان الناس يتنوّعون بين مؤمنين ، ومسلمين ، وكفّار ، وفسّاق ، وفجّار ، و .... ، فهل هناك تمييز بالنّظر الى حرمة الغيبة وجوازها ؟ وإذا كان هناك تمييز فمن هم الذين تحرم غيبتهم ، ومن هم الذين تجوز غيبتهم ؟ .

تؤكد الاحاديث الشّريفة على أن من تحرم غيبتهم هم :

١ ـ من إذا عامل الناس لا يظلمهم ، ولا يكذب عليهم في الحديث ، ولا يخلف ، اذا وعدهم(*) .

٢ ـ من لم يُر بالعين يفعل الذّنب ، أو لم يشهد شاهدان عليه بذلك .

وأمّا من تجوز غيبتهم ، فهم :

١ ـ « الفاسق المعلن بفسقه » .

---

(٢٩) المصدر السابق ، ص٢٤٥ .

(٣٠) المصدر السابق ، ص٢٤٨ .

(*) يبدو من الأحاديث الشّريفة أن وجود المروءة ، والعدالة ، توجب الأخوة ، وتحرّم الغيبة . قال رسول الله (ص) : « من عامل النّاس فلم يظلمهم ، وحدّثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممّن كملت مروّته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوّته ، وحرمت غيبته » . المصدرالسابق ، ص٢٥٢ .

٢ ـ « الامام الكذّاب ، إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر » .
٣ ـ « المتفكّهون بالأمهات » . (أي المتلذّذون والمتمتعون بأمهاتهم) .
٤ ـ « الخارج عن الجماعة الطّاعن على أمتيّ ، الشّاهر عليها بسيفه » .
٥ ـ « صاحب هوىً مُبتدَع » .
٦ ـ « الإمام الجائر » .
٧ ـ « من ألقى جلباب الحياء » .
٨ ـ « من خالف قوله فعله » .
٩ ـ « الفاجر » .
١٠ ـ « من ظلم ﴿ لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول الآ من ظُلم ﴾ . فالمظلوم يجوز له أن يتكلم عمّن ظلمه في موضوع الظُّلم » .

١١ ـ « من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم » ، فهو يعتبر ظالماً، ويجوز لمن اضافهم أن يذكروا سوء ما فعل .

ومنشأ الغيبة ـ أو أصلها ـ يتنوّع كما يلي :

١ ـ شفاء الغيظ .
٢ ـ مساعدة شخص او جماعة ، على شخص آخر أو جماعة أخرى .
٣ ـ التّهمة .
٤ ـ تصديق الأخبار دون كشفها والتحقّق منها .
٥ ـ سوء الظنّ .
٦ ـ الحسد .
٧ ـ السّخرية .
٨ ـ التّعجب .
٩ ـ التّبرم (التّضجر والاحساس بالسأم والملل) .
١٠ ـ التزيّن (أي أنّ لبس المرء للزّينة ـ كاللباس الحسن ـ قد يبعث الآخرين على أن يحسدوه ويغتابوه) .

وفي الغيبة لا فرق بين المغتاب وسامع الغيبة ، فالثّاني كالأول ، لأن من حقّ

السّمع أن ينزّه عن الاستماع الى الغيبة ، وعن كلّ ما لا يحل الاستماع اليه .

أمّا عن ردّ الغيبة - مع الاستطاعة - عن الأخ وعمّن لا تجوز غيبته ، فهو من الواجبات ، التي إن لم يقم المرء بها كان عليه ذنب كذنب من اغتاب . وردّ الغيبة يكون بمنع المغتاب، والانسحاب من المجلس او مكان التجمّع .

يقول الرّسول الاعظم (ص) :

« من ردّ عن أخيه غيبةً سمعها في مجلس ، ردّ الله عنه ألف باب من الشرّ في الدّنيا والآخرة ، فإن لم يردّ عنه وأعجبه ، كان عليه كوزر من اغتاب »[٣١] .

أمّا عن كفّارة الاغتياب ، فهي الاستغفار للمغتاب كلّما ذُكر .

« سئل النّبي (ص) : ما كفارة الاغتياب ؟ قال : تستغفر الله لمن اغتبته كلّما ذكرته »[٣٢] .

والأعظم سوءاً من الغيبة ، البهتان . فإذا كانت الغيبة هي ذكر من تُحرم غيبته بأمرٍ يكرهه - ستره الله عليه - من ورائه ، فإنّ البهتان هو القول في مؤمن - أو امريء - ما ليس فيه !

يقول تعالى :

﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرمِ به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبيناً ﴾[٣٣] .

وقال سبحانه :

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بُهتاناً واثماً مبيناً ﴾[٣٤] .

ويقول الرّسول الاعظم (ص) :

---

(٣١) وسائل الشيعة ، ج٨ ، ص٦٠٧ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص٦٠٦ .

(٣٣) ١١٢ / النسّاء .

(٣٤) ٥٨ / الأحزاب .

« من بهت مؤمناً او مؤمنة ، أو قال فيه ما ليس فيه ، أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتّى يخرج ممّا قاله فيه »[٣٥] .

ويقول الامام الصّادق(ع) :

« البهتان على البريء أثقل من الجبال الرّاسيات »[٣٦] .

وقول البهتان يجرّ الى قول البهتان من الطّرف الآخر فمن يقول في الناس ما ليس فيهم ، سيقولون فيه ما ليس فيه .

وهكذا فإنّ من أهم أخلاق معاملة الناس حفظهم في الغيبة كما في الشهود ، وتجنّب بهتهم ، فلكي يحسن المرء معاملة الناس واجبه ان لا يغتاب إخوانه ، ومن لا تحل غيبتهم ، وأن يتجنب قول البهتان في الناس كائناً من كانوا ، وكل ذلك يتمّ بذكر الله ـ سبحانه ـ لا بذكر المخلوق ، وباستعمال العقل والتحكّم في اللسان ، وحينها يصير للمرء مكان الغيبة عبرة ، ومكان المعصية أجراً .

---

(٣٥) بحار الانوار ، ج٧٥ ، ص١٩٤ .

(٣٦) المصدر السابق ، ج٧٥ ص١٩٤ .

اجتناب النميمة والسعاية

قال تعالى :

﴿ ولا تُطِع كلّ حلّافٍ مهين . همّازٍ مشّاء بنميم ﴾[37] .

وقال الامام عليّ (ع) :

« إيّاك والنّميمة ! فإنّها تزرع الضّغينة ، وتُبعِّد عن اللّه ، وعن الناس »[38] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« شرّ النّاس المثلّث ، قيل : يا رسول الله ، ما المثلّث ؟ قال : الذي يسعى بأخيه الى السّلطان فيهلك نفسه ، ويهلك أخاه ، ويهلك السّلطان »[39] .

---

(٣٧) ١٠ ـ ١١ / القلم .

« الحلّاف : كثير الحلف ، ولازم الحلف والإقسام في كل يسير و خطير وحقّ وباطل ، أن لايحترم الحالف شيئاً مما يُقسم به ، واذا حلفه بالله فهو لايستشعر عظمة الله ـ عزّ اسمه ـ وكفى به رذيلة . والمهين : من المهانة والحقارة ، والمراد به حقارة الرأي ، و قيل : هو المكثار في الشر ، وقيل : هو الكذاب . والهمّاز : مبالغة من الهمز ، والمراد به العيّاب والطّعان ، وقيل : الطّعان بالعين والاشارة ، وقيل : كثيرالاغتياب . والمشاء بنميم ، النّميم : السّعاية والافساد ، والمشّاء به : هو نقال الحديث من قوم الى قوم على وجه الافساد بينهم » السيد محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن ، ج١٩ ، ص٣٧١ .

(٣٨) الغرر والدّرر .

(٣٩) بحار الانوار ، ج٧٥ ، ص٢٦٩ .

النّميمة هي إظهار الحديث بالوشاية ، ورفعه على وجه الاشاعة والفساد . والنّمام هو من يحدّث مع جماعة ـ أو شخص ـ فينمّ عليهم فيكشف ما يُكره كشفه . والسّعاية هي النميمة والوشاية . وهي بصورة أخصّ تعني الوشاية على شخص أو جماعة عند السلطان(*) . والنّميمة خلق سيء منهيّ عنه في الاسلام ، محذّر منه ووسيلته اللسان .

والمرء في معاملته النّاس واجبه تجنّب النّميمة على النّاس وإليهم ، والسّعاية بهم عند الظالمين من السّلاطين والأمراء . لأنّ في ترك النّميمة كفّ للأذى عن الناس ، ومحافظة على العلاقة الحسنة بهم ، وعلى حالة المحبّة والمودّة معهم . ومن هنا فإن من ينمّ على النّاس ، وينقل حديثهم الذي يكرهون نقله وظهوره ، يصبح مبغوضاً ممقوتاً ـ عندهم ـ قريبهم وبعيدهم ـ ، فضلاً عن أنّه يكون ممقوتاً عند الله ـ عزّ وجل .

ومن مظاهر التّخريب الاجتماعيّ النّاجمة عن النّميمة : التّفريق بين المتآلفين والمتحابين ، ونشوء الضّغائن والأحقاد وإيرائها ، وجلب العداوات على المتصافين ، هذه المظاهر التي تمثّل معاول هدم فعالة في بنيان العلاقة الانسانية .

وتعبّر الأحاديث الشّريفة عن النّميمة بأنها تكاد تكون كالسّحر ، أو أنها من أكبر السّحر ، لما لها من آثار إجتماعية غريبة تخريبية ، فقد تتسبّب في مراحل أشدّ خطورة ـ في انكشاف ستور الناس ، وتخريب المنازل ماديّاً أو معنوياً ، وسفك الدّماء .

وتعتبر النّميمة(*) « أسوأ الصّدق » ، إذ أنّها في غير موضعه ، وهي رواية شرّيرة ، لما تتركه من آثار سيئة على من نُمّ أو سُعي عليه ،وعلى من له علاقة

(*) تعتمد الحكومات الظالمة بشكل موسع على النميمة والسّعاية ، حيث تسخر عيونها للتجسس على الناس ، فيقوم هؤلاء الأخيرون بالاخبار أو كتابة التقارير للأجهزة الأمنيّة . وهذه من أسوأ النميمة والسعاية ، الأمر الذي يجعل الناس ماقتين للحاكم ناقمين عليه .

(*) إذا لم يكن كلام النّمام صدقاً ، (أي كذباً) تصبح النميمة تهمةً (أي نميمة مركبة) ، وهذه أنكى وأقتل !

اجتماعية به .

إن المرء حينما ينمّ على آخر ، فهو في حقيقة الأمر يرتكب أمرين كلاهما أسوأ من الآخر وهما :

١ ـ الكذب للمنقول له .

٢ ـ الظلم للمنقول عنه .

والمرء النّمام إذا كان محباً لمن نمّ عليه ، فإنّه بعمله هذا يكون قد أساء الى محبٍّ أو أخٍ له ، وفي ذلك نسيان منه للإحسان ، ومقابلة بالاساءة ، وهذا خلاف المعاملة الحسنة .

أمّا عن الموقف من النّميمة والسّعاية ، فإن على المرء المنقول له أن يكذّبها ، مبطلة كانت أو محقة ، وعليه التحقّق قبل اتخاذ أيّ موقف ، لأنّ الواشي قد يكون قوله صحيحاً ، وقد يكون كذباً مغرضاً ، وفي تصديق الواشي شرّ في الحالتين .

يقول الامام عليّ (ع) في الشّعر المنسوب اليه :

فإن قيل في الاسفار ذلّ ومحنةٌ وقطع الفيافي وارتكاب الشّدائد

فموت الفتى خيرٌ له من قيامه بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسد[٤٠]

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس واجبه أن يتجنّب النّميمة عليهم ولهم ، والسّعاية بهم الى الظّالم .

(٤٠) ديوان الامام عليّ ، جمع عبدالعزيز الكرَم .

التزام الوجه الواحد واللسان الواحد مع الناس

قال الله ـ عز وجل ـ لعيسى (ع) :

« يا عيسى ! ليكن لسانك في السرّ والعلانية لساناً واحداً ، وكذلك قلبك ، إنّي أحذّرك نفسك ، وكفى بي خبيراً ، لا يصلح لسانان في فم واحد ، ولا سيفان في غِمْدٍ واحد ، ولا قلبان في صدر واحد ، وكذلك الأذهان »(٤١) .

وقال الرّسول الاعظم (ص) :

« تجدون شرّ النّاس ذا الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه »(٤٢) .

وقال الامام الباقر(ع) :

« بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين ، يطري أخاه شاهداً ، ويأكله غائباً ، إنْ أعطي حسده ، وان ابتلي خذله »(٤٣) .

من أخلاق التّعامل مع الاخوان والناس ، ومن حسن معاملتهم ، أن يكون للمرء وجهاً واحداً ولساناً واحداً معهم ، وبذلك يتحقّق الصّدق والاخلاص في المعاملة . أمّا لو قابلهم بوجه ولسان ، وفي موقع آخر أتاهم بوجه آخر ولسان

---

(٤١) بحار الأنوار ، ج٥ ، ص٢٠٥ .

(٤٢) ترغيب .... ، ج ٣ ، ص٦٠٣ ..

(٤٣) بحارالانوار ، ج٥ ، ص٢٠٣ .

آخر ، فهل يصدق عليه أنّه أخلص أو أحسن معاملتهم ؟! كلا ! بلا أدنى ترديد .

إنّ قسماً من النّاس إذا قابلوا آخرين ، أبدوا لهم قسمات الوجه الرّاضية النضرة ، وأظهروا لهم لساناً عسلياً حلواً ، وإذا ما فارقوهم والتقوا بغيرهم ، أبدوا قسمات الوجه المستاءة ممّن قابلوهم مسبقاً ، وأظهروا لساناً له رواغ كرواغ الثعالب ! وهذه من الاخلاقيات السّيئة المذمومة في الاسلام وفي كلّ الشرائع السماوية ، وهي خلاف الحكمة والعقل المؤدب ، وإمارة من إمارات النّفاق(*) !

إنّ إتيان الاخوان والنّاس واستدبارهم بوجه واحد ، ولسان واحد ، وقلب واحد ، وذهن واحد هو أمر أساسيّ في معاملتهم ، والتحبّب اليهم ، ومن طبع النّاس أنّهم يحبّون من يتعامل معهم بنمطٍ واحد ، ويمقتون من يتعامل معهم بنمط مزدوج ، وهذا ما يجعل المنافقين ، وذوي الوجهين والقلبين واللسانين والذّهنين من الفئات الممقوتة اجتماعياً ، سواء في المجتمعات الايمانية او في غيرها . وهل عُرف ذو وجهين وذو لسانين بحسن معاملته الناس ، وبحبّهم له ؟!

كلا !

نعم ، إذا كان الناس يمارسون خلاف الحقّ والخير والفضيلة ، فإنّ على المرء - في معاملتهم - أن يخالطهم بلسانه ، وجسده ، ويزايلهم - أي يباينهم - بقلبه وعمله . وهنا لا ينطبق عليه أنّه من ذوي الوجهين واللسانين ، إذ لا بدّ للمرء من موقفٍ قلبيٍّ وعمليٍّ حيال الباطل والشرّ والرّذيلة ، وإلّا أمست الفضيلة

(*) النفاق من الامراض الفردية الاجتماعية شديدة الخطورة ، ومن علاماته الكثيرة : الكذب في الحديث ، خُلف الوعد ، خيانة المؤتمن ، الغدر بعد المعاهدة ، الفجور حين المخاصمة ، مخالفة اللسانِ القلبَ ، مخالفةُ القلبِ الفِعلَ ، قساوة القلب ، جمود العين ، الاصرار على الذّنب ، الحِرص على الدّنيا ، مخادعة الله ، الرّياء ، التذبذب بين الحق والباطل ، الذكر القليل لله ، القيام الى الصلاة بكسل ، الاستكبار ، عدم الأُلفة والائتلاف ، النهم في الطعام ، التلوّن والافتتان ، مخالفة السريرة للعلانية ، الأمر بالطاعة وعدم العمل بها ، والنّهي عن المعصية وعدم الانتهاء عنها ، التملّق ، المكر . والنِفاق من الامراض الخلقية النفسيّة ذات التأثير الخطير والمتشعّب على الفرد والاجتماع . وواجب المرء في تعامله مع ربّه ، ومع نفسه ، ومع الناس أن يتوقّى شر الاصابة بهذه الآفة المدمّرة .

والرّذيلة عنده بمنزلة سواء(*) ، وهذا خلاف الشّرع والعقل المؤدب والحكمة .

وفي التّعامل مع الاخوان والأصدقاء وعموم الصّادقين من النّاس ، مجال للإزدواجيّة في التّعامل ، فليس من الجائز ولا من الصّحيح أن يلقى المرء أخاه بوجه ولسان وقلب ، ثم في موطن آخر ، وفي غيابه يتعامل معه بوجه آخر ، ولسان آخر ، وقلب آخر . ومن هنا فوحدة الوجه واللسان والقلب هي الخلق التي يجب أن يتعامل بها المسلم والمؤمن مع إخوانه ، ومع النّاس الطّيبين والمخلصين في التّعامل . بل يبدو أن المرء خليق به أن يكون ذا وجه واحد ولسان واحد وقلب واحد مع عموم الناس ، الجديرين ، لأنّ التصرّف خلاف ذلك هو خلاف العقل والاخلاق المحمودة . مع العلم بوجود حالات خاصّة ، أو حالات ضرورة أو اضطرار ، تقدّر بقدرها .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة إخوانه وعموم الناس الجديرين بالمعاملة الحسنة ، عليه أن يلتزم خلق : الوجه الواحد ، واللسان الواحد ، في السرّ والعلانية .

(*) كما مرّ ذكره في القسم الأول ، فصل : معاملة النّاس ، أنّ على المرء أن يخالط الناس بلسانه وبدنه ، ويزايلهم بقلبه وعمله فيما اذا كانت أعمالهم غير حسنة .

حفظ أسرار الناس

قال الإمام عليّ (ع) :

«من ضعف عن حفظ سرّه لم يقوَ لسرّ غيره»(٤٤) .

*

الاسرار هي ما يكتمه المرء في نفسه ويكره إفشاءه والبوْح به ونشره وإذاعته . وكما على المرء أن يكتم أسراره ولا يُطلع عليها أحداً ، كذلك عليه أن يحفظ أسرار إخوانه المؤمنين وعموم النّاس . إنّ إذاعة سرّ المؤمن من الأمور المحرمة في الاسلام ، بل حتى بالنسبة لغير المؤمن ، من خلاف الأخلاق الفاضلة إذاعة سرّه وإفشائه .

إنّ من النّاس من يحرصون على أسرارهم كلّ الحرص ، ويحفظونها ، ولكنّهم لا يتعاملون مع أسرار غيرهم بنفس الطريقة ، وكأن اسرارهم محترمة وأسرار غيرهم ليست كذلك ، أو أنّ أسرارهم من الدّرجة الأولى ، وأسرار غيرهم من الدّرجة الرّابعة ، وهذا خطأ فادح ، ينم عن روح أنانية ، وتحيز للذّات .

ومن النّاس من يستهين بما يذيعه من أسرار النّاس ، فلا يرى ما يذيعه من أسرارهم سرّاً ، وكلّ ما يسمعه منهم ـ بما في ذلك أسرارهم ـ يطلق للسانه الحرّية

---

(٤٤) الغرر والدرر .

في اذاعته وإفشائه(*) وقد يقدّم لما يريد اذاعته من أسرارهم بأنها ليست أسراراً . وكلّنا ـ أو أغلبنا ـ قد سمع امرءاً يقول عن آخر او آخرين ما يكرهون أنتشاره : لا أفشي سرّاً إذا قلت كذا وكذا . . . مبرّراً أنّ ما يقوله ليس في عداد الاسرار والامور التي يجب ان تُكتم ، وهذا خلاف التّعامل السّليم والحسن مع النّاس .

إنّ التّعامل الحسن مع الناس يقتضي حفظ وكتمان اسرارهم وعدم التّفريط فيها . فكما أنّ المرء يحبّ لنفسه أن تبقى أسراره محفوظة مكتومة ، ويكره لها أن تبقى مذاعة مشاعة ، كذلك عليه أن يحبّ للآخرين أن تبقى أسرارهم محفوظة ويكره لهم أن تكون أسرارهم مفشيّة .

وحفظ أسرار النّاس من عوامل التماسك الاجتماعيّ ، والتلاحم في العلاقات الانسانية . ومن هنا فالمجتمعات او التّجمعات التي تمتاز بحفظ أسرار الآخرين ـ علاوة على حفظ أسرار النّفس ـ تتّسم بالقوة والمتانة ، بخلاف المجتمعات او التجمعات التي ينتشر فيها إفشاء الأسرار ، فهي أشبه بالبنيان الذي انتشرت الشرُوخ والتّصدعات في هيكله وسقوفه وجدرانه ، ناهيك عن أنّ إفشاء أسرار الآخرين قد يفسد أعمالهم ومشاريعهم المرتبطة بهذه الأسرار ، وقد يولّد الضّغائن والأحقاد والعداوات ومساءات الظّن ، الامر الذي يخلّف آثاراً سلبية في التعامل فيما بينهم .

وربُ سائلٍ يسأل :

ما هو المعيار في حفظ الامور التي ترتبط بالناس ؟

وهل كلّ شيء يقولونه ، أو يعرفه المرء عنهم يُعتبر سراً ؟

وكيف يحفظ المرء أسرار النّاس .

وتكون الإجابة كالتالي :

كما تقدّم ذكره أنّ كلّ شيء استكتمه النّاس ، وكلّ ما يرتبط بهم مما يكرهون

(*) من الاسباب التي تؤدي الى افشاء الأسرار : الثرثرة وسوء استعمال اللسان ، العداوة ، الحقد ، الحسد ، الغضب والطيش ، روح الانتقام ، و . . . وبمعالجة هذه الأسباب تُحفظ أسرار الشخص الآخر .

انتشاره ، هو سرّ ينبغي للمرء أن يحفظه سواء كان الافشاء في محضرهم او في مغيبهم . مع العلم بأنّ هناك حالات خاصة يمكن افشاء الاسرار فيها ، منها : ظلم الحاكم لرعيّته ، والممارسات الافسادية واللاإنسانية التي يقوم بها .

أمّا كيف يحفظ المرء أسرار النّاس ، فالإنطلاق يجب أن يكون من الذّات ، بأن يكون قوياً في حفظ أسراره وكتمانها ، بأن يجعلها من دمه الذي يجري في أوداجه لا في أوداج غيره ، وأن يجعلها محفوظة في صدره الذي هو صندوق اسراره وان لا يودعها عند من ليس أهلاً للايداع ، كالحمقى والخائنون والنّمامون . ومتى ما قوي الانسان في حفظ اسراره ، قوي في حفظ اسرار الناس ، وخلاف ذلك صحيح .

وهكذا فإن من أخلاق التعامل مع الناس ، حفظ اسرارهم ، فلكي يحسن المرء معاملتهم عليه ان يحفظ اسرارهم كما يحفظ اسراره .

اجتنب قذف واتهام الناس

قال الامام الرّضا (ع) :

« حرم الله قذف المحصنات(*) لما فيه من إفساد الأنساب ، ونفي الولد ، وإبطال المواريث ، وترك التّربية ، وذهاب المعارف ، وما فيه من المساوي والعلل التي تؤدي الى فساد الخُلُق »[٤٥] .

وعن الصّادق (ع) أنّه قال لبعض اصحابه :

« ما فعل غريمك ؟ قال : ذاك ابنِ الفاعلة ، فنظر اليه أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ نظراً شديداً ، فقال : جعلتُ فداك ، إنّه مجوسيّ نكح أخته . قال : أوليس ذلك من دينهم نكاح »[٤٦] .

وقال (ع) أيضاً :

« إذا اتّهم المؤمن أخاه ، انماث الايمان من قلبه ، كما ينماث الملح في الماء » .

*

روي عن الامام الصّادق (ع) أنّه قال :

(*) المحصنات : المتزوجات ، لأنّ زواجهن قد أحصنهن ، والعفيفات . أحصن الرجل : تزوج ، فهو مُحصن .

(٤٥) بحارالانوار ، ج٧٩ ، ص١١١ .

(٤٦) مستدرك وسائل الشيعة ، ج٣ ، ص٢٣٠ .

« أُتي عمر بن الخطّاب بجاريةٍ قد شهدوا عليها أنّها بغت . وكان من قصّتها أنّها كانت يتيمة عند رجل ، وكان للرّجل امرأة ، وكان الرّجل كثيراً ما يغيب عن أهله . فشبّت اليتيمة ، وكانت جميلة ، فتخوّفت المرأة أن يتزوجها زوجها إذا رجع الى منزله ، فدعت بنسوة من جيرانها ، فأمسكنها ، فأخذت عذرتها بأصبعها .

« فلما قدم زوجها من غيبته ، رمت المرأة اليتيمة بالفاحشة ، وأقامت البيّنة من جاراتها اللاتي ساعدنها على ذلك ، فرُفع ذلك الى عمر ، فلم يدر كيف يقضي فيها ، ثم قال للرّجل : إئت عليّ بن ابي طالب ، وأذهب بنا اليه .

« فأتوا علياً ـ عليه السلام ـ فقصّوا عليه القصّة ، فقال لامرأة الرّجل : ألكِ بيّنة أو برهان ؟ فقالت : لي شهود ، هؤلاء جاراتي يشهدن عليها بما أقول . فأحضرتهن .

« فأخرج عليّ ـ عليه السلام ـ السّيف من غمده وطرحه بين يديه ، وأمر بكلّ واحدة منهنّ ، فأدخلت بيتاً ، ثم دعا أمرأة الرّجل فأدارها بكلّ وجه ، فأبت أن تزول عن قولها ، فردّها الى البيت الذي كانت فيه ، ودعا احدى الشّهود ، وجثى على ركبتيه ، ثم قال : تعرفيني ، أنا عليّ بن ابي طالب ، وهذا سيفي ، وقد قالت امرأة الرّجل ما قالت ، ورجعت الى الحقّ ، وأعطيتها الأمان ، فإن لم تصدقيني لأملأنّ السّيف منك . فالتفتت الى عليّ ـ عليه السلام ـ فقالت : يا أمير المؤمنين ، الأمان على الصّدق ؟ فقال لها عليّ (ع) : فاصدقي . فقالت : لا والله ما زنت اليتيمة ، إنّما (أي امرأة الرّجل) رأت جمالاً وهيئة ، فخافت فساد زوجها ، فسقتها المسكر ، ودعتنا فأمسكناها ، فأفتضّتها بإصبعها .

« فقال عليّ ـ عليه السلام ـ الله اكبر ، أنا أوّل من فرّق بين الشّهود الاّ دانيال النبّي (ع) . وألزم عليّ ـ عليه السلام ـ المرأة حدّ القاذف ، وأمر المرأة ان تنفى من الرّجل ويطلقها زوجها ، وزوّجه الجارية »[47] .

---

(47) الفروع من الكافي .

القذف لغةً : الرّمي . وفي الاصطلاح الشّرعي الرّمي والاتّهام بريبة . ومثاله : كما مرّ في القصّة المتقدّمة ، ومثاله أيضاً : أن يقول شخص لآخر : يا ابن الفاعلة (يقصد الزّنا) . أو يقول : « يا منكوح في دبره » (اتّهمه ورماه بأنّه ملوط به) . أو يقول : يا مخنّث(*) . أو يقول : يا يهودي(**) . والقذف من الكبائر (أي من الذّنوب الكبيرة) ، وهو محرّم في الاسلام لما له من آثار سيئة كثيرة ، ويستحق قائله التعزير في حكم الاسلام ، لقوله تعالى :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجلدوهم ثمانين جلدة . . . ﴾(٤٨) .

﴿ والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الاّ انفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات باللّه إنّه لمن الصّادقين ﴾(٤٩) .

تقتضي معاملة الاخوان والناس بصورة حسنة ، تجنّب قذفهم ورميهم . وما يندى له الجبين ، أنّ في كثير من المجتمعات أصبح القذف والرّمي يقال دون تورّع وكأنّه كلمات عاديّة ، فهناك من الناس من لا يرى أنه فعل شيئاً خلاف الشّرع والاخلاق والذّوق المؤدّب ، حينما يقذف آخر بقوله له : يا ابن الفاعلة (الزانية) او ما شابه ذلك ، ولعمري قد يقال ذلك على سبيل المزاح ! . ولا اقبح من أن يتعامل المرء مع الناس بمثل هذه الكلمات ويواجههم بها ! . بل ان من الناس من اذا سمع مثل تلك الكلمات بحقه أو بحق غيره ، لا يقوم بدوره بنهي الطرف القائل عن المنكر الذي فعله ، وهذا خطأ فادح لأن فيه رضى عن المنكر ، وتشجيعاً للقاذف بالتّمادي في القذف ، أراد المقذوف ذلك أم لم يرد .

وهذه الالفاظ البذيئة تتواجد في صفوف الجهلاء ، والحمقى ، لغياب المعرفة

(*) المخنّث : المسترخي المتثني ، أي الذي يكون فيه لينٌ وتكسّرٌ وتثنٍ ، فيكون على صورة الرجال وأحوال النساء .

(**) في هذه الحالةُ يُضرب عشرين . للاطلاع على تفاصيل القذف وحكمه وحالاته تراجع كتب الحديث الشريف ، والرسائل العملية للفقهاء .

(٤٨) ٤ / النّور .

(٤٩) ٦ / النور .

والثّقافة ، وفي صفوف الفاسقين والفجّار لغياب الالتزام الدّيني . ويعتبر فقدان التحكّم في اللسان ، وإطلاق الحرّية له بقول ما يشاء صاحبه ، هو من الاسباب وراء الوقوع في قذف النّاس ورميهم .

* * *

وعن اتخاذ الموقف من القاذف وزجره :

روى عمر بن النّعمان الجعفي قائلاً : كان لأبي عبد الله (الامام الصادق) (ع) صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً . فبينما هو يمشي معه في الحذّائين ومعه غلام له سِنديّ يمشي خلفه ، إذ التفت الرّجل يريد غلامه ، ثلاث مرّات ، فلم يره ، فلمّا نظر في الرّابعة .

قال : يا ابن الفاعلة ، أين كنت ؟

قال : فرفع أبو عبدالله (ع) يده ، فصكّ جبهة نفسه ، ثمّ قال : سبحان الله ! تقذف أمّه ؟! قد كنت أرى أنّ لك ورعاً ، فإذا ليس لك ورع !

فقال : جُعلت فداك ، إنّ أمّه سنديّة مشركة .

فقال : أما علمت أنّ لكلّ أمّة نكاحاً ؟! تنحّى عني .

قال : « فما رأيته يمشي معه حتّى فرّق الموت بينهما »(٥٠) .

* * *

إنّ النّاس محترمون لا يجوز قذفهم ، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . وبناءً عليه فإنّ على المرء ـ في معاملة النّاس ـ أن يصون لسانه ، وأن يجنّبه قذفهم ورميهم وهجاءهم(*) ، لأنّ ذلك خلاف الشّرع والعقل المؤدّب والأخلاق الحسنة .

وكما لا يجوز للمرء أن يقذف النّاس ويرميهم ، لا يجوز له كذلك أن يتّهمهم .

---

(٥٠) الأصول من الكافي .

(*) الهجاء : تعديد معايب الطّرف الآخر والوقوع فيه وشتمه .

والتّهمة : قول المرء افتراءً أو اعتماداً على ظنّه بأنّ الشّخص الآخر قال كذا(*) . وتتفاقم خطورة التّهمة حينما ترتبط بأفعال خطيرة وغير عاديّة !

إنّ وقوع التّهمة على البريء كوقوع الجبل عليه . بل انّ التّهمة تؤدّي إلى انحلال أو تحلّل الإيمان في قلب المؤمن حينما يتّهم أخاه ، كما تنحلّ الموادّ القابلة للذّوبان ، في الماء . ومن هنا لا يجوز اتّهام الاخوان والنّاس ، لأنّ في اتّهامهم مخالفة للشّرع والعقل المؤدّب والأخلاق الحسنة ، والذّوق الجميل .

والإتّهام مساءة لاستعمال العقل واللسان ، وقد تكون نتيجة العجلة في اتخاذ المواقف والأحكام بحقّ الغير ، أو لوجود عداوة أو حقد أو كراهيّة ، أو حسد أو تنافس غير شريف ، أو غير ذلك . وعليه فعلى المرء أن يحسن أستعمال عقله ، ويتحكّم في لسانه ، وأن يتأنّى في إتخاذ المواقف والأحكام ، وأن يجنّب نفسه العداء والحقد والكراهيّة والحسد ونحو ذلك ، لكي لا يقع في مزلق اتّهام النّاس .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة إخوانه والنّاس ، عليه أن يتجنّب قذفهم واتّهامهم .

(*) كما لايجوز للمرء أن يّتهم الناس ، فانّ عليه أن يحذر مواطن التهمة ، والمجالس المظنون بها السّوء ، وأن يجتنب قرناء السوء ، وأهل التهمة ، لكي لايُتّهم ، ولكي لايُساء به الظّن .

تجنب الفحش والسب واللعن

قال الرّسول الأعظم (ص) :

« إيّاكم والفُحش فإنّ الله ـ عزّ وجل ـ لا يحبّ الفاحش المتفحّش »(٥١) .

وقال (ص) ايضاً :

« ألا أخبركم بأبعدكم منّي شبهاً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الفاحش المتفحّش البذيّ . . . »(٥٢) .

وقال (ص) :

« سباب المؤمن فسوق ، . . . »(٥٣) .

وقال تعالى :

﴿ ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدْواً بغير علم ﴾(٥٤) .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

---

(٥١) بحار الأنوار ، ج٧٩ ، ص١١٠ .

(٥٢) المصدر السابق ، ج٧٢ ، ص١١٠ .

(٥٣) المصدر السابق ، ج٧٥ ، ص١٤٨ .

(٥٤) ١٠٨ / الأنعام .

« لا يكون المؤمن لعّاناً »[55] .

وقال (ص) أيضاً :

« لعنُ المؤمن كقتله »[56] .

وقال (ص) :

« إن استطعت ألاّ تلعن شيئاً فافعل . . . »[57] .

*

الفُحش : القبيح من القول والفعل . فكلّ قولٍ أو فعل يصدق عليه الفُحش ، هو فحش ينبغي ترك قوله أو فعله . والفُحش والبذاءة في الكلام من الأخلاق السّيئة المبغوضة من قبل الله والنّاس . وهل يحبّ النّاس من يعاملهم بقبح القول ؟!

ومن هنا ينبغي للمرء في معاملته النّاس ، أن يجعل لسانه وكلامه حسناً ، وأن لا يقع في الطّرف الآخر ، وهو الفَحش في الكلام والبذاءة فيه . فمن الحسن أن يقول الإنسان للنّاس الكلام الحسن الجميل ، ومن القُبح أن يجعل لسانه وسيلة ومركباً للكلام الفاحش والبذيء .

ومع انّ حسن القول ـ كما حسن الفعل ـ هو المطلوب في معاملة النّاس ، وأنّ قبح القول ـ كما قبح الفعل ـ ليس مطلوباً ، فإنّ هناك من النّاس من هو لا يبالي في استعمال لسانه ، ولا يهمّه إن كانت الكلمات التي يتلفّظها فاحشة وقبيحة . والأكثر من ذلك أنّ من النّاس من يتعوّد على الكلام البذيء فيصبح الفُحش والبذاءة عادة فيه ، وهذا خلق سيء ينبغي للمرء أن يجتنبه في تعامله مع النّاس !

ومن الفُحش : السّبّ ، وهو الشّتم ، وهو من الأخلاق السّيئة التي تؤدّي إلى نشوء العداوة بين النّاس ، إذ أن من حسن معاملة النّاس اجتناب سبّهم

---

(55) كنز العمّال ، خ٨١٧٨ .

(56) المصدر السابق ، خ٨١٨٢ .

(57) المصدر السابق ، خ٨١٩٢ .

وشتمهم ، ومن البديهيّ أنهم لا يحبّون من يسبّهم ، ولا ينجذبون إليه ، بل يمقتونه وينفرون منه ، ويكرهون مجالسته ، ويتركونه اتّقاءً لفحشه ، لأنّه بسبّهم يسيء معاملتهم ، ويهينهم ويؤذيهم ، فما أقبح السبّ(*) والشّتم !

ومن الأمور التي تترتّب ـ عادةً ـ على السبّ ، إجابته من قِبل الطّرف الآخر ، مع العلم بأنّ ردّ السبّ هو الآخر ليس من الأمور المحمودة ، بل من الأمور المذمومة .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« من عاب عِيْبَ ، ومن شَتَم أُجيب »(٥٨) .

* * *

وفي هذا الشّأن « قيل أنّه ـ ذات مرّة ـ ذهب ولد صغير إلى غابة ، وأخذ ينشد الأناشيد . وبينما هو كذلك سمع أصداء صوته تتردّد من الغابة ، فظنّ أنّ طفلاً آخر يبادله الكلمات مستهزئاً به . وبدأ الطّفل يكيل السّباب للأصداء ، فانهالت عليه الأصداء سبّاً بالمثل ، وقال الطّفل مخاطباً : أيّها الأحمق ! فسمع صدى هذه الجملة يقول : أيّها الأحمق! . ثمّ قال الطّفل : أنت طفل بذيء ، فقرعت مسامعه هذه الجملة : أنت طفل بذيء . وراح الطّفل في صراعٍ مع الصدى ، يسبّ ويشتم ويلعن ، وموجات السّبّ والشّتم واللعن ترتدّ إلى مسامعه .

وعاد الطّفل أدراجه قافلاً إلى البيت ، وإمارات عدم الإرتياح مرتسمة على قسمات وجهه ، وناشد أباه قائلاً : لقد ذهبتُ إلى الغابة ، فأنشدتُ أنشودةً ، فسمعت طفلاً آخر ينشدها أيضاً ، ويردّ على كلّ كلمة أتفوّه بها ، ثمّ أخذ يكيل إليّ السّب والشّتم واللعن .

فقال له : يا ولدي ! لو كنت تقول خيراً لكنت تسمع خيرا»(*).

(*) لا تنهى الأحاديث الشريفة عن سبّ الله والناس فحسب ، بل تنهى حتّى عن سبّ الرياح ، والجبال ، والساعات ، والأيام والليالي ، والدهر ، والشيطان . والشيطان يُتعوذ منه ولايُسبّ .

(٥٨) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٩١ .

(*) هادي المدرسي : ألف عبرة وعِبرة (مخطوط) .

يقول الإمام عليّ (ع) : «من أسرع الى النّاس بما يكرهون ، قالوا فيه بما لا يعلمون»[٥٩] .

وسمع (ع) قوماً من أصحابه يسبّون أهل الشّام ، فقال : «إنّي أكره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول ، وأبلغ في العذر ، وقلتم مكان سبّكم إيّاهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم . . .»[٦٠] .

*

ومن قبح القول : اللعن ، وهو الإخزاء والإبعاد عن الخير ، وطلب العذاب للشّخص الآخر . وهو نتيجة لإساءة استعمال اللسان ، وقد يكون سببه الغضب أو عدم الرّضا ـ عموماً ـ عن الشّخص الآخر . واللعن خلق مذموم ، سواء كان لعناً للنّفس أو الولد ، أو الأموال ، أو النّاس .

إن من حسن معاملة النّاس ترك لعنهم ، لأنّ في هذا التّرك التزام لخلق حسن ، وابتعاد عن الوقوع في غير اللائق من الكلام ، الأمر الذي لا يقبله النّاس ، ولا يرضونه .

يقول الإمام الباقر (ع) :

«إنّ اللعنة إذا خرجت من صاحبها تردّدت بينه وبين الذي يلعن ، فإنْ وجدت مساغاً وإلاّ عادت إلى صاحبها ، وكان أحقّ بها ، فاحذروا أن تلعنوا مؤمناً فيحلّ بكم»[٦١] .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

«من هذا اللاعن بغيره ؟ انزل عنه فلا تصحبنا بملعون ، ولا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم . . .»[٦٢] .

---

(٥٩) نهج البلاغة ، حكمة ٣٥ .

(٦٠) المصدر السابق .

(٦١) بحار الأنوار ، ج٧٢ ، ص٢٠٨ .

(٦٢) كنز العمّال ، خ٨١٧٢ .

وعلى هذا لكي يحسن المرء تعامله مع النّاس ، عليه أن يجتنب القبيح من القول والفعل معهم ، وأن لا يسبّهم ولا يلعنهم .

تحاشي السخرية من الناس واجتناب تحقيرهم وتعييرهم

قال تعالى :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ . . . ﴾[٦٣] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« لا يطمع المستهزىء بالنّاس في صدق المودّة »[٦٤] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« حسب ابن آدم من الشرّ أن يحقّر أخاه المسلم »[٦٥] .

وقال (ص) أيضاً :

« من استذّل مؤمناً أو مؤمنة أو حقّره لفقره أو قلّة ذات يده شهرّه الله تعالى يوم القيامة ثمّ يفضحه »[٦٦] .

وقال (ص) :

---

(٦٣) ١١ / الحجرات .

(٦٤) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٤٤ .

(٦٥) تنبيه الخواطر ، ص ٣٦٢ .

(٦٦) بحارالانوار ، ج٧٢ ، ص٤٤ .

« من عيّر أخاه بذنبٍ قد تاب منه ، لم يمت حتّى يعمله »[٦٧] .

وقال (ص) :

« إنْ عيّرك أخوك المسلم بما لم يعلم فيك ، فلا تعيّره بما تعلم فيه يكون لك أجراً وعليه إثم »[٦٨] .

*

السُّخريّة من النّاس تعني الإستهزاء بهم . وهي من الأخلاق السّيئة المنهيّ عنها ، سواء على مستوى التّعامل بين شخصين : رجلين أو إمرأتين ، أو رجل وإمرأة ، أو على مستوى التّعامل بين قومين أو جماعتين ، أوشعبين أو أمّتين .

إنّ السّخرية من النّاس خلق مذموم ، لأنّها استهزاء بهم ، وإهانة وتصغير لهم ، وخلاف تقديرهم واحترامهم . وهي قد تكون نتيجة للإستعلاء والتكبّر على النّاس ، أو لوجود عداوة أو ضغينة أو كراهيّة أو ثأر ، أو لمزاحٍ خارجٍ عن الحدّ المشروع والمعقول .

وفي السّخرية والإستهزاء تتجلّى النظّرة إلى الشّخص الآخر بنظرة دونيّة ، أو النظر إليه بأنّه ليس الأفضل أو الأخْيَر ، لأنّ المرء السّاخر أو المستهزيء لا ينشغل بعيوبه عن عيوب غيره ، ولا يهمّه إلاّ انتقاص شخص الطّرف الآخر وابراز معايبه ، مع العلم بأنّ الشّخص المستهزأ به قد يكون خيراً من المستهزيء . ومن هنا مهما كان المرء متفوّقاً على غيره في العلم أو العمل ، عليه أن لا يسخر من الغير ويستهزىء به .

والسّخرية من النّاس والإستهزاء بهم ، أمر لا يساعد على كسب ودّهم وحبّهم ، وإنّما يعمل على إضعاف حالة المودّة وإبعادها عن الصّدق والإخلاص ، ويؤدّي إلى نفورهم من المستهزىء وكراهيّتهم له . ومن هنا فالسبيل إلى كسب محبّتهم الصّادقة ، ترك السّخرية منهم وتحاشي الإستهزاء بهم وفي ذلك حفظ

---

(٦٧) تنبيه الخواطر ، ص٩١ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص٣٩٠ .

لكرامتهم وتقدير لهم .

* * *

وحفظ كرامة الإنسان وتقديره ضرورة في التّعامل معه ، ولذا « . . . نزلت ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهمّ . . . ﴾ في صفيّة بنت حُييّ بن أخطب ، وكانت زوجة رسول الله (ص) ، وذلك أنّ عائشة وحفصة كانتا تؤذّيانها وتشتمان وتقولان لها : يا بنت اليهوديّة . فشكت ذلك إلى رسول الله (ص) ، فقال لها : ألا تجيبينهما ؟ فقالت : ماذا يا رسول الله ؟ فقال قولي : أبي هارون نبيّ الله ، وعمّي موسى كليم الله ، وزوجي محمد رسول الله ، فما تُنكران منّي ؟ فقالت لهما ، فقالتا : هذا علمّك رسول الله . فأنزل الله في ذلك : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفُسوق بعد الإيمان ﴾[٦٩] .

* * *

وكما حسن معاملة النّاس يقتضي ترك السّخرية منهم والإستهزاء بهم ، كذلك يقتضي اجتناب تحقيرهم ، إذ في إجتناب تحقيرهم إعزاز لهم ، وصون لقدرهم ، أمّا في تحقيرهم ، فإهانة وتصغير وإذلال لهم ، وحطّ من قدرهم .

إنّ من الشرّ والرّذيلة أن يحقّر الإنسان أخاه الإنسان ، وأن يحقّر المسلم أخاه المسلم ، وأن يحقّر المؤمن أخاه المؤمن .

يقول تبارك وتعالى :

« من أهان لي وليّاً فقد أرصد لمحاربتي ، وأنا اسرع شيء إلى نصرة أوليائي »[٧٠] .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

---

(٦٩) بحار الأنوار ، ج٧٢ ، ص١٤٤ .

(٧٠) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٥٨ .

« قال الله ـ عزّ وجل ـ : ليأذن بحربٍ منّي من أذلّ عبدي المؤمن . . . »[٧١] .

ويقول (ع) :

« لا تحقّرن أحداً من المسلمين فإنّ صغيرهم عند الله كبير »[٧٢] .

ويقول (ع) :

« من حقّر مسكيناً لم يزل الله له حاقراً ماقتاً حتّى يرجع عن محقرته إيّاه »[٧٣] .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

لا يزرِ أنّ أحدكم بأحد من خلق الله ، فإنّه لا يدري أيّهم وليّ الله »[٧٤] .

وقال لقمان لإبنه : « يا بُنيّ ، لا تحقِّرنّ أحداً بخلقان ثيابه فإنّ ربّك وربّه واحد »[٧٥] .

ومن خلاف الإعزاز ومعرفة القدر ، انتهاز التّفاوت الطّبقي في التّحقير والإذلال والإهانة ، كأن يحقّر التّجار والأغنياء ، الفقراء والمساكين والمحرومين ، وهذه من أرذل الممارسات ، وأسوأ الأفعال ، ذلك لأنّ الطّبقات يجب أن تكون متلاحمة ومتكاملة ومتعاونة ، مشدودة الأزر بعضها ببعض ، وحيث أنّ المحرومين والمساكين والفقراء هم طبقة دنيا في الوجهة الاقتصاديّة ، وربّما من الوجهة العلميّة والثّقافية ، فإنّ من واجب الطّبقات العليا معرفة قدر هذه الطّبقة ، واجتناب تحقيرها وإذلالها وإهانتها ، والعمل على تقديرها ومساعدتها في ظروفها الصّعبة .

ومن أوجه التّحقير والإهانة والإذلال والتّصغير : أن تحقّر قوميّة قوميّةً أخرى ، أو تحقّر عشيرةٌ عشيرةً أخرى ، أو يحقّر عنصرٌ عنصراً آخر ، وما إلى ذلك من أشكال التّحقير النّاجمة عن التّعصب القومي أو العشائري ، أو التمييز العنصري والعرقي ، و . . . وكلّها مذمومة ومنهيّ عنها ، إذ أنّ التّقدير والأعزاز هو الخلق

---

(٧١) المصدر السابق ، ص١٤٥ .

(٧٢) تنبيه الخواطر ، ص٢٥ .

(٧٣) بحار الأنوار ، ج٧٢ ، ص٥٢ .

(٧٤) المصدر السابق ، ج٧٥ ، ص١٤٧ .

(٧٥) المصدر السابق ، ج٧٢ ، ص٤٧ .

السّليم والمأمور به في التّعامل والعلاقة بين الشعوب والقوميّات ، والعشائر ، والجماعات ، والعناصر ، والأعراق ، والطّوائف .

يقول الشّاعر :

ومن هاب الرّجال تهيّبوه ... ومن حقر الرّجال فلن يُهابا

واجتناب التّحقير يجب أن يشمل كلّ النّاس ، ومنه إجتناب تحقير أفراد الأسرة والعائلة . فليس من الصّحيح أن يجتنب المرء تعيير النّاس خارج منزله ، وفي داخل منزله يحقّر والديه ، أو زوجته ، أو إخوانه ، أو أولاده .

* * *

وعن عواقب التّحقير :

« حدث أنّ شاباً أصيب بالجنون في ريعان عمره ، وأُدخل إلى مستشفى الأمراض العصبيّة ، وكان قبل ذلك شاعراً مُجيداً ، ومؤلّفاً ناجحاً . فأثارت حالته الدّهشة ، ولمّا سُئل ابن اخته عن سبب جنونه ، قال : ابوه السّبب !

قيل : كيف ! قال : كان هذا الإبن ما قبل الأخير في أولاد جدّي ، وكان جدّي يحبّ ولده الأكبر والأصغر وما بينهما بشكل أو بآخر ، إلاّ هذا لم يكن يحبّه . وكان في صغره حينما يلاعبه مع بقيّة إخوانه ، يأتي مندفعاً إلى حضن أبيه ، ولكنّ أباه يبعده ، ويقول له : إنصرف ، فإنّك لن تُصبح شيئاً . وكان إذا كسر صحناً زجاجيّاً ـ مثلاً ـ يصرخ في وجهه قائلاً له : أنت مجنون . وبالفعل كانت هديّة والده إليه أن جعله مجنوناً حقيقيّاً »[٧٦] .

* * *

وينبغي للمرء في معاملته النّاس ـ فضلاً على تقديرهم وإجتناب تحقيرهم ـ أن يقدّر المعروف والخير والإحسان الذي يقومون به مهما كان صغيراً أو قليلاً ، وأن لا يحقّره . لأنّ في تقديره إكرام وإعزاز وتقدير المعروف والخير والإحسان ، وإكرام وتقدير لمن يقومون به ، وفي التّحقير خلاف ذلك .

---

(٧٦) هادي المدرسي : الصداقة والأصدقاء ، ص٣٥٥ ، مع بعض التصرف في العبارة .

وكما هو واجب المرء في معاملته النّاس أن يقدّرهم ولا يحقّرهم ، ينبغي له أن يستر عليهم ، وأن يجتنب تعييرهم بالأخطاء والذّنوب والخطايا التي ارتكبوها .

والتّعيير هو النّسب إلى العار ، وتقبيح الفعل ، وذكر العيوب . ومنه إذاعة الفاحشة ، والتّانيب ، والشّماته بالشّخص الاخر في الابتلاءات والمصائب والنّكبات ، والطّعن (وهو ذكر عيوب النّاس والقدح فيهم) ، والهمز(*) ، واللمز(**) ، والنّبز(***) ، والغمز(****) .

من وصايا الخضر لموسى - عليهما السّلام :

« يا ابن عمران ! لا تعيّرنّ أحداً بخطيئة ، وابكِ على خطيئتك »(٧٧) .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

« من أذاع فاحشة كان كمبتدعها ، ومن عيّر مؤمناً بشيء لم يمت حتّى يركبه »(٧٨) .

ويقول الإمام الصادق (ع) :

« من انّب مؤمناً أنّبه الله في الدنيا والآخرة »(٧٩) .

ويقول(ع) أيضاً :

« لا تبديء الشّماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيّرها بك »(٨٠) .

وفي الوقت الذي لا يجوز للمرء أن يعيّر إخوانه والنّاس ، ينبغي له أن لا

(*) الهَمز : الاغتياب في الغَيبة . والهُمزة : الغمّاز و العيّاب . الهمّاز : العيّاب والطعان .

(**) اللّمز : الإعابة ، والاشارة الى الشخص الملموز بالعين ونحوها مع كلام خفيّ . اللُمزة : العيّاب المناس ، أو الذي يعيبك في وجهك .

(***) النَبز : التلقيب ، وهو شائع في الألقاب القبيحة . التّنابز بالألقاب : التعاير ، وتلقيب البعض البعضَ الآخر .

(****) الغَمْز : الطّعن والعيب . (٧٧) المصدر السابق ، ج٧٣ ، ص٣٨٣ .

(٧٨) المصدر السابق ، ص٣٨٤

(٧٩) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٣٥٦ .

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٣٥٩ .

يعيّرهم فيما إذا عيّروه ، إذ في مقابلة التّعيير بالتّعيير وقوع في التعيير ، وهو مذموم ومنهيّ عنه .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« إنْ عيّرك أخوك المسلم لما يعلم فيك ، فلا تعيّره بما تعلم فيه يكون لك أجراً وعليه إثم »[٨١] .

* * *

« عيّر (أبو ذرّ) رجلاً على عهد النّبيّ (ص) بأمّه ، فقال له : ياابن السّوداء ! وكانت أمّه سوداء ، فقال له رسول الله (ص) : تعيّره بأمّه يا أبا ذر ؟! قال : فلم يزل أبو ذرّ يمرّغ وجهه في التّراب حتى رضي رسول الله (ص) عنه »[٨٢] .

وهكذا فليس من إحسان معاملة النّاس ، السّخرية منهم والإستهزاء بهم ، ولا تحقيرهم ولا تعييرهم . فلكي يحسن المرء معاملتهم ، عليه أن لا يسخر منهم ، وأن لا يحقّرهم ، وأن لا يعيّرهم ، وخليق به أن ينشغل بعيوبه عن عيوب النّاس .

يقول الشّاعر :

لـو نـظـر النّـاس إلى عيبهم   مـا عـاب إنسانٌ عـلى النّاس

ويقول الشّاعر الآخر :

وعينُك إنْ أبدتْ إليكَ مساوئاً   فصُنها وقُلْ : ياعين للنّاس أعينُ
وعاشِرْ بمعروفٍ وسامِحْ من إعتدى   وفـارقْ ولكنْ بالتي هي أحسنُ

---

(٨١) تنبيه الخواطر ، ص٣٩٠ .

(٨٢) بحار الأنوار ، ج٧٢ ، ص١٤٧ .

كف الأذى عن الناس

قال تعالى :

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا ﴾[٨٣] .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

« من آذى مؤمناً فقد آذاني »[٨٤] .

ويقول (ص) أيضاً :

« كُفَّ أذاك عن النّاس فإنّه صدقة تَصدَّقُ بها على نفسك »[٨٥] .

ويقول (ص) :

« من كفّ يده عن النّاس فإنّما يكفّ عنهم يداً واحدة ، ويكفّون عنه أيادي كثيرة »[٨٦] .

*

---

(٨٣) ٥٨ / الاحزاب .

(٨٤) بحار الانوار ، ج٦٧ ، ص٧٢ .

(٨٥) المصدر السابق ، ج٧٥ ، ص٥٤ .

(٨٦) المصدر السابق ، ص٥٣ .

من مصاديق حسن التّعامل مع النّاس كفّ الإيذاء عنهم ، ومن سوء التّعامل معهم ، إيذائهم .

وربّ سائل يسأل : كيف يُكفّ الأذى عن النّاس ؟

لكي يُكفّ الأذى عن النّاس ، لا بدّ من كفّ الوسائط التي عن طريقها يؤذون ، ومنها : اللّسان . إنّ اللسان ـ كما تقدّم ذكره ـ أداةً تدخل في غالبيّة المعاملات فيما بين النّاس ، وبجعل هذه الأداة تحت إمامة العقل تتقوّم وتنتظم تصرّفات الإنسان ، وسيرته ، وبجعلها أمام العقل ومتقدّمة عليه ، وبإطلاق الحرّية لها ، يقع الإنسان في الخطأ ، وإساءة معاملة النّاس ، ومنها إيذاءهم .

إن الكذب على النّاس ، واغتيابهم ، وبهتهم ، والنّميمة عليهم ، والسّعاية بهم عند الظّالم ، واستعمال اللسانين المختلفين معهم ، وإفشاء أسرارهم ، وقذفهم واتّهامهم ، ومخاطبتهم بالكلام الفاحش والبذيء ، وسبّهم ، ولعنهم ، والسّخرية منهم ، وتحقيرهم ، وإهانتهم ، وإذلالهم ، وتعييرهم ، و . . . كلها صور من صور الإيذاء التي تتمّ بواسطة اللّسان ، وبكفّه ، وإحسان استعماله ، يُكفّ الأذى عن النّاس بطبيعة الحال ، وتُحسن معاملتهم .

إنّ اللسان إذا أسيء استعماله في معاملة النّاس ، تسبّب في كثير من الإيذاءات لهم ! . ولكنّه ليس الواسطة الوحيدة التي بها يُلحق الأذى بالنّاس ، ومن تلك الوسائط اليد والرّجل . ومن هنا لا يجوز إيذاء النّاس بضربهم والإعتداء عليهم وعلى أموالهم وأعراضهم ، كما لا يجوز إيذاءهم بأيّ واسطة أخرى .

يقول الرسول الاعظم (ص) :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[87] .

ويقول الإمام الصادق (ع) :

(المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، والمؤمن من ائتمنه الناس على

---

(٨٧) نهج البلاغة ، خطبة ١٦٧ .

أموالهم وأنفسهم)[٨٨] .

وكل جوارح الإنسان وحواسه، اذا أسيء استعمالها في معاملة الناس ، تتسبب في إلحاق الأذى بهم . ومن هنا لا يحلّ ترويع الناس ، وتهديد أمنهم أو تعريضه للخطر ، سواء باستعمال اللسان ، بإطلاق الألفاظ المخيفة ، والتهديد ، والتوعد أو بإطلاق الأصوات المروّعة . كما لا يحل النّظر الى النّاس نظرات مخيفة ، ولا يحلّ التّجسس عليهم ، ولا إحزانهم ، ولا إهانتهم ، فترويع الناس ، وتهديد أمنهم ، وترويعهم ، والتّجسس عليهم ، وإحزانهم ، وإهانتهم والتعدّي على أعراضهم وأموالهم ، هي وجوه متعددة للإيذاء . وحسن التعامل مع الناس يقتضي الكف عن كل ما من شأنه إلحاق الأذى بهم وإضرارهم .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« لا يحلّ لمسلم أن يروّع مؤمناً » .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

« من نظر الى مؤمنٍ نظرةً يخيفه بها ، أخافه الله تعالى يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه »[٨٩] .

ويقول الرسول الأعظم (ص) :

« من أحزن مؤمناً ثم أعطاه الدنيا لم يكن ذلك كفارته ، ولم يؤجر عليه »[٩٠] .

وقال (ص) ايضا :

﴿ قال الله تبارك وتعالى : من أهان لي وليّاً فقد أرصد لمحاربتي ﴾[٩١] .

وقال (ص) :

(أذلّ الناس من أهان الناس)[٩٢] .

---

(٨٨) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص٥١ .
(٨٩) وسائل الشيعة ، ج٨ ، ص٦١٤ .
(٩٠) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٥٠ .
(٩١) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٣٥١ .
(٩٢) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص١٩٢ .

وبناءاً عليه ، فكف الأذى والضرر ينبغي ان يكون خلقاً في الانسان ، سواء كان في بيته : في تعامله مع زوجته ، وأولاده ، ووالديه ، وأقاربه ، أو كان في عمله ، أو في المجلس ، او في المحفل ، او في الشارع ، او في أي مكان آخر .

وكما لا يحل للمسلم ـ او المرء ـ ان يروع المؤمنين ويرعبهم ويؤذيهم ، لا يحل له أن يؤذي الناس كائناً من كانوا ، وبكف الأذى عنهم ، يضع يده على جانب هامّ ورئيسي في إحسان معاملتهم .

البر بالناس والاحسان اليهم

قال تعالى :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [٩٣] .

وقال الامام الصادق (ع) :

(من صالح الاعمال البر بالإخوان ، والسعي في حوائجهم . . .) [٩٤] .

وقال (ع) ايضا :

(تواصلوا ، وتباروا ، وتراحموا ، وتعاطفوا) [٩٥] .

وقال تعالى :

﴿ أحسنوا إن الله يحبّ المحسنين ﴾ [٩٦] .

وقال الإمام علي (ع) :

« سبب المحبة ، الإحسان » [٩٧] .

---

(٩٣) ٢ / المائدة .

(٩٤) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص٣١٢ .

(٩٥) أصول الكافي ، ج٢ ، ص١٧٥ .

(٩٦) ١٩٥ / البقرة .

(٩٧) الغرر والدّرر .

وقال (ع) ايضا :

« من كثر احسانه ، كثر خدمه وأعوانه »[٩٨] .

وقال (ع) :

« بالإحسان تملك القلوب »[٩٩] .

وقال (ع) :

« جُبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها »[١٠٠] .

وقال (ع) :

« المحسن من عمّ النّاس بالإحسان »

*

للبرّ معانٍ كثيرة ، وكثير من أعمال الخير والمعروف تدخل ضمن مفهوم البِرّ. ومن معاني البرّ : الإحسان ، والإتّساع في الإحسان ، والعطيّة ، والشّفقة ، واللطف باستعمال الكلمة الطّيبة . والإحسان ، هو فعل الحسن .

ومن البرّ :

١ ـ تقوى الله[١٠١] .

٢ ـ السّعي في حوائج الإخوان والنّاس .

٣ ـ التّواصل .

٤ ـ التّراحم .

٥ ـ التّعاطف .

٦ ـ التّآخي .

٧ ـ « كتمان الحاجة » .

---

(٩٨) المصدر السابق .

(٩٩) المصدر السابق .

(١٠٠) نهج البلاغة . الحِكم .

(١٠١) يأتي البر نتيجةً طبيعيةً لتقوى الله وخشيته .

٨ ـ « كتمان الصّدقة » .
٩ ـ « كتمان الوجع » .
١٠ ـ « كتمان المصيبة » .
١١ ـ العمل في السّرّ عمل العلانيّة .
١٢ ـ التّحابّ في الله .
١٣ ـ « سخاء النّفس » .
١٤ ـ « الصّبر على الأذى » .
١٥ ـ « طيب الكلام » .
١٦ ـ التّعاون في أعمال البرّ والخير والصّلاح .

وللمرء البارّ علامات يتميّز بها ، هي :

١ ـ الحبّ في الله .
٢ ـ البغض في الله .
٣ ـ المصاحبة في الله .
٤ ـ المفارقة في الله .
٥ ـ الغضب في الله .
٦ ـ الرّضى في الله .
٧ ـ العمل لله .
٨ ـ الطّلب إلى الله .
٩ ـ الإحسان في الله .

*

وللبرّ والإحسان آثار عظيمة ، فعلاوة على أنّ فيهما مكسبة لحبّ الله ، فهما مكسبة لحبّ النّاس ، وودّهم وأسهل البّر وأبسطه : الملاطفة مع النّاس وطيب الكلام معهم .

* * *

وعن الآثار الإيجابيّة لملاطفة النّاس ، وطيب الكلام معهم ، ومداراتهم ، نقرأ

القصّة التّالية :

« كان المطر ينهمر بشدّة حين دخلت سيّدة عجوز إلى البهو الخارجي لأحد المكاتب التي تشرف على زخرفة المنازل وتصميم أثاثها ، فتجاهلها جميع موظفي المكتب ، ما عدا موظّفاً شاباً خفّ إليها وسألها عمّا يستطيع أن يؤدّيه إليها من خدمات ، فشكرته ، وقالت إنّها تريد أن تنتظر قليلاً ريثما تخفّ حدّة المطر في الخارج .

« ولم يسع الشّاب أن يتركها تنتظر وحدها ، فوقف إلى جوارها يرفّه عنها بالحديث حتّى انقطع المطر ، فودّعها حتّى ركبت سيّارة انطلقت بها .

« ومضى على ذلك أسبوع . ثمّ دعاه مدير المكتب ، وأبلغه أنّ السيّدة كارنيجي الثّرية المشهورة اتّصلت به طالبة ان يرسله اليها لكي تستشيره في زخرفة قصر تمتلكه في اسكتلندا .

« وعجب الشّاب من اختيار المليونيرة له لهذه المهمّة على غير معرفة سابقة ، ثم زال عجبه حين وقف على السّبب عند مقابلته للسيّدة كارنيجي ، فقد كانت هي نفسها تلك السيدة العجوز . وقد كسب الموظّف الشّاب من المهمّة التي عهدت بها اليه مئات الجنيهات عدا ما اكتسبه المكتب الذي يعمل فيه من فوائد وشهرة»(١٠٢) .

* * *

والاحسان الى الناس يجب ان يكون مخلصاً لله ، لا طلباً للمال والجاه والشهرة ، مع العلم بأن المحسن الى الناس يُوفّق في الجانب المالي والشّهرة إضافة الى كسب محبّتهم ومودّتهم .

هل تريد ان تكسب حبّ النّاس وتملك قلوبهم ؟

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يريد ذلك ، والطّريق إليه : الإحسان إلى النّاس ، وهو أقصر الطّرق الى قلوبهم . فلا مجلب لقلوب الناس كالإحسان إليهم ، ولا منفّر لها

---

(١٠٢) دايل كارنيجي : كيف تكسب النجاح والثروة والقيادة ، ص٥١-٥٢ .

كالاساءة إليهم !

وربّ سائل يسأل :

أيّ صورةٍ من الاحسان تلك التي تُملك بها قلوب الناس ؟

والجواب :

إنّ كلّ صور البرّ بالنّاس والإحسان (*) إليهم مجلبة لحسن التّعامل معهم وكسب حبّهم وودّهم ، سواء كان الاحسان في صورة تقديم خدمة ، أو قضاء حاجة ، أو إعطاء صدقة ، أو كان في صورة تواصل او تراحمٍ او تعاطفٍ ، أو ملاطفةٍ أو مداراة بكلمة طيبةٍ ، أو . . .

فقلوب الناس تتوق الى من يحسن اليها وتحبّه لأنها مجبولة ومفطورة على ذلك . كما أنّها مجبولة ـ أيضاً ـ على بعض من يسيء اليها والنّفور منه .

وكما ينبغي للمرء في تعامله مع النّاس أن يبرّ بهم ، ويحسن اليهم ، وأن لا يمن عليهم بإحسانه ، ينبغي لهم ـ بدورهم ـ أن لا يجحدوا ذلك الإحسان إذا قُدّم لهم ، لأنّ في جحدهم له مساءة تصرّف ، وتركاً لشكر المخاوق ، وهذا ليس من حسن الأخلاق في شيء . وإضافة الى ذلك أنّه قد يؤدّي الى الحرمان من الاحسان .

يقول الامام علي (ع) :

« جحود الاحسان يحدو على قبح الإمتنان »[١٠٣] .

ويقول (ع) أيضاً :

« جحود الاحسان ، يوجب الحرمان »[١٠٤] .

(*) من أولى الناس بالبر بهم والاحسان اليهم ، الوالدان . قال تعالى على لسان نبيّه عيسى المسيح (ع) : ﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا ﴾ ، (٣٢ ـ مريم) . وقال تعالى : ﴿ وقضى ربّك ألاّتعبدوا الاّإياه وبالوالدين إحسانا ﴾ . ٢٣ ـ الإسراء .

(١٠٣) الغرر والدّرر .

(١٠٤) المصدر السابق .

ويقول (ع) :

« تمام الإحسان ترك المنّ به »[١٠٥] .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، خليق به أن يبرّ بهم ويحسن اليهم ، ويعمّهم بإحسانه .

---

(١٠٥) المصدر السابق .

التوسل بالحلم والعفو عن الناس

قال تعالى :

﴿ . . . والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس . . . ﴾[١٠٦] .

وقال الامام عليّ (ع) :

« إنّما الحلم كظم الغيظ وملك النّفس »[١٠٧] .

وقال (ع) أيضاً :

« من غاظك بقبح السّفه عليك فَغِظْهُ بحسن الحلم عنه »[١٠٨] .

وقال (ع) :

« إن لم تكن حليماً فتحلّم ، فإنّه قلّ من تشبّه بقوم ٍ إلاّ أوشك أن يكون منهم »[١٠٩] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« ألا أخبركم بخير خلائق الدّنيا والاخرة ؟ : العفو عمّن ظلمك ، وتصل من

---

(١٠٦) ١٣٤ / آل عمران .

(١٠٧) الغرر والدّرر .

(١٠٨) المصدر السابق .

(١٠٩) نهج البلاغة ، الحِكَم .

قطعك ، والإحسان الى من أساء اليك ، وإعطاء من حرمك »[١١٠] .

وقال (ص) ايضاً :

« تجاوزوا عن عثرات الخاطئين يقيكم الله بذلك سوء الأقدار »[١١١] .

وقال الامام عليّ (ع) :

« شرّ النّاس من لا يعفو عن الزّلّة ، ولا يستر العورة »[١١٢] .

وقال (ع) أيضاً :

« قلّة العفو أقبح العيوب ، والتّسرّع الى الانتقام أعظم الذّنوب »[١١٣] .

* * *

روى عبد الله بن العبّاس فقال :

« خرج أعرابيّ من بني سليم يتبدّى في البرّية ، فإذا هو بضبٍّ قد نفر من بين يديه ، فسعى وراءه حتى اصطاده ، ثمّ جعله في كمّهِ وأقبل يزدلف [*] نحو النّبي (ص) ، فلمّا أن وقف بإزائه ناداه : يا محمّد ! يا محمّد ! . وكان من أخلاق رسول الله (ص) إذا قيل له : يا محمّد ! قال : يا محمّد ! ، وإذا قيل له : يا أحمد ! قال : يا أحمد ! ، وإذا قيل له : يا أبا القاسم ! قال : يا أبا القاسم ! ، وإذا قيل له : يا رسول الله ! قال لبيّك وسعديك ، وتهلّل وجهه .

« فلمّا ناداه الأعرابيّ : يا محمد ! يا محمد ! ، قال له النّبي : يا محمّد ! يا محمّد ! ، قال له : أنت السّاحر الكذّاب الذي ما أظلّت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة هو أكذب منك ، أنت الذي تزعم أنّ لك في هذه الخضراء إلهاً بعث بك الى الأسود والأبيض ؟!! . واللّات والعزّى ! لولا أنّي أخاف أنّ

---

(١١٠) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٣٣٩ .

(١١١) تنبيه الخواطر ، ص٣٦٠ .

(١١٢) الغرر والدّرر .

(١١٣) المصدر السابق .

(*) يزدلف : يتقدّم ، يقترب .

قومي يسمّوني العجول ، لضربتك بسيفي هذا ضربةً أقتلك بها ، فأسود بك الأولين والآخرين .

« فوثب اليه عمر بن الخطّاب ليبطش به ، فقال النبي (ص) : إجلس يا أبا حفص ! فقد كاد الحليم أن يكون نبيّاً . ثم التفت النبي (ص) الى الأعرابيّ ، فقال له : يا أخا بني سليم ، هكذا تفعل العرب ؟! يتهجمون علينا في مجالسنا ، يجبهوننا بالكلام الغليظ ؟ يا أعرابيّ ، والذي بعثني بالحق نبياً ، إنّ من ضرَّ بي في دار الدّنيا هو غداً في النّار يتلظى . يا أعرابيّ ، والذي بعثني بالحقّ نبيّاً ، أنّ أهل السّماء السّابعة يسمّونني أحمد الصّادق . يا أعرابيّ ، أسلم تسلم من النّار ، يكون لك ما لنا وعليك ما علينا ، وتكون أخانا في الاسلام »[١١٤]

* * *

ما هو الحلم ؟

وما هو العفو؟

وما علاقتهما بمعاملة النّاس ؟

الحِلم : كظم الغيظ وملك النّفس . والغيظ هو الغضب ، وكظمه : حبسه والامساك عليه في النّفس . وبحبس الغضب والامساك عليه ، تملك النّفس وتضبط . ويعرّف الحلم بالصّفح ، والصّبر والأناة والسّكون مع القدرة والقوة ، والعقل . والحلم هو ضد الغضب والطّيش . وقد يُقابل به الجهل والسّفه . والعفو هو الصّفح ، وترك الانتقام والعقوبة ، وهو نتيجة للحلم .

ومن أفضل الزّين التي ينبغي للمرء أن يتزّين بها في حياته وفي تعامله مع النّاس : الحلم ، ذلك لأنّ الحلم من أخْيرَ الأخلاق(*) وبه تنتظم أمور الإنسان

---

(١١٤) بحار الأنوار ، ج٤٣ ، ص٧٠ .

(*) « حسن الخلق بالمعنى الأخص هو أن تلين جناحك ، و تطيب كلامك ، وتلقى أخاك ببشر حسن : من نتائج الحلم » . جامع السعادات ، ج١ ، ص٣٤٢ .

ويبدو أن حسن الخلق أكثر مايطلق في الأحاديث الشريفه على المعنى المتقدم ، كما أن سوء الخلق أكثر ما يطلق فيها على التضجّر ، وانقباض الوجه ، وسوء الكلام .

ومعاملاته ، ويُستر الخلل في أخلاقه ، وتحجب الآفات ومساوىء الأخلاق عنه . وبه يكمل العقل ، ويُحبُّ الانسان ويعاشر ويُعزّ ويُرفع ، ويُنصر .

يقول الامام عليّ (ع) :

« وجدت الحلم والاحتمال أنصرُ لي من شجعان الرّجال » (١١٥)

وفي هذا الشأن ، حُكي « أنّ قوماً جعلوا لبعض السّفهاء جعالةً على أن يواجه سقراط بالشّتم ، ففعل السّفيه ما بيّنوه له ، فحلم عنه سقراط ، ولم يجبه ، فاستحيا السّفيه ، فقال له سقراط : لا عليك إن كان لك في سبّنا منفعة أخرى فلا تدعها به » (١١٦)

* * *

إنّ الحلم خلق عظيم ينبغي للمرء أن يتوسّل به في معاملة النّاس ، بل إنّ معاملة النّاس لا غنى لها عن استعمال الحلم ، اذ به تنتظم وتسير في جوّ هادىءٍ مفعم بنور العقل ، وبدونه تتحوّل المعاملة الى بارود مشتعل . وبالحلم يسعد ويهنأ الانسان ، وتتسهّل معاملاته مع الآخرين ، وبدونه يتعب ويشقى ، ويعيش التوتر في العلاقات والمعاملات : سواء في منزله مع أهله وولده وأقاربه ، أو مع أصدقائه أو مع زملائه في العمل ، أو مع عموم النّاس . ومن هنا فإن حسن التّعامل والعلاقة الانسانية يقوم ـ بدرجة كبيرة ـ على التوسّل بالحلم مع النّاس .

* * *

والحلم خلق تحلّى به الانبياء والائمة ـ عليهم السلام ـ والحكماء الذين على المرء ان يقتدي بهم ويتأسىّ في حياته وفي معاملته الناس ، جاء « في المناقب : توهّم رجل من الحاجّ أنّ هِمْيَانَه (*) سُرِقَ فرأى (الإمام) الصّادق (ع) مصلّياً فلم يعرفه ، فتعلّق به ، وقال : أنت أخذت همياني ، وكان فيه ألف دينار . فحمله الى منزله ووزن له ألف دينار ، وعاد الى منزله فوجد هميانه ، فردّ المال الى الصّادق معتذراً

(١١٥) الغرر والدّرر .

(١١٦) محمد حسن النائيني : قصص الحلم والغضب ، ص٥٢ .

(*) الهِمْيان : كيس تُجعل فيه النفقة ويشدّ على الوسط ، أو هو شَداد السّراويل او التكة ، (فارسية) .

فلم يقبل ، وقال : شيء خرج من يدي لا يعود إليّ »[117] .

* * *

ويعتمد الحلم ـ في جزء كبير منه ـ على الصّبر والإحتمال والصّمت . فالمرء في تعامله مع النّاس قد يحدث له ما يثير أعصابه ويغضبه ، ولكنّه بالصّبر على ذلك وتحمّله وصمته يمكنه المحافظة على هدوء أعصابه ورواقها ، وبذلك يحسن معاملة الطّرف الآخر . بل ينبغي للمرء إذا أغيظ أو أغضب من شخص آخر عالماً كان أو جاهلاً ـ أن يقابل ذلك بحسن الحلم ، لا بالغيظ والغضب ، ففي حسن الحلم إحسان المعاملة ، وفي الغيظ إساءتها .

* * *

وفي هذا الصّدد يُنقل أنّه« شتم رجلٌ الأحنفَ بن قيس ، وجعل يتتبعه حتّى بلغ حيّه ، فقال الأحنف : يا هذا ، إن كان بقي في نفسك شيء فهاته وانصرف ، لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره »[118] .

يقول الشّاعر في هذه المعاني :

إذا كان دوني من بُليتُ بجهله أبيت لنفسي أن تقارع بالجهل
وإنْ كان مثلي ثمّ جاء بزلّةٍ هويتُ لصفحي أنْ يُضافَ الى العدلِ
وإنْ كنتُ أدنى منه قدراً ومنصباً عرفتُ له حقّ التّقدمِ والفضلِ

* * *

والمرء في تعامله مع النّاس ينبغي له أن يضع في حسبانه أنّه لا يتعامل مع معصومين عن الخطأ ، وإنّما يتعامل مع أناسٍ يصدر منهم الزّال ، ومع أنفس حافلة بالأهواء والكبرياء والغضب ، ولا أحفظ لمعاملة الناس من استعمال الحلم معهم ، واحتمال أخطائهم . بل ينبغي للمرء ان يضع في اعتباره أنّه قد يُظلم ، ويبغى عليه ، ويُهان ، ولكن حسن المعاملة يقتضي الحلم ومقابلة الإساءة

(١١٧) المصدر السّابق ، ص٢٨ .

(١١٨) المصدر السابق ، ص١٦ .

بالإحسان ، وعلى أقل التقادير تلافي مقابلة الاساءة بالاساءة ، ولا يتأتى له ذلك الّا بالتوسّل بالحلم وضبط النّفس ، والابتعاد عن العصبيّة والفوران العصبيّ .

وقدرة المرء على أن يكون حليماً مالكاً لنفسه ضابطا لها ، لا تقاس في الاحوال الطّبيعية حينما يكون بعيداً عن معاملة النّاس ، وإنّما تقاس حينما يعاملهم ، ويصدر منهم ما يثير غضبه : هل يحلم ويملك نفسه ، أو يستسلم لسورة الغضب ؟

يقول لقمان الحكيم :

« لا يُعرف الحليم الّا عند الغضب »(١١٩) .

وقد يسأل السّائل :

كيف يمكن لفاقد الحلم ان يُصبح حليماً في معاملة النّاس ؟

لا شيء سوى التحلّم ، اي تصنُّع الحلم وتكلُّفه ، والتّعود عليه . وبمرور الوقت ينقلب ذلك التّصنّع والتكلّف الى حلم طبيعيّ . وبديهة أن من يفتقر الى الحلم في معاملة الناس ويتصنّع ذلك معهم ، سيجد ـ في البداية ـ صعوبة في ذلك ، لأنّه يفعل خلاف طبعه وعادته ، إلّا أن احتمال هذه الصّعوبة والصّبر عليها ، سيثمر الحلم في النّهاية(*) .

والمتوسّل بالحلم في معاملة النّاس ثمرات كثيرة منها :

١ ـ السّيادة والشّرف والمجد والوقار .

٢ ـ السِّلم .

٣ ـ النّصر والظّفر والتفضّل .

٤ ـ إقبال النّاس وحبّهم .

٥ ـ كثرة الانصار والأعوان .

٦ ـ فعل الخير .

---

(١١٩) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص١٧٨ .

(*) يجد الذين يعانون من الغضب لأسباب وراثيّة صعوبةً اكثر من غيرهم في كظم الغضب ، وحبس النّفس عنه ، الّا أن التحلّم كفيل بأن يخفّف حالة الغضب فيهم ، أو يزيلها .

٧ ـ الأمن من غضب الله .

٨ ـ إطفاء نار الغضب .

إنّ الغضب ـ أو القوّة الغضبية ـ من القوى الموجودة في الانسان ، وهي القوّة التي تمكنه من الرّفض ، والشّجب والاستنكار ، والدفاع عن النّفس ، والمال ، والعرض ، والمبدأ . إلاّ أنّه يلزم للإنسان ان يملكها ويضبطها ويوجّهها ، ويجعلها تحت إمامة العقل . لأنها إذا طغت على عقله ، جعلته كالنار الملتهبة ، وأوردته في المشاكل والمتاعب ، والمهالك ، فضلاً على أن الغضب غير الطبيعيّ ، ينهك الجسم ، ويهدمه ، ويضعف الجهاز العصبي ، ويؤثر على القلب والشرايين ، والأوردة والشعيرات الدّموية ، إذ يزيد من ضغط الدّم فيها . وإذا غضب الإنسان ، توترت ، واستنفرت كلّ خليّة من خلايا جسمه[١٢٠] .

وليس من العجيب أن يُرى إنسان في حالة غضب ، والدّم يتدفّق في وجهه مكسباً له حمرة محسوسة ، وارتجافاً في أعضاء الجسم[١٢١] .

وكما أنّ الحلم مدخل الى الخير ، فإنّ الغضب في التعامل مع الخالق ـ جلّ وعلا ـ ومع النّفس ، ومع الناس ، مدخل الى الشرّ . ومن هنا فإنّ كثيراً من الأخطاء التي تنجم في تعامل الناس فيما بينهم تعود الى سيطرة الغضب ، وبالسيطرة على الغضب ، وتقديم الحلم تحسن معاملة الناس ، وتصان النفّس .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« الغضب مفتاح كلّ شرّ »[١٢٢] .

« وقال رجل : يا رسول الله ، اوصني . قال : لا تغضب . قال : ففكّرت حين قال رسول الله (ص) ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشرّ كلّه »[١٢٣] .

* * *

---

(١٢٠) المؤلف : كيف تتصرّف بحكمة ، ص١٦٠ .

(١٢١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٢٢) بحار الانوار ، ج٧٣ ، ص٢٦٦ .

(١٢٣) ترغيب .... ج٣ ، ص٤٤٥ .

والإنسان في هذه الحياة ، وفي تعامله مع النّاس يقوم بأدبه ويُوزن . وحيث ان الحلم هو الزّينة التي ينشرها المرء على آدابه واخلاقه ليستر عوراته ومعايبه . وكم من إنسان يبدو على ما يرام في الحالة الطّبيعية ، ولكنّه في حالة غضب تتبيّن حقيقته، وتظهر سلبيّاته !

ومن هنا فإنّ الحلم ، والإبتعاد عن الغضب المذموم ، هو السّمة التي ينبغي أن ترافق المرء في منزله : في تعامله مع والديه ، ومع زوجته ، وأولاده ، واقاربه ، وفي التّعامل مع اصدقائه والناس . وإنّه لمن خلاف العقل والعدل والأخلاق ان يكون المرء حليماً مع النّاس ، ولكنّه في بيته يبدو كالنّار المضطرمة .

* * *

ومن القصص التي تنقل عن سيطرة الغضب ، والانقياد له ، أنّ رجلاً اشترى سيّارة من نوعٍ فاخر ، وكان يرعاها ويحافظ عليها أحسن المحافظة . وذات يوم ، وبينما كانت السّيارة موقفة في المرآب بجنب حديقة المنزل ، وأولاده يلعبون بالقرب من السّيارة ، تناول أحدهم حجراً ناتئاً وأخذ يضغط عليه ويحرّكه على صبغها من مقدّمتها الى مؤخرتها وبالعكس .

وفي الاثناء تنبه لذلك أبوه ، فجاء مسرعاً والغضب يشبّ في وجهه ، وأمسك به بعنف ، وأوجعه ضرباً مبرحاً على يده التي فعل بها ما فعل ، حتّى احمرّت واسودّت من شدّة الضّرب .

ثم ان يد الطّفل ساءت اكثر ، فنقله أبوه الى المستشفى ، وظلّ مدّة فيه . الاّ أن يده كانت تنتقل من سيء الى أسوأ ، حتّى قرّر الاطباء ان تُبتر يد الطّفل ، فبُترت . وأصيب والده بحالة ندمٍ شديدة ، ولكن لا ينفع النّدم .

إنّ صباغ السّيارة يمكن أن يُعاد الى حالته الاولى ، ويعوّض ، ولكن هل ليد الطّفل التي بُترت أن تعاد ؟! وهكذا هي نتيجة الغضب والفورة العصبيّة .

* * *

وكثيرة هي التّصرفات ـ في معاملة الناس ـ التي تعقبها حسرة وندامة ، ويكون

الغضب هو السبب من ورائها . فكم من إنسان استسلم للغضب في تعامله مع النّاس ، فأعقبه ذلك ندامة وحسرة ! وإذ ان الامر كذلك فإنّ الحلم هو الخلق الذي ينبغي للمرء أن يتوسل به في معاملتهم .

إنّ الغضب نوع من أنواع الجنون ، فكما أنّ المجنون فاقد لعقله ، غير مسيطر على أعصابه وانفعالاته ، كذلك الانسان الغضِبْ ، فهو في حالة الغضب يفقد عقله ، ولا يسيطر على أعصابه .

وللغضب الطّائش آثار سيئة كثيرة على الانسان منها :

١ ـ إبداء العيوب .

٢ ـ إثارة الأحقاد الكامنة .

٣ ـ الطّيش .

٤ ـ تعجيل الحتف .

٥ ـ الابتعاد عن الخير ، والدنوّ من الشرّ .

٦ ـ الحسرة والندّم .

٧ ـ غياب العقل .

٨ ـ الضِعة .

٩ ـ النّصب الجسمي والعصبي والنّفسي .

١٠ ـ نفور النّاس وابتعادهم .

فالنّاس لا تميل ولا تنجذب الى المرء الغضب الطائش ، وإنّما تميل وتنجذب الى الحليم الهادىء الذي تفوح منه رائحة الحلم ، وضبط النّفس . وهذا هو السرّ في أن الانسان الحليم هو المحبوب بين النّاس ، بخلاف الغضب . أفلا يخلق بالمرء أن يتوسّل بالحلم في معاملتهم ؟

* * *

وكما ينبغي للمرء أن يحلم في معاملته الناس ، ويكظم غيظه ويبتعد عن الغضب ، ينبغي له أيضاً أن يتوسّل بالعفو والصّفح عنهم إن ارتكبوا خطأً بحقّه أو بحقّ من يرتبط به ، وأن يجتنب الإنتقام منهم .

إنّ من النّاس من إذا أسيء إليه ، قابل الاساءة بالاحسان ، وعفا وصفح عن المسيء . ومنهم من إذا أسيء اليه ، قابل الاساءة بالاساءة ، وربّما ردّ الصّاع صاعين ، فهو لا يهدأ ولا يهنأ الاّ بالانتقام ممّن اساء اليه ، وهذا خلاف الأخلاق الكريمة في التّعامل مع النّاس ، إذ العفو والتّنازل والتسّامح من الأخلاقيات التي لا غنى للمرء عنها في معاملته الناس .

يقول الامام الصّادق (ع) :

« ثلاث من مكارم الدّنيا والآخرة : تعفو عمّن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتحلم إذا جُهِل عليك »[١٢٤] .

وأخطاء النّاس تتفاوت من حيث الخطورة والاثار المترتبة عليها . وكثير من أخطائهم ـ وخصوصاً الاخطاء الصّغيرة ـ تستحقّ العفو والصّفح ، بل إن الإسلام يأمر بالتّجاوز عن ذنوب الناس ما لم تكن حدوداً . فهلاّ يعفو عن عثراتهم ؟ .

يقول الرسول الاعظم (ص) :

« تجاوز عن الذنب ما لم يكن حدّاً »[١٢٥] .

* * *

وعن الامام الباقر (ع) أنه قال :

« أنّ رسول الله (ص) أتى باليهوديّة التي سمّمت الشّاة للنبيّ (ص) ، فقال لها : ما حملك على ما صنعتِ ؟ فقالت : قلت : إن كان نبيّاً لم يضرّه ، وإن كان ملكاً أرحتُ الناس منه . قال : فعفا رسول الله (ص) عنها .

* * *

وربّ قائل يقول :

إنّ المظلوم يحقّ له أن ينتصر ، بأخذ حقه ممّن ظلمه . وهذا صحيح ، ولكن

(١٢٤) بحار الانوار ، ج٧١ ، ص٤٠٠ .
(١٢٥) تنبيه الخواطر ، ص٣٦٠ .

كثيراً من المظالم ـ وخصوصاً تلك التي ترتبط بعامّة النّاس ـ يمكن للمرء أن يعفو عنها، ويتجاوزها ، ما لم يكن في العفو مضرّة ، أو إحداث كسرٍ أو خللٍ في الدّين ، أو توهين لقوّته ، مع العلم بأنّ من النّاس من يكون العفو عنهم مدعاة لفسادهم ، أو تماديهم في أعمالهم المشينة ، وهؤلاء هم اللؤماء ، قرناء الطّغيان .

يقول الامام عليّ بن الحسين (ع) :

« حقّ من ساءك أن تعفو عنه ، وإن علمت أنّ العفو يضرّ انتصرت ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولمن انتصر من بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[126] .

ويقول الامام عليّ (ع) :

« جاز بالحسنة ، وتجاوز عن السّيئة ما لم يكن ثُلْماً في الدّين أو وهناً في سلطان الاسلام »[127] .

ويقول (ع) أيضاً :

« العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم »[128] .

وأحسن العفو هو الصّفح الجميل الذي قال الله تبارك وتعالى ـ عنه : ﴿ فاصفح الصّفح الجميل ﴾[129] . وهو العفو من غير عقوبة ، ولا تعنيف ، ولا عتاب ولا تقريع . إنّ من الناس من قد يعفو عن المخطىء أو المسيء ، ولا ينتقم منه ، لكنّه يعنفه ويعاتبه ويقرعه ، وهنا يكون التّعنيف والعتاب والتّقريع نوعاً من العقاب .

يقول الامام الرّضا (ع) في قوله تعالى : ﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ : « العفو من غير عتاب »[130] .

---

(١٢٦) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص٩ .

(١٢٧) الغرر والدّرر .

(١٢٨) بحار الانوار ، ج٧٧ ، ص٤١٩ .

(١٢٩) ٨٥ / الحجر .

(١٣٠) بحار الانوار ، ج٧١ ، ص٤٢١ .

ويقول الامام الصّادق (ع) في الاية نفسها :

« عفواً من غير عقوبة ، ولا تعنيف ، ولا عيب »[131] .

ويقول (ع) أيضاً :

« الصّفح الجميل أن لا تعاقب على الذّنب »[132] .

* * *

وقدرة المرء على العفو لا تتجلّى حينما يفتقر الى القوّة والقدرة ، وانّما حين يكون قادراً ويعفو ، لأنّ العفو مع عدم القدرة قد يكون أمراً مفروضاً ، مع العلم بأنّ الأولى بالمرء أن يعفو عن النّاس في الحالتين : حين لا يكون قادراً ، وحين يكون قادراً .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« أولى النّاس بالعفو أقدرهم على العقوبة »[133] .

ويقول الامام عليّ (ع) :

« ألأم اللّوم البغي عند القدرة »[134] .

* * *

ومن القصص التي ينقلها التّاريخ في هذا المضمار : أنّ الرّسول الأعظم (ص) كان ـ بعد إحدى المعارك ـ جالساً على سفح جبل ، فجاء اليه أحد المشركين ، وأخذ سيفه ، وشهره عليه ، وقال : من يخلّصك منّي ـ الآن ـ يا محمد ؟

وفي الأثناء تحرّك حجرٌ كان المشرك واقفاً عليه ، فسقط على الارض ، ووقع السّيّف من يده ، فانتهز الرّسول الفرصةَ ، وأخذ السّيف ، وقال له : ومن يخلصك ـ الآن ـ منّي ؟ فقال : عفوك يا رسول الله ! فما كان من الرّسول الاّ أن

(١٣١) المصدر السابق ، ج٧٨ ، ص٣٥٧ .

(١٣٢) المصدر السابق ، ص٢٥٣ .

(١٣٣) المصدر السابق ، ج٧١ ، ص٤٢١ .

(١٣٤) الغرر والدرر .

عفا عنه وهو (ص) قادر على قتله ، وإرساله الى الجحيم[١٣٥] .

* * *

والعفو ليس خُلقاً للتجاوز عن أخطاء الناس وعثراتهم فحسب ، بل هو وسيلة لاستصلاح ما فسد من أصحاب العقول . فقد يعمد المرء الى الانتقام أو الضّرب لردّ الاساءة ، الاّ أنّ هذا الأسلوب ليس هو الأمثل من نوعه ، وقد لا يجعل الطّرف المسيء يقلع عن خطئه ، وفي العفو عنه أسلوب حسن لاستصلاحه .

شكى الى رسول الله (ص) رجلٌ ، من خدمه ، فقال له :

« اعفُ عنهم تستصلح قلوبهم » ، فقال : يا رسول الله ، إنّهم يتفاوتون في سوء الادب ، فقال : « اعف عنهم » ، ففعل[١٣٦] .

ومن وصايا أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب لابنه الحسن ـ عليهما السلام ـ :

« إذا استحقّ احد منك ذنباً ، فإنّ العفو مع العدل أشدّ من الضّرب لمن كان له عقل »[١٣٧] .

* * *

وعن دور العفو في الاصلاح يُنقل أنّه « أذنب بعض كتاب المامون (العبّاسي) ذنباً ، وتقدّم اليه ليحتجّ لنفسه ، فقال : يا هذا ، قف مكانك ، فإنّما هو عذر أو يمين وهبتهما لك ، وقد تكرّر منك ذلك ، فلا تزال تسيء ونحسن ، وتُذنب ونغفر ، حتّى يكون العفو هو الذي يصلحك »[١٣٨] .

* * *

والآن فلكي يحسن المرء تعامله مع النّاس ، جدير به أن يتوسّل بالحلم والعفو والصّفح معهم ، وأن يجتنب الغضب والعنف والإنتقام .

---

(١٣٥) المؤلف : كيف تبني شخصيتك ، ص١٠٧ .

(١٣٦) مستدرك وسائل الشيعة ، ج٢ ، ص٨٧ .

(١٣٧) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص٣١٦ .

(١٣٨) محمد حسن النائيني : قصص الحلم والغضب ، ص٤٩ .

الحياء من الناس

قال الامام علي (ع) :

« الحياء مفتاح كلّ خير »[139] .

وقال (ع) أيضاً :

« الحياء سبب الى كلّ جميل »[140] .

وقال(ع) :

« الحياء يصدّ عن الفعل القبيح »[141] .

وقال الامام عليّ بن الحسين (ع) :

« خف الله لقدرته عليك ، واستح منه لقربه منك »[142] .

وقال الامام عليّ (ع) :

« غاية الحياء أن يستحي المرء من نفسه »[143] .

---

(١٣٩) الغرر والدّرر .

(١٤٠) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص٢١١ .

(١٤١) الغرر والدّرر .

(١٤٢) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٣٣٦ .

(١٤٣) الغرر والدّرر .

وقال (ع) أيضاً :

« من لم يستحِ من النّاس لم يستحِ من الّله سبحانه »[144] .

*

ما هو الحياء ؟

ولِمَ المرء بحاجة اليه في معاملة الناس ؟

يُعرف الحياء بأنّه الحشمة أو الاحتشام ، والخجل ، وانقباض النّفس من الشيّء وتركه خوفاً من اللوم . وهو من الايمان والعقل .

ولا بدّ للمرء ـ لكي يحسن سيرته وتصرفه في الحياة ـ من الحياء في ثلاثة أبعاد :

١ ـ الحياء من الله

٢ ـ الحياء من النّفس

٣ ـ الحياء من النّاس .

فالحياء من الله يعني الخوف منه ، والايمان بقربه ومراقبته ، وهو الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه كلّ حياءٍ للمرء ، وكلّ فعلٍ او تصرّف له ، وذلك لأنّه إذا استحيا من الّله فعل ما يرضيه سبحانه ، وعكس ذلك صحيح ، إذ مع عدم الحياء يفعل الإنسان ما يشاء ، ودون حدود وقيود وسقوف .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول النّاس : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت »[145] .

والحياء من النّفس : أن يجعل المرء من نفسه ـ وهي أقرب المقرّبين له ـ رقيباً على نفسه ، بأن يفعل ما هو حسن وينتهي عمّا هو قبيح . وهذا الحياء هو « غاية الحياء » ، و« أحسن الحياء » و« ثمرة الايمان » كما تعبرّ عنه الأحاديث الشريفة ، وهو نتيجة طبيعية للإستحياء من الله ـ سبحانه وتعالى .

---

(١٤٤) المصدر السابق .

(١٤٥) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٣٣٣ .

والحياء من النّاس : أن يستحي المرء من فعل القبيح أمامهم ، وفي معاملتهم ، وهذا الحياء ـ هو الآخر ـ نتيجة طبيعية للحياء من الّله ـ عز وجل ـ إنّ الحياء من النّاس وإن كان ضرورة في التعامل معهم ، وفي تقديرهم ، واحترامهم ، وفعل كلّ ما هو حسن معهم ، الّا أنّه يجب أن يكون منبثقاً من الحياء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ فمن يستحي من النّاس هو في ـ حقيقة أمره ـ يستحي من نفسه وبالتالي من الّله ـ جل شأنه .

ولو نظر المرء في معاملته النّاس ، لرأى أنّ أستحياءه منهم هو الذي يدعوه الى التزام الحشمة معهم ، وإحسان معاملتهم ، وترك ما يسيء هذه المعاملة . ومن هنا كان الحياء من النّاس مطلباً ضرورياً في معاملتهم ، وفي تصرّف الإنسان على مرأى ومسمع منهم ، كما أنّ الحياء مطلب ضروري حينما يكون في السرّ ، أي مع نفسه : الحياء في السرّ (أي مع النّفس) ، والحياء في العلانية (أي مع النّاس) .

ومن خلال معرفة معنى الحياء من الناس أو الاستحياء منهم ، يتبين أيضاً أنّ الحياء منهم لا يعني أن يقيم المرء حواجز نفسيّة بينه وبينهم ، تجعله منعزلاً عنهم ، وتمنعه من التّعامل معهم ، لأنّ هذا في حقيقته خجل زائد ، وحالة غير صحيّة جديرة بالعلاج . أمّا الحاجز النّفسي في الحياء فهو يتمثّل في الامتناع عن ممارسة القبيح والسيء في معاملة النّاس ، ومزايلتهم بالقلب والعمل الصّالح فيما اذا كانوا يمارسون السيئات . وبعبارة أخرى : عدم الانجراف معهم فيما اذا كانت تصرّفاتهم وأعمالهم غير حسنة .

ومن هنا يتوضّح أنّ هناك نوعين من الحياء : حياء محمود ، وآخر مذموم . فالحياء المحمود هو حياء القوّة ، وهو الدّاعي الى العفّة والحشمة في التصرّف وفي معاملة النّاس ، والى ترك السيء من القول والفعل . أمّا الحياء المذموم فهو حياء الضّعف ، وهو النّاجم عن حالة خجل غير صحيّة ، أو عن أحساس بالضّعة والحقارة أمام النّاس . والحياء المذموم يؤدي الى الحِرمان ، وضياع الفرص من الانسان .

يقول الامام عليّ (ع) :

« قُرِنتْ الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرصة تمرّ مرّ السّحاب »[146] .

وللحياء المحمود آثار خلقيّة حسنة تنعكس على نفس الانسان منها : .

١ ـ العفّة والعفاف .

٢ ـ الصّدّ عن الفعل القبيح .

٣ ـ المروءة .

٤ ـ عدم لقاء الناس بما يكرهون .

٥ ـ اللين مع الناس .

٦ ـ الرأفة بهم .

٧ ـ البشاشة معهم .

٨ ـ حسن الثنّاء عليهم .

٩ ـ السّماحة .

١٠ ـ السّلامة .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، عليه أن يستحي منهم ، وقبل ذلك عليه أن يستحي من نفسه ومن خالقه ـ جلّ وعلا .

---

(١٤٦) نهج البلاغة ، الحِكَم .

حسن الظن بالناس

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظّنّ إثم ﴾[١٤٧]

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« اطلب لأخيك عذراً فإن لم تجد له عذراً فالتمس له عذراً »[١٤٨] .

وقال الامام عليّ (ع) :

« ظنّ ذوي النّهى والألباب أقرب شيء من الصّواب »[١٤٩] .

وقال (ع) أيضاً :

« من حَسُنَ ظنّه بالنّاس حاز منهم المحبّة »[١٥٠] .

وقال (ع) :

« ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً »[١٥١] .

---

(١٤٧) ١٢ / الحجرات .

(١٤٨) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٩٧ .

(١٤٩) الغرر والدّرر .

(١٥٠) المصدر السابق

(١٥١) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٩٦

وقال (ع) :

« لا تظنّن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً »[152] .

وقال (ع) :

« أسوأ النّاس حالاً من لم يثق بأحد لسوء ظنّه . . . »[153] .

وقال (ع) :

« من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد »[154] .

وقال (ع) :

« من غلب عليه سوء الظنّ لم يترك بينه وبين خليل صلحاً »[155] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« احترسوا من الناس بسوء الظنّ »[156] .

*

بالنظر الى الظنّ ، كيف يجب التعامل مع الناس ؟

هل المطلوب الظنّ الحسن بالنّاس بشكل مطلق ؟

أم هل المطلوب الظنّ السيّء بهم بشكل مطلق ؟

لا ينبغي للمرء في معاملته النّاس ان يحسن الظنّ بهم بشكل مطلق ، ولا أن يسيء الظنّ بهم بشكل مطلق أيضاً .

بل ينبغي للمرء أن يكون حسن الظنّ بالناس مع الاحتراس منهم في الموارد التي تتطلب الاحتراس . ويؤكد القرآن الكريم على أنّ كثيراً من الظنّون التي

---

(١٥٢) المصدر السابق ، ص١٩٨

(١٥٣) المصدر السابق ، ج٧٨ ، ص٩٣ .

(١٥٤) الغرر والدّرر .

(١٥٥) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص٢٢٧ .

(١٥٦) المصدر السابق ، ص١٥٨ .

تعمل في ذهن وقلب الانسان عن الآخرين هي ظنون يجب أن تجتنب ، إذ أنّ من الظّنون ما هو ذنب ومعصية وجرم . كما أنّ الاحاديث الشريفة تعطي مساحة كبيرة لحسن الظنّ بالناس ، وتوجّه الى الاحتراس منهم بسوء الظنّ في موارد معينة .

ومن ناحية أخرى انّ نوعية النّاس ، ونوعيّة الظّرف الزمني يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في ظنّ المرءبالناس ، لأنّ النّاس أنواع منهم الإخوة ، والأصدقاء ، والأخيار ، والصّالحون ، والشركاء في دين واحد وعقيدة واحدة ، و . . . ومنهم الأعداء ، والأشرار ، والفجّار ، و . . . فالتعامل الحسن مع الاخوة يقتضي ان لا يُساء بهم الظنّ ، وان يحمل القول والفعل الذي يصدر منهم على محمل الخير ، واكثر من ذلك أن تُطلب لهم الأعذار ، واكثر منه التماس وانتحال الأعذار لهم في الأقوال والأفعال التي تصدر منهم ، ولا يمتلك المرء يقيناً عنها . ولكن مع ذلك ، حتى الثّقة بالاخوة يجب أن لا تكون مطلقة ، ويجب ان تكون هناك نسبة من الاحتراس ، وخصوصاً في الموارد التي تتطلب احتراساً واحتياطاً . .

يقول الامام الصّادق (ع) :

« لا تثقنّ بأخيك كلّ الثقة ، فإن صرعة الاسترسال لا تستقال »[١٥٧] .

وليس بالنّسبة للإخوان في الدّين فحسب ، بل حتّى بالنّسبة لعموم النّاس لا ينبغي للمرء ان يسيء الظنّ بهم لكلمة خرجت من أفواههم ، وهو يجد لها احتمالاً في الخير ، لأنّ النّاس ليسوا مجموعة من المجرمين الذين لا يُطمأن لهم ، ولا يوثق بهم . وكم من إنسان أساء الظنّ بالآخرين ، ثم تبيّن له بعد ذلك بطلان ظنّه !

كذلك فإن الزمان يؤثر في إحسان الظنّ بالنّاس أو اساءته بهم فالزّمان الذي ينتشر فيه العدل ، وتستقيم فيه تصرفات الناس ـ بما فيهم الحكّام ـ فالمعوّل على حسن الظنّ بهم ، ما لم يكن هناك علم يقيني بسوء القول او الفعل الذي يقومون به . أمّا إذا كان الزّمان زمان جور ، وفيه ينحرف سلوك الناس وتصرّفاتهم ، فيجب أن يكون الاحتراس منهم هو الحاكم ، ما لم يكن هناك علم بأن ما يقومون

---

(١٥٧) تحف العقول ، ص٢٦٣ .

به خيراً[158].

يقول الامام الهادي (ع):

« إذا كان زمانٌ: العدل فيه أغلب من الجور، فحرام أن يُظنّ بأحدٍ سوءاً حتّى يعلم ذلك منه، وإذا كان زمانٌ: الجور أغلب فيه من العدل، فليس لأحد أن يظنّ بأحدٍ خيراً ما لم يعلم ذلك منه »

ويقول الامام الصّادق (ع):

« إذا كان الزّمان زمان جور، وأهله أهل غدر، فالطّمأنينة الى كلّ أحد عجز »

*

ومع الأخذ بعين الاعتبار، الموارد التي يجدر بالمرء فيها ان يستعمل الحزم والاحتراس، يبقى حسن الظنّ هو الخلق المطلوب في معاملة الناس.

إنّ حسن الظنّ بالنّاس من لوازم قوّة النّفس وثباتها، وفوائده أكثر من أن تحصى، وهو خلق محمود، وممدوح في القرآن الكريم والسّنة الشريفة، وضروريّ في التعامل مع النّاس.

جاء في موسوعة « جامع السّعادات » الأخلاقية:

« وكذا لا يظنّ (المؤمن) السّوء والشرّ بالمسلمين[159]، ولا يحملنّ ماله وجه صحيح من أعمالهم وأقوالهم على وجه فاسد، بل يجب أن يحمل كلّ ما يشاهده من أفعالهم وحركاتهم على أحسن الوجوه وأصحّها، ما لم يجزم بفساده، ويكذّب وهمه وسائر حواسه، وفيما يذهب اليه من المحامل الفاسدة والاحتمالات القبيحة

---

(١٥٨) يجب أن لايفهم من هذا أن ما كان أصله خيراً وحُسناً وفضيلةً ينقلب شراً ورذيلة، فحسن الظن حسنٌ وسيبقى كذلك الى الابد، وسوء الظن غير الموضوعيّ قبح وسيبقى كذلك. ووجود استثناء أو حالة خاصّة بالنسبة للمزمن لايعني أن الفضيلة فقدت أصل الحسن وانقلبتْ رذيلةً.

(١٥٩) كما واجب الانسان أن يحسن الظن بالمسلمين والناس الجديرين بحسن الظنّ، عليه قبل ذلك أن يحسن الظن بخالقه جلّ وعلا، ومن اكبر الأثام اساءة الظن به سبحانه وتعالى.

المحرّمة ، ويكلّف نفسه على ذلك ، حتّى يصير ذلك ملكة له ، فترتفع عنه ملكة سوء الظنّ بالكليّة . نعم ، الحمل على الوجه الصحيح على تقدير عدم مطابقته للواقع ، او كان باعثاً لضرر مالي أو فساد دينيّ أو عرضيّ لزم فيه الحزم والاحتياط ، وعدم تعليق أموره الدّينية عليه ، لئلا يترتّب عليه الخسران والاضرار ، وتلزمه الفضيحة والعار »[١٦٠] .

وحسن الظنّ بالنّاس من أفضل الورع ، وهو من أفضل السّجايا والطّباع التي ينبغي للمرء ان تكون ملكة فيه ، في تعامله معهم ، وبه يشعر الانسان بالسّعادة والوئام وراحة القلب ، وخفّة الهموم والغموم ، وبه ينجو من الوقوع في الآثام ، ويحرز السّلامة في الدّين . أمّا سوء الظنّ بالناس فما حصيلته الاّ الشّقاء ، وتعب القلب ، وثقل الهمّ ، والوقوع في الآثام ، والإضرار بالدّين .

كما أنّ حسن الظنّ بالنّاس موجب لإقبال النّاس وحبّهم . فمن طبيعة النّاس أنّهم يقبلون على من يحسن الظنّ بهم ، ويحبّونه ، ويدبرون عمن يسيء الظنّ بهم ، ويكرهونه . وحسن الظنّ بالنّاس من أهمّ الأمور في اتخاذ الأصدقاء ، والمحافظة عليهم ، فحسن الظنّ في الصّداقة يشبه حاجة النّبتة الى التربة الصّالحة والماء والهواء .

إنّ من يغلب عليه سوء الظنّ بالنّاس الى مرحلة يجد نفسه فيها أنّه لا يألف أحداً ، ولا يؤلف من أحد ، ولا يثق بأحد ، ويكون مثله مثل الشّاة الشّاردة التي كلّما أرجعها الرّاعي الى القطيع ، انفردت بنفسها مستوحشة نافرة .

وعن سوء الظنّ يقول الشّيخ النّراقي :

« ولا ريب في أن من حكم بظنّه على غيره بشرّ ، بعثه الشيطان على أن يغتابه أو يتوانى في تعظيمه وإكرامه ، أو يقصرّ فيما يلزمه من القيام بحقوقه ، أو ينظر اليه بعين الاحتقار ، ويرى نفسه خيراً منه ، وكلّ ذلك من المهلكات .

« على أنّ سوء الظنّ بالنّاس من لوازم الباطن وقذارته ، كما انّ حسن الظنّ من

---

(١٦٠) محمد مهدي النراقي : ج١ ، ص٣٢١ .

علائم سلامة القلب وطهارته . فكلّ من يُسيء الظنّ بالنّاس ويطلب عيوبهم وعثراتهم فهو خبيث النفس سقيم الفؤاد ، فالمؤمن يظهر محاسن أخيه ، والمنافق يطلب مساوئه ، وكلّ إناء يترشّح بما فيه .

« والسرّ في خباثة سوء الظنّ وتحريمه وصدوره عن خبث الضّمير وإغواء الشّيطان : أنّ أسرار القلوب لا يعلمها الا علّام الغيوب ، فليس لأحد أن يعتقد في حقّ غيره سوءاً الّا إذا انكشف له بعيان لا يقبل التّأويل ، إذ حينئذٍ لا يمكنه إلّا يعتقد ما شاهده وعلمه ، وأمّا ما لم يشاهده ولم يعلمه ولم يسمعه وإنّما وقع في قلبه ، فالشّيطان ألقاه اليه ، فينبغي أن يكذّبه لأنّه أفسق الفسقة ، وقد قال الله : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ﴾(١٦١) .

« فلا يجوز تصديق اللعين في نبئه ، وإن حفّ بقرائن الفساد ، ما احتمل التّأويل والخلاف . فلو رأيت عالماً في بيت أمير ظالم ، لا تظنّن أنّ الباعث طلب الحطام المحرّمة ، لاحتمال كون الباعث إغاثة مظلوم . ولو وجدت رائحة الخمر في فم مسلم ، فلا تجزمنّ بشرب الخمر ووجوب الحدّ ، إذ يمكن أنه تمضمض بالخمر ومجّه وما شربه ، أو شربه إكراهاً وقهراً . فلا يُستباح سوء الظّن إلّا بما يُستباح به المال ، وهو صريح المشاهدة ، أو قيام بيّنةٍ فاضلة .

« ولو أخبرك عدل واحد بسوء من مسلم ، وجب عليك أن تتوقّف في إخباره ، من غير تصديق ولا تكذيب ، إذ لو كذبته لكنت خائناً على هذا العدل ، إذ ظننت به الكذب ، وذلك ايضاً من سوء الظّن ، وكذا إن ظننت به العداوة أو الحسد أو المقت لتتطرّق لأجله التّهمة ، فتردّ شهادته . ولو صدقته لكنت خائناً على المسلم المخبر عنه ، إذ ظننت به السوء ، مع احتمال كون العدل المخبر ساهياً ، أو التبس الأمر عليه بحيث لا يكون في إخباره بخلاف الواقع آثماً فاسقاً . وبالجملة : لا ينبغي أن تحسن الظّن بالواحد وتسيء بالآخر ، فتذكر المذكور حاله على ما كان في السّتر والحجاب ، إذ لم ينكشف لك حاله بأحد القواطع ، ولا بحجّة شرعيّة يجب قبولها ، وتحمل خبر العادل على إمكان تطرّق شبهة مجوّزة للإخبار ، وإن لم يكن

---

(١٦١) ٦ / الحجرات .

مطابقاً للواقع .

« ثمّ المراد بسوء الظّن هو عقد القلب وميل النّفس دون مجرّد الخواطر وحديث النّفس ، بل الشّك أيضاً ، إذ المنهيّ عنه في الآيات والأخبار إنّما هو أن يظنّ ، والظّن هو الطّرف الرّاجح الموجب لميل النّفس إليه . والإمارات التي يمتاز بها العقد عن مجرّد الخواطر وحديث النّفس ، هو أن يتغيّر القلب منه عمّا كان من الألفة والمحبّة إلى الكراهيّة والنّفرة ، والجوارح عمّا كانت عليه من الأفعال اللازمة في المعاشرات إلى خلافها . والدّليل على أنّ المراد هو ما ذُكر ، قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ثلاث في المؤمن لا تُستحسن وله منهنّ مخرج ، فمخرجه من سوء الظّن ألاّ يحقّقه » ، أي يحقق في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح »[١٦٢] .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« شر النّاس من لا يثق بأحد لسوء ظنّه ، ولا يثق به أحد لسوء ظنّه »[١٦٣] .

فالذي يغلب عليه سوء الظّن بالنّاس ، ولا يثق بهم ، سيجد أنّ النّاس في الطّرف المقابل لن تثق به ، لأنّ الثّقة عملية متبادلة .

ومن أقبح الظّلم والإثم إساءة الظّن بالأمناء الذين لا يخونون ، وبالمحسنين ، والأخيار ، والأبرار ، والأتقياء ، والصّالحين . فالمرء السّيء والشّرير هو ذلك الذي لا يظنّ بالنّاس خيراً ، لأنه لا يراهم إلاّ من خلال طبعه السّيء والشّرير .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، ويكسب محبّتهم ، عليه بهذه الخلقيّة الفاضلة : « حسن الظنّ بالنّاس » . ان يحسن الظنّ بهم في كلّ المعاملات والأقوال والأفعال ، ما لم يحصل له يقين بسوء أقوالهم وأفعالهم ، مع الأخذ بعين الإعتبار ، الإحتراس ممن يُخشى ضرره .

---

(١٦٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣١٦ـ٣١٨ .
(١٦٣) نهج البلاغة .

الأمانة وأداء الأمانة

قال تعالى :

﴿ إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها . . . ﴾[164] .

وقال سبحانه :

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[165] .

وقال الإمام عليّ (ع) :

« أفضل الإيمان الأمانة ، أقبح الخُلُق الخيانة »[166] .

وقال (ع) أيضاً :

« أدّوا الأمانة ولو إلى قتلة أولاد الأنبياء »[167] .

وقال (ع) :

« أُقسِمُ لسمعتُ رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لي قبل وفاته بساعة مراراً ثلاثاً : يا أبا الحسن ، أدِّ الأمانة إلى البرّ والفاجر فيما قلّ وجلّ حتى في الخيط

(١٦٤) ٥٨ / النساء .

(١٦٥) ٨ / المؤمنون .

(١٦٦) الغرر والدّرر .

(١٦٧) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١١٥ .

والمخيط »[١٦٨] .

*

قيل كان صديقان حميمان بلغا من الثّقة المتبادلة مستوىً لدرجة أنّ أحدهما أعطى الآخر مفتاح بيته . وفي ذات يومٍ حيث أزمعا على الخروج في رحلة ، مرض الصّديق الذي بيده المفتاح ، وأعلم صديقه بالذّهاب عنه . فما كان من الأخير إلاّ أن جاء إلى منزل صديقه ، وفتح الباب ، وما أن رأى جمال زوجة صديقه ، حتّى خان ، وحاول إرغامها على الحرام . وكان هناك كلب رأى أنّ هذا الشّخص ليس زوجاً لصاحبة المنزل ، فهاجمه وقتله . وحينما رجع زوجها وعرف القصّة ، أنشد مادحاً الكلب :

ما زال يرعي ذِمّتي ويحوطني ويحفظُ عِرْسي[*] والخليلُ يخونُ
فيا عجباً للخِلِ يهتِكُ حُرمتي ! ويا عجباً للكلبِ كيف يصونُ ؟!

* * *

كيف تصبح أجواء التّعامل فيما بين النّاس في ظلّ توفّر الأمانة ورعايتها ؟ وكيف تمسي مع غياب ذلك ؟

بديهةً ، مع وجود الأمانة ورعايتها وأدائها إلى أهلها ، تصفو أجواء التّعامل فيما بين النّاس ، ويشيع الصّدق والثّقة والإعتماد فيما بينهم ، ويصبح الأفراد كحبيبات الرّمل المنسجمة مع بعضها البعض . وخلاف هذا يحدث مع غياب الأمانة ، ويبيت الوضع أشبه بمجتمع الغاب ، حيث اللاثقة واللاإطمئنان ، وحيث البقاء للأقوى .

بل انّ من الحيوانات من ترعى الأمانة بالقدر المتأتّى لها . ألا يرى أحدنا أن الكلب إذا قُلّد حراسة موقع من المواقع ، يكون راعياً لهذه الأمانة التي قُلِّدها ، ووفيّاً في ذلك؟

---

(١٦٨) مستدرك وسائل الشيعة ، ج٢ ، ص٥٠٥ .

(*) عِرسي : زوجتي .

وإذا كان هذا شأن الكلاب ، أفليس بنو البشر ـ وهم أصحاب العقول والمكرّمون على كلّ الخلق ـ أولى بالأمانة ورعايتها ؟

لا شك في ذلك أبداً ، فالبشر المسؤولون عن تصرّفاتهم ، بخلاف البهائم . ومن هنا فهم مطالبون بأن يجعلوا من أنفسهم أمناء غير خائنين ، ومواقع ثقة واعتماد .

إنّ الأمانة ورعايتها وأداءها ، هي جزء من جوهر الإيمان ، وهي « أفضل الإيمان » ، ولا إيمان من دون أمانة . كما أنّ الخيانة هي أقبح خلقٍ يعيش به المرء في النّاس . وهل أقبح من أن يؤتمن المرء على أمرٍ ويخون ؟!

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« لا إيمان لمن لا أمانة له »(١٦٩) .

ولكي يكون المرء أميناً في معاملة النّاس ، لا بدّ أن يكون صادقاً معهم ، ومحلّ ثقة وإطمئنان وإعتماد من قبلهم ، ولا بدّ أن يؤدّي ما يؤتمن عليه من جانبهم . فالقاعدة العقلائيّة تقول : «على اليد ما أخذت حتى تؤدّي» . أي أنّ كلّ شخصٍ أو جهةٍ تأخذ شيئاً من شخصٍ أو جهة أخرى ، هي مسؤولة عن إرجاع ذلك الشيء إلى صاحبه ، وبإرجاعه ترتفع مسؤوليّة المؤْتَمن . بل إن الأمانة لا تنحصر في الماديات ، ففي المعنويّات واجب المرء أن يلتزم الأمانة فيها ، ومثال المعنويّات : أن يؤتمن على سرٍّ ، فواجبه أن يحفظه ، ولا يخون صاحبه بإفشائه .

يقول الإمام عليّ (ع) في الشّعر المنسوب إليه :

أدِّ الأمانةَ ، والخيانةَ فاجتنبْ   واعدِلْ ولا تظلمْ ، يطيبُ المكسبُ(١٧٠)

إنّ الأمانة تقوم على العدالة ، وحيث أنّ العدالة هي من أهم الأسس في معاملة النّاس ، وأنّها إعطاء كلّ ذي حقٍ حقّه ، فإنّ من مصاديق العدالة رعاية الأمانة وأداءها ، لأنها حقّ للغير يجب أن يحفظ ، أو أن يُرجع إليه متى أراده . ولا فرق في

(١٦٩) بحار الأنوار ، ج٧٢ ، ص١٩٨ .
(١٧٠) ديوان الامام عليّ .

اداء الأمانة بين أن يكون الشّخص المؤتمِن برّاً أو فاجراً ، فأداؤها واجب ، إلى البّر والفاجر والأبيض والأسود على حدٍّ سواء .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« إنّ ضارب عليّ بالسّيف وقاتله لو ائتمنني ، واستنصحني ، واستشارني ، ثمّ قبلت ذلك منه لأدّيت إليه الأمانة »(١٧١) .

ومن خلاف الأخلاق الحسنة في معاملة النّاس تحقير الأمانة واعتبارها شيئاً صغيراً ، سواء كانت غالية الثّمن أو زهيدته . وهناك من النّاس من إذا ائتُمن على شيءٍ رخيص ، حقّره وأبقاه عنده ، أو استهلكه دون إرجاعه إلى صاحبه . والأقبح من ذلك أنّ منهم من إذا ائتُمن على شيءٍ قيِّم ، حقّره ايضاً ، وأبقاه عنده ، واستهلكه .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« ليس منّا من يحقّر الأمانة حتّى يستهلكها »(١٧٢) .

وكما واجب المرء أن يؤدّي الأمانة إلى أهلها ، برّاً كان أو فاجراً ، عليه أن لا يأمن ولا يأتمن غير الأمناء ، والخائنين ، لأنّ في إئتمانهم وضعاً للشّيء في غير موضعه ، وتضييعاً للأمانات . ومن المنهيّ عن إئتمانهم : .

- غير الأمناء .
- الخائنون .
- الكذّابون .
- الملوُلون .
- المضيِّعون .
- شاربوا الخمر .
- الفجّار .

---

(١٧١) تنبيه الخواطر ، ص١٠ .

(١٧٢) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص١٧٢ .

وحيث أنّ من الأخلاق الحسنة في معاملة النّاس أداء الأمانة إلى أصحابها ، فإن من خلاف الأخلاق مقابلة الخيانة بالخيانة .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« لا تخنْ من إئتمنك وإن خانك ، ولا تُذِعْ سرّه وإن ذاع سرّك »[١٧٣] .

ولإلتزام الأمانة في معاملة النّاس آثار كثيرة تتجلّى في المرء الأمين ، منها : .

- الصّدق ، سواء في الأقوال أو الأفعال .
- الوفاء .
- السّلامة في الدّنيا والآخرة .
- جرّ الرّزق .
- الغنى .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، ويكسب محبّتهم ، واجبه أن يتخلّق بالأمانة ، وأن يرعاها ، ويؤدّيها إلى أهلها ومستحقّها برّاً كان أو فاجراً .

---

(١٧٣) نهج البلاغة .

الوفاء للناس بالوعد والعهد

قال الإمام عليّ (ع) :

« أشرف الخلائق الوفاء »[١٧٤] .

وقال (ع) أيضاً :

« ما بات لرجلٍ عندي موعد قطّ فبات يتململ على فراشه ليغدو بالظّفر بحاجته ، أشدّ من تململي على فراشي حرصاً على الخروج إليه من دَين عِدته ، وخوفاً من عائقٍ يوجِبُ الخُلف ، فإنّ خُلْفَ الوعد ليس من أخلاق الكرام »[١٧٥] .

وقال (ع) :

« لا تعِدنّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها »[١٧٦] .

وقال تعالى :

﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾[١٧٧] .

وقال سبحانه :

---

(١٧٤) الغرر والدّرر

(١٧٥) المصدر السابق .

(١٧٦) المصدر السابق .

(١٧٧) ١٧٧ / البقرة .

﴿ يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[١٧٨] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« المسلمون عند شروطهم ما وافق الحقّ من ذلك »[١٧٩] .

*

من أشرف الأخلاقيّات في معاملة النّاس : الوفاء . وربّ سائلٍ يسأل : . ما الوفاء ؟

الوفاء : هو المحافظة ، والإتمام ، والإكمال ، والإنجاز . وفي بالوعد أو العهد : أتمّه أو حافظ عليه . والوفاء عنوان صدق الإنسان وأمانته ونُبْلِه ، ودليل سلامة ضميره ووجدانه وعقله ، فالمرء الذي يتمتّع بالصّدق والأمانة وسلامة الضّمير ، يكون وفيّاً في تعامله مع النّاس . كلّنا قد سمع شخصاً يمدح آخر بأنّه وفيّ ، بمعنى أنّ من شيمته المحافظة والتفضّل ، والإنجاز .

والوفاء من الأخلاقيّات التي تعمل على إشاعة المحبّة والمودّة بين النّاس ، فالمرء الوفيّ محبوب مودود بينهم بطبيعة الحال ، بخلاف غير الوفيّ ، وهذا ما هو ملموس في واقع التّعامل .

وقد يسأل السّائل :

هل النّاس كلّهم جديرون بالوفاء لهم ؟

لا شكّ أن المؤمنين وعموم النّاس الطّيبين هم جديرون بالوفاء لهم ، بل حتّى الفجّار ، إنْ واعدهم المرء أو عاهدهم على حقٍّ ، ينبغي له أن يكون وفيّاً . أمّا أهل الغدر فقد ينقلب الوفاء لهم إلى غدرٍ عند الله تعالى .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« ثلاثة لا عذر لأحدٍ فيها : أداء الأمانة إلى البر والفاجر ، والوفاء للمبرّ

---

(١٧٨) ١٠ / المائدة .

(١٧٩) كنز العمال ، خ١٠٩١٨ .

والفاجر ، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين »[١٨٠] .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله ، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله »[١٨١] .

ومن الوفاء : الوفاء بالوعد . فالمرء في علاقته الإجتماعيّة بالنّاس ، وفي معاملته إيّاهم ـ بحكم الحاجة أو المنفعة المتبادلة ـ هو بحاجة إلى إبرام وعود معهم ، وهذه الوعود جديرة بأن يوفى بها ، شريطة أن لا تحلّل حراماً ولا تحرّم حلالاً .

ومن القصص المنقولة عن وفاء الرّسول الأعظم (ص) بوعوده : أنّ رجلاً يقال له أبو الحميساء بايعه ببيع ـ قبل أن يُبعث بالرّسالة ـ فبقيتْ له (ص) بقيّة ، ووعدَهُ أبو الحميساء أن يأتيه بها في مكانه . إلاّ أنّ الذي حدث هو أن الواعد (أبا الحميساء) نسي الوعد ، ثمّ ذكره بعد ثلاثة أيام ، فجاء إلى المكان الذي وعد فيه رسول الله (ص) ، فوجده منتظراً له ، وقال (ص) : « يا فتى ، لقد شقَقْتَ عليّ ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك »[١٨٢] .

* * *

إنّ الوعد دَيْنٌ على المرء ، ومن شأن الدَّين أن يُقضى إلى صاحبه . أرأيت إنْ استدنْتَ من شخص آخر مالاً ؟ ، إنّك مطالب بقضائه ، وهكذا الحال بالنّسبة للوعد .

يقول الإمام الرّضا (ع) :

« إنّا أهل بيتٍ نرى ما وعَدْنا دَيْناً ، كما صنع رسول الله (صلى الله عليه وآله) »[١٨٣] .

ومن هنا فليس من الصّحيح مع الوعد على أنه كلمات تُنطق حين التّواعد ، وسرعان ما تتبخّر بعد ذلك . ومما يؤسف له أن من النّاس ـ في معاملة النّاس ـ

---

(١٨٠) بحار الأنوار ، ج٧٥ ، ص٩٢

(١٨١) نهج البلاغة ، الحِكَم .

(١٨٢) ميزان الحِكْمة ، ج١٠ ، ص٥٣٢ بتصرّف في العبارة .

(١٨٣) مشكاة الأنوار ، ج٧٨ ، ص٣٣٩ .

من لا يعطي للموعود والوفاء بها أهمّية تذكر ، وهذا خلاف الأخلاق الكريمة ، وخلاف حسن التّعامل ، وهو أمر لا يرضي الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، لأنّه شرّ ، وتعرّض لمقت الله ، ومقت النّاس .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« العِدَةُ(*) دينٌ ، ويلٌ لمن وعد ثمّ أخلف ، ويلٌ لمن وعد ثمّ أخلف »(١٨٤) .

* * *

وعن إحترام الوعد وأهميّته ، رُوي أنّ رسول الله (ص) وعد رجلاً عند صخرة ، وقال له (ص) بما مضمونه : سأنتظرك هنا حتّى تأتي . ثمّ إنّ حرارة الشّمس إشتدّت على الرّسول ، فقال له بعض أصحابه بما معناه : لو أنّك انتقلت إلى الظّل تفادياً لحرارة الشّمس ، فقال (ص) : « وعدتُه إلى هاهنا وإن لم يجيء كان منه المحشر »(١٨٥) .

* * *

إنّ الوفاء بالوعد خلق حسن ، به تخلّقَ بأخلاق الله ، إذ من أخلاقه ـ جلّ وعلا ـ صدق الوعد ، وبه يُقدّر الشّخص الآخر ويحترم ، ويصان وقته . فالمرء إذا وفى بوعده مع شخصٍ آخر يكون قد قدّره وحفظ وقته وفرصه . أمّا خلف الوعد فيوحي بإساءة في التّقدير والإحترام ، وهو مدعاة إلى إضاعة أوقات الآخرين وفرصهم ، وربّما أدّى إلى إضاعة أوقات الذّات إذا كان الوعد يترتّب عليه عملٌ أو منفعة للمواعد .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« إذا وعدْتَ فأنجِزْ »(١٨٦) .

(*) العِدة : الوعد .

(١٨٤) كنز العمال ، خ٦٨٦٥ .

(١٨٥) الصياغة الجديدة ، ص٥١٧ ، بتصرف في العبّارة

(١٨٦) الغرر والدّرر . أنجز : أوفِ ، أتِم ، أكمِل .

وفي صدق الوعد وإنجازه ، روي « عن أبي عبدالله (الإمام الصّادق) عليه السّلام ، قال : إنّما سُمّي اسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة ، فسمّاه الله ـ عزّ وجل ـ صادق الوعد . ثمّ إنّ الرّجل أتاه بعد ذلك ، فقال له اسماعيل : ما زلت منتظراً لك »(١٨٧) .

* * *

والوعد إقرار بالإلتزام من قِبَل الواعد ، والأخير حرّ ، ولكنّه بالوعد والمواعدة يقيّد حرّيته بنوع من الإلتزام ، وبالوفاء بالوعد يرتفع ذلك القيد . ومن هنا فإنّ الواعد هو أشبه بالعبد الرّقيق إذا وعد ، وبإنجازه لوعده قد حرّر نفسه وأعتقها من ذلك الرّق . أو إنّه أشبه بالمريض ، وبرؤه من مرضه لا يتمّ إلاّ بإنجازه لوعده .

ولكي يجعل المرء من نفسه وفيّاً بوعده مع النّاس ، غير مخالفٍ له معهم ، خليق به أن يكون عارفاً بظرفه الموضوعي ، فليس من الصّحيح أن يعِدَ بدون تقدير لظرفه ، فلربّما كان الظّرف لا يسمح له بإنجاز الوعد . ومن هنا فالجدير بالمرء أن لا يعد وعداً لا يثق من نفسه أنه قادر على إتمامه وإنجازه ، أو أنه ليس باستطاعته الوفاء به .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« لا تعدنّ عِدةً لا تثق من نفسك بإنجازها »(١٨٨) .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

« لا تعدنّ أخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه »(١٨٩) .

نعم ، قد يعد الإنسان معتمداً على أنّ ظرفه يمكنه من الوفاء بوعده ، ثمّ أن ظرفاً طارئاً يعرض له يجعل من الوفاء بوعده أمراً صعباً أو مستحيلاً ، وهنا يكون معذوراً لأنّه لم يتعمّد خُلف الوعد ، وأنّ ما حدث من ظرفٍ خاصٍّ هو خارج عن نطاق إرادته ، وإن كان بإمكان الواعد ـ إذا كان ذلك متيسّراً ـ أن يعتذر

---

(١٨٧) بحار الأنوار ، ج٦٨ ، ص٥

(١٨٨) الغرر والدّرر .

(١٨٩) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٢٥٠ .

الموعود ، بأنّه غير قادرٍ على إنجاز الوعد ، ويلتمس التأجيل . ومن إحترام الوعود والموعودين : إخبار الشّخص الموعود بعدم القدرة على إنجاز الوعد ، وإلتماس التأجيل .

وعن القصة في الوفاء وعدمه ، تتطرّق الأحاديث الشّريفة ، إلى أنّ المرء إذا واعد أخاه على أمرٍ ، وكان قاصداً الوفاء له بالوعد ، ولكنّه لم يفِ بوعده ، ولم يأت للموعد ، فلا يكون مأثوماً . وأنّ خُلْفَ الوعد أن يَعِدَ المرءُ ومِنْ قصده أن لا يفي بوعده . ولا يعني هذا أن يتسيّب المرء في وعوده مع النّاس ، بل ينبغي عليه أن يحترم الوعود معهم .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« إذا وعد الرّجل أخاه ، ومن نيّته أن يفي له ، فلم يفِ ، ولم يجيء للميعاد فلا إثم عليه »[١٩٠] .

ويقول (ص) أيضاً :

« ليس الخلف أن يعد الرّجل ومن نيّته أن يفي ، ولكنّ الخلف أن يعد الرّجل ومن نيّته أن لا يفي »[١٩١] .

وبناءاً عليه ، فخلف الوعد مع عدم نيّة الوفاء به ، مصداق لقول ما لا يُفعل ، فالمرء حينما يعد ولا يفي ، يكون قد قال شيئاً ولم يفعله ، وهذا موجبٌ لمقت الله ومقت النّاس .

جاء في كتاب الإمام عليّ (ع) لمالك الأشتر لمّا ولّاه على مصر : .

« وإيّاك والمنّ على رعيّتك بإحسانك ، أو التزيّد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخُلفك ، فإنّ المنّ يُبطل الإحسان ، والتّزيّد يذهب بنور الحقّ ، والخُلْف يوجب المقت عند الله والنّاس ، قال الله تعالى : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾»[١٩٢] .

---

(١٩٠) كنز العمال ، خ٦٨٦٩ .

(١٩١) المصدر السابق ، ٦٨٧١ .

(١٩٢) نهج البلاغة ، رسالة ٥٣ ، التزيّد : الزيادة على الحقيقة ، أو تكلف الزيادة في الشي .

والوفاء بالوعد مطلوب في معاملة الكبير والصّغير ، فينبغي المرء أن لايخالف وعده مع الصّغار ـ كما مع الكبار ـ وأن يفي به لهم ، لأنّهم يستحقّون الوفاء لهم لصغرهم ، مع العلم بأنّ تعويد الصّغار على إخلاف الوعد من جانب آبائهم وأمّهاتهم ، يجعلهم غير أوفياء بالوعود والعهود حينما يكبروا .

يقول الإمام الكاظم (ع) :

« إذا وعدتم الصّغار فأوفوا لهم ، فإنّهم يرون أنّكم أنتم الذين ترزقونهم ، وأنّ الله لا يغضب بشيءٍ كغضبه للنساء والصِّبيان »[193] .

وكما ينبغي للمرء أن يفي بوعوده مع إخوانه والنّاس ، واجبه أن يفي بالعهود والمواثيق معهم ، لأنّ العهد قلادة تطوّق عنق الإنسان ، ولا فكاك من هذه القلادة إلّا بالوفاء بها . ولا يظنّ المرء أنّه بعدم إيفائه بعهده سينتهي كلّ شيء ، بل إنه تترتّب أمور غير محمودة على عدم وفائه بعهده مع النّاس . ولا شك أنّ العلاقة الإنسانيّة ـ وربّما المصلحة الإنسانيّة ـ تتضرّر بنقض العهود وعدم إحترامها والوفاء بها .

* * *

في قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها . . . ﴾ قال الإمام الباقر (ع) :

« التي نقضت غزلها امرأة من بني تيم بن مرّة يُقال لها ربطة (أو ريطة) بنت كعب بن سعد بن تيم بن لؤي بن غالب ، كانت حمقاء تغزل الشَّعر ، فإذا غزلته نقضتْه ثمّ عادتْ فغزلته ، فقال الله : ﴿ كالتي نقضت غزلها . . . ﴾ إنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أمر بالوفاء ، ونهى عن نقض العهد ، فضرب لهم مثلاً »[194] .

* * *

---

(193) بحار الأنوار ، ج104 ، ص73 .

(194) تفسير عليّ بن ابراهيم ، ج1 ، ص389 .

والوفاء للنّاس بالعهد واجب على الإنسان ، سواء كان الطّرف المعاهَد بَرّاً أو فاجراً ، خيّراً أو شرّيراً ، مسلماً أو كافراً .

يقول الامام الباقر (ع) :

« ثلاث لم يجعل الله ـ عزّ وجل ـ لأحدٍ فيهّن رخصة . . . والوفاء بالعهد للبرّ والفاجر . . . »[١٩٥] .

* * *

ومن القصص التي ينقلها التّاريخ عن الوفاء بالعهد ووجوبه مع المسلم أو الكافر ، القصص التّالية :

« خرج فضيل بن زيد الرّقاشي مع جنوده لمحاصرة قلعة تسمّى بـ (سهرياج) في أيّام عبدالله بن عامر بن كريز ، وقد سار إلى فارس فافتتحها ، وكان الجيش صمّم على أن يفتح القلعة في يوم واحد . يقول فضيل في ذلك : كنّا قد ضمنّا أن نفتحها في يومنا ، وقاتلنا أهلها ذات يوم ، فرجعنا إلى معسكرنا ، وتخلّف عبد مملوك منّا ، فراطنوه ، فكتب لهم أماناً ورمى به في سهم . قال : فرحنا إلى القتال وقد خرجوا من حصنهم ، وقالوا : هذا أمانكم .

« لم يكن إعطاء الأمان من مسلم إلى الكفّار بالأمر المستبعد في نظر الجيش ، ولكنهم شكّوا في كون الأمان صادر من العبد كالأمان الصّادر من الحرّ . فكتبنا بذلك إلى عمر (بن الخطّاب) ، فكتب إلينا : أنّ العبد المسلم من المسلمين ذمّته (عهده) كذمّتكم ، فلينفذ أمانه . . . فأنفذناه » .

وهكذا فإنّ الوفاء بالعهد واجب في الإسلام ، سواء في الحرب أو السِّلم ، كان العهد مع مسلم أو كافر .

* * *

وإذ أنّ الوفاء بالعهد في معاملة النّاس أمر واجب ، فهل يجب الوفاء به أيّاً كان وكيفما كان ؟

---

(١٩٥) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص٥٦ .

كلا ! بطبيعة الحال ، فللعهد كيفية معينة لكي يكون الوفاء به واجباً . وحدود تلك الكيفيّة أن يكون العهد موافقاً للحقّ وأن يكون في إطار الحلال ، وأن لا يحلّ حراماً أو يحرّم حلالاً . ومن هنا ففي معاملة النّاس لا يجوز الوفاء بالعهود الخارجة عن هذه الحدود ، إذ الوفاء بالعهود الخارجة عن هذه الحدود هو خلاف ما شرّع الله ، وخلاف الأخلاق الحسنة .

ومن العهود التي يجب على المرء المسلم الوفاء بها ، العقود[196] المشروعة التي يتعامل بها مع غيره من النّاس ، مثل : البيع ، والإجارة ، والزّواج ، والقرض ، والمزارعة ، والمساقاة ، والضّمان ، والحوالة ، والرّهن ، والوصيّة ، والشّركة ، والوديعة ، والعاريّة ، و . . . ، ويدخل ضمنها الشّروط التي يشترطها المرء لنفسه ، والشّروط التي يشترطها الطّرف الآخر للعقد ، فهذه الشروط يجب الوفاء بها ، إذ « المسلمون على شروطهم إلاّ شرطاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً » ، بمعنى أنّ المرء مسؤول عن أداء أو إلتزام الشّرط المشترط عليه ، والشّرط الذي يشترطه على نفسه في أيّ عقدٍ مشروع ، شريطة أن لا يكون الشّرط مُحِلاً لحرام ، أو محرِّماً لحلال .

* * *

وعن الوفاء بالعقود (العهود) كتب السيّد محمد حسين الطّباطبائي (ره) في تفسيره : (الميزان في تفسير القرآن) : .

« يدلّ الكتاب كما ترى من ظاهر قوله تعالى : « أوفوا بالعقود » على الأمر بالوفاء بالعقود ، وهو بظاهره عامّ ، يشمل كل ما يصدق عليه القصد عرفاً مما

---

(١٩٦) تنقسم العقود الى : لازمة ، وغير لازمة . واللازمة على ضربين : لازمة من طرف واحد ، ولازمة من طرفين . والعقد اللازم من طرف واحد هو الذي لايجوز فيه لأحد المتعاقدين فسخ العقد ، ومثاله : الرّهن ، والوصيّة . والعقد اللازم من طرفين هو الذي لايجوز فيه الفسخ لكل من المتعاقدين . ومثاله : البيع ، والإجارة ، والقرض . أمّا العقد غير اللازم ، فيدعى بالجائز أيضا ، وهو على نوعين : جائز من طرف واحد ، وجائز من طرفين . والعقد الجائز من طرف واحد هو الذي يجوز فيه لأحد المتعاقدين فسخ العقد ، ومثاله : الرّهن ، والوصية . والعقد الجائز من طرفين هو الذي يجوز فيه لكل من المتعاقدين فسخ العقد ، ومثاله : الوكالة ، والمضاربة ، والشركة ، و العاريّة . للإطلاع على تفاصيل العقود تراجع الكتب الفقهيّه ، والرسائل العمليّة : أقسام العقود .

يـلائم الـوفـاء. والعقـد هـو كـلّ فعـل أو قـولٍ يمثّـل معنى العقـد اللغوي، وهو نوع من ربط شيء بشيء آخر بحيث يلزمه ولا ينفكّ عنـه، كعقد البيع الذي هو ربط المبيع بالمشتري ملكاً، بحيث كان له أن يتصرّف فيه ما شاء، وليس للبائع بعد العقد ملكٌ ولا تصرّف. وكعقد النّكاح الذي يربط المرأة بالرّجل بحيث له أن يتمتّع منها تمتّع النّكاح، وليس للمرأة أن تمتّع غيره من نفسها. وكالعهد الذي يمكّن فيه العاهد المعهودَ له من نفسه في عهده، وليس له أن ينقضه »[197].

« وقد أكّد القرآن في الوفاء بالعقد والعهد بجميع معانيه، وفي جميع معانيه، وفي جميع مصاديقه، وشدّد فيه كلّ التّشديد، وذمّ النّاقضين للمواثيق ذمّاً بالغاً، وأوعدهم إيعاداً عنيفاً، ومدح الموفين بعهدهم إذا عاهدوا، في آيات كثيرة... »[198].

« وقد أرسلت الآيات القول فيه إرسالاً يدلّ على أنّ ذلك مما يناله النّاس بعقولهم الفطريّة، وهو كذلك. وليس ذلك إلّا لأنّ العهد والوفاء به ممّا لا غنى للإنسان في حياته عنه أبداً، والفرد والمجتمع في ذلك سِيّان. وإنّا لو تأملنا الحياة الإجتماعيّة التي للإنسان، وجدنا جميع المزايا التي نستفيد منها وجميع الحقوق الحيويّة الإجتماعيّة التي نطمئنّ إليها مبنيّةً على أساس العقد الإجتماعيّ العامّ والعقود والعهود الفرعيّة التي تترتب عليه، فلا نملك من أنفسنا للمجتمعين شيئاً، ولا نملك منهم شيئاً إلّا عن عقدٍ عمليّ وإن لم نأتِ بقول فإنّما القول لحاجة البيان. ولو صحّ للإنسان أن ينقض ما عقده وعهد به اختياراً لتمكّنه منه بقوّة أو سلطة أو بطشٍ أو لعذرٍ يعتذر به، كان أوّل ما انتقض بنقضه هو العدل الإجتماعيّ، وهو الرّكن الذي يلوذ به ويأوي إليه الإنسان من أسارة الإستخدام والإستثمار »[199].

« ولذلك أكدّ الله ـ سبحانه ـ في حفظ العهد والوفاء به، قال تعالى:

---

(١٩٧) ج٥، ص١٥٨.

(١٩٨) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٩٩) المصدر السابق، ص١٥٩.

﴿ وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً ﴾ (الإسراء : ٣٤) ، والآية تشمل العهد الفرديّ الذي يعاهد به الفردُ الفردَ مثل غالب الآيات المادحة للوفاء بالعهد والذّامة لنقضه ، كما تشمل العهد الإجتماعيّ الدّائر بين قوم وقوم وأمّة وأمّة ، بل الوفاء به في نظر الدّين أهم منه بالعهد الفرديّ لأنّ العدل عنده أتمّ والبليّة في نقضه أعمّ »[٢٠٠] .

وكتب في موضع آخر :

« وجملة الأمر أنّ الإسلام يرى حرمة العهد ووجوب الوفاء به على الإطلاق ، سواء انتفع به العهد أو تضرّر بعد ما أوثق الميثاق ، فإنّ رعاية جانب العدل الإجتماعيّ ألزم وأوجب من رعاية أيّ نفعٍ خاص أو شخصيّ ، إلّا أن ينقض أحد المتعاهدين عهده فللمتعاهد الآخر نقضه بمثل ما نقضه والإعتداء عليه بمثل ما إعتدى عليه ، فإنّ في ذلك خروجاً عن رِقّيَة الإستخدام والإستعلاء المذمومة التي ما نهض ناهض الدّين إلّا لإماطتها »[٢٠١] .

« ولعمري ! أنّ ذلك أحد التّعاليم العالية التي أتى بها دين الإسلام ، لهداية النّاس إلى رعاية الفطرة الإنسانيّة في حكمها ، والتّحفظ على العدل الإجتماعيّ الذي لا ينتظم سلك الإجتماع الإنسانيّ إلّا على أساسه ، وإماطة مظلمة الإستخدام والإستثمار ، وقد صرّح به الكتاب العزيز ، وسار به النّبي (صلى الله عليه وآله وسلّم) في سيرته الشّريفة . . . »[٢٠٢] .

« وإذا قايستَ بين ما جرت عليه سنّة الإسلام من إحترام العهد ، وما جرت عليه سنّة الأمم المتمدّنة وغير المتمدّنة ، ولا سيّما ما نسمعه ونشاهده كلّ يوم من معاملة الأمم القويّة مع الضّعيفة في معاهداتهم ومعاقداتهم وحفظها لها ما درّت لهم أو استوجبته مصالح دولتهم ونقضها ما يُسمّى عذراً ، وجدت الفرق بين السُّنّتين في رعاية الحقّ وخدمة الحقيقة »[٢٠٣] .

---

(٢٠٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢٠١) المصدر السابق ، ص١٦٠ .

(٢٠٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢٠٣) المصدر السابق ، ص١٦١ .

« ومن الحريّ بالدّين ذاك وبسننهم ذلك ، فإنّما هناك منطقان : منطق القول : إنّ الحقّ تجب رعايته كيفما كان وفي رعايته منافع المجتمع ، ومنطق يقول : إنّ منافع الأمّة تجب رعايتها بأيّ وسيلة اتّفقت وإن دحضت الحقّ . وأوّل المنطقين منطق الدِّين ، وثانيهما منطق جميع السّنن الإجتماعيّة الهمجيّة أو المتمدّنة من السّنن الإستبداديّة والدّيموقراطية والشّيوعية وغيرها . وقد عرفتَ مع ذلك أنّ الإسلام في عزيمته في ذلك لا يقتصر على العهد المصطلح بل يعمّ حكمه إلى كلّ ما بُني عليه بناء ، ويوصي برعايته . . . »[204] .

* * *

والآن فلكي يُحسن المرء معاملة النّاس خليق به أن يفي بوعوده لهم ، وواجبه أن يفي بوعوده وعقوده ومواثيقه المحقّة التي أبرمها معهم ، مع التّحلي بالأخلاق الحسنة في ذلك .

(٢٠٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

إحترام قيمة الانسان

قال تعالى :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثير ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾[٢٠٥] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم » ، قيل : يا رسول الله ! ولا الملائكة ؟! قال : « الملائكة مجبورون بمنزلة الشّمس والقمر »[٢٠٦] .

وقال الإمام الباقر (ع) :

« ما خلق الله ـ عزّ وجل ـ خلقاً أكرم على الله ـ عزّ وجل ـ من مؤمن لأنّ الملائكة خدّام المؤمنين . . . »[٢٠٧] .

وقال الامام علي (ع) :

« قيمة كلّ امريء ما يُحسن »[٢٠٨] .

---

(٢٠٥) ٧٠ / الاسراء .

(٢٠٦) كنز العمال ، خ٣٤٦٢١ .

(٢٠٧) بحار الأنوار ، ج٦٩ ، ص١٩ .

(٢٠٨) نهج البلاغة ، الحِكم .

قيل أن بهلول العاقل أراد ذات مرّة أن يدخل في وليمةٍ أقامها أحد الأشخاص ، وكان بهلول يرتدي ملابس رثّة ، فلم يسمح له أصحاب البيت بالدّخول ، فذهب إلى بيته ولبس جبّةً من خزٍّ ، ووضع على رأسه عمامة ثمينة ، وعاد إلى حيث الوليمة ، فانزاح الحاضرون عنه ، وجلس إلى السّفرة . وحينما جاء وقت الأكل مدّ كُمَّهُ إلى الطّعام بدل يده ، فالتفت الحاضرون ، وقالوا له : أنت مجنون ، وما الذي تفعله ؟! . فقال : لقد جئت بثياب رثّةٍ ، وعلى كلّ حال فإنّ بطني هو الذي يأكل وليست ملابسي ، فلم يسمحوا لي بالدّخول ، وعندما لبست الجُبّة والعمامة سمحوا لي به ، فعلى الجُبّة أن تأكل ! »[٢٠٩] .

* * *

في معاملة النّاس كيف يجب أن ينظر الإنسان لأخيه الانسان ؟

هل ينظر له بأنّه مخلوق عاديّ كسائر المخلوقات ، أم ينظر له بأنّه مخلوق مكرّم على سائرها ؟

هل ينظر له بأنّه ذو قيمة صغيرة ، أم ينظر له بأنّه أغلى ما على وجه الأرض ؟

بلا أدنى تردد - بل بديهةً - أنّ الإنسان أعظم مخلوق على وجه المعمورة ، وهو مكرّم على كلّ المخلوقات ومفضّل عليها ، بمنطق القرآن الكريم والسّنة الشريفة ، وبمنطق العقل . بل حتّى الملائكة الذين هم مخلوقات روحيّة خالصة ، وطاعتهم مطلقة لله - عزّ وجل - « يفعلون مايؤمرون» ، الإنسان أفضل منهم ، لأنّهم مجبورون على الطّاعة ، بينما الإنسان يمتلك مساحةً من الإختيار ، ولأنّهم عقل بلا شهوة ، بينما الإنسان مركّب من كلتيهما معاً .

جاء في الرّوايات عن الإمام الصّادق (ع) أنّه قال :

« لمّا أُسري برسول الله (صلى الله عليه وآله) حضرت الصّلاة ، فأذّن وأقام جبرئيل ، فقال : يا محمد ، تقدّم ، فقال رسول الله : تقدّم يا جبرئيل ، فقال

(٢٠٩) هادي المدرسي : ألف عبرة وعِبرة (مخطوط) .

له : إنّا لا نتقدّم الآدميّين منذ أُمرنا بالسّجود لآدم عليه السّلام »[٢١٠] .

وإذ أنّ الإنسان مكرّم على سائر المخلوقات ، وأفضل من الملائكة أليس جديراً في التّعامل معه أن تُحترم قيمته ، وتصان حقوقه ؟

إنّ إحترام قيمة الإنسان وكرامته هو الخلق الذي يجب على الإنسان أن يلتزمه في علاقته وتعامله مع أخيه الإنسان . وقد يسأل السّائل : كيف يتمّ ذلك ؟ إنّ ذلك يتمّ - في المقام الأوّل - بالنظر إلى إنسانيّة الإنسان وبشريّته ، ثمّ بإستعمال العدالة في التّعامل معه ، وصيانة حقوقه ، وممارسة الأخلاق في العلاقة به .

ومع أنّ إحترام قيمة الإنسان قائم على هذا ، فالمؤلم أنّ من النّاس من يتعامل مع النّاس كمراتب ودرجات ومناصب قبل أن يتعامل معهم كأناسيّ - أو كبشر - يجب أن تُحترم قيمتهم الإنسانيّة ، بصرف النّظر عن درجتهم أو منصبهم . وتجد أولئك يتعاملون مع الإنسان كطبيب ، أو محامي ، أو وزير ، أو مهندس ، أو مدير ، أو كاتب ، أو شاعر ، أو . . . ، قبل أن يتعاملوا مع إنسانيّته ، وكأنّهم يحترمون الدّرجة ولا يحترمون الإنسانيّة وقيمتها . وتجدهم أيضاً يتعاملون مع الطّبقات الضّعيفة في المجتمع - كالفقراء والمساكين والمحرومين - على أنّهم أناسيّ من الدّرجة بعد الأولى ، فينظرون إليهم نظرة فوقٍ إلى دون ، أو نظرة كبيرٍ إلى صغير ، وينسون أن هؤلاء بشر محترمون قبل أن يكونوا فقراء أو مساكين أو محرومين . وهذه الطّريقة من التّعامل مذمومة ، وخاطئة .

كما أنّ من إحترام قيمة الإنسان : تقدير حرفته ومهنته ووظيفته ، وتجنّب النّظر إليها نظرة تحقير . فالمرء مهما كانت حرفته ، فطالما أنّها محقّة وخيّرة ، فهو بها يقدّم دوراً إجتماعيّاً تكميليّاً لا غنى عنه في عملية البناء الإجتماعيّ ، أو في العمليّة الإجتماعيّة بشكل عامّ . ولا اقتل لروح المرء ، ولا آلم لمشاعره كتحقير مهنته ، أو إعتبارها بغير ذات أهميّة ! إنّ من النّاس من لا يقدّر حِرف النّاس ومهنتهم ، وينظر لها نظرة تحقير وتصغير ويستهين بها ، فهو ينظر إلى الوظائف الكبيرة أو العليا - إن صحّ التّعبير - محترمة ، وسواها ليست كذلك . وبناء عليه فهو لا يرى أنّ

---

(٢١٠) بحار الأنوار ، ج١٨ ، ص٤٠٤ .

ساعي البريد ، وعامل البلديّة والتنظيفات ، وعامل الحفريّات ، وفرّاش المدرسة أو المؤسسة ، ومقدّم القهوة والشّاي ، وسائق سيّارة الأجرة أو الحافلة ، والحدّاد ، والنّجار ، والخبّاز ، وغيرهم يقومون بأدوار إجتماعيّة ! ، ويتعامل مع أصحاب هذه المهن والوظائف على أنّهم ذوو مكانة أقلّ من غيرهم من أصحاب المهن والوظائف الأكبر ، وينسى أنّهم بشر يجب إحترام قيمتهم ، وتقدير وظائفهم ، وهذا خلاف ما أمر الله ، وخلاف الأخلاق وحسن معاملة النّاس .

ومن النّاس من يقيّم النّاس بناءً على ما يملكونه من مال أو ما يرتدونه من أجواقٍ وجُبَب وملابس ، وتكون قيمة الإنسان بنظرهم بما يضعه على جسده من لباس لا بإنسانيّته وبشريّته ، فإذا كان اللباس فاخراً كانت المعاملة بالإحترام والتقدير ، وإن كان متواضعاً ، أو رثّاً ، طار الإحترام والتّقدير من المعاملة ، كما مرّ في قصّة بهلول العاقل ، وهذا ليس من حسن معاملة النّاس في شيء أيضاً .

صحيح أنّ المظهر اللائق للإنسان مطلوب في التّعامل مع النّاس ، وصحيح - أيضاً - أن حجم الوظيفة والدّور الذي يقدّمه الإنسان للإجتماع ، وأنّ العلم والمعرفة والثقافة مقدّرة وأن المعرفة وفعل الحسن هي من مقاييس قيمة الإنسان ، ومع هذا فإنّ التّقدير - في المقام الأوّل - يجب أن يتوجّه إلى إنسانيّة الإنسان لحفظها وصيانتها .

إنّ المرء ليجد في كثير من البلاد استصغاراً لقيمة الإنسان ، حيث يُعامل وكأنّه لا إنسان ، ويُمنع من أبسط حقوقه(*) . ومن الأمثلة البسيطة : قد يريد العبور من خطوط المشاة في إحدى التّقاطعات في الوقت المسموح له بذلك ، فلا يُعطى فرصة ، وقد يُصدم أو يُدهس من سيّارة عابرة ، ويكون التّعامل معه كالتّعامل مع اسفلت الشّارع ، أليست هذه إساءة كبرى لإنسانيّة الإنسان ؟ وأليس الشّارع والسّيارة هما من أجل خدمة الإنسان وقيمته ؟ وهل الرقيّ والحضارة يدعوان إلى

(*) جدير بالاشارة ، أن خُروق وانتهاكات حقوق الإنسان التي يمارسها الجائرون بحقّ الإنسان بسبب مطالبته بحقوقه أو دفاعه عنها ، هي صورة من صور عدم احترام قيمته وانسانيته ، و اساءة لها . ومن هنا فمن حسن معاملة السلطان لرعيته ، أن يحترم انسانيتهم ، ويصون حقوقهم ، وأن يتوسل بالرفق والرحمة بهم .

استصغار قيمة الإنسان ، أم أنّ هذا من علائم التّخلف والتّداعي الحضاري ؟! أليست الإستهانة بإنسانيّة الإنسان وقيمته هي أمر خلاف الرّقيّ والحضارة ؟!

فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، عليه ان يحترم قيمتهم وانسانيّتهم ، بما للإحترام من معانٍ .

شكر الناس على احسانهم

قال الإمام عليّ (ع) :

« من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق »[211] .

وقال الإمام عليّ بن الحسين (ع) :

« أشكَرُكُم لله أشكَرُكُم الناس »[212] .

*

في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان هناك حاجة ضروريّة إلى الإحسان المتبادل ، أو المعروف أو الإنعام .

فكيف يكون التّعامل مع من يفعل الإحسان ؟

هل يكفّر إحسانه أو يشكر عليه ؟

بناءً على ضرورة إحترام الإنسان وقيمته ، لا شكّ أنّ كفر الإحسان والمعروف والإنعام الذي يقوم به النّاس هو خلق سيّء في التّعامل معهم ، لأن كفر معروفهم هو كفر بنعم الله في المحصّلة ، واساءة تقدير للإنسان الذي هو مكرّم عند الله سبحانه . أمّا شكر الإحسان والمعروف والإنعام الذي يقوم به النّاس فهو الخلق

---

(٢١١) الغرر والدّرر .

(٢١٢) بحار الأنوار ، ج٧١ ، ص٣٨ .

الحسن في معاملتهم ، لأنّ فيه شكر لله على نعمه ، وشكر للإنسان الذي هو في المحصّلة شكر لله تعالى ، ولهذا فمن لم يشكر الآخرين على إنعامهم وإجاداتهم ، لم يشكر خالقهم في حقيقة الأمر ، إذ من مقاييس شكر الإنسان لله : شكره للنّاس . أفليس المحسنون من النّاس جديرين بالشّكر ؟

وربّ سائل يسأل : وهل هناك من داعٍ لشكر الشّخص الآخر ، أو الطّرف الآخر على إحسانه أو إنعامه أو معروفه أو إجادته ؟

وتكون الإجابة على ذلك بالسؤال الآتي :

أفليس من حقّ المنعِم ، أو ذي المعروف أن يُشكر ويُذكر معروفه ؟

إنّ شكر المنعم أو صانع المعروف حقّ على من أَنعم عليه أو من صَنع المعروف له ، ومن شأن الحقّ أن يصان لصاحبه . كما أنّ شكر صاحب المعروف تقدير له وتكريم ، وإضافة إلى ذلك فإنّ شكره يجعله يشعر بالسّعادة ، وبالمتعة المعنويّة ، ويجعله متشجّعاً منطلقاً في صنع الخير والمعروف . والكلّ منا يدرك الشّعور الحسن في نفسه حينما يتلقّى كلمة شكر من شخص آخر ، أو من جهة أخرى . أليس كذلك ؟

وإذ أنّ المرء يشعر بالمتعة المعنويّة حينما يتلقّى الشّكر من الآخرين ، أليس خليقاً به أن يشكرهم حينما ينعمون عليه أو يصنعون الخير والمعروف له لكي يكونوا مقدِّرين شاعرين بالسّعادة والمتعة ؟

يقول الإمام عليّ بن الحسين (ع) في هذا الصّدد :

« أمّا حقّ ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه ، وتكسبه المقالة الحسنة ، وتخلص له الدّعاء فيما بينك وبين الله ـ عزّ وجل ـ فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سرّاً وعلانيّة ، ثمّ إن قدرت على مكافأته يوما كافأته »[٢١٣] .

وقد يستنكف الإنسان من تقديم الشكر لفاعل المعروف له ، مستصعباً ، ولكنّه سهل ما أسهله ! وهل هناك صعوبة في أن يقول المرء لمن أنعم عليه : شكراً

---

(٢١٣) المصدر السابق ، ص٧ .

لك على هذا الصّنيع الذي قمتَ به لي ، أو أشكرك على ذلك ، أو ما شابه ذلك من العبارات التي تفيد تقديم الشّكر ؟ وأليس اللؤم أن لا يشكر المنعَمُ عليه ، المنعِمَ وصاحب المعروف ؟!

يقول الإمام الحسن (ع) :

« اللؤم أن لا تشكر النّعمة »[٢١٤] .

والشكر جزاء دنيويّ لصنع المعروف ، وتعبير عن النيّة الصّادقة في معاملة النّاس وتقدير ما يصنعونه من معروف ، وأقلّ منه حسن الثّناء ، وأقلّ من حسن الثّناء معرفة العمل أو المعروف أو النّعمة وحبّ صاحبها . فإذا حدث أن قصّر المرء في المكافأة ، فعليه أن يثني على المنعِم ثناءاً حسناً ، وإن لم « يجشّم » لسانه ذلك فعليه أن يعرف النّعمة ويقدّرها ويحبّ المنعِم . أمّا إذا قصّر عن هذا فهو ليس خليقاً بالنّعمة لأنّه كافِر بها مكفِّر لصاحبها .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« حقّ على من أُنعِم عليه أن يُحسن مكافأة المنعِم ، فإن قصر عن ذلك وسعه ، فعليه أن يحسن الثّناء ، فإن كَلَّ عن ذلك لسانه فعليه معرفة النّعمة ومحبّة المنعِم بها ، فإن قصر عن ذلك فليس للنّعمة بأهل »[٢١٥] .

وفي الوقت الذي على المرء أن يشكر النّاس على صنعهم للمعروف ، عليه أن يعلم أن الشكر يكون مع الإستحقاق ، وأنْ ليس من الصّحيح وضع الشّكر في غير موضعه ، كأنْ يشكر من لا يقوم بالإحسان . إنّ الشكر جزاء لمن قام بالمعروف والإحسان ، أمّا ذلك الذي لم يصنعهما فلا داعي لشكره بطبيعة الحال . بل إن شكر الشّخص الآخر على معروف لم يفعله قد يحدث خللاً في شخصيته ، بأن يتعوّد على إنتظار الشكر من الآخرين في مقابل لا شيء من المعروف يقوم به ، الأمر الذي يميّع شخصيته ، ويجعله من الذين قال عنهم القرآن الكريم :

---

(٢١٤) المصدر السابق ، ج٧٨ ، ص١٠٥ .

(٢١٥) المصدر السابق ، ج٧١ ، ص٥٠ .

﴿ ويحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ﴾[٢١٦] .

يقول الإمام علي (ع) :

« من شكر على غير إحسان ذمّ على غير إساءة »[٢١٧] .

وكما ينبغي للمرء أن يشكر الآخرين على مايفعلونه من معروف ، عليهم أن لا يزهدوا في فعل المعروف فيما إذا لم يقدّم لهم الشّكر ، وأن يوطّنوا أنفسهم على الإستمرار في فعل الخيرات للنّاس حتىّ وإن لم يُشكروا .

وفي هذا الشأن يقول الإمام عليّ (ع) :

« لا يزهدنّك في المعروف من لا يشكره لك ، فقد يشكرك عليه من لا يستمتع بشيء منه ، وقد تدرك من شكر الشّاكر أكثر مما أضاع الكافر ، والله يحبّ المحسنين »[٢١٨] .

وهكذا فإنّ كلمة الشّكر لا تكلّف شيئاً ، وتعود بالخير على الشّاكر والمشكور ، بل وتجعل المشكور واثقاً من نفسه أكثر ، مندفعاً لفعل الخير والمعروف والإحسان ، فلكي يحسن المرء معاملة النّاس خليق به ان يشكرهم ـ مع الإستحقاق ـ على ما يحسنون ، وأن يكون الشّكر مع شرط الإستحقاق رفيقة في منزله : في تعامله مع والديه ، وزوجته ، وأولاده ، وأقاربه ، وفي عمله ، وفي تعامله مع أصدقائه والنّاس عامّةً .

---

(٢١٦) ١٨٨ / آل عمران .

(٢١٧) الغرر والدّرر .

(٢١٨) نهج البلاغة ، تنظيم صبحي الصالح ، ص٥٠٥ ..

الموافقة العقلائية مع الناس

قال الإمام عليّ (ع) :

« ليس مع الإختلاف إئتلاف »[219] .

*

في تعامل المرء مع النّاس ، هل عليه أن يخالفهم ، أم يوافقهم ؟

وإذا كانت الموافقة معهم هي المطلوبة ، فكيف يجب أن تكون ؟

وهل من الصّحيح ، موافقة النّاس بشكلٍ مطلق ، أم أنّ للموافقة حدود تجب مراعاتها ؟

بديهة أنّ إجتماع النّاس وائتلافهم يقوم على الموافقة فيما بينهم ، فمن طبع النّاس أنّهم يتآلفون ويأتلفون مع من يوافقهم ، في شتّى المعاملات ، ويحبّونه . أمّا الإختلاف(*) فهو - بشكل عام - موجب للإضرار بإئتلافهم ، وربما بحالة الحبّ فيما بينهم ، وربّما أكثر من ذلك . ومن هنا فكثرة الموافقة معهم من الأمور التي تسهّل للمرء تعامله معهم ، والدّخول إلى قلوبهم .

إنّ من النّاس من يتوسّل بالموافقة مع النّاس ، فيتسامح عن العثرات ، ويعفو

---

(219) الغرر والدّرر .

(*) تثير مفردة الإختلاف كثيراً من الأمور والقضايا ، الّا أن المقصود هنا ترك الاختلاف الذي يسيء الى التعامل الخلقي بين الناس .

عن الزّلات ، ويتجنّب الجدال العقيم في سبيل أن يحافظ على حسن التّعامل معهم ، بإعتبار أنّ هناك كثيراً من الأخطاء والزّلات والعثرات - وخصوصاً الجزئيّة - من الأفضل التّسامح فيها للحفاظ على معاملة حسنة معهم . ومن النّاس من يعش حالة توتّر دائم مع النّاس ، ولا يعرف للموافقة معنى ، ومؤشّره يكون متّجهاً - بشكل دائم - نحو اللاموافقة والزّوايا الحادّة ، والتّوتر في معاملتهم ، والدّخول في إختلافات معهم حتّى بسبب أبسط الأشياء ، ولا يعطي للعفو والصّفح والتّسامح والتّنازل إهتماماً ، وبذلك تسوء معاملته لهم ، وتنعكس آثار ذلك - سلباً - عليه وعليهم ، وتمسي حياته أشبه بسفينة في بحرٍ مضطرب .

إنّ من حسن معاملة النّاس موافقتهم ، إلّا أنّ هذه الموافقة يجب أن تتحقق فيها صفة العقلائية ، فليس من الصّحيح أن يوافقهم المرء - بصورة مطلقة - على كل فعلٍ يقومون به في سبيل أن يكون مؤتلفاً معهم ، لأنّ من أفعالهم ما هو خلاف الحقّ والخير والصّلاح والفضيلة ، وليس من الشرع والعقل موافقتهم على ذلك، لأنّ في موافقتهم وقوع في الباطل والشّر والرّذيلة أو تشجيع لها . صحيح أنّ المرء بإمكانه أن يعفو ويتسامح عن العثرات والأخطاء ، التي يرتكبها النّاس بحقه ، أمّا أن يوافقهم على ما هو خلاف الدّين والعقل وعلى ما يحلّ حراماً أو يحرّم حلالاً ، في سبيل أن يأتلف معهم فليس جائزاً ولا صحيحاً .

وهذا يقود إلى التّذكير بما يُعرف بالتّوافق الإجتماعيّ(*) ، فأن يتوافق الإنسان إجتماعيّاً مع قرناء صالحين ، أو مع محيط صالح أو بيئة صالحة ، هذا أمر حسن . أمّا أن يتوافق إجتماعيّاً مع قرناء سيّئين ، أو محيط طالح ، أوبيئة طالحة فليس

(*) التوافق الاجتماعي : هو موافقة الفرد - جزئياً أو كلياً - المحيط أو السلوك . وهو حالة اجتماعية تنشأ عن الاتصال بمحيط ، أو الخضوع لنمط معين من التربية . ومن هنا فالتربية و البيئة (المحيط) علاقة وطيده بالتوافق الاجتماعي ، فاذا صلحا ، صلح الفرد ، وخلاف ذلك صحيح تماما . وقد يحدث أن يتلقى الفرد تربية صالحة ، ويتصل بمحيط طالح ، أو العكس ، وهنا يقع الفرد في نوع من الصراع ، يحسم في النهاية الى أحد الجانبين ، مع العلم بأن الجانب الأقوى هو المرشح لكسب الصراع ، ومع العلم أيضاً بأن البيئة والتربية تترك آثارها الثقافية والسلوكية على الفرد . واصلاح الفرد هو بحاجة الى تربية صالحة ، وتفاعل مع المحيط الصالح ، وموقف من المحيط الطالح ، وحصانة ضد تأثيراته .

صحيحاً ولا جائزاً ، ويشكّل خطراً عليه ، وعلى الإجتماع .

* * *

وهكذا فإنّ الموافقة الواعية أو العقلائيّة ضرورة يحتاجها المرء في معاملته النّاس : سواء في منزله : في تعامله مع أهله وأقاربه ، أو في أي مكان آخر ، فلكي يحسن معاملتهم ، ويكسب ودّهم ، ينبغي له أن يتوسّل بكثرة الموافقة ، وأن تكون موافقته عُقلائيّة .

يقول المثل الشّهير :

« لولا الوئام(*) لهلك الأنام » .

(*) الوِئام : الموافقة . أي لولا موافقة الناس بعضهم بعضاً في الصحبة والمعاشرة لكانت الهلكة . المنجد في اللغة ، فرائد الأدب في الأمثال السائرة عند العرب ، ص١٠١٢ .

التبين والأناة في اتخاذ المواقف من الناس

قال الإمام عليّ (ع) :

« العجل يوجب العثار »[٢٢٠] .

وقال (ع) أيضاً :

« الزّلل من العجل »[٢٢١] .

وقال الإمام الباقر (ع) :

« الأناة من الله والعجلة من الشّيطان »[٢٢٢] .

وقال الإمام الصّادق (ع) :

« مع التّثبّت تكون السّلامة ، ومع العجلة تكون النّدامة »[٢٢٣] .

*

من الصّفات التي تكاد تكون موجودة أو مغروزة في كلّ إنسان ، ومورد إبتلاء بها من قِبَل جميع النّاس : العجلة ، او التّسرع . فالإنسان كما يعبّر عنه القرآن

(٢٢٠) الغرر والدّرر .
(٢٢١) المصدر السابق .
(٢٢٢) بحار الانوار ، ج٧١ ، ص٣٤٠ .
(٢٢٣) المصدر السابق ، ص٣٣٨ .

الكريم بأنّه خُلق من عجل ، أو أنّه كان عجولا .

ومع أنّ الله - سبحانه وتعالى - فطر الإنسان على هذا النّحو ، فقد أعطاه ومنحه إمكانيّة التّأنيّ والتّؤدة والتّأمل والتّعرف قبل ممارسة الأعمال قصداً أو موقفاً، أو فكراً أو قولاً ، أو فعلاً لكي يحرز الصّواب والحقيقة ، ويبتعد عن الزّلل والوهم .

ومن الأعمال أو الممارسات التي تستلزم من المرء التّبينّ والأناة : إتّخاذ المواقف من النّاس ، والمواقف منهم هي تلك الأفعال أو - إن صحّ التّعبير - ردود الأفعال التي يتّخذها من الأعمال والممارسات التي تصدر منهم وتكون ذات إرتباط به بشكل مباشر أو غير مباشر .

والمواقف من النّاس يمكن القول أنّها على نوعين : إيجابيّة ، وسلبيّة . فالأولى هي المواقف التي توافق النّاس على ما يصدر منهم من أفعال ، والثّانية هي التي لا توافقهم على ما يصدر منهم . وكما على المرء أن يكون متأنّياً في إتّخاذ المواقف الإيجابيّة من النّاس ، عليه أيضاً أن يكون متأنّياً في إتّخاذ المواقف السّلبيّة منهم ، خصوصاً وأنّ هذه الأخيرة قد تؤثم متّخذها ، وقد تجلب المضرّة للطّرف الآخر ، والأمر الذي يتطلّب من المرء التبينّ والتّأمل والتّعرف والإستقصاء قبل إتّخاذها .

وتنقسم المواقف المنفيّة من النّاس - كما المثبتة - إلى : قلبيّة (أو داخليّة) ، وقوليّة ، وفعليّة (خارجيّة) . ومثال القلبيّة : سوء الظّن بالنّاس ، وحسدهم ، و . . . ومثال القوليّة : إيذاء النّاس باللسان ، وتهمتهم ، وإغتيابهم ، والنّميمة عليهم ، والسعاية بهم ، وجرح مشاعرهم بالكلمات الجارحة والنّابيّة ، و . . . ومثال الفعليّة : الإعتداء على النّاس بالضّرب ، وبارتكاب الجرائم بحقّهم ، وكلّ هذه المواقف قد تأتي نتيجة للعجالة والتّسرع وانعدام الأناة والتّؤدة .

* * *

وعن التّسرع والعجالة في إتّخاذ الموقف من الشّخص الآخر، والآثار المترتّبة على ذلك ، كتبت إحدى المجلات : « أنّ رجلاً متهوّراً دخل داره ، وفقد في الدّار

زوجته ، فأساء بهاالظّن ، وأخذ يفتّش في أثاثها ، وإذا به يجد في بعض أثاثها رسالة غراميّة موجّهة من رجل ، فتيقّن أنّ لزوجته اتّصالاً غير مشروع بصاحب الرّسالة ، فهيّأ لها آلةً قتّالة ، وبمجرّد أن جاءت حمل عليها بتلك الآلة القتّالة وقتلها ، وهي تستغيث وتسأل عن السّبب ، لكنّه قد ركبه الشّيطان ، فلم يمهلها ولم يستنطقها . ثمّ أخبر الرّجل أهل الزّوجة بأنّها كانت سيّئة ، ولذا قتلها .

« وبعد يوم جاء الرّجل إلى الرّسالة الغراميّة ، ليرى تفصيل ما فيها ، وإذا به يُفاجأ بأنّ الرسّالة موجّهة إلى فتاة إسمها (فلانة) وليست موجّهة إلى زوجته . وقرأ الرّجل الرّسالة والعنوان مرّة ثانية وثالثة ، حتّى تيقّن أنّ الرّسالة والعنوان ليست لزوجته . ثمّ أخذ يفحص عن الفتاة التي وجّهت إليها الرّسالة ، فعلم أنّها صديقة لزوجته ، وأنّها جاءت بالرّسالة إلى زوجته لتودعها عندها ، كما كانت عادتها أن تودع عندها رسائلها ونقودها وثيابها لأنّها جارة لهم ، وتذكّر أنّ زوجته لا تقرأ ولا تكتب ، فندم على فعلته ولّما ينفعه النّدم .

« ولم تمض من الحادث إلّا أيّام قلائل ، وإذا بالرّجل يُفاجأ بألم في موضع من ذراع يمناه ، وأخذ الألم يشتدّ ويشتدّ ، وراجع الأطبّاء ، وكلّما عالجوه لم ينفع . وأخيراً قرّروا إجراء عمليّة جراحيّة على نفس الموضع ، مع أنّه لم يكن فيه أثر من إحمرار أو ورم وما شابه ، وأجروا العمليّة ، وقطعوا قطعة لحم من مكان الوجع ، لكنّ الألم لم يزل ، وبقي في المستشفى إلى أن نبت اللحم الصّالح ، لكنّ الألم بقي على حاله في كمال الشدّة ، ممّا سلبه استقراره ، وأطار النّوم في الليل عن عينيه .

« وأخيراً أشار عليه بعض الأطبّاء بمراجعة أطبّاء النّفس ، قالوا : لعلّه مرض نفسيّ لا جسديّ . وبعد أن راجع طبيباً نفسيّاً ، واستنطقه الطّبيب عن كلّ ما إقترفه في حياته ، تذكّر أنّه لما قتل زوجته ترشّح من دمها نقطة فأصابت هذا الموضع من اليد . فقال له الطّبيب : إنّه عقاب الله (سبحانه) ، ولا علاج لك عندنا . وهكذا خرج من عند طبيب النّفس يجرّ أذيال الخيبة والخسران »[٢٢٤] .

(٢٢٤) الامام الشيرازي : العدل أساس الملك ، ص٤٦ ـ ٤٨ مع بعض التصرف في العبارة .

إنّ العجلة والتّسرع كما يؤدّيان إلى الوقوع في الزّلات والأخطاء في الفكر والتفكير والعمل ، يؤديّان أيضاً إلى الوقوع في العثار والزّلل والخطأعلى صعيد التّعامل مع النّاس . فربّ موقفٍ مستعجل يتخذه امرؤ من شخصٍ آخر ، يتبيّن له فيما بعد خطأ هذا الموقف . وكم من إنسانٍ تعجّل إساءة الظّن بشخص آخر ثمّ تبيّن له أنّ ظنّه لا يلامس الحقيقة ! . وكم من امرىءٍ تعجّل في إطلاق حكم على شخصٍ آخر ، ثمّ انكشف له فيما بعد أنّ حكمه خاطىء ، وفي غير موقعه ! .

* * *

وفي هذا الشّأن يقول أحد الكتّاب :

كنت في إحدى البلاد ، فسافر أحد أقاربي إليّ من أجل زيارتي برفقة زوجته . وذات يوم قامت زوجته بزيارة إحدى صديقاتها ، فطلب زوج هذه الأخيرة من زوجة قريبي المسافر ان يحضر الأخير لزيارته . وقالت زوجة الدّاعي لزوجة القريب المسافر : هل قال فلان (يقصد الكاتب) لزوجك شيئاً ؟ فما كان من الكاتب إلّا أن تعجّل في الظّن ، فسّر السّؤال والقول فيه بأمور أخرى . ولمّا استوضح الأمر تبيّن أنّ الدّاعي لم يكن يقصد من سؤاله إلّا وجه الخير ، وبذلك أوقعت العجلة الكاتبَ في إساءة الظّن بأخيه ، وندم على ذلك .

* * *

والتّأني في اتخاذ المواقف من النّاس وتحاشي العجلة في ذلك ، أمر مطلوب سواء في التّعامل المباشر مع النّاس ، أو في التّعامل غير المباشر معهم . فليس من الصّحيح أن يصدّق المرء ما يقوله شخصٌ آخر له بحقّ أناس آخرين من دون تبيّن وتأمل وأناة ، فلربّما كان النّاقل غير متيقّن من صحّة ما يقول ، ولربّما كان واشياً يريد الإيقاع بين المرء والآخرين.

يقول تعالى في التّبيّن والتحقّق من الأخبار المنقولة والمسموعة :

﴿ يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ

فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[٢٢٥] .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس خليق به أن يتوسّل بالتبينّ والأناة في اتّخاذ المواقف منهم ، وخصوصاً في تلك المواقف التي يؤدي التعجّل في اتّخاذها الى ظلمهم ، وحدوث ما لا تُحمد عواقبه .

(٢٢٥) ٦ / الحجرات .

تجنب الخصومات في معاملة الناس

قال الامام عليّ (ع) :

« من بالغ في الخصومة أَثِم ، ومن قصّر فيها ظلم ، ولا يستطيع أن يتّقي الّله من خاصم »[226] .

وقال (ع) أيضاً :

« المخاصمة تبدي سفه الرّجل ولا تزيد في حقّه »[227] .

* * *

القاعدة الطّبيعية في التّعامل مع النّاس هي حبّهم وودّهم ، مع الأخذ بعين الاعتبار والجدّ أن يكون الحبّ في الّله وفي سبيله ، وأن يكون البغض فيه ـ عزّ وجل ـ وفي سبيله أيضاً.

ومع أنّ الحبّ هو البيئة أو المناخ الذي يجب أن تعيش فيه المعاملة فيما بين البشر ، وتتنفس من هوائه ، فقد يحدث ما يشوب هذا الحبّ لسبب أو لآخر ، الأمر الذي يتسبّب في وجود الخصومات والمخاصمات ، والمجادلات والمنازعات .

والسّؤال هو : كيف يجب أن يتصرّف المرء إزاء الخصومات فيما بينه وبين النّاس ؟

(٢٢٦) نهج البلاغة ، الحِكَم .

(٢٢٧) الغرر والدّرر .

توجّه الاحاديثُ الشّريفة المرءَ الى الحذر من مخاصمة النّاس والتّمادي في العناد واللجاجة ، وتحذّره من الوقوع في ذلك ، باعتبار أنّه خلاف للتّعامل الحسن مع النّاس ، ولما له من آثار وانعكاسات غير محمودة على المرء المخاصم ، منها : شغل القلب وفساده ، ونشوء الضّغائن والأحقاد ، والعداوات والنّفاق ، والكذب في التعامل .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« إيّاكم والخصومة ! فإنّها تشغل القلب ، وتورث النّفاق ، وتكسب الضّغائن »(٢٢٨) .

ويقول (ع) أيضاً :

إيّاكم والخصومة في الدين ! فإنّها تشغل القلب عن ذكر الله ـ عز وجل ـ وتورث النّفاق ، وتكسب الضّغائن ، وتستجير الكذب »(٢٢٩) .

وربّ سائل يسأل : كيف يجب أن يتصرّف المرء فيما لو حدث بينه وبين شخصٍ آخر حالة تباغض أو خصومة لسبب ما ؟

بلا أدنى تردد ليست المبالغة في الخصومة ولا التّمادي فيها ، ولا اللجاجة ولا العناد هي الطّريقة السّليمة للتّصرف . ففي الوقت الذي أمر الدّين بممارسة الحبّ مع النّاس ـ بحيث لا يكون هذا الحبّ مطلقاً ـ فإنّه أمر حين حدوث الخصام باستبقاء نسبة من الحبّ المصّديق ، أو للطرّف الآخر ، بأمل التّصالح معه في المستقبل ، وإعادة المياه إلى مجاريها .

وعليه فإذا حدث أن تخاصم امرؤٌ مع شخصٍ آخر ، فلا يكن كلّ منهما متعصباً لذاته ، وليجنح دائماً نحو المصالحة ، لا نحو اللجاجة والتعنّت في الخصومة والتّمادي فيها . ولا يحسبنّ أن في جنوحه للصّلح والتّصافي هزيمة له ، بل هو انتصار ، لأنّ الخصومة والتّمادي فيها تولّد الأمراض النّفسيّة ، كالحقد ،

---

(٢٢٨) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٣٠١ .

(٢٢٩) بحار الأنوار ، ج٢ ، ص١٢٨ .

والعداوة ، والحسد ، و . . وهي تأكل في القلب كما تأكل النّار الحطب ، وتولّد متاعب نفسيّة ومعنويّة خطيرة ، فضلاً عن انقطاع الصّلة والعلاقة بالشّخص الآخر .

يقول الإمام عليّ (ع) في الاقتصاد والاعتدال في الحبّ والبغض :

« أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما »[٢٣٠] .

إنّ من النّتائج التي قد تسفر عنها الخصومات والمخاصمات : العداوات فيما بين النّاس ، وهذه تمثّل صدوعاً مضرّة في بنيان العلاقة الإجتماعية ، وبشعب تلك الصّدوع تصلح العلاقة الإجتماعية ويجتمع شمل النّاس . ومن هنا نهى الاسلام عن معاداة النّاس ، وملاحاتهم ، ومشارّتهم ، ومشاجرتهم ، وعن كلّ ما من شأنه إيجاد الخصومات والعداوات والمنازعات والبغضاء والضّغائن فيما بينهم .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« ما عهد اليّ جبرئيل عليه السّلام في شيء ما عهد اليّ في معاداة الرّجال »[٢٣١] .

ويقول الإمام عليّ (ع) :

« رأس الجهل معاداة النّاس »[٢٣٢] .

ويقول (ع) أيضاً :

« معاداة الرّجال من شِيَم الجهّال »[٢٣٣] .

ويقول الإمام عليّ بن الحسين (ع) :

---

(٢٣٠) نهج البلاغة ، الحِكَم . الهَوْن في الحب والبغض : الاقتصاد فيهما دون افراط ، واضافة « ما » تفيد التقليل .

(٢٣١) الأصول من الكافي ، ج٢ ، ص٣٠٢ .

(٢٣٢) الغرر والدرر .

(٢٣٣) المصدر السابق .

« لا تعادينّ أحداً وإن ظننت أنه لا يضرّك ، ولا تزهدنّ صداقة أحدٍ وإنْ ظننت أنّه لا ينفعك ، فإنّك لا تدري متى ترجو صديقك ، ولا تدري متى تخاف عدّوك »[٢٣٤] .

ويقول الامام الهادي(ع) :

« لا تُعادِ أحداً حتّى تعرف الذي بينه وبين الله تعالى ، فإن كان محسناً فإنّه لا يسلمه إليك ، وإن كان مسيئاً فإنّ علمك به يكفيكه ، فلا تُعادِه »[٢٣٥] .

ويقول أمير المؤمنين (ع) في وصيّة لبنيه :

« يا بُني ! إيّاكم ومعاداة الرّجال ، فإنّهم لا يخلون من ضربين : من عاقل يمكرُ بكم ، أو جاهل يعجّل عليكم . . . »[٢٣٦] .

وفضلاً عن ان المعاداة تدقّ إسفيناً(*) في جسم العلاقة الاجتماعية ، وتبعّد بين المتقاربين ، وتقطع الموصولين ، فضلاً عن ذلك فإنها تسقط مروءة المرء وتذهب بعزّه ، وتكشف عوراته ، وتبدي عيوبه ، وتورث العار ، وتعرّضه لمكر الماكرين ، وتعجيل الجاهلين .

ومن الآثار التي تترتّب على الخصومات والعداوات فيما بين النّاس نشوء الأحقاد والضّغائن والأغلال النّفسيّة ، وأشدّ الأغلال : الحقد ، وهو ألْأم الخُلُق ، وألْأم العيوب ، وباقتلاعه تحسن معاملة النّاس والعلاقة بهم .

يقول الامام عليّ(ع) في الحقد وتطييب القلب منه :

« الحقد ألأم العيوب »[٢٣٧] .

« ألأم الخُلُق الحقد »[٢٣٨] .

---

(٢٣٤) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص١٤٢ .

(٢٣٥) المصدر السابق ، ص٣٦٥ .

(٢٣٦) الخصال ، ص٧٢ .

(*) حديدة او خشبة تستعمل لفلق الحطب وغيره (يونانية) .

(٢٣٧) الغرر والدّرر .

(٢٣٨) المصدر السابق .

« الحقد يُذري (يذوي) »[٢٣٩] .

« الحقد مثار الغضب »[٢٤٠] .

« الحقد شيمة الحَسَدَة »[٢٤١] .

« الحقد داء دويّ ومرض موبي »[٢٤٢] .

« الحقد خُلُق دنيّ ، وعرض مردي »[٢٤٣] .

« الحقد من طبائع الاشرار »[٢٤٤] .

« الحقد نار كامنة لا يطفيها إلّا موت أو ظفر »[٢٤٥] .

« طيّبوا قلوبكم من الحقد فإنه داء موبي »[٢٤٦] .

« رأس العيوب الحقد »[٢٤٧] .

« الدّنيا أصغر وأحقر وأنزر من أن تطاع فيها الأحقاد »[٢٤٨] .

« إنّما اللبيب من استسلّ الأحقاد »[٢٤٩] .

« سلاح الشّر الحقد »[٢٥٠] .

« سبب الفِتَنْ الحقد »[٢٥١] .

---

(٢٣٩) المصدر السابق . يذري : يُطير ويفرق . يذوي : يُذبل وينشف الماء .

(٢٤٠) المصدر السابق .

(٢٤١) المصدر السابق .

(٢٤٢) المصدر السابق .

(٢٤٣) المصدر السابق . (٢٤٤) المصدر السابق .

(٢٤٥) المصدر السابق .

(٢٤٦) المصدر السابق .

(٢٤٧) المصدر السابق .

(٢٤٨) المصدر السابق .

(٢٤٩) المصدر السابق .

(٢٥٠) المصدر السابق .

(٢٥١) المصدر السابق .

« من أطرح الحقد ، استراح قلبه ولبّه »[٢٥٢] .

« من كثر حقده ، قلّ عتابه »[٢٥٣] .

« احترسوا من سورة الجمد[*] والحقد والغضب والحسد ، وأعدّوا لكل شيء من ذلك عدّة تجاهدونه من الفكر في العاقبة ، ومنع الرّذيلة ، وطلب الفضيلة ، وصلاح الآخرة ، ولزوم الحلم »[٢٥٤] .

ويقول الامام الهادي (ع) :

« العتاب خير من الحقد »[٢٥٥] .

ويقول الامام عليّ (ع) :

« الحقود معذّب النّفس متضاعف الهمّ »[٢٥٦] .

« أشد القلوب غِلاًّ ، قلب الحقود »[٢٥٧] .

« بئس العشير الحقود »[٢٥٨] .

« ليس لحقود أخوّة »[٢٥٩] .

« لا مودّة لحقود »[٢٦٠] .

« لا يكون الكريم حقوداً »[٢٦١] .

---

(٢٥٢) المصدر السابق .

(٢٥٣) المصدر السابق .

(*) الجَمْد : البُخل .

(٢٥٤) المصدر السابق .

(٢٥٥) بحار الانوار ، ج٧٨ ، ص٣٦٩ .

(٢٥٦) الغرر والدرر .

(٢٥٧) المصدر السابق .

(٢٥٨) المصدر السابق .

(٢٥٩) المصدر السابق .

(٢٦٠) المصدر السابق .

(٢٦١) المصدر السابق .

ويقول الامام العسكري (ع):

«أقلّ النّاس راحةً الحقود»[262].

ويقول الامام الصّادق (ع):

«حقد المؤمن مقامه، ثم يفارق أخاه فلا يجد عليه شيئاً، وحقد الكافر دهره»[263].

ويقول (ع) أيضاً:

«المؤمن يحقد ما دام في مجلسه، فإذا قام ذهب عنه الحقد»[264].

ومن الامور التي تورث الحقد وتسبّبه: الملامة والعتاب، ولتجنّب نشوء الحقد يلزم اجتناب اللوم والعتاب، واحتمال الآخرين على ما فيهم من عيوب وتقصيرات. ولا سبيل لحصد الحقد من صدور الآخرين، افضل من قلعه من الصّدر، مع العلم بأنّ حسن البشر، وطلاقة الوجه المخلصة، والابتسام، والظّروف الشّديدة ـ أو الشّدائد ـ تُذْهِب بالاحقاد والضّغائن والسّخائم.

والآن فلكي يحسن المرء معاملة النّاس، ولكي يكون محبوباً من لدنهم، عليه أن يجتنب مخاصمتهم، ومنازعتهم، وملاحاتهم، ومعاداتهم، والحقد عليهم، وأن يجعل معاملته لهم قائمة على أساس الحبّ والقصد والاعتدال فيه، من دون إفراط ولا تفريط.

---

(٢٦٢) تحف العقول، ص٣٦٣.

(٢٦٣) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٢١١.

(٢٦٤) المصدر السابق، ج٧٨، ص٢٨٩.

الاصلاح بين الناس

قال تعالى :

﴿ انّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[٢٦٥] .

وقال سبحانه :

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾[٢٦٦] .

وقال عزّ وجل :

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ﴾[٢٦٧] .

وقال الرّسول الأعظم (ص) :

« يا أبا أيّوب ! ألا أخبرك وأدلّك على صدقة يحبّها الله ورسوله ؟ تصلح بين النّاس إذا تفاسدوا وتباعدوا »[٢٦٨] .

وقال الامام الصّادق (ع) :

« صدقة يحبّها اللّه : إصلاح بين النّاس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا

(٢٦٥) ١٠ / الحجرات .

(٢٦٦) ١ / الأنفال .

(٢٦٧) ١١٤ / النساء

(٢٦٨) تنبيه الخواطر ، ص٥ .

تباعدوا »[٢٦٩] .

* * *

المعلوم إنّ التّحابّ والتّقارب والتّصالح هي الأخلاق التي يجب ان تنطبع بها العلاقة بين النّاس والتّعامل فيما بينهم . ولكنّ التّباعد والتّباغض والتّفاسد هي أمور قد تحدث بين ظهرانيهم لأسباب(*) متعدّدة . وهنا كيف يجب أن يكون موقف المرء من هذه الحالة ؟ هل يترك النّاس وشأنهم ، أم يفعل ما يعمل على التّقارب والإصلاح فيما بينهم؟.

إنّ من النّاس من لا يضع نفسه في أيّ شفاعة أو وساطة للإصلاح بين شخصين ، أو طرفين ، إمّا تهرّباً من هذا الدّور الاجتماعي الذي يمكنه القيام به في هذا السبيل ، وإمّا لاعتباره وتصنيفه الإصلاح بين النّاس يدخل في خانة ايقاع النّفس في الفتنة التي قال الإمام عليّ (ع) بشأنها : « كن في الفتنة كإبنِ اللّبون لا ظهر فيُركب ولا ضرع فيُحلب »[٢٧٠] .

والحقّ أنّ ليس كلّ ما يحصل بين النّاس من تباغض وتباعد هو فتنة ينبغي للمرء أن لا يتدّخل فيها ، بل هي حالات تحتاج الى الشّفاعة والوساطة من أجل الإصلاح وإعادة المياه الى مجاريها . ولأهميّة الإصلاح بين الإخوان وبين النّاس أعطى القرآن الكريم والسنّة الشريفة اهتماماً كبيراً بذلك ، وأمر الانسان بأن يتحّمل دوره في الاصلاح بين النّاس ، والتّقريب فيما بينهم .

يقول الامام علي (ع) في الاصلاح بين النّاس :

« من كمال السّعادة السّعي في صلاح الجمهور »[٢٧١] .

فكم هي السّعادة التي يشعر بها المرء حينما يسعى في صلاح النّاس ، وفي

---

(٢٦٩) الأصول من الكافي ، ج٢ . ص٢٠٩ .

(*) من هذه الأسباب : الغضب ، وغياب العفو والصفح والتسامح في التعامل ، والتعصب للذات والانتصار لها ، والظلم والاجحاف ، والافراط في اللوم ، والجدال ، والمزاح المهين ، و . . .

(٢٧٠) نهج البلاغة .

(٢٧١) الغرر والدّرر .

التّقريب والإصلاح فيما بينهم ! وكم هي السّعادة التي يشعر بها الطّرفان المتباعدان من جرّاء تلك الوساطة الإصلاحيّة والشّفاعة الإنسانية التي تؤدّي الى التّقارب بينهما !

* * *

وفي هذا الشأن رُوي عن الإمام الصّادق (ع) أنّه قال :

« قال رجل للنبّي (ص) : يا رسول الله ، علمني . قال : إذهب ولا تغضب . فقال الرّجل : قد اكتفيت بذلك . فمضى إلى أهله ، فإذا بين قومه حرب ، قد قاموا صفوفاً ، ولبسوا السّلاح . فلّما رأى ذلك لبس سلاحه ، ثم قام معهم ، ثمّ ذكر قول رسول الله(ص) : « لا تغضب » ، فرمى السّلاح ، ثم جاء يمشي الى القوم الذي هم عدوّ قومه ، فقال : يا هؤلاء ، ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر فعلّي في مالي ،أنا أوفيكموه ، فقال القوم : فما كان فهو لكم ، نحن أولى بذلك منكم . قال : فاصطلح القوم ، وذهب الغضب .

* * *

إنّ حالة الأخوّة والصّلح هي الحالة التي يجب أن تكون عليها العلاقة فيما بين النّاس والتّعامل فيما بينهم ، ذلك لأنّ الإجتماع في غياب الصّلح بين أفراده يفقد ركيزة هامّة من ركائز التماسك الإجتماعي ، ويشيع التّوتر والتشنج فيه . ومن هنا كان الإصلاح بين النّاس ـ أو حسب تعبير الاحاديث الشريفة : إصلاح ذات البين ـ أفضل من درجة الصّيام والصّلاة والصّدقة ، الأمر الذي يؤكد أهميّة الإصلاح بين النّاس ، ويؤكد أنّ العبادة يجب أن لا تكون بديلة عن حالة الصّلح مع النّاس ، والإصلاح فيما بينهم اذا تباعدوا ، بل إنّ العبادة الحقيقية هي التي تدفع الانسان للإصلاح بينهم.

يقول الرّسول الأعظم(ص) :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّيام ، والصّلاة والصّدقة ؟ إصلاح ذات

البين ، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة(*) »[٢٧٢] .

ويقول الامام عليّ (ع) :

« من استصلح الأضداد بلغ المراد »[٢٧٣] .

ولأهميّة الإصلاح بين النّاس نهى الدّين عن الحلف او اليمين بعدم الفعل حين الدّعوة الى الإصلاح بين شخصين أو طرفين . كما أجاز كذب الشّفيع أو الوسيط على كلّ من المتباغضين او المتباعدين بهدفٍ هو الإصلاح ليس إلاّ . فلا يحسبّن أحد أنّ المصلح كاذب ، لأنّه لا يكذب من أجل الكذب ، وانّما من أجل الصّلح والإصلاح .

يقول تعالى :

﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتقّوا وتصلحوا بين النّاس ﴾[٢٧٤] .

ويقول الامام الصّادق (ع) في قوله تعالى :﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم . . . ﴾ :

« إذا دُعيت لصلحٍ بين اثنين فلا تقل عليّ يمين ألاّ أفعل »[٢٧٥] .

ويقول (ع) أيضاً :

« المصلح ليس بكاذب »[٢٧٦] .

ويقول (ع) :

« الكلام ثلاثة : صدق ، وكذب ، وإصلاح بين النّاس . . . تسمع من

(*) الحالقة : القول السيء .

(٢٧٢) كنز العمال ، خ٥٤٨٠ :

(٢٧٣) الغرر والدرر .

(٢٧٤) ٢٢٤ / البقرة .

(٢٧٥) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٢١٠ .

(٢٧٦) المصدر السابق ، ص٢١٠ .

الرّجل كلاماً يبلغه فتخبث نفسه ، فتلقاه فتقول : سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا ، خلاف ما سمعت منه »[٢٧٧] .

* * *

وفي الصّلح والإصلاح بين المتباعدين حكى بعضهم فقال :

« حدث خلاف كبير بين والدي وعمّي ، وانتهى هذا الخلاف الى القطيعة بينهما ، دامت فترة طويلة . وكنت أحسّ منهما أنّهما يريدان التّصالح ، إلاّ أنّ أحداً لم يقم بالتوسّط والشّفاعة بينهما . وحدث أن سافر والدي لزيارة بلد آخر ، وعند عودته فكرت في طريقة لإصلاح ذات البين .

قلت لوالدي : سمعت من عمّي أنّه يريد القدوم إليك للسّلام عليك بعد قدومك من السّفر .

وفوجئت به يقول : مرحباً به ، هو أخٌ عزيزٌ عليّ ، فليس بيني وبينه إلاّ الخير . وأضاف : انّني أنتظره منذ فترة .

فذهبت الى عمي على جناح السّرعة ، وقلت له : والدي يعتب عليك كثيراً ، ويقول : الا يستحقّ منك زيارة بعد قدومه من السّفر ؟!

وإذا بعمّي يحمل ذات المشاعر التي يحملها والدي تجاهه ، فقال لي : أجل يا عزيزي ، أنا أتحيّن الفرص من أجل الجلوس إليه ، ولسوف آتي لزيارته ـ اليوم ـ إنشاء الله .

ولم تمرّ ساعات حتّى كان والدي يعانق عمّي ، ودمعة الأخوة تتساقط من مقلتيهما ، وكان كلّ منهما يقول للآخر : لماذا لم يفكّر أحدٌ في الإصلاح بيننا منذ زمن بعيد ؟ بل لماذا لم يبادر كلّ منّا الى التّقارب والمصالحة ؟! »[٢٧٨] .

وإذ أنّ الإصلاح بين النّاس أمر مهمّ ومطلوب ، فهو يجب ان يكون في الوجوه الحسنة ، كإعادة العلاقة المقطوعة بين اخوين أو رفيقين أو جماعتين ، أو . . . أمّا

---

(٢٧٧) المصدر السابق ، ص ٣٤١ . كما يجوز الكذب في الاصلاح ، لايجوز الصّدق في الافساد .

(٢٧٨) الصداقة والأصدقاء ، ص٤١٨ مع بعض التصرف في العبارة .

الإصلاح في الوجوه السيئة فليس جائزاً . فالإصلاح أمر جائز ومطلوب ، شريطة أن لا يحل حراماً أو يحرّم حلالاً ، سواء كان الصّلح في معاملة أخويّة ، او اقتصادية ، أو غيرها . .

يقول تعالى :

﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾[٢٧٩] .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

« الصّلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً »[٢٨٠] .

وهكذا فإن للإصلاح بين الناس أهميّة كبيرة في التعامل مع النّاس والخليق بالمرء أن يتحمّل دوره فيه بينهم في الموارد التي تفتقر الى الاصلاح ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، مع العلم بأنّ الاصلاح يجب ان لا يحلّ حراماً أو يحرّم حلالاً .

---

(٢٧٩) ٨٥ / النساء .

(٢٨٠) وسائل الشيعة ، ج١٣ ، ص١٦٤ .

اجتناب التعصب المذموم

قال تعالى :

﴿ يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم . . ﴾(٢٨١) .

وقال سبحانه :

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية ﴾(٢٨٢) .

وقال الرسول الأعظم (ص) :

«من كان في قلبه حبة من خردل من عصبيّة بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهليّة »(٢٨٣) .

* * *

في العلاقة الانسانية بالناس والتعامل معهم لا محل للتّعصب ، إذ الأفضلية والأكرمية عند الله بتقواه وخشيته ـ جل وعلا ـ والتزام مناهجه . وحيث أن المقياس الإلهي لتفاضل الناس هو التّقوى ، والعمل الصّالح ، فإنّ مقاييس الناس في التّعامل فيما بينهم ـ كبشر ـ يجب ان تكون منطلقة من ذلك المقياس

(٢٨١) ١٣ / الحجرات .

(٢٨٢) ٢٦ / الفتح . حميّة الجاهليّة : عصبيّة الجاهليّة .

(٢٨٣) أصول الكافي ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

الالهي الذي يؤكد قضيّة اشتراك النّاس كلّهم في أبٍ واحدٍ وأمّ واحدة . أي بعبارة أخرى : اشتراكهم في الآدمية والبشرية .

ومع ان المفهوم الدّيني القرآني للتّعامل مع بني البشر واضح وجلّي ، فقد أوغل البشر في العصبيّات خلافاً للمنطق القرآني ، إن على صعيد الاعتقاد أو على صعيد القوّة والثروة ، أو على صعيد التّعامل مع مختلف الشّعوب والأمم والقبائل . ومن الأمثلة على التّعصب العقيدي : التّعصب للكفر ، والتّعصب للوثنيّة ، والتعصب في معاندة الحقّ . ومثال التّعصب للقوّة والثروة : التّعصب لقوة الذات والسلطة التي تمتلكها ، والتعصّب للمال وللنّفر ، وكلّ هذه الأشكال والصّور من العصبيّات ، مذمومة ، وغير جائزة.

أمّا على صعيد معاملة بني البشر فقد تفنّن أعداء البشر في ابتكار واصطناع صنوف كثيرة من التّعصبات والعصبيّات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ومنها :

● التعصّب القومي ، كالتعصّب للقومية العربية او الفارسية . .

● التعصّب العنصري ، كالتعصّب للون الابيض . .

● التعصّب الجنسيّ ، كالتعصب للجنس الآريّ ، أو تعصب الرّجل لجنس الرّجل (الذكورة) والمرأة لجنس المرأة (الأنوثة) . .

● التعصّب العرقيّ . .

● التعصّب القبليّ . .

● التعصّب العشائريّ والعائليّ . .

● التعصّب الإقليمي والوطنيّ . .

● التعصّب الطبقي ، كتعصّب التّاجر لطبقة التّجار . .

● التعصّب الوظيفيّ، كتعصّب الطّبيب لوظيفة الطبّ . .

● التعصّب الحزبيّ والجماعيّ . .

● التّعصب للذّات . .

بل إنّ الانسان اذا تمادى في العصبية والتّعصب ، يمكن أن يتعصّب لكلّ شيء ، كالتعصب لمدينته ، أو قريته ، أو جيرانه ، أو عائلته ، أو لغته ، أو . . . ، وهذا ليس من الاخلاق الفاضلة في شيء ، وإنما هو من أخلاق الشيطان . فإبليس هو إمام المتعصبين ، إذ هو الذي تعصّب لخلقته ، وافتخر بها على آدم : تعزّز بأنّه خُلق من نار ، واستوهن آدم إذ خُلق من طين ، وبذلك كان إبليس واضع أساس العصبيّة . وواجب المرء نبذه واجتنابه .

إنّ التّعصب يقود المرء الى معاملة الناس وفق الفكرة أو الجهة التي يتعصّب لها . فالتعصّب للقوميّة العربيّة ـ مثلاً ـ قد تجعله ينظر الى العرب نظرة إعظام وإجلال ، ويعاملهم معاملة حسنة ، بينما لا ينظر الى غير العرب (القوميات الأخرى) نظرة مماثلة ، وقد يسيء معاملتهم باعتبارهم غير عرب . والمتعصّب للقوميّة الفارسيّة تجده ينظر الى أبناء قوميته نظرة اعزاز وتقدير ، ويحسن معاملتهم ، وقد يمجّد كلّ ما يتّصل بقوميّته ، بينما قد تجده يستهين بالقوميات الاخرى . وقس على ذلك بالنسّبة لسائر ضروب التّعصب ، وهي كلها تشترك في الميل المتحيّز الى فكرة التّعصب أو جهته .

وهنا مفارقة لا بدّ من الاشارة اليها بين التّعصب والحبّ . فالحبّ للقوميّة والقبيلة والعشيرة والعائلة والجماعة والوطن هو حالة الولاء التي يكنّها الفرد ويبديها ازاء هذه الإنتماءات ، أمّا التّعصب فهو الإفراط في الحبّ ، ورؤية شرّ الجهة المنتمى اليها خيراً ، فالحبّ محمود ، والتّعصب مذموم .

وفي هذا الصّدد «سئل عليّ بن الحسين ـ عليهما السلام ـ عن العصبية ، فقال : العصّبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرّجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين وليس من العصبيّة أن يحبّ الرّجل قومه ، ولكن من العصبيّة ان يعين قومه على الظلم »[٢٨٤] .

إنّ معاملة الانسان أخاه الانسان يجب ان تكون بمنأى عن جميع أنواع وصور العصبية والتّعصب ، وإن كان لا بدّ للمرء من العصبيّة ، فليكن تعصبّه للخير

---

(٢٨٤) المصدر السابق ، ص٣٠٨ .

والحقّ والصّلاح والفضيلة . .

يقول الامام عليّ (ع) في خطبة القاصعة :

« ولقد نظرتُ فما وجدت أحداً من العالمين يتعصّب لشيء من الاشياء الا من علة تحتمل تمويه(*) الجهلاء ، أو حجّة تليط(**) بعقول السفهاء غيركم ، فانّكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علّة . أمّا ابليس فتعصّب على آدم لأصله ، وطعن عليه في خلقته ، فقال : أنا ناريّ ، وأنت طينيّ . وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصّبوا لآثار مواقع النّعم ، فقالوا : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » . .

فإن كان لا بدّ من العصبية فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الأمور ، التي تفاضلت فيها المُجداء والنّجداء من بيوتات العرب ، ويعاسيب القبائل ، وبالأخلاق الرّغيبة ، والأحلام العظيمة ، والأخطار الجليلة ، والآثار المحمودة . فتعصبوا لخلال الحمد : من الحفظ للجوار ، والوفاء بالذّمام ، والطّاعة للبرّ ، والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل ، والكفّ عن البغي ، والإعظام للقتل ، والانصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد في الارض » .[285] .

ويقول (ع) أيضاً :

« إن كنتم لا محالة متعصبين فتعصبوا لنصرة الحقّ وإغاثة الملهوف »[286] .

وعليه فلكي يحسن المرء معاملة الناس واجبه ان يجتنب كلّ ضروب وصور التّعصب المذموم ، وأن يتعصب للحقّ والخير والصّلاح والفضيلة إن كان لا بدّ من العصبية . .

(*) تمويه : تنكير .

(**) تليط : تلتصق ، والمقصود تكون محبّبة .

(٢٨٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج١٣ ، ص١٦٦ ، خطبة ١٩٢ .

(٢٨٦) الغرر والدّرر .

التسليم بأخطاء الذّات

تقول الحكمة الشّهيرة :

« الاعتراف بالخطأ فضيلة » .

ما الذي يدفع المرء الى تحاشي الاعتراف بخطئه ، وهو يرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ؟ .

لا شيء سوى الرّوح الأنانيّة ، والتعصّب الأعمى للذّات ، والخوف من انكشاف الخطأ ، وتبرئة النفس منه. إنّ هناك من الناس من يعدّون الاعتراف (*) بأخطائهم فضيلة ومنقبة فيهم ، وفي الطّرف المقابل هناك منهم من يتصورون أنّ في اعترافهم بأخطائهم ، وتسليمهم بها ، هزيمة لهم ، وكأنهم يخوضون معارك مواجهة ، ولا بدّ أن ينتصروا فيها ! .

ولكن ما الفائدة والجدوى التي يجنيها المرء حينما ينصر نفسه على الطّرف الاخر ، وهو يعلم ـ في داخله ـ أنه مخطيء ومخالف للحقيقة والصّواب ؟! أليس هو يخادع عقله ، ويتعصب لما لا يؤمن به حقيقة ؟! وأليس هو يصاب بالتأنيب النّفسي واللوم الدّاخلي ، بينما يبدو ظاهره وكأنه على ما يرام ؟! وأليس هو يكون ظالماً لمن يتحدّث معه أو يتعامل ، وهو على خطأ ؟! .

(*) مهمّة الإشارة الى أنه ليس المقصود من الاعتراف و التسليم بالأخطاء أن يكشف المرء ذنوبه ومعاصيه للناس ، بل عليه أن يسترها ويندم عليها ، ويتوب منها .

إن التسليم بالأخطاء ـ حين الخطأ ـ هو الطّريقة الصّحيحة للتّعامل مع الآخرين ، وحين المناقشة والمناظرة ، وهي تجنّب المرء الكثير من الاثار والنّتائج غير المحمودة التي تترتّب على التّعصب للأخطاء ، ومنها : الغضب ، والكذب ، والصّراع النّفسي الدّاخلي ، وتوتر العلاقات الاجتماعية مع النّاس .

* * *

ومن القصص في مجال التسليم بالأخطاء : قيل أنّ واحداً من الكُتّاب استطاع ان يثير شعباً بأسره ، فطالما أثارت عباراته التمرّد ، والعناد في نفوس قُرائها . غير أنّ الكاتب مع قلّة حظّه من المقدرة على معاملة الناس ، استطاع ـ في أحوال كثيرة ـ أن يحوّل أعداءه الى أصدقاء ! .

ومثال ذلك : أنّ قارئاً ساخطاً كتب اليه مرّة يقول : « إنّني لا أقرّك على ما جاء في أحد مقالاتك » وأنهى خطابه بأن نَعَتَ الكاتب بما لا يحبّ من الصّفات ! فما كان من الكاتب إلّا ان أرسل الى القارىء يقول له : هل لك ان تتفضل بزيارتي لنبحث معاً هذا الموضوع ؟ فأنا ـ نفسي ـ لا أقرّ ما كتبتُ ، فما كلّ ما كتبتُ بالأمس يروق لي اليوم ، وكم يسعدني أن أطّلع على آرائك في هذا الموضوع ! .

* * *

فإذا أراد المرء أن يحسن معاملة النّاس ، ويكسبهم ، ليكن حكيماً في أن لا يتعصّب لأخطائه ، وأن يسلّم بها ، فإنّ في تسليمه بأخطائه ، راحة له ، ولمحدّثه ، ولا يتصوّر أنه سيشعر بالحرج . فمن يمتلك الرّوح الايجابية في التحدّث والحوار وعموم التّعامل ، لا يرى حرجاً حينما يسلّم بأخطائه ، وحتّى مع افتراض أنه يشعر بقليل من الحرج ، فإنّه يفضّل ذلك على ما يترتب على التّعصب للأخطاء ، والإصرار على صحّتها من نتائج وآثار غير محمودة .

البدء بأخطاء الذات أولاً قبل الانتقاد

من الأخلاقيّات التي يجدر بالمرء التزامها في تعامله مع الناس ، أن يبدأ بطرح أخطائه حينما يخطىء ، أو حينما يريد انتقاد شخص ما أو طرف ما لارتكابه خطأ ما . إذ أنّ الاعتراف بأخطاء الذّات والتّسليم بها ، والبدء بها قبل انتقاد الآخرين أسلوب تربويّ حسن للنّفس ، بالإضافة الى أنّه يريح المتكلم ، والطّرف الآخر ويجعله يتقبل النّقد الموجّه اليه .

إن هناك قسماً من الناس يسيطر عليهم حبّ الذّات ، وحينما يُخطئون يُبعدون أنفسهم عن ذكر أخطائهم ، وربّما تأخذهم العزّة بأخطائهم ، فيتصلبون لها ، ولا يبدون أيّ تنازل ، أو اعتراف بها ، وقد ينتقدون الآخرين ولمّا يبدأوا بذكر أخطائهم هم .

* * *

كتب أحد الكُتّاب عن البدء بأخطاء الذّات قبل الانتقاد :

« تركتْ ابنة عمّي «ج . ك . » بيتها ، وقدُمَتْ لتعمل « سكرتيرة »(*) لي . وكانت إذ ذاك في التّاسعة عشرة من عمرها ، وقد أتمت دراستها قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وكانت تجاربها في الحياة تزيد بقليل عن العدم ! ولكنّها اليوم إحدى « السّكرتيرات » البارعات المحنّكات ! .

(*) أمينة سر .

« وفي ذات يوم أوشكتُ أن أنتقد مسلكاً لها ، ولكني سكتُّ فجأة ، وقلت لنفسي : لحظة واحدة ، يا فلان ! لحظة واحدة ! إنّ سنّك ضعف سنّ «ج.ك» ، ولك من تجاربك في الحياة أضعاف أضعاف ما لها ، فكيف تتوقّع أن يكون لها مثل وجهة نظرك ، وحكمتك ، ومقدرتك ، مهما كانت هذه متواضعة ؟ ولحظة يا فلان ! ماذا كنت تعمل ، وأنت في التّاسعة عشرة من عمرك ؟ أتتذكر الأخطاء الفاضحة ، والحماقات المتكررة التي كنت تاتيها ؟ أتذكر الوقت الذي فعلت فيه كذا وكذا ، وكيت ، وكيت ؟ .

« فلّما قلّبت الأمر على أوجهه في نزاهة وتجرّد ، انتهيت إلى أن «ج.ك» وهي في التاسعة عشرة من عمرها ، أفضل بكثير ممّا كنتُ أنا في مثل سنّها ! ولم يكن هذا ـ للأسف ! ـ من قبيل إدخال السّرور على قلب «ج.ك»!! .

« وبعد تلك المرّة صرتُ كلّما أردتُ أن أُلفت نظر «ج.ك» إلى خطأٍ أتته ، أبدأ بقولي : لقد أتيت يا «ج . » خطأً ، ولكنّ الله يعلم أنّه ليس شرّاً من كثير ممّا أتيتُ أنا ! فأنت لم تولدي ولك صدق الحكم على الاشياء ، بل يأتي هذا عن طريق التّجربة وحدها ، وأنت أفضل مما كنت أنا في مثل سنّك . إنّني أحمل شيئاً كبيراً من الأخطاء السّخيفة ، حتّى أنه لا تحدوني أقل الرّغبة في أن انتقدك أنتِ ، وسواك ، ولكن . . . ألا ترين أنّه يكون من الأصوب لو فعلت كذا وكذا ؟ » .

* * *

إن تعامل المرء مع الاخرين يجب أن لا يكون على أساس أنّه وهم أجزاء من آلة لا يقع فيها الخطأ ، بل حتّى الآلة تخطىء أجزاءُها في بعض الأحيان . بل يجب ان يعلم المرء سلفاً ، وأن يضع في اعتباره أنّ الطّبيعة البشرية تصيب ، وتخطىء ، وهي ليست ملائكيّة ، ولا معصومة عن الخطأ .

كذلك من الامور الهامة في تعامل المرء مع أخطاء الآخرين : أن لا ينفخ فيها ويكبرّها ، وأن يعطيها حجمها الطّبيعي ، وأن لا يتعوّد على ممارسة أخطاء نفسه وأخطاء الآخرين ، وأن يتعامل مع الأخطاء على أنّها أمور ممكنة الوقوع وقابلة للعلاج في الوقت ذاته .

فإذا حدث ان كان المرء هو المخطىء ، سواء كان في الأفكار والآراء ووجهات النّظر ، أو في مجالات التعامل الأخرى ، وكان الآخرون مصيبين ، ففي هذه الحالة لا بدّ أن يلتزم الصّراحة مع نفسه ، ومع الآخرين ، لا أن يبرّر أخطاءه ، ويتعصّب لنفسه ، ويستعمل اللفّ والدّوران . بل لا بدّ أن يتّهم نفسه قبل أن يتّهم الآخرين ، وأن يبصر عيوبه قبل ان يبصر عيوبهم ، وأن يعترف بأخطائه أمام نفسه دائماً .

* * *

وفي هذا ، يقال أنّ سقراط كان جالساً ـ ذات يوم ـ مع أحد تلاميذه على حافّة بركةٍ فيها ماء راكد ، فقال سقراط لتلميذه : ما هذه البركة ؟ .

قال التّلميذ : إنّه الماء .

إلاّ انّ سقراط بدأ يبين لـه أنّ ذلك ليس ماءً ، وأورد عشرات الأدلّة على ما ذهب اليه . واستسلم التّلميذ لأستاذه رغم قناعته بخلاف ما قال . غير ان سقراط مدّ يده الى البركة ، واغترف كفاً من الماء ، ثمّ رماه في البركة ، وقال لتلميذه : هذه الحقيقة أكبر دليل لك على أنّه ماء ، وأنّ ما ذهبتُ اليه ليس صحيحاً .

* * *

فإذا أخطأ الآخرون ، فالمطلوب منه أن يبدأ بأخطائه أوّلاً قبل ان ينتقدهم . وفي انتقاده لهم يجب ان يكون أخلاقياً ، بحيث يشجعهم النّقد على الاعتراف بأخطائهم والاقلاع عنها ، وليس المطلوب أن يهينهم ، ويجرح مشاعرهم ، ويجعلهم يتعنّتون لأخطائهم ويصرّون عليها .

وللتّعامل مع أخطاء الآخرين ، هناك ثلاثة أمور ، خليقة بأن تؤخذ بعين الاعتبار :

الأوّل : أن لا يتّبع المرء عثراتهم ، واخطائهم .

الثّاني : أن يحملها على الخير ، لا الشرّ .

الثالث : أن لا يجرح كبرياءهم اذا ارتكبوا خطأ .

وهنا قد يتسأل المرء : هل المطلوب ـ اذن ـ السّكوت عن أخطاء النّاس ، أو تبريرها ؟ .

والإجابة :

إن الأخطاء على قسمين :

١ ـ صغيرة ، وهذه قد لا تستحقّ الذّكر ، ويمكن تجاوزها أو تحملها أو غفرانها .

٢ ـ كبيرة ، وهذه تبيّن بصورة أخلاقية وفنيّة .

وحتّى فيما يرتبط بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والذي من ضمنه استنكار العمل القبيح الذي يرتكبه الاخرون ، وتوجيههم الى الاقلاع عن أخطائهم ومعاصيهم ، وضع الاسلام الحنيف عدّة شروط ، منها : شرطا القدرة ، واحتمال التّأثير في مقترف الخطأ أو المعصية ، فإذا كان هذا الاحتمال ضئيلاً أو معدوماً لا يجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، موجّها الى استعمال الحالة الأخلاقية والفنيّة في العمل بهذين الفرعين(*) الهامين من فروعه العشرة .

إذن : في تعامل المرء مع الأخطاء ، ليبدأ بأخطائه قبل ان يبيّن أخطاء الآخرين ، واذا ما كان الآخرون مخطئين ، فليجعل نقده لهم مشجعاً لهم على تلافي أخطائهم .

(*) للإطلاع على تفصيليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تراجع كتب الحديث الشريف، والرسائل العملية للفقهاء.

كيفية التعامل حينما يخطىء الآخرون

من الأساليب التي يكون لها وقع شديد على نفوس النّاس ، وتبعث روح الإنقباض والتّذمر واليأس فيهم ، وعدم الاندفاع والتقدم : تبيان أخطائهم بشكل هجومي ، أو لاذع ، او بشكل مباشر ، وتفخيم وتضخيم غلطاتهم وعثراتهم ، واعتبارها كبيرة ، أو عسرة التّصحيح .

وكمثال على ذلك :

نجّار يعمل في ورشة له ، وله مساعد جاء يتدرب على يديه . يكلف النّجار مساعده بصناعة منضدة ، فيقوم الأخير بإنجازها امتثالاً لطلب استاذه . ويصادف ان تنجز المنضدة ضعيفة غير متماسكة . فيأتي النّجار لمساعده ، ويقول له مقرّعاً : ما هذه المنضدة ؟!! إنّك لا تفقه شيئاً في فنّ النّجارة ، ويجدر بك أن لا تصبح نجّاراً ! .

إنّ أسلوب النّجار هذا قد لا يعمل على عدم إصلاح خطأ المساعد فحسب ، بل قد يعمل على إحداث حالة يأس فيه من التقدم في فنّ النّجارة ، والاستمرار فيها ، وربّما ترك النّجارة الى غير رجعةٍ إليها . بينما لو استخدم أسلوباً آخر ، وقال لمساعده : إنّني في بداية اشتغالي بالنّجارة لم أكن أوفر حظاً ممّا أنت عليه الآن ، وآمل ان تحظى بمستقبل جيّد في فنّ النّجارة ، ومع اعتذاري ، أنّ المنضدة التي صنعتها ، كان حريّاً بك ان تجعلها أكثر قوّة ومتانة وجمالاً ، واني لا أشكّ في ان مستواك في حرفة النجارة سيشهد تطوراً ـ الى الأفضل ـ ملموساً في المستقبل .

وهكذا الحال في جميع مجالات التّعامل مع النّاس فالأولى ان لا نجعل من غلطاتهم وزلاتهم وأخطائهم أموراً لا تقبل التّصحيح ، وينبغي أن نجعلها تبدو ميسورة التّصحيح ، وسهلة . وعلى سبيل المثال : إذا أخطأ شخص بأن قال كلمة غير لائقة ، او فعل فعلاً غير لائقٍ أو صحيح ، فمن الخطأ ان نقيم الدّنيا ولا نقعدها ، بل الأجدر بنا ان نعامله بهذا الاسلوب ، بأن نقول له : المعروف عنك أنّك انسان تعرف كيف تتعامل مع الناس بوجه حسن ، وليس من عادتك ان تتلفظّ كلمات غير لائقة ، أو تفعل افعالاً غير محمودة ، أو غير صحيحة بحقهم ، وإنّنا على ثقة من أنّك تعلم خطأ ما قلت ، ولن تقترف مثل ذلك مستقبلاً .

وحتّى في مجال التّعامل مع الأعمال ، فإظهارها بأنها صعبة ، ومستعصية قد تبعث في محمّلها أحساساً بعدم أو ضعف القدرة على القيام بها ، بينما جعلها تبدو سهلة وهيّنة ، أسلوب حسن لأن يتحمّلها ـ بشكل جيد ـ من هو مكلف بالقيام بها .

فإذا أراد المرء تنبيه الآخرين دون ان يريق ماء وجوهم ، ليكن حكيماً في أن يجعل أخطاءهم ميسورة التّصحيح ، وأن لا يفخّمها ، وأن يظهر الأعمال التي يريدهم أن يقوموا بها ، سهلة ، هيّنة .

احترام اراء الاخرين وتلافي تخطئتهم

قال الامام عليّ (ع) :

« من أبصر زلته صغرت عنده زلّة غيره »[٢٨٧] .

*

ذات يومٍ رأى الإمامان الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ رجلاً كبيراً في السنّ يتوضأ بطريقة خاطئة ، وكانا صغيرين في السنّ .

فجاءا إليه قائلين : يا عمّ ! هل لك أن ترينا أيّاً منا وضوؤه الأصحّ ؟ وبدءا يتوضّآن حتى أتمّا الوضوء . وبمجرد أن انتهيا ، قال لهما العجوز : بارك الله فيكما . . . وضوؤكما هو الصحيح ، ووضوئي هو الخطأ .

وبهذه الطّريقة المهذبة نبهّا الرّجل الى خطئه دون أن يقولا له أن وضوءك خاطىء . ولربما لو اتبّعا الطّريقة المباشرة في تبيان الأخطاء وتصحيحها ، لأصرّ الرّجل على صحة وضوئه وخطأ وضوئهما .

* * *

بناءً على ذلك ، من الأمور الحسنة في صناعة وتنمية العلاقات الاجتماعية مع النّاس ، والتّعامل معهم : احترام آراءهم ، ووجهات نظرهم ، حتى لو كانت

---

(٢٨٧) الغرر والدرر .

تختلف مع وجهات نظرنا . واحترام آراء الآخرين فضلاً عن أنّه أسلوب جيد في معاملة النّاس ، فهو مفتاح المدّخول الى قلوبهم ، ومن ثم إقناعهم وكسبهم ، والتّأثير فيهم .

أمّا إذا قوبل الطّرف الآخر بعدم الاحترام لآرائه ووجهات نظره ، والإستخفاف بهاوتسفيهها ،فإنّه يشعر بالاهانة ، وربما بانخداش المشاعر ، وقد تأخذه العزّة بأفكاره وآرائهووجهات نظره ، فيتعصب لها وإن كانت خاطئة ، وربّما يجادل دفاعاً عنها ، وقد تتأثر العلاقة الإجتماعية به سلبياً .

فإذا أراد المرء ـ أو قُدّر له ـ أن يتحاور مع شخص آخر، او يتناقش معه ، وكان الأخير مخطئاً ، فمن الأفضل ان لا يقول له : أنّ أفكارك وآراءك خاطئة، بشكل سافر ، أو أن يقول له : انّ الحقيقة عكس ما تقول تماماً ، وخصوصاً في تلك المعاملات أو المناقشات أو الحوارات التي لا يكون للمخطأ فيها آثار خطيرة . بل من المفضّل أن يبدأ بالقول له : مع احترامي ، وتقديري لأفكارك وآرائك ووجهات نظرك . . . ومن الجيّد أن تذكر نقاط الايجاب فيها ، لأنّها تفتح قلبه ، ثم بعد ذلك يوضع أفكاره له بصورة هادئة ، مفعمة بالإخلاص والاحترام ، وسيجده أنه بدأ يقترب الى أفكاره ، يأخذ بها ، فعلى أقل التّقادير سيضع في نفسه أنه احترمه ، وقدر أفكاره وأراءه ، وبالتّالي فلن يعامله إلاّ بالتّقدير والاحترام .

بَيْد أنّ هناك من الناس ، من إذاطُرحتْ عليهم أفكار ووجهات نظر من آخرين ، فإنهم يفنّدونها ، ويستخدمون مثل هذه العبارات القاطعة : « الحقيقة عكس ما تقول » ، أو « كلامك لا يمتّ الى الصّواب بصلة » ، أو « الحقيقة خلاف ذلك » ، وما شابه ذلك من العبارات الحدّية . ولو أنّهم تروّوا ، وقدّروا أفكار الآخرين ، وأشاروا الى أخطائهم من طرف خفيّ ، أو بصورة فنيّة غير مباشرة ، لكان أجدى لهم ، وأفضل ، وللآخرين أيضاً .

وربّ قائل يقول : وما الدّاعي الى اللف والدّوران مع النّاس؟ .

وللإجابة على ذلك :

إنّ هذا ليس لفّاً ودوراناً ، وذلك لأنّ النّاس متفاوتون في تقبّل نقد الآراء ،

وفي تقبل تبيان الأخطاء ، وهم ذوو مشاعر وأحاسيس متفاوته بطبيعة الحال ، فمنهم من يعترف ويسلّم بالخطأ ، ويتقبلّ النّقد برحابة صدر ، ومنهم من يتقبله بقدر معيّن ، وبحدود معيّنة ، ومنهم من لا يتقبله ، فيكون مسرحاً للتأثّر السلبيّ بسببه .

بناءاً عليه ، فاستخدام الأساليب الفنية غير المباشرة في تبيين أخطاء الآخرين أو انتقادهم ، ليس لفاً ودوراناً ، بل هو أسلوب موضوعيّ حسن يراعي مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، وعواطفهم .

وإذا كان لزاماً على المرء أن ينتقد طرفاً ما ، فالأولى به أن يبين له أخطاءه من طرف خفيّ ، وبشكل فنّي ، لا بصورة مباشرة ، خاصة إذا كان رقيق المشاعر ، سريع التأثير ، وأن لا يفرض المرء معدنه على الشّخص الآخر فيما إذا كان (المرء) قويّ التحمّل للنقد ، وبذلك يحقّق أمرين :

١ ـ تبيان الحقيقة للطّرف الآخر ، وبيان خطأ ما يعتقد أو يقول .

٢ ـ تجنيب علاقته به التّوتّر والبغضاء المحتملة .

* * *

ومن القصص في مجال التّصرف ازاء الأخطاء والاشارة اليها بشكل غير مباشر قيل : كان أحد أصحاب المتاجر يستخدم هذا الاسلوب نفسه في معاملة عمّاله . فقد اعتاد أن يقوم بجولةٍ في متجره يومياً . وفي ذات يوم رأى أحد الزّبائن ينتظر صابراً دون أن يعيره أحد العمّال التفاتاً ، فأين كان الباعة ؟ كانوا في طرفٍ ناء من المتجر يسمرون يتندّرون ، ولم يَفُهْ بكلمة ، بل تسلّل في هدوء الى ما وراء الحاجز حيث يقف الباعة ، ولبىّ طلب الزّبون بنفسه ، ثمّ سلم البضاعة الى أحد عماله كي يلفّها ، وانصرف لحاله .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة الناس ، ويكسبهم الى وجهة نظره ، فليكن حكيماً في أن يحترم أفكارهم ، ويبيّن أخطاءهم ـ اذا كان لازماً ـ من طرف خفيّ ، وبطريقة فنيّة محبّبة .

كيف يكسب المرء الناس الى وجهة نظره ؟

الأهم من كسب النّاس إلى وجهة نظر معيّنة أو إقناعهم بها : نوعيّة وجهة النّظر ذاتها ، وموقعها على مقياس الحقّ والباطل ، والخير والشرّ ، بعبارة أخرى : إن أي فكرة أو رأي ، أو وجهة نظر لكي تكون جديرة بأن يكسب الناس اليها ، ويُقنعوا بها ، يجب أن تتحقق فيها شروط الحقّ والخير والفضيلة . أمّا الفكرة أو الرأي أو وجهة النّظر غير المحقّة وغير الخيّرة هي ليست جديرة باقناع النّاس بها . بطبيعة الحال ، إذ ليس من الجائز ولا من الصحيح اقناعهم بما هو شرّ وباطل ورذيلة ، هذا من جهة .

ومن جهة اخرى فان كسب النّاس إلى وجهة نظر ما يجب أن يعتمد الإخلاص ، والابتعاد عن الضّحك على ذقونهم . إنّ أي فكرة أو ثقافة ، أو فكرة أو رأي أو وجهة نظر ، وان كانت شريرة أو ساقطة قد يمكن إقناع النّاس بها ، باعتماد واستعمال قواعد علمية وسيكولوجيّة ، وباستعمال التّزيين والخداع(*) ولكن هذا أمر مرفوض ومردود لأنه دعوة للنّاس إلى الباطل ، وضحك على ذقونهم ، وإساءة لمعاملتهم .

أمّا الفكرة ، أو الرّأي ، أو وجهة النّظر المحقّة والخيرة لكي يُقنع المرءُ النّاس بها ، ويكسبهم إليها ، هناك طرق وقواعد لذلك ، ومنها ما يلي :

(*) يستعمل هذا أصحاب الثقافات المنحرفة والساقطة في الدعوة الى تلك الثقافات وترويجها .

١ ـ تجنب الجدال مع الطرف الآخر

إن افضل السّبل لكسب جدال هو تجنّبه . قال بعضهم : إذا جادلت وتحديت ، وناقضت ، فربّما استطعت أن تنتصر أحيانا ، ولكنّه نصر أجوف ، لأنّك ستخسر ـ على اية حال ـ حسن علاقتك بمحدثك . فماذا تفضل : انتصارا أجوفا ، أم علاقة طيّبة بالشخص الآخر ؟ فأنت قلمّا تفوز بالاثنين معا . وكما تقول الحكمة المأثورة : الرّجل الذي أرغم على أن يعتقد ما ليس يعتقده لا يزال عند اعتقاده الأوّل .

٢ ـ إحترام آراء الشّخص الآخر والابتعاد عن تخطئته

الأفضل للمرء أن لا يبدأ حديثه بقوله لمحّدثه : « سأثبت لك هذا او ذاك » فإن هذا القول يعادل قوله : « انّني أذكى منك وأقدر منك ، وسألقي عليك درساً لألغي ما يدور في ذهنك » وهذا يستثير عناد الشّخص الآخر حتى قبل ان يبدأ المرء بالحديث . واذا أراد المرء أن يثبت شيئاً فالافضل أن لا يعلن ذلك مسبقاً ، وأن يثبته في كياسة ولباقة حتى لا يكاد يشعر الآخر بذلك .

تقول الحكمة الشّهيرة : « كن أحكم النّاس اذا استطعت ، ولكن لا تقل للنّاس ذلك » .

واذا ظنّ المرء بأن متحدّثاً أخطأ ، أو جزم بخطئه ، فالافضل أن يقول له : مع احترامي لرأيك ، فأنا أرى رأياً آخر ، وقد أكون مخطئاً ، فإذا كنتُ قد اخطأت ، فلتصحّح لي خطئي ، فدعنا نختبر الآراء .

٣ ـ التّسليم بالخطأ

إذا أدرك المرء أنّه على خطأ ، فمن الأحجى أن يسبق الشّخص الآخر الى التّسليم بخطئه ، اذ من الأفضل أن يستمع المرء إلى النّقد الموجّه اليه من نفسه بدلاً من أن ينصت اليه من شخص آخر . إنّ التّسليم بالأخطاء سبيل الى الارتفاع والسمّو ، ومتعة تعود على المرء ، لا يشعر بها حين يحاول تبرئة نفسه وإنكار أخطائه .

٤ ـ التوسّل بالرّفق واللين وترك الغضب والعنف.

بطبيعة الحال لا يمكن لأمريء أن يقنع شخصاً أخر أو يكسبه إلى وجهة نظره اذا كان قلب هذا الأخير مفعما بالحنق عليه والبغضاء له ، ومن هنا فاستعمال الرّفق واللين مع الآخرين أمر يساعد على إقناعهم بالآراء ووجهات النّظر.

٥ ـ تقديم أسئلة تُثمر إجاباتٍ بالإيجاب

إذا تناقش امرؤ مع شخص آخر ، فلا يبدأ معه بنقاط الإختلاف ، بل ليبدأ بذكر وتأكيد نقاط الإتفاق . وكما يقال : « دع الشّخص يظلّ يقول : « نعم » في مبدأ الأمر ، وحُل بينه ـ ما استطعت ـ وبين قوله : « لا » » . فالمتحدّث اللبق هو الذي يحصل من الشّخص الآخر على اكبر عدد من الإجابات بنعم في بادىء الأمر .

يقول احد الكتّاب في هذا الصّدد :

« كان سقراط عبقريّاً برغم انّه كان يمشي حافي القدمين ، وبرغم انّه تزوّج من فتاة في التاسعة عشرة من عمرها عندما كان هو رجلاً أصلعاً ذميم الخلقة في الأربعين من عمره . . . . فماذا كانت طريقته في الإقناع ؟ هل كان يقول للنّاس أنهم مخطئون ؟ كلّا ! بل كان يسأل أسئلة لا يملك مُجادِلهُ إلا الاجابةِ عنها بنعم ! ويظلّ سقراط يكسب الجوانب تلو الجوانب حتّى ينظر مناظره ، آخر الأمر ، فيرى أنه انتهى إلى مبدءٍ كان ينكره منذ دقائق خلت ! » .

٦ ـ جعل الشّخص الآخر يتحدّث بحريّة

إن الأجحى في اقناع الطّرف الآخر إتاحة الفرصة له لكي يتولّى دفّة الحديث ويتحدث بحرّية تامّة . ويمكن استدراجه إلى الحديث بالأسئلة ، وجعله يفضي بما في نفسه . ومن المفضّل الإمتناع عن مقاطعته في حديثه ، ما دام لم يكمله بعد ، والانصات اليه بصبر، ووعي ، وتشجعيه على إبداء آرائه .

٧ ـ جعل الشّخص الآخر يحسّ أنّ الرأي رأيه

إنّ من طبيعة الإنسان أنّه يعتزّ بالأفكار والآراء التي يتوصّل إليها بنفسه أكثر ممّا

يعتز بتلك التي تقدّم إليه جاهزة ومن هنا فالأفضل لإقناع شخص آخر بآراء معينة واتاحة الفرصة له لكي يتوصّل إلى تلك الآراء بنفسه ولكي يشعر بأن الرّأي الذي توصّل اليه هو رأيه، وأنّ الفكرة فكرته.

٨ ـ رؤية الأمور من وجهة نظر الطّرف الآخر

قد يكون الشخص الذي يراد إقناعه مخطئاً، ولكنه لم يسلم بأخطائه، وقد لا ينفع معه اللوم للإعتراف بخطئه والإقتناع بالحقيقة، فالافضل أن لا يلام وعوضا عن ذلك هو بحاجة إلى أن يُفهم، ويستعان عليه بالصّبر، وأن تقدّر وجهة نظره، ويُتطلّع إلى الأمور من النّاحية التي ينظر منها إليها. وسوف يجد من يريد الإقناع أنّ سبباً غير مرئيّ قد أوحى الشخص الآخر أن يفكّر كما يفكّر، أو يتصرف كما يتصرّف، وان يقتنع بما أريد إقناعه به.

٩ ـ العطف على رغبات الشّخص الآخر

من الطّرق التي تروّق جّو الحديث، وتشيع روحاً طيبة فيه، وتجعل الطّرف الآخر يصغي للمحدِّث باهتمام: تقدير أفكار الطرف الآخر، والعطف عليه وعلى رغباته. ومثال ذلك أن تقول له: لست ألومك على موقفك هذا، أو على إحساسك هذا، ولو كنت في موقعك لكان لي مثل الموقف الذي اتّخذت أو الاحساس الذي أحست.

إنّ أغلبيّة النّاس ظمأى إلى العطف والتّقدير وبإرواء هذا الظّمأ، يهبون قلوبهم، موافقة لمن يريد اقناعهم وكسبهم إلى وجهة نظره. فقد يأتيك شخص خائفاً غاضباً لا يستحق منك اللوم بقدر ما يستحق الأسف والرّثاء لحاله، فقدّم له عطفك، وستجد أنك كسبته إلى جانبك.

١٠ ـ التوسّل إلى الدّوافع النّبيلة في الطّرف الآخر

إذا شاء المرء أن يغيّر طباع النّاس، ويقنعهم بأفكاره ووجهات نظره الصّحيحة، لزم أن يخاطب كوامن النّبل والخير فيهم. إنّ من النّاس من هم خيّرون وأمناء ومخلصون، ومنهم الشّريرون والمشاكسون والعنيدون، فحتّى هؤلاء الأخيرين يستحيلون منصفين ومخلصين، ويقتنعون بما يراد اقناعهم به فيما إذ

عوملوا على أنهم منصفون ومخلصون ، وخوطبت دوافع الخير والنّبل فيهم .

١١ ـ استعمال التّمثيل في عرض الأفكار والآراء

قد لا يكون سرد الحقائق مجردةً ، كافياً ، لإقناع الشخص الآخر وهنا يلزم للمرء أن يسوقها له في أسلوب تمثيليّ ، ولا شك أن الأسلوب التمثيلي يؤثر في نفس الشخص الآخر اكثر مما يؤثر اسلوب سوق الحقائق مجّردةً . والاسلوب التمثيلي في الإقناع يتمّ باستعمال الحركات والإرشادات التّمثيلية في الحديث لتقريب الأفكار إلى الشّخص الآخر وجعلها تؤثر فيه ، أو باستعمال العرض المادّي : عرض مادّة الشيء التي يراد إقناع الشّخص الآخر بها أو إفهامه إيّاها ، كما يعرض الباعة سلعهم بطريقة فنيّة تجتذب المشترين ، وكما يفعل التّمثيل التليفزيونيّ والإذاعيّ .

١٢ ـ وضع الأمر موضع المنافسة

تعمل المنافسة الخيرة على بث الحماس في قلوب الطّرفين المتنافسين ، وتحفّز على سرعة الإنجاز وجودته ، وعلى الرّغبة في التفّوق . وهذه الرّغبة يمكن استعمالها في إقناع الشّخص الآخر . وكمثال على ذلك : هَبْ أنّك تريد اقناع شخصين عاملين لك بأمر ما ـ كزيادة إنتاج سلعة معيّنة ـ وقد تطلب منهما زيادة الإنتاج بصورة مجردة فلا يقتنعان ولا يستجيبان لطلبك . ولكن لو أنّك جرّبت أسلوباً آخر ، وهو ايجاد حالة تنافس في زيادة الإنتاج ، بينهما ، فإنك ستجد أنّ كلاًّ منهما سيسعى للتفوّق على الآخر ، وبذلك سيزداد الإنتاج : الأمر الذي أردت اقناعهما به .

والآن فلكي يكسب المرءُ النّاس إلى أفكاره وآرائه ووجهات نظره المحقّة ، خليق به أن يتوسل بالقواعد المتقدّمة الذّكر .

كيف يطلب المرء ما يريد من الناس ؟

لمّا كانت الحياة قائمة على التّعاون والتّكامل والتّكميل فإن كلّ فرد فيها لا بدّ وأن يحتاج إلى الآخرين ، وأن يطلب منهم القيام بعمل ما . ومن طبيعة النّاس أنّهم متفاوتون في تقبلهم للأوامر والمطالب ، فمنهم من لا يريد أن يؤمر ، بل يحبّ أن يُلتمس منه ، أو أن يرجى في القيام بعمل معيّن ، ومنهم من لا يمانع في الإستماع إلى الأوامر ، وله قابلية الإستجابة إليها . إلا أنّ غالبية النّاس ـ على ما يبدو ـ لا تفضل الأوامر المباشرة ، لأنهم يحسّون أنها تنال من شخصياتهم ، وتمس كبرياءهم ، ويفضّلون أن تقدّم لهم الأوامر والمطالب في صورة التماسات ، أو رجاءات ، أو اقتراحات ، أو تمنّيات ، أو آمال ، أو ما شابه ذلك .

وعلى سبيل المثال :

إنّ موظّفا ، لا مانع لديه أن يلبّي الطّلبات والأوامر ، إذا كان قد تلقّاها من مديره ، أو من غيره ، في صورة التماس ، أو رجاء ، بل إنّه بهذا الأسلوب ينطلق في تأديتها ويندفع . ولكنّه قد لا يكون مستعداً لتنفيذ الأوامر المباشرة ، أو قد ينفّذها من وراء أنفه .

ومن هنا فإن مراعاة الطّبيعة البشريّة والجانب النّفسي للشّخص الآخر ، من أهم الأمور والمسلكيات في التّعامل مع النّاس ، ومنه الطّلب منهم ـ في أيّ موقع من المواقع ، وفي أي مؤسسة من المؤسسات .

وهناك الكثير من التّعبيرات الحسنة في هذا المجال ، قد تجعل الطّرف الآخر يقوم بالأعمال المرجّوة منه ، من تلقاء نفسه . ومثال تلك التّعابير : « التمس منك أن تقوم بكذاوكذا . . . » « التمس منك أن تساعدني في كيت وكيت . . . . » ، « أرجو لو تقوم بكذا وكذا . . » ، « اقترح أن تفعل كذا وكذا . . . . » ، « أتمنى أن تفعل كذا وكذا . . ، « آمل أن تقوم بكذا وكذا . . . . » ، « من المفضّل أن تفعل كذا وكذا . . . » ، « ما رأيك أن تقوم بكذا وكذا . . . . » ، « هل لك أن تصنع كذا وكذا . . » ، « أتوسّم فيك أن تقوم لي بكذا وكذا . . » .

ولو أنّ المرء استخدم عقله جيداً وذوقه الكلامي ، لتوصّل إلى الكثير من العبارات اللطيفة التي تعطي مفهوم الطّلب والأمر للآخرين من أجل أن يقوموا بالأعمال المرادة منهم ، ولكن بصورة فنيّة غير مباشرة . ولا غرابة إذ وُجد كثيرون من النّاس يندفعون للقيام بالاعمال ، بإشارات ، أو رموز كلاميّة فنيّة ، تقدّر شخصياتهم ، وتحفظ كرامتهم ، وتراعي مشاعرهم .

ثم انّ أسلوب الإلتماسات ، والرّجاءات ، والاقتراحات ، والتمنيّات ، والآمال ، يسهل على الطّرف الآخر أن يصحّح خطأه ، فيما اذا كان مخطئاً ، لأنه يحتفظ له بشخصيته ، ويشيع فيه الإحساس بالاهمية ، ويسلس قياده ، ويدفعه إلى التعاون والموافقة ، بدل أن يحفزه إلى المشاكسة والعناد .

ويمكن للمرء أن يجرّب بنفسه هذا الأسلوب ، كأن يقول لشخص يعرفه : أتمنى لو تساعدني في عملي هذا ، أو بأسلوب يشابه هذا الأسلوب ، فإنه سيهبّ في مساعدته راغباً . أمّا لو طلب منه ذلك في صورة أمر مباشر ، فقد لا يستجيب له ، وربما يردّ عليه بقوله : ومن أنت حتّى تصدر أوامرك إليّ ؟ .

وفضلا عن أن غالبية النّاس لا تفضّل استقبال الأوامر المباشرة ،فإنّ قسماً منهم لا يستسيغ استقبالها أمام جمع من النّاس ، لأنّ الأمر المباشر أمام المجموع قد يحدث تأثيراً لا ايجابياً اكبر منه بشكل ثنائي . وكقاعدة : إن نوع معدن الإنسان ، وطبيعته البشريّة ، وحالته النّفسيّة هي التي تحدّد طريقة الطّلب منه ، وانّ الأفضل هو استعمال الطلب بأسلوب غير مباشر .

فلكي يجعل المرءُ النّاس يندفعون إلى الأعمال التي يرجوها منهم ، أو يقترحها عليهم ، لا يصدرنّ لهم الأوامر المباشرة ، وليطلب ما يريده منهم في صورة التماس ، أو رجاء ، أو اقتراح ، أو تمني ، أو أمل ، أو ما شاكل ذلك .

تدبيب الآخرين في الأعمال المطلوبة منهم

من الأمور التي على الإنسان أن يدركها في معاملته النّاس ، أنّهم ينطلقون في أداء الأعمال التي يرغبون فيها واليها ، فضلاً على الأعمال التي يندفعون فيها ذاتياً ، وهذا أمر طبيعيّ . وعليه فلا ننتظر من الآخرين أن يقوموا لنا بأعمال ، تبدو وكأنها قراراتٌ بعيدة عن تحبيبنا إيّاها لهم ، وترغيبنا .

ومثال هذه القاعدة :

أن يريد امرؤٌ تكاليف شخصٍ آخر بتدريس مجموعة من الطّلاب في جانب معيّن . فيأتي ويقول له بصدق نيّةٍ ، وإخلاص : إنّ مهنة التدّريس من المهن الانسانية المؤثرة اللطيفة ، وللمدّرس دور أوّلي وكبير في تعليم الناس ، ونقلهم من مستوى إلى اخر ، وفي توجيههم ، وتربيتهم ، فهو الذّي ربّى وعلّم المهندس ، والطبيب ، وكلّ اخصّائي في الحياة ، وإني لأتوسّم فيك ، وأنتظر منك أن تقوم بمهمّة التّدريس على خير ما يرام ، كما إني لا يساورني الشّك في كفاءتك في التّدريس وقدرتك عليه ، ولا في كونك محبّ لهذه الخدمة الانسانية النبيلة ، وانه لثواب جزيل ينتظرك في اليوم الآخر قبال هذه الخدمة العظيمة .

وبعد هذا ، لا غرابة إذا وُجد هذا المدرّس ينطلق وبإخلاص في التدريس ، ويتفاعل معه ، ويقوم به على خير وجه ، والسبّب يعود إلى الحبّ والرّغبة اللذين أُحدثا في نفس هذا الإنسان تجاه خدمة التّدريس .

ومثال اخر على ذلك :

قد تطلب من طفلك الإستحمام ، فيرفض ، فتأتي اليه وتقول : « إنّك اذا استحمّيت بالماء والصّابون ستصبح نظيفاً عبقاً ، وسيحبك أصدقاؤك الأطفال » ، وبذلك ستجده يوافقك على الإستحمام .

وهكذا الحال بالنّسبة لأعمال الخير الأخرى ، فتحبيب النّاس فيها ، وتحبيبها إليهم ، وسيلة إنسانية ناجحة ، تجعلهم يندفعون إليها ، وينطلقون بنشاط في أدائها .

والتّحبيب لاينحصر فقط في متطلّبات الحياة الإجتماعية والتّعامل ، بل حتّى في مجال الواجبات والفرائض الدّينية يكون للتّحبيب دوره الكبير . فربّ تارك للصّلاة ، يأتي إليه المرء ويقول له : كم هي المتعة الروحية ، والرّاحة النّفسية ، والحلاوة المعنويّة حينما يتوجّه الإنسان للصّلاة ، ضارعاً إلى ربّه ، خاشعاً إلى مولاه ! ، وكم هو الثّواب الذي ينتظره لقاء ذلك ! ، فيجده يندفع إلى صلاة ربّه ويرغب إليها . وربّ مفطرٍ في شهر رمضان يأتي إليه المرءُ مخاطباً : ما أعظم الصّوم ! وما أعظم درجة الصّائم عند الله ! ثم يبينّ له الفوائد الجسميّة والنّفسية والخلقيّة التي يتركها الصّوم على الصّائم ، فيندفع إلى الإلتزام به .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة النّاس ، الأولى به أن يحبّبهم ويرغّبهم في الأعمال التي يطلبها منهم ، والتي يقترحها عليهم .

حسن لقاء الناس

يمثّل اللقاء والإلتقاء بالنّاس مقدّمة التّعامل معهم ، ومن شأن هذه المقدمة أن توسم بالحسن والجمال لكي تُحسن معاملتهم . ألا يرى الواحد منّا كيف تقابل الوردةُ ناظرها وتلتقيه ؟ إنّها تلقاه بألوانها الجميلة ، ورائحتها الزكيّة . وهكذا يجب أن يكون حال الإنسان في لقائه النّاس والتقائه بهم ، كما الوردة ، يلتقي بهم بحسن وجمال ، ومن حسن اللقاء بالناس : حسن البشر ، وطلاقة الوجه ، والتبسّم ، والبشاشة ، وطيب الكلام .

ومن آداب حسن اللقاء بالناس :

السّلام ، والمصافحة ، والمعانقة ، والتّقبيل .

السّلام

« السّلام عليكم » ! ما أجمل وأعظم هذه الكلمة اللطيفة حينما يعلنها المرء لمن يلقاه ! إنّها إعلان واعلام لحالة السِّلم والصّلح والأمان والوئام بين الطّرفين المتلاقيين ، وتحيّة تمثّل عهداً بحفظ السِّلم وصونه بينهما . ولعظمة السِّلم فقد وردت آيات قرآنية عدّة فيه وفي صونه والدّخول فيه ، كما ورد ذكر شعاره وهو « السّلام » ، وهكذا الحال بالنسبة للأحاديث الشريفة فقد أعطته اهتماما كبيراً ، اذ الإسلام دين السّلام ، ولا نعمة أعظم من نعمة الصّلح والسّلم والأمن والوئام .

يقول تعالى :

﴿ تحيّتهم فيها سلام ﴾ .(٢٨٨) .

(ويقول الرسول الأعظم (ص) :

« اذا تلاقيتم فتلاقوا بالتّسليم والتّصافح ، واذا تفرقّتم فتفرّقوا بالاستغفار » .(٢٨٩) .

إنّ السّلام « السِّلم » شيء عظيم في الحياة ، لأنه قوامها ، وبدونه تتحوّل الحياة إلى أتون حروب وصراعات وعداوات ، لذلك أعطى الإسلام شعار السّلام

---

(٢٨٨) ٢٣ / ابراهيم .

(٢٨٩) بحار الأنوار ، ج٧٦ ، ص٥ .

اهتماماً كبيراً ، وجعله مقدّماً على الكلام ، كما اعتبر ارساء السّلام في العالم ، وافشاء شعاره فيه ، خير اخلاق أهل الدّنيا والآخرة . ولعظمة السّلام وشعاره ، فقد جعل الإسلام ردّه واجباً ولو في أثناء الصلاة .

يقول الرسّول الأعظم (ص) :

« من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تجيبوه »[290] .

ويقول (ص) أيضاً :

« لا تدعُ إلى طعامك أحداً حتّى يسلِّم »[291] .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

« السّلام قبل الكلام »[292] .

ويقول الرسول الأعظم (ص) :

« ألا أخبركم بخير اخلاق أهل الدنيا والاخرة ؟ قالوا بلى ، يا رسول الله فقال : إفشاء السّلام في العالم »[293] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ واذا حُيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾[294] .

ويقول الرّسول الأعظم (ص) :

« السّلام تطوّع والرّد فريضة »[295] .

والبدء بالسّلام دليل تواضع الإنسان وبراءته من الكبر . ولهذا فمن أحد

---

(٢٩٠) المصدر السابق ، ص٣ .

(٢٩١) المصدر السابق ، ص٣ .

(٢٩٢) المصدر السابق ، ص١٢ .

(٢٩٣) المصدر السابق ، ص١٢ العالم : الخَلْقُ كلُّه .

(٢٩٤) ٨٦ / النساء .

(٢٩٥) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٢٤٣ .

اسباب الإمتناع عن ابداء السّلام : الكبر أو التكبر ، وهو من الأخلاق المذمومة .

يقول الرسول الأعظم (ص) :

« البادىء بالسّلام بريء من الكبر »[٢٩٦] .

ومع أن السّلام أمر سهل لا يكلف شيئا ، فإن هناك من النّاس من لا يعيره اهتماماً ، أو يراه أمراً مكلفاً ، أو يبخل به ، ولا أبخل ممّن يبخل بالسّلام ! .

يقول الرّسول الأعظم (ص) :

« إن أبخل النّاس من بخل بالسّلام » .

وكلّنا قد شاهد بأم عينه شخصاً يمرّ على جماعة ، أو يدخل على جمع من الناس ، دون أن يبدرهم بالسّلام ، وكأنه يعتبرهم خشب مسنّدة ، أفلا يخلق به ان يسلّم عليهم ، ويلقاهم بوجه منبسط ؟ ! وهل السلام يكلفّه شيئا ؟ ! .

وللسّلام آداب ، الأولى بالمرء أن يأخذها بعين الإعتبار وهي قول الرسول الأعظم (ص) :

« يسلم الصغير على الكبير ، ويسلم الواحد على الإثنين ، ويسلم القليل على الكثير ، ويسلم الراكب على الماشي ، ويسلم المارّ على القائم ، ويسلم القائم على القاعد »[٢٩٧] .

وكما أنّ اللقاء هو بداية التعامل بين شخصين ، أو طرفين ، فإن الوداع هو خاتمة المعاملة بينهما ، ومن شأن هذه الخاتمة لكي تكون حسنة ان تُشفع بالاستغفار المنّفس وللشّخص الآخر ، والدّعاء له .

كان رسول الله (ص) إذا ودع المؤمنين قال :

« زوّدكم الله التقوى ، ووجّهكم الى كل خير ، وقضى لكم كلّ حاجة ، وسلّم لكم دينكم ودنياكم ، وردّكم اليّ سالمين »[٢٩٨] .

---

(٢٩٦) كنز العمال ، خ ٢٥٢٦٥ .

(٢٩٧) كنز العمال ، خ ٢٥٣٢١ .

(٢٩٨) تنبيه الخواطر ، ص٢٦١ .

المصافحة

ومن الآداب الحسنة في لقاء الإخوة والناس ـ بعد السّلام ـ التّصافح أو المصافحة ، وهي أن يمسك كلّ من الشّخصين المتلاقين كفّ الآخر بالطّريقة المتعارف عليها ، والمعروفة بين النّاس .

وربّ سائل يسأل :

وما الداعي الى المصافحة ؟ وما فائدتها ؟ إن المصافحة المخلصة تعبير عن الإخاء والسّلم والوئام بين الشّخصين الملتقين ، وهي ليست حركة فارغة يؤدّيها المرء بشكل ميكانيكي مجردّ ، بل هي ذات معنى ومغزى ، ومغزاها التّعبير عن حالة الإخاء والحبّ والموافقة والوئام مع الشخص الآخر ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى أنّها تعمل على إزالة الأوزار والاحقاد والسّخائم والاغلال النّفسية من قلبيّ الشخصين المتصافحين .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« إذا لقيتم إخوانكم فتصافحوا وأظهروا لهم البشاشة والبشر ، تتفرّقوا وما عليكم من الأوزار قد ذهب »[٢٩٩] .

ويقول الرسول الأعظم (ص) :

---

(٢٩٩) بحار الأنوار ، ج٧٦ ، ص٢٠ .

تصافحوا فإن التّصافح يُذهب بالسّخيمة »[300] .

ويقول (ص) أيضاً :

« تصافحوا فإنه يذهب بالغلّ »[301] .

هل تحمل في قلبك شيئا ما على أخٍ من إخوانك ، أو على شخص من الناس ؟ أو هل يحمل عليك شخص آخر شيئا ما في قلبه ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فلتجرّب المصافحة معه ، فإن من شأن المصافحة ان تصهر الجليد المتراكم على بوّابة قلبك وبوّابة قلبه .

والمصافحة ليست وسيلة لجلي الأغلال عن القلوب فحسب ، بل هي وسيلة لجلي العدوان عنها . فربّ امرىءٍ يصافح عدوّه فيتحول هذا العدوّ الى وليّ حميمٍ له .

يقول الإمام علي (ع) :

صافح عدوك وإن كرِه ، فإنه مما أمر الله ـ عزّ وجل ـ به عباده ، ويقول : ﴿ إدفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عدواة كأنّه وليّ حميم . وما يُلقاها إلاّ الذين صبروا وما يُلقاها إلاّ ذو حظ عظيم ﴾ ، ما تكافى عدوّك بشيء أشدّ عليه من ان تطيع الله فيه » .[302] .

وفيما يرتبط بالمصافحة بين الجنسين لا يجوز للرّجل ان يصافح المرأة التي هي غير ذات محرم(*) بالنسّبة له كما لا يجوز للمرأة ان تصافح الرّجل غير ذي المحرم بالنسبة لها ، إلاّ من وراء الثّوب .

---

(300) اصول الكافي ، ج٢ ، ص١٨٢ .

(301) بحار الأنوار ، ج٧٧ ، ص١٦٥ .

(302) المصدرالسابق ، ج٧١ ، ص٤٢١ .

(*) المرأة ذات المحرم بالنسبة للرجل هي التي لايجوز له أن يتزوجها ، وغير ذات المحرم هي التي يجوز له أن يتزوجها . و الرجل ذو المحرم بالنسبة للمرأة هو من لايجوز لها أن تتزوجه ، وغير ذي المحرم هو من يجوز لها أن تتزوجه .

المعانقة

ومن المستحب في لقاء الإخوان والمؤمنين : المعانقة ، وهي جعل اليدين على العنُق والضمّ الى الصدر . وحين المعانقة المخلصة يشعر كل من المتعانقين بدفء الأخوة والمودّة والوئام بينهما ، بل لو كان في قلب كلّ منهما شيء على الآخر فإن من شأن المعانقة ان تذيب ذلك الشيّء وأن تعيد المياه الى رَوْقها السّابق : أي ترجعهما الى حالة التّصافي والصّفاء التي كانا عليها .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« إن المؤمنين اذا اعتنقا غمرتهما الرّحمة ، فإذا التزما لا يريدان بذلك الاّ وجه الله ، ولا يريدان غرضاً من أغراض الدّنيا ،قيل لهما : مغفوراً لكما ، فاستأنفا . . . »[٣٠٣] .

ويقول (ع) ايضاً :

« أيّما مؤمن خرج الى أخيه يزوره عارفا بحقّه ، كتب الله له بكل خطوة حسنة ، ومُحيت عنه سيئة ، ورُفعت له درجة ، واذا طرق الباب فُتحت له أبواب السّماء ، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا أقبل الله عليهما بوجهه . . »[٣٠٤] .

ويقول (ع) :

(٣٠٣) الأصول من الكافي ، ج٢ ، ص١٨٤ .

(٣٠٤) المصدر السابق ، ص١٨٤ .

« إنّ من تمام التّحية للمقيم المصافحة ، وتمام التّسليم على المسافر المعانقة »[٣٠٥] .

(٣٠٥) المصدر السابق ، ص٦٤٦ .

التقبيل

وكما المعانقة في لقاء الإخوان تعبير عن الاخوة والمودة والوئام كذلك التقبيل ـ هو الآخر ـ تعبير عنهما . إن المرء حينما يقبّل أخيه ، فكأنه يقول له : أخي ، إنّي أحبّك وأودّك من صميم قلبي وضميري ووجداني .

يقول الإمام الصّادق (ع) :

« إنّ لكم لنوراً تُعرفون به في الدّنيا ، حتّى أن أحدكم إذا لقي أخاه قبّله في موضع النّور من جبهته »(٣٠٦) .

ويقول (ع) :

« ليس القبلة على الفم الاّ الزّوجة والولد الصّغير »(٣٠٧) .

ويقول الإمام علي « ع) :

« قبلة الولد رحمة ، وقبلة الزوجة شهوة ، وقبلة الوالدين عبادة ، وقبلة الرّجل أخاه دين »(٣٠٨) .

إذا قبّل احدكم ذات محرم قد حاضت : أخته ، أو عمّته ، أو خالته ، فليقبّل

---

(٣٠٦) وسائل الشيعة ، ج٨ ، ص٥٦٦ .

(٣٠٧) الاصول من الكافي ، ج٢ ، ص١٨٦ .

(٣٠٨) بحار الانوار ، ج١٠٤ ، ص٩٣ .

ما بين عينيها ، ورأسها ، وليكفّ عن خدّها وعن فيها »[٣٠٩] .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

« لا يُقبَّل رأس احدٍ ولا يده إلاّ رسول الله صلّى الله عليه واله ، او من اريد به رسول الله صلّى الله عليه واله »[٣١٠] .

« عن جابر (الأنصاري) قال : لقيت النّبي (ص) فسلمت عليه ، فغمز[٣١١] يدي ، وقال : غمز الرّجل يد أخيه قُبلته »

وهكذا فإنّ حسن اللقاء بالناس هو من حسن معاملتهم ، فلكي يحسن المرء معاملتهم ويكسب حبّهم خليق به ان يفشي السّلام فيهم ، بادئاً به ، وان يصافحهم ويستحب له ان يعانقهم ، ويقبّل مواضع النّور من جباههم .

---

(٣٠٩) المصدر السابق ، ج٧٦ ، ص٤٢ .

(٣١٠) وسائل الشيعة ، ج٨ ، ص٥٦٥ .

(٣١١) غَمَزَ : جسّ وكبس باليد .

التعرف على الناس

بديهةً أنّ الناس خُلقوا ليس من أجل ان يتجاهل بعضهم بعضاً ، وانّما من اجل ان يتعارفوا فيما بينهم بصرف النّظر عن التعدد الشّعبي والقبليّ ، والقوميّ ، والعنصريّ وغير ذلك من صور التعددّ ، إذ التّعارف هو السنّة التي أرادها الخالق ـ عز وجل ـ لكي يعيش البشر في وئام وليكمّل بعضهم بعضاً ، وليتعاونوا في أداء رسالتهم في الحياة ، ومن هنا كان التعرّف على الناس وسيلة من وسائل التّعارف فيما بينهم .

وإذ أنّ التّعارف هو الأمر الذي يلائم الفطرة البشرية التي فطر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس عليها ، فإنه ـ عزّ وجل ـ منح الإنسان إمكانية التّعرف على بني نوعه وبسهولة ، ولا أسهل من التعرف على الناس .

ومع أن التعرّف على الناس فنّ سهل ، إلاّ ان كثيراً منهم لا يجيدونه ، ومنهم من لا يعيره أدنى اهتمام ، وقد يقول قائل منهم : لست فارغاً لكي أتعرّف على غيري ، وقد يقول آخر : إن من إضاعة الوقت التعرّف على الناس ، وقد يقول ثالث : لا أجد حافزاً داخلياً لديّ لكي اتعرّف على أحد(*) . وقد يقول رابع : مالي والناس ، هم شأنهم ولي شأني . وقد تجد شخصاً يتحدّث مع شخص آخر

(*) تجدر الاشارة الى أن ضعف الروح أو الحالة الاجتماعية لدى الفرد ، والانطواء على الذات والانشغال بها ، وضيق الصدر ، والملل ، والتشاؤم ، والتكبر ، وسوء الظن ، وفقدان الثقة ، و . . . من العوامل التي تؤدي الى ضعف ملحوظ في التعرف على الناس ، ومخالطتهم ، والتعاون معهم .

لساعات ، ولكنّه لا « يجشّم » نفسه تقديم بعض الأسئلة له من اجل التّعرف عليه ! وهذا ليس أسلوباً لائقاً .

إن التّعرف على الناس ليس مضيعة للوقت ، لأنّه في أبسط صورة لا يستغرق من المرء سوى وقتا يسيراً ، وإنّ الرّغبة في صنع العلاقات الإجتماعية والتّعامل مع النّاس هو الأمر الذي يجعل المرء يحفّز في سبيل التّعرف عليهم والتّعارف معهم(*) .

وعن طريق التّعرف على الناس تتوسع دائرة معارف الإنسان ، وعلاقاته الاجتماعية ، وتتاح له الفرص من اجل اصدقاء جدد . وكم من إنسان تعرّف على آخر ، فأمسيا صديقين حميمين ! وكم من إنسان تغلّب على وضع صعب أو مشكلة بواسطة تعرّفه على إنسان ! .

وربّ سائل يسأل :

وهل كل من يلتقي بهم المرء في المواقع المختلفة كالمسجد والشّارع والمحفل ، والمستشفى ، والدّائرة ، و . . . خليق به أن يتعرّف عليهم ؟ .

والإجابة على ذلك :

إن وقت الإنسان ليس كلّه مخصّصا للتعرّف على النّاس ، وانّما جزء منه يمكن ان يستفيد منه في هذا السبيل وان يغتنم الفرص المؤاتية لذلك . فعلى سبيل المثال : قد يزور المرء مستشفى أو مطباً ، ويصادف ان يجلس في غرفة الانتظار الى جوار شخص يرى من الحسن التعرّف عليه ، فلينتهز هذه الفرصة وليتعرف عليه(*) . أو قد يصلي في مسجد ويلتقي بمجموعة من المصلّين ليست بينه وبينهم معرفة مسبقة ، فيمكنه ان يتعرّف عليهم أو على بعضهم . وبكلمة : لينتهز المرء كل فرصة تمكّنه من التعرّف على الآخرين وفي المواقع المختلفة فمن شأن هذا التعرّف ان يوسع من شبكة علاقاته الإجتماعية ،ويعينه على أعباء الحياة ، أو على

(*) تقيم بعض المؤسسات اجتماعات للتعارف بين الأعضاء القدامى والجدد ، وبين الجدد ، وبين الجدد أنفسهم . وهنا تظهر أهمية التعارف في سبيل الخير .

(*) لسبب أو لآخر ، هناك من الناس من لايبادر في التّعرف ، وينتظر من الآخرين أن يتعرفوا عليه ، فالخليق بالمرء أن يكون متواضعاً للناس ، متحلياً بالروح الاجتماعية ، ومبادراً في التعرف عليهم .

أقلّ التقادير يجعله معروفاً لدى شريحةٍ لا بأس بها من النّاس . وبهذه المعرفة ينشط الإنسان ، ويؤثر في الإجتماع ، ويفيد بإمكاناته وخبراته ، ويستفيد من امكانات الآخرين وخبراتهم .

أما عن كيفية التّعرف على الناس فهي فنّ سهل كما تقدم ، وقد تكون لكلّ شخص طريقته الخاصّة في التعّرف عليهم . ولكن هناك أمور أولية مشتركة في التعرّف والتّعارف ، منها :

- التّعرف على اسم الشّخص وعائلته .
- التّعرف على عنوان سكنه ، ورمزه البريديّ .
- التّعرف على وظيفته أو مهنته ، وعنوان عمله .
- التّعرف على بعض اصدقائه ، وبعض من يعرفهم .
- التّعرف على الخبرات والكفاءات التي يمتلكها .

وبعد التّعرف يمكن للمرء اذا أراد أن يطوّر العلاقة مع من تعرف عليه وتعارف ، كأن ينظّم له زيارات ، أو يراسله اذا كان في منطقة نائية ، أو في بلد آخر ، ويصادقه ، ويستثمر العلاقة الإجتماعية به .

وهكذا فإن التعرّف على الناس والتّعارف معهم ، دليل الرّوح الاجتماعية ، ووسيلة لإنشاء العلاقات الإنسانية ، والتعاون على البّر والخير مع الناس وفي التّعرف متعة وسعادة يفتقر اليهما كلّ من لا يعير اهتماماً به .

حسن المجالسة

قال الإمام علي بن الحسين (ع):

« أمّا حقّ جليسك: فأن تلين له جانبك، وتنصفه في مجاراة اللفظ، ولا تقوم من مجلسك إلّا بإذنه، ومن يجلس اليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك، وتنسى زلّاته، وتحفظ خيراته، ولا تُسمِعه إلّا خيراً »[٣١٢].

« وقال الحواريون لعيسى (ع): يا روح الله، فمن نجالس إذاً؟ قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقُه، ويرغّبكم في الآخرة عملُه »[٣١٣].

*

للمجالس والمجالسة علاقة وطيدة بمعاملة الناس والرّوابط بهم، إذ المجلس هو السّاحة أو الظّرف الذي يحصل فيه اللقاء والتّعامل، والمجالسة بدورها هي الوسيلة التي معها يحصل التّعامل فيما بين الناس.

ولمّا كان المجلس والمجالسة بهذا الشّأن والمنزلة، فقد أولاهما الدّين اهتماماً لما لهما من تأثيرات على الإنسان وسلوكه في الحياة، وجعل لهما حدوداً وآداباً، إذ الإنسان في المجلس او المجالسة يؤثر ويتأثر: يؤثر في الآخرين وفي أجواء المجلس،

---

(٣١٢) تحف العقول.

(٣١٣) بحار الأنوار، ج٧٧، ص١٤٧.

ويتأثر من الآخرين ، وبأجواء المجلس ايضاً ، وهذا التأثير والتّأثر يجب ان يكونا في حدود الحقّ والخير والصّلاح والفضيلة حسب منطق الدّين ، وهو المنطق القويم في الحياة ، والأولى بالاتّباع .

وبناءاًعليه ، فمن أولويّات مجالسة الناس ، اختيار الجليس ، واعطائه حقوقه . فليس الناس كلهم جديرين بالمجالسة ، إذ منهم الأخيار والأشرار ، والصّالحون والفاسدون ، والأمناء والخائنون ، والأفاضل والأراذل ، و . . . وبديهة ان الأخيار والصّالحين والامناء والأفاضل ، وأشكالهم ، هم الجديرون بالمجالسة والمخالطة .

يقول الإمام عليّ (ع) في هذا الشأن :

« جليس الخير نعمة ، جليس الشر نقمة »[٣١٤] .

ويقول (ع) أيضا :

« جماع الشرّ ، مقارنة أهل السّوء »[٣١٥] .

فهلّا يجانب المرء جلساء السّوء ، ويجالس من هم جديرون بالمجالسة ؟ .

والجديرون[*] بالمجالسة هم :

١ـ المذكّرون بالله .
٢ـ المرغّبون في الآخرة .
٣ـ الأخيار .
٤ـ الأبرار .
٥ـ الصّالحون .
٦ـ الأمناء .

---

(٣١٤) الغرر والدرر .

(٣١٥) المصدر السابق .

(*) غير الجديرين بالمجالسة : المقابلون للجديرين . ومن الذين نهت الأحاديث الشريفة عن مجالستهم : الأنذال ، الأغنياء الذين أطغاهم غناهم ، أهل الهوى ، أهل البِدع ، الملوك ، أبناء الدنيا ، وقرناء السوء عموما .

٧ـ الحلماء .

٨ـ العلماء .

٩ـ الحكماء .

١٠ـ الموقنون .

١١ـ المتواضعون .

١٢ـ النّاصحون .

١٣ـ المؤمنون .

١٤ـ الأتقياء .

١٥ـ الزّهاد .

١٦ـ التّائبون .

١٧ـ الفقراء .

١٨ـ المساكين .

١٩ـ المخلصون .

٢٠ـ الورِعون .

وإعطاء الحقوق للجليس ، هو الأمر الآخر بعد اختياره ، ومن حقوق الجليس :

- التواضع له .
- إنصافه في إتاحة الفرصة له بالحديث ، وفي تحدثه عن نفّسه وفيما يتعلّق به .
- الإستئذان منه حين القيام لأمر ما ، باعتباره جليساً ، وحيث ان المستأذن هو صاحب المجلس .
- التّجاوز عن أخطائه .
- حفظ أفعاله الخيّرة .
- إسماعه الكلام الخيّر .

وهذه الحقوق امور أوليّة وآداب ضروريّة في مجالسة الناس ، فالتّواضع هو

عنصر اساس فيها ، وهو الخلق الذي يجب ان يكون عليه الإنسان ، إذ الناس يرغبون ويميلون الى مجالسة من يتواضع لهم ، ويرغبون ويميلون عمّن يتكبّر عليهم ، فهل سمعت أنّ امرؤاً رغب في مجالسة شخص تكبّر عليه ؟! .

ومن حقّ الجليس : إنصافه في مجاراة اللفظ ، بمعنى الموافقة على الكلام الحق الذي يصدر منه ، والاتّفاق معه عليه ، يتفرّع من هذا الحقّ :

اعطاء الجليس الفرص الكافية للتحدّث فيما يطيب له ويُسر به ويُلذّ . ان من الناس اذا ما جالسوا الناس لم ينصفوهم في الموافقة على ما يصدر منهم من كلام حقّ ، أو استأثروا بالحديث ، والحديث عن انفسهم ، دون ان يتيحوا لهم فرصة الحديث ، والتحدّث عن أنفسهم ، وبذلك يملّهم الناس ، ويستثقلونهم .

ومن تقدير الجليس واحترامه : استئذانه حين القيام ، اذ من غير اللائق القيام عنه ، لأداء أمر ما ، أو تركه وشأنه دون استئذان . فعلى سبيل المثال : قد يأتي شخص الى مجلسك وتبدأ معه حديثاً ، ثم في الأثناء تريد ان تحضر له الفاكهة أو الشّاي ، فمن غير اللائق ان تقوم عنه وتقطع حديثك أو حديثه من دون استئذان منه . ويخلق بك ان تقول له : أرجو أن تسمح لي ببضع دقائق . . . ، أو ما شابه ذلك من العبارات الإستئذانيّة اللطيفة .

ومن حسن المجالسة مراعاة حدود المجلس(*) وآدابه ، فهناك مجالس مطلوب حضورها واخرى منهيّ عن حضورها . فالمجالس المأمور بالارتياع فيها هي مجالس ذكر الله ، بما للذّكر من معانٍ ، او هي المجالس التي يتحقق فيها رضا الله ، سواء بالعبادة او غيرها .

يقول الرّسول الأعظم(ص) :

« ارتعوا في رياض الجنّة ، قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنّة ؟ قال : مجالس الذّكر »(٣١٦) .

(*) المجلس : موضع الجلوس ، والقوم الجلوس .

(٣١٦) بحار الأنوار ، ج٩٣ ، ص١٦٣ .

وقال لقمان لابنه :

« اختر المجالس على عينك ، فإن رأيت قوماً يذكرون الله ـ عز وجل ـ فاجلس معهم ، فإنك إن تكُ عالماً ينفعك علمك ويزيدونك علماً ، وان كنت جاهلاً علّموك ، ولعلّ الله يظلّهم برحمةٍ فتعمّك معهم »[٣١٧] .

أمّا المجالس التي لا يجوز الجلوس فيها ، فمنها :

١ـ مجلس المنكر .

٢ـ مجلس الكفر والاستهزاء بآيات الله .

٣ـ مجلس جحد الحقّ والتّكذيب به .

٤ـ مجلس الوقوع في أهل الحقّ .

٥ـ المجلس الذي يُسب فيه الأئمة ، أو يغتاب فيه المسلمون .

٦ـ مجلس شرب الخمر .

٧ـ مجلس العصيان عموماً .

٨ـ مجلس الريبة .

٩ـ المجلس الذي يُسفك فيه الدّم الحرام ، أو يُستحلّ فيه الفرج الحرام ، أو يستحلّ فيه المال الحرام .

١٠ـ مجلس افشاء أسرار الإخوان .

١١ـ مجلس الفحش.

وللمجالس آداب ينبغي مراعاتها ، منها :

١ـ التّفسّح والتّوسيع للدّاخل .

٢ـ الجلوس في اوسع مكان يوجد ، إذا لم يوسّع له .

٣ـ الجلوس حيث ما انتهى المجلس .

٤ـ القعود في أدنى المجلس .

٥ـ الجلوس في المكان الذي يأمر به صاحب المنزل .

---

(٣١٧) المصدر السابق ، ص١٦٤ .

٦ـ تجنّب تقديم الرِّجل بين يدي الجليس ، الاّ لعذر .

وهكذا فلكي يحسن المرء معاملة الناس ينبغي له إحسان مجالستهم ومن احسان المجالسة اختيار المجلس والجليس الصّالحين ، واعطاء الجليس حقوقه والتزام آداب المجلس .

مداعبة الناس وملاطفتهم

قال الرسول الأعظم (ص) :

« المؤمن دِعبٌ لِعبٌ . . . . » .

« بينما كان رسول الله (ص) يسير في بعض شوارع المدينة ، رأى زاهر بن جزام (من الصّحابة) وهو يشتري بعض الأمتعة ، اقترب من ورائه ، واحتضنه من غير أن يراه .

وقال صلوات الله عليه : من يشتري هذا العبد ؟ .

والتفت زاهر خلفه فإذا هو رسول الله فضحك ، وقال :

تجدني كاسداً(*) يا رسول الله ؟ .

فقال النّبي : لا ، ربيح عند الله إن شاء الله(٣١٨) .

* * *

تقدّم أن إدخال السّرور إلى قلوب الناس(**) من الأمور التي تكسب ودّهم وحبّهم ، فمن طبعهم أنّهم يرغبون في من يدخل السرور الى نفوسهم ، ويحبّونه .

(*) كاسداً : غير نافق لقلة الراغبين في شرائه .

(٣١٨) أحمد محمد حسان : قبسات من حياة الرسول .

(**) راجع القسم الثاني ، فصل : لكي يُسَرُّ النّاسُ بالمرء .

وهذا هو السّر في أنّ الأفراد المداعبين والمطايبين والمفاكهين ، يقبل عليهم الناس ،ولا يملون من لقائهم ومجالستهم ، بخلاف ذوي الطّباع الجافّة ، ومن لا يسرون الناس . ولو مثّلنا المداعبين والمطايبين بالشّجرة الخضراء المورقة الوارفة الظّلال ، واصحاب الطّباع الجافّة بالشّجرة اليابسة ، المحتوتة الأوراق ، فلا ترديد في أنّ الناس تنجذب الى الشّجرة الخضراء الوارفة الظّلال ، اكثر ممّا تنجذب إلى الشجرة الأخرى . ومن هنا فالمداعبة والمطايبة جمال في الإنسان وخلقه ، ومن شأن الجمال ان يحبّه النّاس وينجذبون اليه .

وربّما يقول قائل : إن الإنسان يجب أن يكون جاداً وجدياً في الحياة ، لا هزلياً فيها . وهذا أمر صحيح ، ولكن هل الجدّية تعني أن يتعامل المرء مع الناس بغلظةٍ وجفاف ؟ وهل هناك تناقض بين المداعبة والمطايبة وبين الجدّية في الحياة ؟ .

كلا ! .

صحيح ان الإنسان يجب أن لا يكون هزلياً ولكنّ حداً معتدلاً معّيناً من المداعبة والمطايبة والمفاكهة ، يعينه على الجدّية في حياته ، وفي تحمل مسؤولياته ، كما يحقّق له مكسبا كبيرا ، وهو انجذاب الناس اليه وحبهم له . فأيّهما أفضل : الجدّية الجافّة ، أم الجدية المصحوبة بكسب ودّ الناس وحبّهم ؟ لا شك أنّ الجدّية الثانية هي الأفضل . وإضافة إلى هذا فإن المداعبة والمطايبة والمفاكهة يجب أن تكون في محلّها المناسب ، فهناك من الظّروف ما يحتاج إلى مطلق الجدّية ومنها ما يسمح بنوعٍ من التّرطيب غير المُضرّ بالجدّية . بل إن استعمال الدّعابة في كثير من الأعمال ، تجعل العمل متعة وسعادة .

وادخال السّرور على الناس ومداعبتهم ومطايبتهم ، خلق من أخلاق الأنبياء فالرّسل - عليهم السلام - على عظمتهم ومسؤوليتهم وجدّيتهم وعلمهم واخلاقهم ، كانوا يتواضعون للنّاس ويداعبونهم ويطايبونهم مدركين طبيعتهم البشريّة ، اذ من هذه الطبيعة أنّ قلوبهم تملّ - كما تملّ أبدانهم - وادخال السّرور ، والمداعبة والمطايبة هي التي تدخل على قلوب الناس السّرور ، وتزيل ما أصابها من ملل وضجر .

وفي هذا الصدد يُروى أنّ الرسّول الأعظم (ص) كان جالساً مع ابن عمّه عليّ بن ابي طالب (ع) على طعام ، وكان الرّسول يأكل التّمر ويضع النّوى قدّام عليّ ، ثم قال (ص) لعليّ بما مضمونه : أكلت التّمر كلّه ياعلي ؟ فقال عليّ (ع) بما معناه : إنّ الذي أكل التّمر هو من أكله مع النّوى .

* * *

« ورأى (ص) ديكاً بدون دجاجة ، فقال (ص) لصاحبه : هلاّ اتّخذت له أهْلاً ؟ »[٣١٩] .

* * *

« ورُوي أنّ رجلاً كثير المزاح بالأباطيل كان في عصر النّبي (ص) ، فطلبه (ص) بعدما أخبروه عن الرّجل . ولما حضر عنده ، جعل النبي (ص) يعظه وينهاه عن الكذب والأباطيل المضحكة ، إلى أن قال (ص) له : كيف أنت إذا جيء بك يوم القيامة ، ويكون رأسك على قدر جبل ، ورقبتك على قدر شعرة ، فقال : يا رسول الله هناك وقت سروري ورقصي ، فانّي بتلك الهيئة من الرّأس والرّقبة أرقص لأهل المحشر ، وأفرّج همّ الكلّ ، وأبدل حزنهم بالسّرور ، وبكاءهم بالضّحك . فضحك النّبي (ص) بكلامه ، ونزل عليه جبرئيل (ع) يبشّره بمغفرة ذنوب الرّجل بسبب ادخاله السّرور على قلب النّبي الأعظم »[٣٢٠] .

وإذ أن المزح أو المزاح من الأمور التي تدخل السرور إلى قلوب الناس فما هي حدوده ؟ .

يمكن القول أنّ هناك نوعين من المزاح : نوع يسيء إلى الطّرف الآخر ، او يهينه ، ويؤثّر سلباً على شخصيّة المازح وعقله[*] وآخر لا يسيء إلى الطّرف الآخر ، ولا يهينه ، ولا يؤثر ـ سلباً ـ على المازح ، وهو ما يمكن الاطلاق عليه : الحدّ

---

(٣١٩) الصياغة الجديدة لعالم الايمان والحرية والرفاه والسلام ، ص٥٣٤ .

(٣٢٠) حسن محمد الحسيني اللواساني النجفي : كشكول لطيف ، ص١٧٥ .

(*) في هذا النوع من المزاح يقول الامام الصادق (ع) : « اياكم والمزاح ! فإنه يجر السخيمة ، ويورث الضغينة ، وهو السب الصغير » . تحف العقول .

المعتدل من المداعبة ، أو المطايبة ، أو المفاكهة ، او المضاحكة . والنّوع الأوّل مذموم ، أمّا النّوع الثّاني فممدوح .

يقول الشّاعر :

أَفِدْ طبْعَك المصْدودَ بالجدِّ ، راحةً
يُجمُّ وعلِّله بشيءٍ من المزحِ
ولكنْ اذا اعطيتهُ المْزح فليكُنْ
بمقدار ما يُعطى الطّعام من المِلحِ[٣٢١]

إنّ طبع الإنسان الجادّ يرتاح إلى شيء من المزح أو المطايبة المعتدلة ومثالها مثال الكمية المعتدلة اللازمة من الملح للطّعام ، هذه الكمية التّي تُريح الطّاهي والاكل ، أمّا اذا زادت عن حدّ الإعتدال فلا تريحهما معاً .

وهكذا فمن حسن التعامل مع الناس استعمال المداعبة والمطايبة معهم ، وكما جاء في الأحاديث الشّريفة : « ان الله يحبّ المؤمن فيه دعابة » . فلكي يحسن المرء معاملة الناس ، ويكسب حبّهم ويجعلهم مسرورين به ، عليه بمداعبتهم ومطايبتهم ، ومن وسائل المداعبة والمطايبة وإدخال السرور :

- الملاطفة والمداراة .
- طرائف الحكم ، والنّوادر .
- المزح المعتدل المعقول .
- التحدّث فيما يطيب المطّرف الآخر ويُسرّ به .

(٣٢١) السيد نعمة الله الحسيني الجزائري : زهر الربيع

المظهر اللائق

قال الرّسول الأعظم (ص):

« ان اللّه جميل يحبّ الجمال، ويحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتّباؤس »[٣٢٢].

وقال الإمام عليّ (ع):

« ليتزيّن أحدكم لأخيه المسلم إذا أتاه كما يتزيّن للغريب الذي يحبّ أن يراه في أحسن الهيئة »[٣٢٣].

وقال الإمام الصّادق (ع):

« إلبس وتجمل فإن الله جميل يحبّ الجمال، وليكن من حلال »[٣٢٤].

وقال الرّسول الأعظم (ص):

« تنظّفوا بكلّ ما استطعتم، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النّظافة . . »[٣٢٥].

*

(٣٢٢) كنز العمال، خ١٧١٦٦ .

(٣٢٣) بحار الأنوار، ج٧٩ ص٢٩٨ .

(٣٢٤) وسائل الشيعة، ج٣، ص٣٤٠ .

(٣٢٥) كنز العمال، خ٢٦٠٠٢ .

وللإنسان باطن وظاهر ، وباطنه يتمثّل في عقله وقلبه ، وسريرته ، وايمانه ، وظاهره يتمثّل في لسانه ، وفعله ، وأخلاقه ، وصورته . وكما أنّ باطن الإنسان يجب أن يكون حسناً وجميلاً كذلك ظاهره يجب أن يكون حسناً وجميلاً أيضاً ، ومن ظاهر الإنسان بدنه ولباسه .

إنّ اللباس والبدن هما من المظهر الذي يواجه المرء به ربّه ، ونفسه ، والناس ، ومن شأن البدن واللباس أن يكونا طاهرين نظيفين جميلين . لأن الطّهارة والنّظافة والجمال فضلاً عن أنّها من خلقيات الفطرة الإلهية ، وحالات صحيّة ضروريّة للإنسان هي امور من الاهميّة بمكان في معاملة النّاس .

ومن طبع الناس أنّهم يحبّون الجمالُ ، ولقاءهم بالمظهر الجميل هو من إمارات حسن التّعامل معهم ، ولو سُئل كلّ امرىءٍ : هل تحبّ أن يلقاك الاخرون بالمظهر الجميل اللائق ، أو بالقبيح ؟ لأجاب بالمظهر الجميل ، بالتّاكيد ـ أفلا يكون هذا دافعاً للظّهور بالمظهر اللائق الجميل ؟ ثم ان المظهر اللائق حالة صحيّة من سعادة المرء ، واضافة إلى ذلك انه يجعل الاخرين منبسطين سعداء .

والمطلوب في حسن المظهر المحافظة على حدّ الإعتدال فيه ، .

فلا يعني المظهر اللائق أن يُفرط المرء في التجمل والزّينة واللبّاس بل أن الحدّ المعتدل هو المطلوب ، لأنّ الإفراط في ذلك يحيل الوسيلة هدفاً ،وهذا ليس صحيحاً . وبامكان المرء أن يظهر بمظهر لائق بين الناس بامتلاك الحدّ الأدنى من اللباس ، وإن لم يكن جديداً ، مضافاً إلى ذلك مراعاة النّظافة .

يقول الإمام عليّ (ع) :

« التحّمل مرؤة ظاهرة »(٣٢٦) .

ويقول (ع) ايضا :

«التجمّل من أخلاق المؤمنين »(٣٢٧) .

---

(٣٢٦) الغرر والدرر .

(٣٢٧) المصدر السابق .

والظّهور بالمظهر اللائق أمام الناس يحتاج الى :

ـ نظافة البدن .

ـ نظافة اللباس وجماله وهندامه وأناقته .

ـ استعمال الذّوق الفنّي .

ونظافة البدن ـ كما هو معلوم ـ تعني نظافته كلّه ، ومنه نظافة الوجه وشعر الرأس واللحية والشّارب . فمن حسن المظهر أن يحسن المرء ولاية شعر رأسه(*) بتنظيفه ، وتمشيطه ، وان يأخذ شاربه ويرتّبه ، ويرتّب لحيته ، وأن يتعطّر بالطّيب .

يقول الرّسول الأعظم (ص) عن الإهتمام بشعر الرأس :

« من اتّخذ شَعْراً فليحسن ولايته ، أو ليجزّه »(٣٢٨) .

ويقول الإمام عليّ (ع) عن اللباس :

« انّ أحسن الزّي ما خالطك بالناس ، وجمّلك بينهم ، وكفّ ألسنتهم عنك »(٣٢٩) .

وكثيرة هي الأحاديث الشريفة(**) التي تعني بالتّنظيف والتزيّن والتجمل ، والتطييب ، والبروز بالمظهر اللائق أمام الناس ، لما لهذه الأمور من ارتباط وثيق بعبادات الإنسان وصحته ، وأناقته ، وتعامله مع الناس ، فلكي يحسن المرء معاملة الناس خليق به أن يبدو ذا مظهر لائق حسن بين ظهرانيهم .

(*) بديهة لايجوز للمرأة أن تكشف عن شعرها لغير ذوي المحرم من الرجال ، كما لايجوز أن تتعطر لهم .

(٣٢٨) وسائل الشيعة ، ج١ ، ص٤٣٢

(٣٢٩) الغرر والدرر .

(**) للأطلاع على هذه الأحاديث يراجع كتاب « مكارم الاخلاق » للطبرسي .

أخلاقيات أخرى في معاملة الناس

ومن الأخلاقيات التي يجب على المرء ـ أو يجدر به ـ التزامها في تعامله مع النّاس وعلاقته بهم ، ما يلي : .

- مداراتهم .
- خدمتهم .
- التّعاون معهم ، ومساعدتهم في أمور واعمال البّر والخير والصّلاح والفضيلة .
- تشجيعهم على اعمال الخير ، ودلالتهم عليها .
- العيش فيهم وبينهم ، وتجنّب العزلة عنهم ، إلا اذا دعى الأمر الى ذلك .
- الإبتعاد عن التكلّف في معاملتهم ، والتزام الآداب في ذلك .
- المجاملة المعتدلة المخلصة ، والبعيدة عن الملق والتّملّق .
- اجتناب تكليفهم فوق طاقاتهم ، وما لا يطيقون .
- صون حرّيّتهم وأمنهم وسلامتهم .
- اجتناب التّجسس عليهم .
- احترام حرمة نفوسهم ، وأعراضهم ، وأموالهم .
- اجتناب ظلمهم ، واجتناب الجور والبغي عليهم .

● اجتناب المكر بهم وخديعتهم ، واجتناب التّحايل عليهم وغشّهم وغبنهم

● اجتناب الغدر بهم .

● اجتناب الفخر والتّفاخر عليهم .

● اجتناب الرّوح الأنانيّة والمصلحيّة في معاملتهم .

● اشاعة الرّوح الإيجابيّة فيهم .

● التواصي معهم بالحقّ والخير والصّلاح والفضيلة .

● هدايتهم إلى الله سبحانه .

● أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع مراعاة الشّروط التي بيّنها الدّين لذلك .

● الإهتمام بالمحتاجين والضّعفاء والفقراء والمحرومين منهم ، والعطف عليهم ، ومواساتهم ماديّاً ومعنوياً .

● صلة الأقارب والأرحام .

● حسن معاملة الجيران ، والإحسان إليهم .

● حسن الصّحبة والمعاملة في السّفر .

● التّعلّم من كفاءات الآخرين وخبراتهم وتجاربهم ، والاستفادة منها .

● مجاراة الناس ـ الذين يُخشى من ضررهم وشرّهم ـ في أخلاقهم ، وللأمن من غوائلهم وشرورهم(*) .

● حسن معاملة الرّئيس للمرؤوس ، والقائد للمقود ، والمدير للمدار ، وبالعكس .

(*) في حالات معينة يستدعي الأمر أن يوافق المرء الناس في أخلاقهم ويجاريهم فيها ، وهذه الحالات هي التي يصاب فيها بشرورهم أو يحتمل ذلك إن خالفهم . والمجارات في مثل هذه الحالات ضابطها الأمن من شرور أشرار الناس ، وليس الانسياق وراء أخلاقهم غير المحمودة . يقول الامام علي (ع) : « مجاراة الناس في أخلاقهم أمن من غوائلهم » .

- حسن معاملة الحاكم لرعيّته ، والرّعيّة للحاكم .
- حسن معاملة المعلّم للتّلميذ ، والتّلميذ للمعلّم .
- إكرام الضّيف .

من الأخلاقيات الاجتماعية للرسول الأعظم (ص)

قال تعالى :

﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾[٣٣٠] .

رسول الله (محمد بن عبد الله (ص)) هو قدوة البشريّة ورزها الأعظم في كلّ شيء ، وهو أسوة البشر في علاقته بخالقه - جلّ وعلا - وبنفسه ، وبالناس ، وهو أعظم معلّم في العلاقات الإنسانية والمعاملات الإجتماعية ، ينبغي لكلّ امرىءٍ أن لا يحرم نفسه من التّأسي به ، والتتلمذ في مدرسته .

ومن اخلاقياته (ص) في معاملة الناس ، ما يلي :

١ - « يبدر من لقي بالسّلام » .

٢ - « لا يتكلّم في غير حاجة » .

٣ - « التكّلم بجوامع الكلم » .

٤ - « ليس بالجافي ولا بالمهين » .

٥ - « لا يذمّ ذوّاقاً (*) ولا يمدحه » .

---

(٣٣٠) ٢١ / الأحزاب .

(*) ذواق : الذوق : قوة تدرك بها الطعوم . صيغة مبالغة يقصد منها المزاج المخاط الذي لايثبت على خُلُق .

٦ ـ « إذا تعوطي الحقّ لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له » .

٧ ـ « لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها » .

٨ ـ « إذا أشار أشار بكفّه كلّها ، وإذا تعجّب قلّبها ، وإذا تحدّث أشار بها » .

٩ ـ « إذا غضب أعرض وأشاح(*) .

١٠ ـ « إذا فرح غضّ طرفه » .

١١ ـ « جلّ ضحكه التبسّم ، ويفترّ عن مثل حبّ الغمام(**) .

وعن مدخله إلى منزله :

« اذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء ، جزءاً لله ـ عز وجل ـ وجزءا لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ثم جزّأ جزءه بينه وبين الناس ، فيردّ ذلك على العامّة والخاصّة ولا يدّخر عنهم شيئاً » .

ومن سيرته في جزء الأمّة :

١٢ ـ « إيثار اهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدّين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيما أصلحهم وأصلح الأمة من مسألته عنهم ، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم ، ويقول : ليبلغ الشاهد الغائب ، وأبلغوني في حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبّت الله قدميه يوم القيامة ، لا يذكر عنده إلّا ذلك ، ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون زُوّاراً ، ولا يفرقون عن ذواق ، ويخرجون أدلّة فقهاء » .

واذا خرج من منزله :

١٣ ـ « يخزن لسانه الّا فيما يعنيه » .

(*) أشاح : أظهر الغيرة ، أعرض متكرهاً .

(**) فتّر السحاب : سكن وتهيأ للمطر . الغمام : السحاب . والمراد أنه يتبسم ويكثر حتى تبدو أسنانه من غير قهقهة .

١٤ ـ « يؤلفهم (النّاس) ولا يفرّقهم » .

١٥ ـ « يكرم كريم كلّ قوم ويوليه عليهم » .

١٦ ـ « يحذِر النّاس الفتن » .

١٧ ـ « يحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه » .

١٨ ـ « يتفقّد أصحابه » .

١٩ ـ « يسأل الناس عمّا في الناس فيحسِّن الحسن ويقوّيه ، ويقبح القبيح ويوهنه » .

٢٠ ـ « معتدل الأمر غير مختلف » .

٢١ ـ « لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملّوا » .

٢٢ ـ « لكلّ حال عنده عتاد » (*) .

٢٣ ـ « لا يقصّر عن الحق ولا يجوزه »(**) .

٢٤ ـ « الذين يلونه من الناس خيارهم » .

٢٥ ـ « أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة » .

٢٦ ـ « أعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة » .

وعن مجالسه كان :

٢٧ ـ « لا يجلس ولا يقوم إلاّ على ذكر الله جلّ اسمه » .

٢٨ ـ « لا يوطن الأماكن وينهي عن إيطانها » (***).

٢٩ ـ « إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك » .

٣٠ ـ « يعطي كلاّ من جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم

(*) عتاد : إعداد ، مايُعد لأمر ما .

(**) يجوزه : يتجاوزه ، ويتعدّاه .

(***) اي لايتخذ انفسه مجلساً يُعرف به . ولايجلس في مكان وينهى عن الجلوس فيه .

منه عليه منه » .

٣١ - « من جالسه اوقاومه في حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه » .

٣٢ - « من سأله حاجةً لم يردّه إلّا بميسور من القول » .

٣٣ - « قد وسِع الناس منه بسطه وخلقه ، فكان لهم أباً وصاروا عنده في الخلق سواء » .

٣٤ - « مجلسه مجلس حلم وحياءٍ وصبرٍ وأمانةٍ ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا يوهن فيه الحرم ولا تُنثى فلتاته(*) ، متعادلون متفاضلون فيه بالتقوى ، متواضعون ، يوقّر فيهم الكبير ، ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون (أو ويحوطون) الغريب » .

وعن سيرته مع جلسائه ، كان (ص) :

٣٥ - « دائم البشر » .

٣٦ - « سهل الخُلُق » .

٣٧ - « ليِّن الجانب » .

٣٨ - « ليس بفظٍ ولا غليظٍ ، ولا صخاب(**) ولا فحّاش ، ولا عيّاب ، ولا مدّاح » .

٣٩ - « يتغافل عمّا لا يشتهي ، فلا يؤيس منه ، ولا يخيّب فيه مؤمّليه » .

٤٠ - « قد ترك نفسه من ثلاث : المراء ، والاكثار ، ومما لا يُعنيه » .

٤١ - « ترك الناس من ثلاث : كان لا يذمّ أحدا ولا يُعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلّا فيما يرجو ثوابه » .

٤٢ - « إذا تكلم أطرقَ جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّير ، فإذا سكت سكتوا ، ولا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلّم أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم

(*) تُنثى : تُظهر . الفلتات : الهفوات أو الأمر فجاةً .

(**) صخّاب : شديد الصوت ، من الصَّخب .

عنده حديث أوّليهم».

٤٣ ـ « يضحك مما يضحك منه » .

٤٤ ـ « يتعجّب مما يتعجبون منه » .

٤٥ ـ « يصبر للغريب على الجفوة(*) في منطقه ومسألته ، حتى أن كان أصحابه ليستجلبونهم(**) ، يقول : إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه »(***) .

٤٦ ـ « لا يقبل الثّناء الاّ عن مُكافىء » .

٤٧ ـ « لا يقطع على احدٍ حديثه حتّى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام » .

وعن سكوته :

٤٨ ـ « كان سكوت رسول الله (ص) على أربعة : على الحلم ، والحذر ، والتّقدير ، والتّفكير ، فأمّا تقديره ففي تسوية النّظر والاستماع بين النّاس ، وأمّا تفكّره ففيما يبقى ويفنى ، وجُمع له الحلم والصّبر ، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ، وجُمع له الحذر في أربعة : أخذه بالحسن ليقتدي به ، وتركه القبيح لينتهي عنه ، واجتهاده فيما أصلح أمّته ، والقيام فيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة .

ومن تواضعه وحيائه ، كان (ص) :

٤٩ ـ « يعود المريض » .

٥٠ ـ « يتبع الجنازة » .

٥١ ـ « يجيب دعوة المملوك » .

٥٢ ـ « يركب الحمار » .

٥٣ ـ « يجلس على الأرض ويأكل على الأرض » .

٥٤ ـ « يعتقل الشّاة» .

(*) الجفوة في منطقه : الغلظة والشدّة في كلامه .

(**) يستجلبونهم : يعني أنّهم يستجلبون الفقير لئلاّ يؤذي النبي .

(***) أرفدوه : ضيّفوه ، وأعطوه .

٥٥ ـ « يسلّم على الصّبيان » .

٥٦ ـ « يجلس بين ظهراني أصحابه ، فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتّى يسأل » .

٥٧ ـ « إذا لقيه احد من أصحابه قام معه ، فلم ينصرف حتّى يكون الرّجل هو الذي ينصرف » .

٥٨ ـ « اذا لقيه أحد من أصحابه فتناول بيده ناوله إيّاها ، حتى يكون الرّجل هو الذي ينزع عنه » .

٥٩ ـ « ما أخرج ركبتيه بين يدي جليس قطّ » .

٦٠ ـ « ما قعد إلى رسول الله (ص) رجل قطّ فقام حتّى يقوم » .

٦١ ـ « العفو والصّفح مع الإقتدار » .

٦٢ ـ « حييّا لا يُسأل شيئاً إلاّ أعطاه » .

٦٣ ـ « أجود النّاس كفّاً » .

٦٤ ـ « أكرمهم عشرةً » .

٦٥ ـ « من خالطه فعرفه أحبّه » .

٦٦ ـ « إذا فقد الرّجل من إخوته ثلاثة أيّام ، سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وان كان شاهداً زاره ، وان كان مريضاً عاده » .

٦٧ ـ « إذا حدّث الحديث ، أو سُئل عن الأمر كرّره ثلاثاً ليفهم ويُفهم عنه » .

٦٨ ـ « إنْ أخذ أصحابه في ذكر الدّنيا أخذ معهم ، وإن أخذوا في ذكر الطّعام والشّراب أخذ معهم » .

٦٩ ـ « وفيّاً بوعده وعهده » .

٧٠ ـ « مؤثراً الآخرين على نفسه » .

٧١ ـ « يمزح ولا يقول الاّ الحقّ » .

٧٢ ـ « يداعب الرّجل يريد به أن يسرّه » .

٧٣ ـ « ما فاوضه أحدٌ في حاجة أو حديث فانصرف حتّى يكون الرّجل هو الذي ينصرف » .

٧٤ ـ « ما نازعه أحد الحديث فيسكت حتّى يكون هو الذي يسكت » .

٧٥ ـ « يأكل على الحصير مع العبيد » .

٧٦ ـ « يناول السائل بيده » .

٧٧ ـ « يتزحزح لمن يريد الجلوس اليه » .

٧٨ ـ « إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل » .

٧٩ ـ « يجلس حيث ما انتهى مجلسه » .

٨٠ ـ « يردّ السّلام » .

٨١ ـ « يرشد الأعمى » .

٨٢ ـ « يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » .

٨٣ ـ « يكرم الضّيف ويأكل معه ، وأحبّ الطّعام إليه ما يتناوله مع النّاس ، وما تكثر عليه الأيدي » .

٨٤ ـ « يتنظّف ، ويتمشّط ، ويتطّيب بالمسك » .

٨٥ ـ « إذا لبس ثوباً جديداً ، قال : الحمدلله الذي كساني ما يواري عورتي وأتجمّل به في النّاس »[٣٣١] .

---

(٣٣١) للإطلاع على تفاصيل أخرى عن أخلاقيات الرّسول الأعظم (ص) ، يراجع كتاب : « مكارم الأخلاق » ، للشيخ الجليل رضيّ الدّين أبي نصير الحسن بن الفضل الطّبرسي ، وهو من أعلام القرن السادس الهجريّ . توفي في سبزوار سنة ٥٤٨ هـ . أبوه صاحب « مجمع البيان في تفسير القرآن » ، وولده عليّ بن الحسن صاحب كتاب « مشكاة الأنوار » .

القسم الخامس

التعامل مع الأصدقاء

الصداقة

« رُب أخٍ لَك لم تَلِدهُ أُمكَ »[1] .

الصداقة من الصّدق والتّصديق ، وهي المحبّة بالصّدق وفيما يرتبط بالتعامل مع النّاس ـ بشكل عام ـ ، وفيما يرتبط بالمصادقة ـ بشكل خاص ـ باعتبار أن المصادقة وجه واسع من أوجه التعامل مع النّاس ، هناك ـ إن صح التعبير ـ :

ـ الصّداقة العامّة .

ـ والصّداقة الخاصّة .

والصّداقة العامّة يقصد بها صداقة الانسان مع كّل من هو أهل للمصادقة من بني البشر، باعتبار أنّه بشر مثلهم، ويشترك معهم في الأب والأم، وفي الخلقة والهيئة ، وفي عمارة الارض . أما الصّداقة الخاّصة فهي تتمّثل في أمرين :

الأول : الاخّوة أو الصّداقة في الدّين .

الثاني : الصّداقة الحميمة .

والأخّوة في الدين تعني أن كلّ أخ لك في الدّين هو شريك لك في المعتقدات ، والأهداف ، وبالتالي فهو صديق الك حتى لو لم تكن صداقتك معه حميمة ، إذ لا قرابة ولا صداقة كقرابة وصداقة الدّين ﴿ انما المؤمنون أخوة ﴾ هذا من جهة ،

---

(١) ميزان الحكمة ، ج١ ، ص٤٢ .

ومن جهة اخرى انه ليس بإمكان الانسان ان يجعل كل أخٍ له في الدّين ـ على انفراد ـ صديقا خاصّا له ، بل يمكنه أن يكون صديقا لهم بشكل عام . ومن هنا كانت الصّداقات الحميمة أمرا واقعاً في الحياة .

إنّك لتجد إنساناً يتعامل مع عموم النّاس بشكل حسن ، فيحبهم ويحبّونه ، ويحترمهم ويحترمونه ، ويقدّرهم ويقدّرونه ، فهو صديق لهم . ومن بينهم تجد أن له أصدقاء مقربين ، أو بتعبير آخر : حميمين ، وهؤلاء الأصدقاء هم أقرب النّاس إلى قلب ذلك الانسان ، وأكثر التصاقاً به ، وهو أقرب النّاس وأكثرهم التصاقاً بأولئك الأصدقاء .

وفي تصنيفه للإخوان والاصدقاء يقول الإمام عليّ (ع) :

« الإخوان صنفان :

إخوان الثّقة .

واخوان المكاشرة .

فأخوان الثقة ، كالكف ، والجناح ، والأهل ، والمال . فإذا كنت مع أخيك على ثقة ، فابذل له مالك ، ويدك ، وصاف من صافه ، وعادِ من عاداه ، واكتم سرّه ، وأظهِر منه الحسن ، واعلم أنّهم أقلّ من الكبريت الأحمر(*) .

وأمّا إخوان المكاشرة(*) ، فإنّك تصيب منهم لذتك ، ولا تقطعنّ ذلك منهم ، ولا تطلبنّ ما وراء ذلك من ضميرهم ، وابذل لهم ما بذلوا من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان »(٢) .

والتّعامل مع الأصدقاء ، هو جزء من التّعامل مع النّاس عموماً ، وعليه فإن القواعد والوصايا المذكورة المتقدمة ، تنطبق على الاصدقاء كما تنطبق على عموم النّاس ، وإن كان بعضها يختص بعمومهم باستثناء الأصدقاء .

(*) يعني أنهم أقلاء أو نادرون كقلة أو ندرة الكبريت الاحمر .

(*) المكاشرة : المضاحكة .

(٢) مصادقة الاخوان .

عظمة الصّداقة

والصّداقة رابطة اجتماعية متينة ، وهي أمر عظيم في الاسلام والحياة . وعظمت منزلة الصّداقة حتى أن أهل النار يستغيثون بالأصدقاء ، ويدعون بهم قبل الأقرباء الحميمين ، ولكن اللّه تعالى يقول عنهم :

﴿ فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾[٣] .

ويقول سبحانه :

﴿ الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدّو إلا المتقين ﴾[٤] .

الصداقة صناعة

والصداقة كالبناء ، أرأيت البنّاء كيف يصنع البيت ويبنيه ؟ .

إنّه يجعل له أساساً قوياً ، واعمدة متينة ، ثم يصفّ الحجر ، لاحماً إياه بالإسمنت ، ويصنع السقف ، ويثبت الأبواب والشّبابيك ، ويقوم بالتشطيبات النّهائية للحوائط والأرضيات حتى يكتمل البيت ويُصنع .

وهكذا الحال بالنسبة للصّداقة ، فهي صناعة كالبيت ، وبالتالي فهي لا تحدث من فراغ ، ولا فجأة ، ولا صدفة ، وإن كانت الصدفة تساعد في بعض الأحيان على اغتنام فرصة المصادقة .

وحيث أن الصّداقة صناعة ، وبناء فهي تحتاج إلى أرضيّة ، وأرضيّتها الحبّ في اللّه ، والألفة ، والأخلاق الفاضلة ، والتّواضع ، والإرادة ، والحلم ، وضبط النّفس ، والوجدان الدّاخلي السّليم .

الصداقة ضرورة دينية وحياتية

وكما أن الصّلاة من ضرورات الدين ، كذلك الصّداقة فهي ضرورة من

---

(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٤) سورة الزخرف ، آية : ٦٧ .

ضروراته لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلق الانسان ليبقى وحيدا منعزلا عن إخوانه في الدّين ، وعن نظرائه من بني البشر . وكما الماء ضرورة من ضرورات الحياة ، إذ لا غنى للإنسان عنه في أي فصل من فصول السّنة ، وكذلك الصّداقة هي ضرورة حياتيّة في زمن الصراع والحرب ، وفي زمن الصّلح والسّلام . فكما أنه مطلوب منا أن نصادق في زمن الصلح والسلام ، كذلك مطلوب منا أن نصادق في زمن الصّراع والحرب ، اذ الصّديق حاجة ماسّة في كل الظروف ، ولأن الصّداقة تستثمر المبادىء ، وتغذي الأخلاق .

* * *

إختيار الأصدقاء

ولمّا كانت الصّداقة شيئاً عظيماً في الحياة ، وضرورة من ضرورات الدّين ، فالمطلوب إعطاء أهميّةً كبيرةً لاختيار الأصدقاء ، إذ ليس من الحكمة والعقل في شيء ان نجعل اختيارنا لهم لمحض الصّدفة ، ونختار ما هبّ ودبّ من الأصدقاء وبلا حساب . وليس من الحكمة ايضاً أن يعمد الواحد منا الى الوحدة ، وعدم اتخاذ الأصدقاء لأن السعادة الحقيقة لا تكمن في الوحدة والعزلة ، وإنما تكمن في أن يتّخذ أصدقاء له ، فالمرء كثير بإخوانه ـ كما تقول الأحاديث الشريفة ـ ، والإخوان هم وسائط وأيادي وسلالم للمجد والنّجاح والسّعادة .

* * *

وعن عاقبة التفريط في اختيار الاصدقاء ، يروي أحد الشباب قصّته فيقول :

أرسلني والدي للدّراسة الجامعيّة في إحدى البلدان ، وكنت محافظاً . وفي ذلك البلد تعرّفت على مجموعة من الطلاب من نفس بلدي ، وكانوا بعيدين عن الدّين وقيمه ، إذ كانوا يشربون الخمور ، ويمارسون الفحشاء . وفي يوم من الأيام دعوني للذّهاب معهم إلى احد النّوادي الليلية ، فذهبت معهم ، وفي ليلة أخرى دعوني الى حفلٍ فذهبت ، وطلبوا منيّ أن أشرب الخمر فشربت ، وبعد فترة من الزمن أصبحت كواحدٍ منهم ، وهكذا كانت نتيجة مصادقتي لقرناء السوء ، وإهمالي

لموضوع اختيار الأصدقاء .

* * *

وإذ أنّ اختيار الأصدقاء على درجة كبيرة من الأهميّة ، فهذا الأمر يدعو إلى التّمييز بين من هم خليقون بالمصادقة ، ومن هم ليسوا كذلك .

فمن هم الجديرون بالمصادقة ؟

ومن هم غير الجديرين بها ، ومن لا تصحّ معهم ؟

الجديرون بالمصادقة

هل حدث لك أن وقعت نظراتك على طير قُدّم له الحبّ ؟ .

الكل منّا قد شاهد الطيور ـ ومنها الحمام ـ كيف تختار الحبّ الجيد وتترك الرّديء ، وتلتقط الأوّل وتترك الآخر . وهكذا يجب أن يكون الانسان في اختياره للأصدقاء الجديرين بالصّداقة ، وترك من هم ليسوا كذلك؟ .

وقد يسأل السّائل :

إذا كان بنو البشر هم شركاء في الخلقة ، فما الدّاعي للّتمييز في المصادقة بين الحسن والسيّء ؟ وما الحكمة في ذلك ؟ وهل من الصحيح أن نصادق هذا ونترك ذاك ؟

والحقيقة أنّ اختيار الاصدقاء الصّالحين يُبنى على أمور ثلاثة :

١ ـ أن الأصدقاء الصّالحين يشكّلون البيئة الصّالحة للّتعامل في الحياة ، ولخدمة المبادىء والقيم ، والسيّئون ليسوا كذلك .

٢ ـ إنّ تلافي مصادقة غير الخليقين يشكل ضغطاً عليهم لكي يتركوا السّوء والرذيلة ،ويعودوا الى الصّلاح والفضيلة .

٣ ـ إنّ قضيّة المصادقة ليست مجرد لقاء إجتماعي ، بل هي قضية تأثير وتأثر ، وما من شّك أن مصادقة أهل الفضيلة هو تكريس للفضيلة نفسها ، ومصادقة أهل الرّذيلة تشجيع لنمو الرّذيلة في الإجتماع ، وبالنتيجة سوء المصير في الدار

الآخرة .

يقول تعالى :

﴿ ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾[5] .

والجديرون بالمصادقة هم :

١ ـ العلماء .

٢ ـ العقلاء .

٣ ـ الحكماء .

٤ ـ المتديّنون .

٥ ـ المتّقون .

٦ ـ الزاهدون .

٧ ـ الحلماء .

٨ ـ الخيِّرون .

٩ ـ الفضلاء .

١٠ ـ الأخلاقيّون .

١١ ـ الصّادقون .

١٢ ـ الأوفياء .

١٣ ـ الصّالحون .

١٤ ـ أهل الحق والصّواب .

١٥ ـ المصلون .

١٦ ـ الأزكياء .

١٧ ـ من إذا صحبته زانك .

١٨ ـ من إذا خدمته صانك .

١٩ ـ من إذا قُلت حقاً صدَّق قولك .

---

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٢٨ .

٢٠ ـ من إذا صِلْتَ شد صولك .
٢١ ـ من إذا مددتَ يدك بفضل مدّها .
٢٢ ـ من إذا بدت عنك ثلمة سدّها .
٢٣ ـ من إذا رأى منك حسنة عدّها .
٢٤ ـ من إذا سألته أعطاك .
٢٥ ـ من إذا سكت عنه ابتداك .
٢٦ ـ من إذا نزلت إحدى الملمّات به ساءك ذلك .
٢٧ ـ من كثر وفاقه .
٢٨ ـ من قلّ شقاقه .
٢٩ ـ الدّاعون إلى الدّار الآخرة .
٣٠ ـ من يرغب فيك وإليك .

من لا تصح أو لا تجدر مصادقتهم

أمّا غير الجديرين بالمصادقة فهم :

١ ـ الحمقى .
٢ ـ الجهلاء .
٣ ـ الفجار .
٤ ـ الفاسقون .
٥ ـ المجاهرون بمعاصي الله .
٦ ـ الكذّابون .
٧ ـ السّفهاء .
٦ ـ قرناء السوء .
٩ ـ الاشرار .
١٠ ـ اصحاب الدّنيا .
١١ ـ من لا تنتفع بدينه ودنياه .
١٢ ـ من إذا حدّثته ملّك .

١٣ ـ من إذا حدّثك غمّك .
١٤ ـ من إذا فارقته ساءك مغيبه بذكر سوأتك .
١٥ ـ من إذا مانعته تهتّك وافترى .
١٦ ـ من إذا وافقته حسدك واعتدى .
١٧ ـ من إذا خالفته مقتك ومارى .
١٨ ـ من يعجز عن مكافأة من أحسن إليه .
١٩ ـ من يفرّط على من بغى عليه .
٢٠ ـ من يتعلّم للمراء .
٢١ ـ من يتفقّه للرّياء .
٢٢ ـ من يبادر الدّنيا ويواكل التّقوى .
٢٣ ـ من يتناول أعراض النّاس .
٢٤ ـ من يغيّر رأيه ، وينكر عمله .
٢٥ ـ الخائنون .
٢٦ ـ الظالمون .
٢٧ ـ النّمامون .
٢٨ ـ من لا يرى لك مثل الذي لا يرى لنفسه .
٢٩ ـ من يبغضه القلب .
٣٠ ـ متتبّعو عيوب النّاس .
٣١ ـ الهمّازون واللمّازون .
٣٢ ـ خبثاء النّفوس .
٣٣ ـ ضعفاء الخير .
٣٤ ـ أقوياء الشر .
٣٥ ـ السّفلة .
٣٦ ـ الْملهون .
٣٧ ـ المغرون .
٣٨ ـ القاطعون ارحامهم .

٣٩ ـ المائقون « الغَضِبون وشديدو الغيظ » .

٤٠ ـ سيّئو الأخلاق .

٤١ ـ الأعداء .

يقول الشاعر :

ومِنْ نكـد الدّنيـا على الحـرِّ أن يَرى
عـدوّاً لَـهُ مـا مِن صـداقتِـه بُـدُّ

٤٢ ـ أعداء الاصدقاء .

٤٣ ـ أصدقاء الأعداء .

٤٤ ـ العوام(*) .

وحقيقةُ أنّ هناك نوعيّات من النّاس لا تجدر مصادقتهم ، لا تعني أن ينعزل المرء عن الإجتماع ، أو يتنصّل عن مسؤوليته في عملية التّغيير الاجتماعيّ ، فهناك خط فاصل دقيق يجب أن يدرك ، بين الابتعاد عن غير الجديرين بالمصادقة لغياب أهليّتهم ، وباعتبار أنهم قد يتركون تأثيرهم السيّء على أصدقائهم ، وبين مسؤوليّة الإنسان في تغييرهم الى الأفضل ونقلهم من جحيم الرّذيلة الى جنّة الفضيلة .

وعلى هذا بإمكان المرء أن يتعامل مع شخص شرِّير لا بعنوان أن يتّخذه صديقا فيؤثّر عليه ـ سلبياً ـ في المستقبل ، وإنّما من أجل إصلاحه وتغييره إلى الأفضل . أمّا الاعتزال عن الفاسقين أو الفرار منهم ، فيلجأ اليه حينما يفقد الامل في هدايتهم ، او حينما يشكّلون خطرا على الأخيار . ومثال ذلك أصحاب الكهف الذين رأوا أنفسهم بين ظهراني قوم أصروا على الشِّرك والكفر ، ولم تنفع معهم سبل الإرشاد والهداية ، فلجأوا الى الإعتزال عنهم في الكهف .

يقول تعالى في قصتهم :

﴿ هؤلاء قومنا اتّخذوا من دونه آلهةً ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ، إلا الله فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيِّء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ .

(*) العوامّ : جمع عامّة ، عامة الناس ، خلاف خاصتهم .

ويقول الشاعر في اختيار الأصدقاء:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يقتدي
إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم
ولا تصحبِ الأردَى فتردَى مع الرَّدِي

إختبار الأصدقاء

وبعد اختيار الأصدقاء تأتي مرحلة اختبارهم(*) .

ورُبَّ سائلٍ يسأل :

لماذا اختبار الاصدقاء؟

وكيف ؟

إن الحكمة في إختبار الاصدقاء تنبع من أمور :

١ ـ ان الزمن الذي نعيش فيه زمان جور ، واذا كان الزمن كذلك فسلاح الانسان في حفظ صداقاته هو الحذر ، والتوسُّط في إعطاء الثقة . ويكون هذا الامر اكثر أهمية حينما تكون الصّداقة متعلقة بأمور خطيرة ، وأسرار جماعيّة .

٢ ـ قد يخطىء الانسان في اختياره للأصدقاء ، وفي اختباره لهم يتعرّف على حقيقتهم ، ويتبين له ما كان يجهله فيهم ، وبالإختبار يمكن له اصلاح الثلمات فيهم ، أو الابتعاد عنهم إذا دعت الحاجة والموقف لذلك .

٣ ـ يكون الاختبار ضروريّا فيما اذا طرأت متغيرات معينة في الصّداقة ، ويكون الاختبار هو الكاشف لتلك المتغيّرات . ومثال ذلك : أن يصادق انسان ، آخر أمين على الاسرار ، فتحدث لهذا الأخير متغيرات تجعله يفقد صفة الأمانة ، او تجعله يشك في أمانته ، فيكون الاختبار هو المقياس آنئذ .

(*) يمكن اختبار الشخص قبل اختياره صديقاً ، فيكون الاختيار مبني على الاختبار .

أما عن كيفيّة اختبار الأصدقاء فما يجب التأكيد عليه ان الاختبار يجب ان يكون انسانياً وغير مهين لهم . إن قسماً من النّاس يختبرون أصدقاءهم بشكل مهين او مؤذٍ ، وحينما يراجعهم أصدقاؤهم يردّون : ان الذي كان منّا لم يكن سوى مجرد اختبار ! .

واختبارات الأصدقاء كثيرة منها ما يلي :

١ ـ اختبار الميل النّفسي والرّوحي « حبّ التقرّب » .

٢ ـ الاختبار عند الحاجة « العطاء في عموم الحاجات » .

٣ ـ اختبار المواساة بالمال ، والدرهم والدينار .

٤ ـ الاختبار في الضراء والشدائد والنّكبات .

قال الشاعر :

جزى الله الشدائدَ كلَّ خيرٍ عرفت بها عدوّي من صديقي

٥ ـ اختبار الحلم والغضب .

٦ ـ اختبار السّفر .

٧ ـ اختبار الأصدقاء بأخدانهم ، أي بأصحابهم(*) .

٨ ـ اختبار الأمانة ، كالائتمان على مال .

٩ ـ الاختبار في الغَيبة « حفظ الصديق في غيبته » .

١٠ ـ اختبار التقوى .

١١ ـ اختبار الاخلاص في الصداقة .

١٢ ـ اختبار الصِّدق .

١٣ ـ اختبار حفظ اللسان وحسن استعماله .

(*) كما تقول الحكمة الشهيرة : « قل من تصادق أقلْ لك من أنت » فاختبارك صديقك باختبار صديقه أو صاحبه يعينك على معرفة صديقك .

١٤ ـ اختبار تحصين الاسرار .

قال الشاعر :

لا يحفظ السِّرّ الاّ كلُّ ذي كرمٍ والسِّرّ عند لِئام النّاس مبذولُ

١٥ ـ اختبار الإهتمام بالعبادات .

١٦ ـ اختبار الصّفات النفسية كالإرادة ، وسعة الصّدر ، والمزاج ، و . . .

١٧ ـ اختبار الاخلاق عموماً .

١٨ ـ اختبار الاخلاص والثبات في الصّداقة .

قال الامام عليّ (ع) في الشعر المنسوب اليه :

ولا خيرَ في ودِّ امريءٍ متلوِّنٍ إذا الرِّيح مالت مالَ حيثُ تميلُ
وما أكثرَ الإخوانِ حينَ تَعدُّهم ولكنهم في النّائباتِ قليلُ

١٩ ـ اختبار حسن العشرة والمعاملة .

٢٠ ـ اختبار رعاية الحقوق .

حقوق الأصدقاء

من طبيعة الحياة أنّها قائمة على الحقوق . فالنّبتة التي يزرعها المرء ، حقّها عليه أن يسقيها ويتعهّدها . والطّير الذي يضعه في بيته ، حقه عليه أن يطعمه الحبّ ، ويسقيه الماء ويرعاه . والقطة التي في منزله ، حقها عليه أن يطعمها ويعاملها بالرّفق ، والأمور كّلها على هذا .

والنّاس الذين هم إمّا إخوان للمرء في الدّين أو نظراء له في الخلق ، لهم حقوق عليه ، منها أن يحترمهم ، ويقدرهم ، ويظهر اهتمامه المخلص بهم ، ويلاقاهم بوجه طلق ، ويقضي حوائجهم ، ويتعامل بالرّفق واللين والرّحمة معهم ، ويتواضع لهم ، ولا يريق ماء وجوهم ، ويقدر أفكارهم ووجهات نظرهم ، ويعطف على رغباتهم الخيّرة ويخالطهم ويعاشرهم بإحسان ، ولا يحرجهم ، و . . .

ومن النّاس ، الأصدقاء ، فكما أن لعموم النّاس على المرء حقوقاً ، فان للأصدقاء عليه حقوقاً أيضاً ، ويشترك الأصدقاء مع عموم النّاس في كثير من الحقوق ، إلا أنّ للأصدقاء حقوقاً متميّزة .

وإعطاء الحقوق للأصدقاء يمثل جانباً واسعاً وكبيراً من التّعامل معهم ، لأن إعطاء الحقوق من العدالة ، التي هي إعطاء كل ذي حقّ حقه ، ووضع الشّيء في موضعه .

فلكي يحسن المرءُ التّعامل مع أصدقائه ، يلزم له أن يحسن اعطائهم حقوقهم . وحقوق الأصدقاء على ثلاثة انواع كما يتبيّن من خلال النّظر الى الأحاديث الشريفة الواردة فيها.

١ ـ حقوق نفسيّة .

٢ ـ حقوق معنوية .

٣ ـ حقوق مادّية .

ومن حيث الأوليّة والتّفصيل هناك إن صح التّعبير ـ حقوق رئسية ، واخرى تفصيليّة .

الحقوق الرئيسية :

١ ـ الحفظ في الغيبة.
٢ ـ الحفظ في النّكبة .
٣ ـ الإجلال في العين .
٤ ـ الودّ في الصدر .
٥ ـ المواساة في المال .
٦ ـ العيادة في المرض .
٧ ـ تشييع الجنازة .
٨ ـ الحفظ بعد الوفاة .

الحقوق التّفصيلية :

١ ـ غفران الخطأ والزلّة .

قال بشّار بن برد :

وكنتُ اذا الصّديق أراد غيظي وأشرقني على حنقٍ بريقي
غفرتُ ذنوبَهُ وصفحتُ عنه مخافةَ أن اعيش بلا صديقِ

٢ ـ رحمة العبرة .

٣ ـ ستر العورة .

٤ ـ قبول العثرة .

٥ ـ ردّ الغيبة .

٦ ـ قبول المعذرة .

قال الشّاعر :

اذا اعتذرَ الصّديقُ إليك يوماً من التّقصير عُذرَ أخٍ مُقرِّ
فصُنه عن جفائِك واعفُ عنهُ فإنّ الصّفح شيمةُ كلِّ حُرِّ

٧ ـ إدامة النّصيحة .

٨ ـ حفظ الخلّة (*) .

٩ ـ رعاية الدّعوة .

١٠ ـ شهود الميتة .

١١ ـ إجابة الدعوة .

١٢ ـ قبول الهدّية .

١٣ ـ مكافأة الصلة .

١٤ ـ شكر النّعمة .

١٥ ـ حسن النّصرة .

١٦ ـ حفظ الحليلة (الزوجة) .

١٧ ـ قضاء الحاجة .

(*) الخلّة : الحاجة والفقر ، الخصلة ، الثقبة . الخِلّة : المصادقة والاخاء . الخُلّة : الصداقة ، والخصلة .

١٨ ـ استنجاح المسألة .
١٩ ـ تسميت العطسة(*) .
٢٠ ـ إرشاد الضّالة .
٢١ ـ ردّ السّلام .
٢٢ ـ تطييب الكلام .
٢٣ ـ موالاة الوليّ والصّديق .
٢٤ ـ نصرة الصّديق ظالماً(**) أو مظلوماً .
٢٥ ـ عدم التسّليم والخُذلان .
٢٦ ـ حبّ الخير للصّديق كما للنّفس .
٢٧ ـ كُره الشّر له كما للنّفس .
٢٨ ـ التّفضل .
٢٩ ـ الإنصاف .
٣٠ ـ الإكرام .

حدود الصداقة :

كما أنّ الحديقة لا بد لها من سياج يحميها ، وحدود تحدّها لكي تتمّ المحافظة عليها ، واستمرارها ، وجني ثمارها . كذلك الصّداقة ، لا بد لها من حدود تحافظ عليها ، وتحميها ، وتصون ماهيّتها ، وحدودها هي القواعدالاتية :

١ ـ كون سريرة الصّديق وعلانيته واحدة (نبع الصّداقة من القلب) .
٢ ـ أن يرى الصديق زينه زين صديقه ، وشينه شينه .
٣ ـ أن لا يغير الصّديق على صديقه مال او ولد .
٤ ـ أن لا يسلمه عند النّكبات .
٥ ـ أن لا يمسك شيئاً ـ عن صديقه ـ مما تصل اليه مقدرته .

(*) تسميت : سمّت العاطس : دعا له بقوله : « يرحمك اللّه » . سمّت على الشي : ذكر اسم الله عليه .

(**) نصرة الصديق ظالماً بردّه عن ظلمه .

٦ ـ الحفظ في الغيبة .

٧ ـ الحفظ في الوفاة .

٨ ـ النُّصح في العيب .

٩ ـ الإيثار على النّفس .

١٠ ـ النّهي عن الظّلم والعدوان .

١١ ـ الإعانة على البّر والإحسان .

١٢ ـ التّصديق في نفس الصّديق ومعايبه .

١٣ ـ الوقاية بالنفس .

أجواء الصّداقة :

كما أنّ الإنسان لا يستطيع العيش الاّ في جوّ يحتوي على كميّة كافية من الغذاء والاوكسجين، كذلك الصداقة فهي لا تنمو ولا تبقى إلاّ في ظلّ أجواء خاصّة بها . وكما أنّ البذرة لا تنفتق ، ولا تنمو ، ولا تثمر الاّ حينما توفّر لها التّربة الصّالحة ، والكمية الكافية من الماء والنّور والهواء ، كذلك الصّداقة فهي لا تستمرّ ، ولا تزدهر إلا في الأجواء الصالحة الخاصة بها .

واجواء الصداقة هي :

١ ـ الثّقة المتبادلة بين الأصدقاء (حسن الظّن المعتدل) .

٢ ـ الورع .

٣ ـ استخدام الحلم .

٤ ـ استعمال الرِّفق واللين .

٥ ـ الكرم .

٦ ـ ترك الإستقصاء والانتقاد .

٧ ـ ترك المناقشة السّلبيّة .

٨ ـ القبول بالصديق كما هو (تجنّب الخياليّة في المصادقة) .

يقول الشاعر :

أتطلُب صاحباً لا عيب فيه ؟! وأيُّ النّاس ليس له عُيوبُ ؟!

آداب الصداقة

ليس من الصحيح أن يقال : بين الأحباب تسقط الآداب . لأن الآداب اذا سقطت ، سقط الحياء ، ومتى ما سقط الحياء إنجرّ الإنسان الى ممارسة ما لا يحّل ولا يجمل ، لأنه اذا لم يستح ، يفعل ما يشاء . والصّحيح هو أن تسقط الكُلفة والتكلّف بين الأصدقاء ، فحيث أن القلوب متآلفة ومنسجمة ومتحابة مع بعضها ، فليس للكُلفة مكاناً .

وكما أن للمسجد قدسيّة ، وله آداب ، فكذلك الصّداقة مقدسة ولها آدابها . وكما أننا نلتزم الآداب حينما نرتاد الحدائق والمنتزهات ، كذلك فإن للصّداقة آدابها التي يخلق بنا أن نلتزمها وهي كالتالي :

١ ـ الإستئذان للدّخول على الصّديق .

٢ ـ السّلام قبل الكلام .

٣ ـ الإحترام في المجلس وقت الدّخول .

٤ ـ التّوسع في المجلس .

٥ ـ ذكر كنية الصّديق في الحضور ، والاسم في الغياب .

٦ ـ التزام آداب الجلوس .

٧ ـ تسميت العطسة .

٨ ـ ترك المزاح المهين .

٩ ـ المضاحكة والدّعابة .

١٠ ـ ترك التّناجي(*) أمام الآخرين .

١١ ـ الزّيارة في الحضر .

١٢ ـ المكاتبة حين السّفر .

١٣ ـ الإهداء .

١٤ ـ المصافحة والمعانقة .

١٥ ـ تقبيل موضع النّور من الجبهة .

١٦ ـ إطعام الطعام .

١٧ ـ الدّعابة للأصدقاء .

١٨ ـ إخبار الصّديق صديقه بحبّه له .

١٩ ـ المبادلة بين الأصدقاء .

٢٠ ـ إدخال السّرور الى قلوب الأصدقاء .

٢١ ـ التّحدث فيما يهمّ الأصدقاء ويطيب لهم ويلذّ .

٢٢ ـ كتمان اسرار الأصدقاء .

٢٣ ـ حفظ اسماء الأصدقاء .

٢٤ ـ الوفاء بالوعد مع الأصدقاء .

٢٥ ـ التّزين والتجمل للأصدقاء .

(*) التّناجي : التّسارّ . تناجى القوم : تساروا . النّجْوة : السرّ بين إثنين . يقول الإمام الصّادق (ع) : « إذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى منهم إثنان دون صاحبهما فإن ذلك مما يحزنه ويؤذيه » أصول الكافي ، ج ٢ ، ص ٦٦٠ .

خمس قواعد هامة في الصداقة والتعامل مع الأصدقاء

القاعدة الأولى : الإعتدال العاطفي

في الصّداقة ، هل من الصّحيح أن يكون الحبّ مفرطاً ؟

وفي الخصومة هل من الصّواب أن يكون البغض زائدا عن حدّ الإعتدال ؟

بلا تردد أنّ الأعتدال في الأمور هو الأسلوب السليم ، وكما تقول الحكمة الإسلامية الشهيرة : (خير الأمور أوسطها)[٦] ومن الأمور الهامة في الحياة حبّ الأصدقاء وودّهم ، والذي يجب أن يكون عميقاً وصميمياً ، وغير مفرط في نفس الوقت .

ويسأل السّائل :

إذا كانت الصداقة قائمة على الحبّ ، والميل العاطفي ، فما الحكمة في ان هذا الحبّ ، وهذه العاطفة يجب أن يكونا خارجين عن حدّ الإعتدال والتّوازن وتكون الإجابة كالتّالي :

١ ـ مع وجـود الصّداقة ، يحتمل أن يكون هناك تباغض أو افتراق . فإذا ما افرط المرء في حبّ صديقه ، فقد يحدث أن ينفصل هذا الأخير عن الأوّل ، وبالتالي ينصدم الأول بشيء لم يتوقعه . أمّا إذا اعتدل الصّديق فـي حبه لصديقه فإنه بذلك يضع في حسابه أن صديقه ـ ولسبب ما ـ قد يبغضه . هذا إضافة الى ان التوسط والاعتدال هو الحد المطلوب في الحبّ والميل العاطفي .

٢ ـ الأمر الآخر أن الحب المفرط قد يتحول الى حب اعمى واذا ما تحول الى ذلك فإن الصّديق يتعامل مع صديقه وكأنه قديس فلا ينصحه ولا يبيِّن له اخطاءه ، وهذا خلاف الصّداقة الحقيقيّة .

٣ ـ إنّ الإعتدال في الحبّ والتوازان العاطفي يجعل الإنسان معتدلاً في بغضه ايضاً الأمر الذي يساعد على تخصيص مساحة احتياطية من الحب تجاه البغيض ،

---

(٦) الامام الكاظم (ع) ، بحار الانوار ، ج٧٦ ، ص٢٩٢ .

من اجل ان تعود المياه الى مجاريها ، واستمرار الصّداقة في يوم من الأيام .

وفي هذه المعاني يقول الإمام عليّ (ع) :

« أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما »[٧] .

القاعدة الثانية : اغتنام فرصة اقبال النّاس :

كلّنا يعلم أن لأكثر الطّيور مواسم تقبل فيها ، فعلى سبيل المثال : قد تغيب البلابل عن منطقة ما في فصل الشّتاء ، ولكنّها مع اطلالة الرّبيع تبدأ بالخروج او الإقبال ، فتملأ الأجواء تغريدا والحاناً .

ومع ادراك هذه الحقيقة ، فما الذي يفعله الصّيادون من أجل الصيد ؟

إنهم ينتهزون فرصة موسم الطيور واقبالها فيتناولون افخاخهم وحبائلهم ، ويتوجهون شطر الأماكن الخصبة للصّيد ، فيكون صيدهم سميناً .

وهكذا الحال بالنسبة للناس فهم يشبهون الطّيور - الى حّد ما - في إقبالهم وإدبارهم . فإذا ما أقبل على المرء انسانٌ أهلٌ للمصادقة ، فالجدير به أن يغتنم فرصة اقباله عليه ، دون أن يتردد في ذلك ، فيصطاده كما يصطاد الصّياد ظبياً لائحا مقبلا . وحال إقبال النّاس عليه ليضع في اعتباره أن الشيطان قد يأتي اليه ، ويهمس في أذنه قائلا : أنك لست بحاجة الى اصدقاء ، فأنت غنيّ عنهم ، فليحذر كيد الشيطان . او قد يقول المرء في نفسه : ان النّاس يقبلون عليّ ، ويرغبون في مصادقتي ، ولكنّي لا أرغب في مصادقتهم ، وهذا خلاف المبادىء الحقيقية للمصداقة التي تدعو الإنسان الى التّواضع ، واغتنام فرصة اقبال النّاس ، والاكثار من الإخوان والأصدقاء .

وفي هذه المعاني يقول الإمام عليّ (ع) :

« زُهدك في راغب فيك نقصان حظّ ، ورغبتك في زاهد فيك ذّل نفس »[٨] .

---

(٧) نهج البلاغة ، ص٥٢٢ .

(٨) نهج البلاغة ، ص٥٥٥ .

فإذا اراد المرء أن يكون من المحظوظين السّعداء ، فلا يزهدن في من يرغب فيه ، ويقبل عليه ، وليغتنم فرصة رغبته فيه ، وإ قباله عليه ، وليؤاخه وليصادقه .

القاعدة الثّالثة : الإحتفاظ بالأصدقاء القدامى :

الأصدقاء القدامى كالتحف النّادرة التي كلما تعاقبت عليها الليالي والأيام ، ازداد الإنسان حبّاً فيها ومحافظة عليها . وهم كرأس المال الأول للانسان . أرأيت ان كان للمرء رأس مال أولي فإنه به يصنع استثماراته الجديدة والمستقبلية .

واذا كان الأمر كذلك ، فهل من الحكمة أن يفرّط في التحف النادرة او أن يتم التّخلّص منها باهمالها ، أو رميها ؟ ! .

هل من الصّحيح أن يهمل الإنسان رأس ماله ويضيعه ؟!

كلا !

إن الصّداقة مهما كانت قديمة فهي دائما جديدة ، كماء النّهر فهو دائما جديد . وان اعجز العاجزين هو ذلك الذي لم يكتسب صديقا له في الحياة ، وأعجز منه ذلك الذي اكتسب أصدقاء ، ففرط فيهم ، وضيعهم .

يقول الإمام عليّ(ع) :

« أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم »[٩] .

ويقول الشّاعر :

الأخـــلاء في الـــرّخـــاء كـــثـــير   واذا مـــا بلوت كـــانـــوا قليـــلاً
واذا مـــا أصبتَ خـــلاً حفيـــظا   راعيـــاً لـــلإخـــاء بـــراً وَصُـــولاً
فتمســـك بحبله أبـــد الـــدّهـــرِ   وأكـــرِم بـــه أخـــا وخـــليـــلاً

فهلّا نكثر من الأصدقاء الجدد ، ونحافظ على ما ظفرنا به من أصدقائنا القدامى ؟

---

(٩) نهج البلاغة ، ص٤٧٠ .

القاعدة الرابعة : استعمال الوصل في مقابل القطع .

أرأيت النّحل في خلاياه ؟

إنّ المرء ليجد حالة التّواصل متمثّلة في أعلى مستوياتها ، فأفراد النّحل وان كانوا يزاحمون بعضهم بعضا ، ويستعملون نوعاً من الشّدّة فيما بينهم ، فيلسعون بعضهم بعضاً إلا أن حالة التّواصل سرعان ما تعود فيما بينهم ، وكأن شيئاً لم يكن .

وإذا كانت تلك شاكلة النّحل ، أفليس من الخليق ببني الإنسان الذين هم مكرّمون على جميع الخلائق ، ومتميزون عليهم بالعقول ، أن يستعملوا أسلوب الصّلة في مقابل القطيعة ، والإحسان في مقابل الإساءة ؟

إن الصّداقة قد تتعرّض لما من شأنه أن يسبب التّقاطع ، ولكن ما هو الأسلوب الأمثل لرأب الصّدع؟

هل التّمادي في الخصومة ، والقطيعة ، واللجاجة ، أم تقديم الحب ، والتّنازل ، والاحسان ؟

وما من شك انه لا افضل من اسلوب الوصل في مقابل القطع ، والاحسان في مقابل الإساءة فهو الأفضل في التّعامل بين الإخوان والاصدقاء وبين عموم النّاس . وعن طريق هذا الأسلوب يحقق المرء المستعمل له امور :

١ ـ أنه لا يدع فرصة للأغلال النّفسية أن تعشعش في نفسه ، وفي نفس صديقه المتقاطع معه ، فينسفها نسفا ، ﴿ فيذرها قاعاً صفصفاً ﴾[١٠] .

٢ ـ تقديم التنازل ، وبالتالي التحكم في الأنا ، والابتعاد عن التعصب الأعمى .

٣ ـ عودة الصّداقة الى مرافئها .

يقول الإمام عليّ (ع) :

---

(١٠) ١٠٦ ـ طه . النّسف : هو الدّك والقلع من الأصل . والقاع الصّفصف : الأرض المستوية .

« احمل نفسك من اخيك عند صرمه على الصِّلة اذا قطعك »[11] .

ويقول (ع) :

« عاتب اخاك بالاحسان اليه واردد شره بالانعام عليه »[12] .

ويقول الشاعر :

ولا تقطعْ أخاً من أجلِ ذَنْبٍ
فإنَّ الذَّنبَ يغفرُه الكريمُ

القاعدة الخامسة : الإصلاح بين الأصدقاء .

ما الذي يشاهده المرء لو وضع أمام ناظريه كاس ماء هادىء رسبت في قاعه حبيبات من التراب .

ما يشاهده هو رواق الماء . ولكن ماذا لو حرك الكأس تحريكا خفيفاً واهتزّت حبيبات التراب ، الا يرى شيئاً من تلك الحبيبات يبدأ بالتقليل من صفاء الماء؟

أجل .

وهكذا الحال بالنسبة للصداقة ، فالأصل فيها هو الصّدق ، والحب ، والوئام ، والوحدة ، والإتفاق . كما تتوافق ذرات الماء الرائق مع بعضها البعض . ومع ذلك فقد يحدث اختلافا ، أو سوء تفاهم بين صديقين ـ لسبب ما ـ لأن الإنسان ليس معصوما من أن يخطيء وهو لا يتعامل مع تماثيل حجريّة ، وانما مع بشر .

واذا كان الأمر كذلك، فكيف يتم التصرف حيال الإختلافات بين الأصدقاء ؟

كيف يتم الإصلاح بينهم ؟

في كثير من الأحيان يتنازل الأصدقاء ، ويمتصّون الإختلافات التي قد تنشأ بينهم . وقد يكون التنازل من طرفين ، وقد يكون من طرف واحد ، والمحصّلة :

---

(١١) تحف العقول . صرمه : انقطاعه وهجره .

(١٢) نهج البلاغة ، ص٥٠٠ .

يعود الأصدقاء الى الحالة الطبيعية الصافية كما تعود جزيئات الماء التي اصابها شيء من التعكر ، الى حالة الرواق .

ويُعتبر الطّرفان المختلفان هما المسؤول الأول عن ارجاع الصّداقة الى حالتها الطبيعية . أما او لم يبادر ايٌّ منهما الى الصلح وفض الأختلاف ، وفتح صفحة جديدة ، فهنا يأتي دور الطّرف الثالث (الوسيط او الشفيع) في تقديم باقة من الورد ، او رفع غصن من الزيتون من اجل الإصلاح . ووسيلة الاصلاح ، الكلمة الطّيبة ؟ ، وذلك بأن ننقل كلاما طيباً عن كل منهما للآخر، والكذب الأبيض ، وكل وسيلة خيرة تؤدي الى الإصلاح ، ورجوع مياه الصّداقة الى مجاريها .

يقول الرسول الأعظم (ص) :

« إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصّلاة والصّيام »[13] .

ويقول الإمام الصّادق (ع) :

« كل كذب مسؤول عنه يوم القيامة الاّ ثلاثة :

رجل كائد في حربه ، فهو موضوع عنه .

ورجل أصلح بين اثنين ، يلقى هذا بغير ما يلقى هذا .

ورجل وعد أهله شيئاً ، ولا يريد أن يتم لهم عليه ، يريد بذلك دفعاً »[14] .

---

(١٣) ميزان الحكمة .

(١٤) المصدر السابق .

القسم السادس

التّعامل مع العائلة

ما هي العائلة ؟

وما ربطها بالتّعامل مع النّاس ؟

كلمة « العائلة » تُطلق على من يعيلهم الرجل ، وينفق عليهم ، وهم الزّوجة والاولاد ، ومن ينتسب اليه من أبيه ، كالإخوان . والأهلُ هم العشيرة . وذوو القربى ، وتطلق مخصوصا على الزوجة . فاهل الرجل هي زوجته .

العائلة نقطة الإنطلاق :

وحيث أن أفراد العائلة هم اقرب النّاس واولهم بالنسبة للإنسان ، واذ أنّهم يعيشون في محيط مشترك ، سواء على صعيد القرابة ، او على صعيد الأسرة الواحدة ، والمنزل الواحد ، فإن علاقاتهم الإجتماعية ، وتعاملهم فيما بينهم يلزم أن تكون قائمة على اسس متينة . وذلك لان التّعامل الحسن هو الحالة المطلوبة من جهة ، ومن جهة اخرى ان التّعامل الحسن مع افراد العائلة يشكل نقطة الإنطلاق في التّعامل مع النّاس . فمن يحقق نجاحا باهراً في التّعامل مع عائلاته ، فانه يحقق نجاحاً في التعامل مع عموم الناس الآخرين ، وخلاف ذلك صحيح .

والنّجاح والسعادة في ميدان الإجتماع كل لا يتجزأ ، ويشمل النجاح والسعادة في التّعامل مع العائلة ، ومع الأصدقاء ، ومع عموم النّاس على اختلاف فئاتهم . فمن يحقّق نجاحاً في معاملة النّاس ،او مع أصدقائه ، ولكنه يسيء معاملة أفراد

عائلته ، فإنه لا يعتبر ناجحا وسعيدا(*). فلكي يدخل المرء السعادة من اوسع ابوابها ، واجبه أن يسعد نفسه على جميع هذه المحاور ، واولها التّعامل مع افراد العائلة .

وقواعد التّعامل مع كل تلك المحاور ، ومع افراد كل واحد منها ، كثير منها مشترك ، وتبقى بعض الخصوصيات التي ترتبط بالفرد وموقعه . فعلى سبيل المثال : انّ قواعد : الإحترام ، والتّقدير ، واظهار الإهتمام المخلص والاشعار بالاهمية ، والحبّ للنفس كما الحب للغير ، والكره للنّفس كما الكره للغير ، وترك التّوبيخ واللوم ، واستخدام الرِّفق ، و . . . هي قواعد مشتركة للتعامل مع عموم النّاس على اختلاف فئاتهم وحرفهم ، ومع الأصدقاء ، ومع افراد العائلة ، كالوالدين ، والزوجة ، والاولاد ، والإخوان ، ومع عموم الاهل والاقارب ، كالأعمام ، والعمّات ، والاخوال ، والخالات ، و . . . . . .

هناك من الناس من يبدو في معاملة الناس رفيقاً ليناً حليماً، ولكنه حينما يعود إلى بيته يتحوّل إلى شخصٍ عنيف شديد الغضب في معاملة أهله وأقاربه، وهذا ليس صحيحاً إذ حسن التعامل كما هو مطلوب خارج المنزل هو مطلوب داخل المنزل أيضاً.

قواعد أساسية في التعامل مع العائلة

القاعدة الأولى : الحبّ والمودّة

قد يسأل السائل : إذا كنتُ اعيش مع ابي وامي ، وزوجتي ، وأولادي ، ألا تكفي قرابتهم لي عن كلّ شيء ؟

والاجابة :

إن علاقة الإنسان بعائلته ليست علاقة ميكانيكية ، بل هي علاقة قائمة على الإنسانية ، والحبّ المتبادل بين كل فرد وآخر فيها ، والحبّ غريزة موجودة في كلّ فرد من أفراد العائلة تجاه كل فرد آخر فيها ، فالأب يحبّ زوجته ، وكلاهما يحبّ الأولاد ، والاولاد يحبون الآباء ، الاّ أنّ تلك الغريزة قد تُضيَّق في اطار القرابة ، وهذا ليس صحيحاً .

إن القرابة مهما كانت قويّة فإنها لا غنى لها عن الحبّ ، وليست بديلاً عنه ، فهي بحاجةاليه اكثر مما يحتاج هو الى القرابة . فكم من أناس متحابين متوادين ، هم أصدقاء من دون أن تربطهم قرابة عائلية ، وكم من أقرباء ليسوا متحابين بالشكل المطلوب !

وفي هذا المضمون يقول الإمام عليّ(ع) :

« القرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة »[1] .

(١) نهج البلاغة ـ الحِكَم .

فلكي يحسن المرء معاملة عائلته ، فيلزمه أن يقيمها على الحبّ ، وازدهاره .

القاعدة الثانية : الصّداقة مع العائلة

المعلوم أننا نجد ونجتهد في اكتساب اصدقاء اغراب ، وننسى أن افراد عائلتنا هم اوائل الأفراد الجديرين بالمصادقة .

ويسأل السّائل :

إذا كانت لديّ صلة قرابة مع افراد عائلتي ، فما الداعي لمصادقتهم ؟

وكيف أكون صديقا لأبي ، وامّي ، وزوجتي ، وأولادي ، وإخواني ، وسائر أفراد العائلة ؟

إن كونهم أقرباء بالنسبة للمرء لا يكفي ، بل لا بدّ من اتخاذهم اصدقاء حميمين بالنسبة له ، فيحبهم ، ويصادقهم ويعطيهم حقوقهم كاملة غير منقوصة ، كما يعطي اصدقاءه الأغراب حقوقهم .

وانه لمن وافر السعادة ومن مظاهر المجتمع المتماسك المتحاب ، أن تجد الوالد صديقا اولاده ، والاخ صديقا لأخيه ، والزّوج صديقا لزوجته ، وكلّ فرد في العائلة صديقاً للآخر فيها! .

القاعدة الثالثة : المعاشرة بالمعروف .

المعاشرة ، المخالطة ، والمعاملة ، والمعروف هو كل عطاء خير يؤيده الدّين والعقل . فالكلمة الطيّبة ، والاحترام ، والتّقدير ، والحفظ في الغيبة ، والحب ، والاخلاص ، وتلافي إراقة ماء الوجه ، والانفاق ، والاحسان ، و . . . كل هذه الأمور تندرج تحت مفهوم المعروف .

والحقّ أنّ افراد العائلة هم اولى النّاس بالمعروف ، فمن الإجحاف أن يقدم الانسان معروفه الى الآخرين ، ولا يقدمه الى اقاربه وافراد عائلته .

يقول تعالى :

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾[2] .

---

(٢) سورة النساء ، آية : ١٩ .

وتقول الحكمة الشهيرة :

« الاقربون اولى بالمعروف » .

ويقول الإمام الصادق(ع) :

«مرء يحتاج في منزله وعياله الى ثلاث خصال ، يتكلفها وان لم يكن في طبعه ذلك : معاشرة جميلة ، وسعة بتقدير ، وغيرة بتحصّن »[3] .

القاعدة الرابعة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول تعالى :

﴿ وأُمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[4] .

أياً كانت منزلة المرء في العائلة ، سواء كان أباً ، أو أماً ، أو ولداً مؤهّلاً ، أو زوجة ، أو أخا ، أو . . . فإن من واجبه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

إن كل عمل خير يأمر به العائلة هو معروف ، وان كل عمل سيء ينهى عنه ، ويحاول تغييره فهو منكر . فقد يكون أباً فيأمر اولاده بإقامة الصلاة ، وحسن الارتباط بالله ، واكتساب الأخلاق ، وقضاء حوائج الآخرين ، واحترام وتقدير الوالدين ، والنّاس ، وبكل معروف يحتاجون اليه . أو قد ينهاهم عن أي خصلة او ممارسة ليست من المعروف في شيء . او يكون ابنا فياخذ دوره في العائلة ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وقد يكون أخا فيصنع مثل ذلك . وهكذا فإن أي فرد في العائلة مطالباً بممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبممارسة ذلك يتم تحقيق أمرين :

١ ـ تكريس الفضيلة ونشرها في العائلة لتكون (العائلة) بالفعل نواة صالحة ، ولبنة متينة .

٢ ـ تقويم العائلة ، وتصحيح مسارها ، وتخليصها من كل ما من شأنه أن يجرها الى الرذيلة ، والاخلاق والعادات السيئة .

---

(٣) بحار الأنوار ، ج٧٨ ، ص٢٣٦ .

(٤) سورة طه ، آية : ١٣٢ .

القاعدة الخامسة : الحلم

اذا كان من المطلوب من الإنسان أن يتعامل مع الآخرين باللين والرفق ، ويدع العنف والغضب ، فإنه من المطلوب منه بشكل اولي أن يتعامل مع افراد عائلته بمثل ذلك .

وانه لمن الشقاء الحقيقي ، والجور أن يتحول الإنسان الى وردة في تعامله مع النّاس ، ولكنه حينما يعود الى منزله يتحول الى بارود منفجر ، مع ابيه وامه وزوجته واولاده ، واخوانه ، وعموم اقاربه .

ومن هنا فإنّ ممارسة الحلم ، وضبط النفس يجب أن تبدأ من العائلة ، اذ فما فائدة أن يسعد المرء الآخرين ، واقرباؤه يشقون منه ؟!

يقول الإمام علي (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع) :

« ولا يكن اهلك اشقى الخلق بك »(٥) .

القاعدة السادسة : الصبر على الأهل والاولاد

قد يسأل السائل :

ماذا يعني الصّبر هنا ؟

ان يصبر المرء على اهله يعني أمرين :

١ ـ أن يصبر على حبّه لهم ، وتحمّل مسؤوليتهم ، وعلى ما يجب فيهم من الأخلاق والفضيلة .

٢ ـ أن يصبر على ما يكره منهم ، ويعمل على تقويمهم ، وإرشادهم الى الحق والصّواب .

يقول الإمام الباقر (ع) :

« إني لأصبر من غلامي هذا ومن أهلي على ما هو أمرُّ من الحنظل انه من صبر نال بصبره درجة الصّائم القائم ودرجة الشّهيد الذي ضرب بسيفه قدام محمد صلى

---

(٥) نهج البلاغة ، كتاب ٣١ .

الله عليه واله وسلم » .

القاعدة السابعة : ان لا تتحول العائلة الى ملهاة عن ذكر الله والتزام مبادئه

كما أن المال اذا اسيء فهمه واستخدامه ، يتحول الى ملهاة عن ذكر الله ، ومادة للأهواء والشهوات ، فكذلك الأهل والاولاد ، يتحولون الى اداة الهاء عن قيم الله فيما اذا لم يتم التّعامل معهم وفق الطريقة التي يأمر بها الدّين الذي هو رسالة الله الى النّاس .

وتحوّل العائلة الى ملهاة عن مباديء الله يظهر في عدة امور منها :

١ ـ الإصابة بالغرور والكفران بسبب الأولاد . فكم من انسان انجب له اولاد ، فلم يتواضع ولم يشكر الله على هذه النعمة ، فابتعد عن جادة الحقّ ، والهداية والرّشاد .

٢ ـ الإستسلام لضغوط الأولاد السلبية ، والتاثر بها .

٣ ـ الإنشغال بهم ، وبمسؤوليتهم ، وبتحمل نفقاتهم على حساب الإلتزام بالمبادىء والقيم الإلهية .

يقول تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾(٦) .

القاعدة الثامنة : صلة الرحم

من اهم قواعد التّعامل مع العائلة ، والاهل وذوي القرابة ، صلتهم ، والمحافظة على متانة العلاقة الإجتماعية بهم . وقد ينشغل الانسان بجزئيات حياته ، او قد يفرط في زيارة اقاربه وصلتهم ، فيقطعهم ، فما الذي يحدث من جراء ذلك ؟

ان ابرز ما يحدث هو أن يكون افراد الأهل او الأقارب كحلقات السلسلة

---

(٦) سورة المنافقون ، آية : ٩ .

المبتعدة عن بعضها البعض ، في الوقت الذي يجب أن يكونوا متواصلين متلاحمين .

فلكي يصل المرء رحمه ، الأمر في غاية السّهولة . ليقف مع نفسه ، ولينظر ما لديه من اقارب وارحام ، من آباء ، واخوان ، واولاد ، واعمام ، وعمات ، واخوال ، وخالات ، و . . . وليرسم له برنامجا لصلتهم .

وصلة الرحم وسيلة فنّية هامّة في مصادقة الأهل والاقارب ، ولقضاء الوقت المشحون بالود والوئام ، وهي تتم بزيارة القريب اذا كان حاضرا ، وبمكاتبته اذا كان مسافراً ، او بالاتصال به بواسطة جهاز الهاتف ، او بالسؤال عنه ، او بأي وسيلة اتصال اخرى . ولا ينسى المرء أن للزيارة الأثر الأعمق في الأرحام والاقارب وفي تعزيز التّلاحم العائلي . وأي سعادة يشعر بها الإنسان حينما يصل ارحامه انها سعادة يفتقر اليها كل من لا يصل ارحامه وأقاربه !

يقول الرسول الأعظم (ص):

« صلة الرّحم تعمر الدّيار ، وتزيد في الأعمار وان كان اهلها غير أخيار »[٧] .

---

(٧) بحار الأنوار ، ج٧٤ ، ص٩٤ .

التّعامل مع الوالدين والاولاد والاخوان

الوالدان ، والاولاد ، والاخوان هم ليسوا منفصلين عن اطار النّاس ، بل هم الاولون والاقربون في هذا الإطار . وعليه فإن هناك قواعد مشتركة كثيرة في التّعامل مع النّاس ، وفي التّعامل مع الوالدين ، والاولاد ، والاخوان .

ويمكن ايجاز قواعد التّعامل مع الوالدين في ما يلي :

١ ـ الإحسان والبر والمعروف .

٢ ـ الإحترام والتقدير واجتناب النّهر(*) .

٣ ـ القول الكريم .

٤ ـ الرحمة بهما .

٥ ـ الدعاء لهما .

٦ ـ عدم اطاعتهما في ما لا يرضي الله .

٧ ـ مصادقتهما .

يقول تعالى :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ ايّاه وبالوالدين إحساناً . إما يبلغنّ عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما

(*) النّهر : الزّجر ، النّهي والمنع .

جناح الذل من الرحمة ، وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً ﴾[8] .

ويقول الإمام علي بن الحسين (ع) ، في تبيانه لطريقة التّعامل مع الوالدين باعطائهما حقوقهما :

« . . . وأما حَق امك : فأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل احدٌ احداً ، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لايعطي احدٌ احداً ، ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبالِ أن تجوع وتطعمك ، وتعطش وتسقيك ، وتتعرّى وتكسوك ، وتضحي وتظلك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحَر والبرد لتكون لها ، وإنك لا تطيق شكرها الا بعون الله وتوفيقه »[9] .

« واما حق ابيك : فان تعلم انه اصلك وانه لولاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك ولا قوة الّا بالله » .

وفيما يرتبط بالتّعامل مع الأولاد واعطائهم حقوقهم يقول عليه السلام :

« واما حق ولدك : فان تعلم انه منك ومضاف اليك في عاجل الدنيابخيره وشره وانك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب ، والدّلالة على ربه ـ عز وجل ـ والمعونة له على طاعته . فاعمل في أمره عمل من يعلم انه مثاب على الإحسان اليه ، معاقب على الإساءة اليه » .

وعن التّعامل مع الأولاد :

جاء في كتاب « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في النّاس » لدايل كارنيجي ، ذكر مقالة نشرت اول الأمر في مجلة « بيبولزهوم جورنال » ثم نشرت بعد ذلك آلاف المرات . وقصة المقالة . أنّ شخصا انتقد طفله ، وعنفه ، ثم اصيب بحالة من الندم . ونصّ المقالة هو كالتالي :

« يا بني ! .

---

(٨) سورة الاسراء ، آية : ٢٣ ـ ٢٤ .

(٩) مكارم الاخلاق ، ص٤٢١ ، رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين (ع) .

اكتب هذا وانت راقد امامي على فراشك سادر في نومك وقد توسدت كفك الصغير وانعقدت خصلات شعرك الذهبي فوق جبهتك الغضة .

فمنذ لحظات خلت كنتُ جالساً الى مكتبتي اطالع الصحيفة ، واذا بفيض غامر من الندم يطغى علي فما تمالكت الّا أن تسللتُ الى مخدعك ووخز الضمير يصليني ناراً .

واليك الأسباب التي اشاعت الندم في نفسي :

اتذكر صباح اليوم لقد عنفتك وانت ترتدي ثيابك تأهباً للذهاب الى المدرسة ، لأنك عزفتَ عن غسل وجهك واستعضت عن ذلك بمسحه بالمنشفة ولمتك لانك لم تنظف حذاءك كما ينبغي وصحت بك مغضباً لانك نثرت بعض الأدوات عفوا على الأرض .

وعلى مائدة الإفطار احصيت لك الأخطاء واحدة واحدة : فقد أرقت حساءك والتهمت طعامك واسندت مرفقيك الى حافة المائدة ، ووضعت نصيباً من الزّبد على خبزك اكثر مما يقتضيه الذّوق .

« وعندما وليت وجهك شطر ملعبك ، واتّخذت أنا الطّريق إلى محطة القطار ، التفتَّ إليّ ولوّحت لي بيدك ، وهتفتَ : « مع السّلامة يا بابا » . وقطّبت لك جبيني ولم أجبك ، ثم أعدت الكرّة في المساء . ففيما كنتُ أعبر الطّريق لمحتك جاثياً على ركبتيك تلعبُ « البلي » ، وقد بدتْ على جواربك ثقوب ، فأذللتك أمام أقرانك ، إذ سيّرتك أمامي إلى المنزل مغضباً ، باكياً . إنّ الجوارب ، يابنيّ ، غالية الثّمن ، ولو كنتَ أنت الذي تشتريها لتوفّرتَ على العناية بها والحرص بها والحرص عليها .

« أفتتصوّر هذا يحدث من أب ؟!

ثم أتذكّر بعد ذلك ، وأنا أطالع في غرفتي ، كيف جئتَ تجرّ قدميك متخاذلاً ، وفي عينيك عتاب صامت ، فلما نحّيتُ الصحيفة عنّي وقد ضاق صدري لقطعك عليّ حبل خلوتي ، وقفتَ بالباب متردداً ، وصحتُ بك أسألك : « ماذا تريد؟! » .

« لم تقل شيئاً ، ولكنّك اندفعتَ إليّ ، وطوّقت عنقي بذراعيك وقبّلتني ، وشددتَ ذراعيك الصّغيرين حولي في عاطفة أودعها الله قلبك الطّاهر مزدهرة ، لم يقو حتّى الإهمال على أن يذوي بها!.

« ثم انطلقتَ مهرولاً تصعد الدّرج إلى غرفتك!

« يا بنيّ!

« لقد حدث بعد ذلك ببرهة وجيزة ، أن انزلقتْ الصّحيفة من بين أصابعي ، وعصف بنفسي ألم عاتٍ .

« يا الله! إلى أين كانت « العادة » تسير بي؟! عادة التّفتيش عن الأخطاء؟! عادة اللوم والتأنيب؟! أكان ذلك جزاؤك مني على أنّك ما زلت طفلاً؟!

« كلّا! لم يكن مردّ الأمر أنّي لا أحبك ، بل كان مردّه أنّي طالبتك بالكثير ، برغم حداثتك! كنتُ أقيسك بمقياس سنّي ، وخبرتي ، وتجاربي .

« ولكنك كنتَ في قرارة نفسك تعفو وتغضي ، وكان قلبك الصغير كبيراً كبر الفجر الوضّاء في الأفق الفسيح ، فقد بدا لي هذا في جلاء من العاطفة المهمّة التي حدتْ بك إلى أن تندفع وتقبّلني قبلة المساء!

« لا شيء يهم الليلة يا بنيّ! لقد أتيت إلى مخدعك في الظّلام ، وجثوتُ أمامك موصوماً بالعار!

« وإنّه لتفكير ضعيف!.

« أعرف أنّك لن تفهم مما أقول شيئاً لو قلته لك في يقظتك ، ولكنّي من الغد سأكون أباً حقّاً . سأكون زميلاً وصديقاً . سأتألّم عندما تتألم ، وسأضحك عندما تضحك ، وسأعضّ لساني إذا اندفعتْ إليك كلمة من كلمات اللوم والعتاب ، وسأردّد على الدّوام ـ كما لو كنت أتلو صلواتي ـ « إنْ هو إلّا طفل »!

« لشدّ ما يحز في نفسي أنّني نظرتُ إليك كرجل ، إلّا أنّني وأنا أتأملك الآن منكمشاً في مهدك ، أرى أنّك ما زلت طفلاً . وبالأمس القريب كنتَ بين ذراعيّ أمك ، يستند رأسك الصّغير إلى كتفها ، وقد حمّلتُك فوق طاقتك! » .

وفيما يرتبط بالتعامل مع الأخوان واعطائهم حقوقهم يقول الإمام علي بن الحسين(ع) :

« وأما حَق أخيك : فأن تعلم انه يدك وعزك وقوتك فلا تتّخذه سلاحاً على معصية الله ولا عدة للظالم بخلق الله ولا تدع نصرته على عدوه ، والنّصيحةله فإن أطاع الله والا فليكن الله اكرم عليك منه ولا قوة الّا بالله » .

والحق أن الإنسان بالتزام العدالة يمكنه حسن معاملة والديه وابنائه وإخوانه ، وزوجته ، وكل إنسان لأنها وضع للّشيء في موضعه ، واعطاء كل ذي حق حقه ، وهي جامعة لكثير من الفضائل .

التعامل مع الزوجة

يقول تعالى :

﴿ ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودّة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[10].

الأمر الأساسي الذي يجب التأكيد عليه هو أن الزوج ـ زوجاً كان او زوجة ـ هو احد الأطراف من الناس بل هو اقربهم بالنّسبة للانسان . وان السّعادة الزوجية هي من اهم أوجه السعادة العامة في الحياة . ومن هنا فإن قواعد ووصايا التعامل تتوجّه الى الزوج والزوجة على حد سواء فكل منهما مطلوب منه ان يعامل الآخر ويعاشره بشكل حسن .

واذ أن المرأة ضعيفة ، وباعتبارها محميّة الرجل ، وأنّ الرّجال هم القوامون على النساء ، وأن بعض الرّجال يستغل هذه الأمور بشكل سلبيّ ، فإن كيفية التعامل تتوجه الى الزوج تجاه زوجته .

---

(١٠) سورة الروم ، آية : ٢١ .

إثنتا عشرة قاعدة هامة في التعامل مع الزوجة

القاعدة الأولى : الحبّ .

القاعدة الثانية : الإحترام .

القاعدة الثالثة : التّقدير المخلص .

القاعدة الرابعة : الصّداقة .

القاعدة الخامسة : كثرة الموافقة .

القاعدة السادسة : التّوسيع مع التّقدير .

القاعدة السابعة : الغيرة بتحصُّن.

القاعدة الثامنة : ترك الإنتقاد .

القاعدة التاسعة : ترك اللوم ، والعتاب ، والتوبيخ(*) .

القاعدة العاشرة : استعمال الرّحمة والرّفق واللياقة والكياسة بدل الغلظة .

القاعدة الحادية عشرة : الإبتعاد عن النكد ، وعن اختلاق المشاكل .

(*) بديهة أنّ النقد واللوم الذين يجب أن يتركا في معاملة الزوجة هما المهينان لها والمريقان لماء وجهها ، والمسقطان لشخصيتها ، أمّا النقد والعتاب الهادفان تقويم السلوك والنهي عن المنكر والأمر بالمعروف فهما محمودان ، مع التأكيد على تقديمها بطريقة فنيّة تراعي مشاعر الطرف الآخر وعواطفه .

القاعدة الثانية عشرة : التزام الآداب(*) ، والاهتمام باللفتات البسيطة كامتداح الإجادات وتقديم الهدايا .

* * *

اسطورة .. وعبرة :

جاء في بعض الأساطير ان امرأة قرويّة ، كانت تصنع الطّعام كلّ يوم لرجال عشيرتها . ولكنّها أتت ذاة مرة بمقدار من علف الماشية ووضعته أمامهم بدلاً من الطّعام .

فصرخ الرّجال في وجهها ، وقد حسبوا أن مسّاً من الجنون قد ألمّ بها ، فما كان منها إلا أن قالت لهم :

وما أدراني أنّكم ستلاحظون الفارق ؟! .

ولم أكن اعرف أنّكم بشر ، وأنكم ستفرّقون بين الطّعام ، وبين كومة العلف .

وأضافت : لقد ظللتُ أطهو لكم الطعام عشرين عاماً ، فلم اسمع منكم طوال هذه المدة ما يطمئنني الى أنكم تفرّقون حقاً بين الطّعام وعلف الماشية ! .

وكان أبناء الطبّقة الرّاقية في عهد القيصرية الرّوسية ، إذا استحسنوا طعاما ، أصروا على أن يؤتى بالطّاهي أمامهم ليسبغوا عليه آيات شكرهم وتقديرهم . أفليست الزّوجة جديرة بالشّكر والتقدير ؟ .

* * *

هكذا يفعل النّقد :

كتب دايل كارنيجي في كتابه المتقدم الذّكر :

« صرّحت (دوروثي ديكس) : الحجة الأولى في اسباب الشّقاء الزّوجي أن أكثر من خمسين في المائة من مجموع الزّيجات تتحطم على صخور محاكم الطلاق في

(*) ان التزام الآداب في الحياة الزوجيّة تجعل شخصية كل من الزوجين محترمة وموقرة ومهابة من قبل الزوج الآخر ، وخلاف ذلك صحيح .

مدينة « رينو » بسبب النّقد وحده . . . النّقد العقيم الذي يكسر القلب ، ويذلّ النفس ! » .

* * *

كلمة في اللياقة :

أهم ما يلي العناية باختيار الرفيق المناسب ، هو التزام حدود اللياقة بعد الزّواج . فلو التزمت الزّوجات حدود اللياقة مع أزواجهنّ كما يلتزمنها مع الأغراب ، لعضّ كل زوج لسانه إذا اندفعت اليه قوارص الكلم !

* * *

عاقبة النَّكَد :

« كان تولستوي من أروع وأشهر القصصيّين الذين عرفهم التّاريخ . وبالإضافة إلى الشّهرة ، كان وامرأته على حظ موفور من المال ، والبنين ، والمركز الاجتماعيّ ، فكان خليقاً بهما أن يبلغا قمّة السّعادة والهناء ، وقد بلغاها في أوّل الأمر ، حتى انهما كانا يسجدان لله ويبتهلان له أن يديم عليهما هذه السّعادة الغامرة .

« ثم حدث شيء عجيب ، فقد تغيّر تولسوي بعد ذلك تدريجياً ، حتى أصبح شخصاً مختلفا تماما ! فقد راح يزدري مؤلفاته ، وزهد في الدنيا ، وجاهها ، واعتزم أن يكرس حياته لإصدار نشرات تحثّ على السّلام ، ومحو الحرب والفقر من هذا العالم . ثم تخلى عن أراضيه ، وعاش عيش الشّظف ، وأخذ يفلح الأرض ، ويقطع الأشجار ، ويصنع احذيته بنفسه ، ويكنس غرفته بيده ، ويتناول طعامه في وعاء خشبي !

« ولكن زوجته كانت تحب التّرف الذي يحتقره ، وكانت تشتهي المال ، والجاه ، والثروة التي يمقتها . وكانت تتلهف على الشّهرة والمركز ، والصّيت الذي يزدريه . ومن ثم ظلت تختلق له النّكد ، وتنغص عليه حياته وتسفه آراءه وتصخب ، وتلعن حين يصرّ على أن ينشر كتبه دون ان ينال عنها أجراً ، أو يلحقه

بسببها مجد .

« وإذا أخفقتْ ، مع هذا عن إثنائه عن عزمه ، أسلمت نفسها لقبضة « الهيستيريا » وجعلت تتمرغ على الأرض ، وزجاجة السمّ على شفتيها ، وهي تقسم لتقتلن نفسها ان لم ينزل عند إرادتها واصبح تولستوي لا يحتمل حتى مجرّد رؤية زوجته !

« وفي ذات مساء سعت اليه وقد استبد بها الظمأ الى العطف والحبّ ، وجثت على ركبتيها أمامه ، وتضرعت اليه ان يتلو عليها رسائل الحّب التي كتبها لها قبل زواجه منها ! وبينما هو يقرأ ما سطّره في تلك الأيام الجميلة الخالية بكى كلاهما . بكيا في حرقة وحرارة لبعد الفارق بين الأحلام الظّليلة التي رتعا زمناً في فيئها وبين الحقيقة المستعرة التي يصطليان لهيبها !

« وعندما بلغ تولستوي الثّمانية والثّمانين من عمره ، عجز عن احتمال الشّقاء الذي يخيم على بيته فما كان منه الاّ ان تسلل هارباً ذات ليلة عاصفة ممطرة من ليالي شهر اكتوبر عام ١٩١٠ واحتواه البرد ولفه الظلام وهو سائر لا يدري الى اين ! وبعد ذلك بأحد عشر يوماً مات تولستوي متأثراً بالتهاب رئويّ . ووجدت جثّته في فناء احدى محطّات السّكك الحديدية كانت الوصيّة التي أوصى بها قبيل موته، ألا يؤذن لزوجته برؤيته ! »[١١] .

أشياء رمزية تعني الشيء الكثير المرأة :

يقول أحد الكُتّاب :

« اعتدت في الذكرى السنوية لزواجنا ان اقدّم لزوجتي هدية تعبيراً عن حبيّ وتقديري لها ، وفي آخر ذكرى قبل كتابة هذه الأسطر ، طرحتُ على نفسي هذا السّؤال : أي! هديّة أقدّمها لزوجتي العزيزة في ذكرى زواجنا ؟ طرحت هذا السؤال وانا أدرك سلفاً أن الهديّة رمزيّة أكثر منها قيميّة . فتوجهت الى مكتبة قريبة من منزلنا واشتريت قلماً جميلاً وبطاقة كتبتُ فيها : « زوجتي الحبيبة فلانة ! بمناسبة الذّكرى الرّابعة لزواجنا المبارك اقدم لك هذه الهدية المتواضعة تعبيرا منيّ عن حبيّ

---

(١١) دايل كارنيجي : كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس .

وتقديري لكِ » . فما كان من زوجتي الا ان سُرّت وابتهجت وشكرتني على ذلك ، ثم علّقت الهدية والبطاقة على صِوان ثيابها »

دعاء

يقول الإمام علي بن الحسين (ع) في دعاء «مكارم الأخلاق ومرضيّ الافعالِ» :

« اللهم صلِّ على محمد وآله ، وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان واجعل يقيني أفضل اليقين ، وانتهِ بنيّتي الى أحسن النيات وبعملي الى احسن الأعمال . اللهم وفِّر بلطفك نيّتي ، وصحِّح بما عندك يقيني واستصلِحْ بقدرتِك ما فسدَ مني .

« اللهمّ صلِّ على محمّد وآله ، واكفني ما يشغلني الإهتمام به واستعملني بما تسألني غداً عنه ، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له وأغنني وأوسِعْ عليّ في رزقِك ، ولا تفتنّي بالنَّظر ، وأعزّني ولا تبتليني بالكِبرْ وعبِّدني لك ولا تُفسِدْ عبادتي بالعُجْب ، وأجر للناسِ على يدي الخير ولا تمحقْه بالمنّ وهبْ لي معالي الأخلاق واعصمني من الفَخْر .

« اللّهم صلِّ على محمّد وآله ، ولا ترفعني في الناس درجة إلّا حَطَطْتني عند نفسي مثلها ولا تُحدث لي عزاً ظاهراً الّا احدثْتَ لي ذلّةً باطنة عند نفسي بقدرها .

اللّهم صلِّ على محمد وآل محمّد ، ومتعني بهدىً صالحٍ لا أستبدل به ، وطريقةِ حقٍّ لا أزيغُ عنها ، ونية رشدٍ لا أشكُّ فيها ، وعمِّرني ما كان عمري بِذلةً في طاعتك ، فإذا كان عُمْري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك قبل ان يسبق مقتك إليّ ، أو يستحكم غضبك عليّ ، اللهم لا تدع خَصْلةً تُعاب مني إلّا أصلحتها ولا

عائبةً أؤنّبُ بها الّا حسّنتها ، ولا أكرومةً فيّ ناقصةً إلّا أتممْتها .

«اللّهم صلِّ على محمّد وآلِ محمدٍ، وأبدلني من بغْضَةِ أهل الشّنْآن المحبّة ومن حسدِ أهل البغي المودة ، ومن ظنّة أهل الصّلاح الثّقة ومن عدواة الأدنين الولاية ، ومن عُقوق ذوي الأرحام المبرَّة ، ومن خذلان الأقربين النُّصرة ، ومن حبّ المدآرين تصحيح المِقَةِ ، ومن ردِّ المُلابِسين كرَمَ العِشرة ، ومن مرارةِ خوفِ الظّالمين حلاوة الأمَنة .

« اللهم صلِّ على محمّدٍ وآله ، واجعل لي يداً على من ظلمني ، ولساناً على من خاصَمني ، وظفراً بمن عانَدني ، وهبْ لي مكْراً على من كايَدني ، وقُدرةً على من اضطهدَني ، وتكذيباً لمن قصبني ، وسلامةً ممّن توعَّدني ، ووفِّقني لطاعةِ من سدَّدَني ، ومُتابعةِ من أرشدني .

« اللّهم صلِّ على محمّد وآله ، وسدِّدْني لأن أعارض من غشّني بالنّصْح ، وأجزي من هجرَني بالبرِّ ، وأُثيبُ من حرمني بالبَذْل ، وأكافي من قطعني بالصِّلة ، وأُخالفُ مَنِ اغتابَني إلى حُسنْ الذّكر ، وأن أشكرَ الحسنَةَ ، وأُغضي عن السَّيئة .

« اللّهم صلِّ على محمّد وآله ، وحلّني بحلية الصّالحين ، وألبسني زينة المتّقين في بسط العدلِ وكظْمِ الغيظِ ، وإطفاءِ النّائرة ، وضمِّ أهل الفُرقةِ ، وإصلاحِ ذاتِ البَيْن ، وإفشاءِ العارفة ، وستر العائبة ، ولين العريكةِ ، وخفْضِ الجناح ، وحُسنِ السِّيرة ، وسُكون الرّيح ، وطيب المخالقة ، والسّبقِ إلى الفضيلة ، وإيثارِ التّفضُّل ، وتركِ التّعيير ، والإفضالِ على غير المستحق ، والقول بالحقِّ وإنْ عزّ ، واستقلال الخير وإنْ كثُرَ من قولي وفِعلي ، واستكثار الشّرِّ وإن قلّ من قولي وفعلي ، وأكملْ ذلك لي بدوام الطّاعةِ ، ولزومِ الجماعة ، ورفضِ أهلِ البدَعِ ، ومستعملِ الرّأي المُخترَع .

« اللّهم صلِّ على محمّد وآله ، واجعل أوسَع رِزقِكَ عليّ إذا كَبِرتُ ، وأقوى قوّتِك فيّ إذا نَصِبْتُ ، ولا تبتليني بالكَسَل عن عِبادتِك ، ولا العَمى عن سبيلك ، ولا بالتّعرضِ لخلافِ محبّتِك ، ولا مُجامعةِ من تفرّقَ عنْك ، ولا مُفارقةِ من اجتمعَ إليك . اللهم اجعلني أصولُ بكَ عند الضّرورة ، واسألك عند الحاجةِ ،

وأتضرَّعُ اليك عند المسكنةِ ، ولا تفتنّي بالاستعانةِ بغيرك اذا اضْطُرِرتُ ، ولا بالخضوع لسؤال غيرك اذا افتقَرْتُ ، ولا بالتضرّع الى من دونك إذا رَهِبتُ ، فأستحقّ بذلك خذلانكَ ومنعكَ واعراضك يا أرحم الرّاحمين .

«اللهم اجعل ما يُلقي الشيطان في روُعي من التمنّي وَالتَّظّني والحسدِ ذكراً لعظمتِك ، وتفكُّراً في قدرتك ، وتدبيراً على عدوّك ، وما اجرى على لساني من لفظهِ فُحش ، أو هُجرٍ ، أو شتم عرْض ، أو شهادة باطلٍ ، أو اغتياب مؤمنٍ غائبٍ ، أو سبِّ حاضرٍ ، وما اشبه ذلك نُطقاً بالحمد لك ، وإغراقاً في الثناءِعليك ، وذَهاباً في تمجيدِك ، وشُكراً لنعمتِك ، واعتِرافاً بإحسانك ، وإحصاءً لِمِنَنِك .

« اللهم صلِّ على محمّد وآله ، ولا أُظْلَمنّ وأنتَ مُطيقٌ للدّفع عنيّ ، ولا أظلِمنّ وأنت القادرُ على القبضِ منّي ، ولا اضِلنّ وقد أمكنتْكَ هدايتي ، ولا أفتقِرَنّ ومِنْ عندِك وُسعي ، ولا اطْغينّ ومن عندك وُجدي . اللهم الى مغفرتك وفَدْتُ ، والى عفوِك قصدْتُ ، والى تجاوُزك اشتقتُ ، وبفضلك وثِقْتُ ، وليس عندي ما يُوجبُ لي مغفرتَك ، ولا في عملي ما أستحقّ به عفوك ، وما لِيَ بعد ان حكمتُ على نفسي الاّ فضْلَك .

«فصلِّ على محمد وآله وتفضَّل عليَّ اللّهم وانطِقحني بالهدى، وألهمني التّقوى، ووفّقني للتي هي أزكى، واستعملني بما هو أرضى. اللهم أسلُكْ بي الطّريقة المُثلى، واجعلني على ملّتِك أموتُ وأحيى.

« اللهم صلِّ على محمّد وآله ، ومتِّعني بالاقتصاد ، واجعلني من أهل السّدادِ ، ومِن أدلةِ الرّشاد ، ومن صالحي العِباد ، وارزقني فوز المعاد ، وسلامة المِرصاد . اللهم خُذْ لنفسَك من نفسي ما يُخلِّصها ، وأبقي لنفسي من نفسي ما يُصلحها ، فإنّ نفسي هالكةٌ أو تعصِمُها . اللهم أنت عُدتي إن حَزِنتُ ، وأنت مُنتجعي إن حُرمتُ ، وبك استغاثتي إن كرِثتُ ، وعندك ممّا فات خلفٌ ، ولما فسدَ صلاحٌ ، فيما انكرْتَ تغييرٌ ، فامننْ عليّ قبل البلاءِ بالعافيةِ ، وقبل الطّلب بالجِدَة ، وقبل الضّلال بالرّشاد ، واكفِني مؤونةَ معرّةِ العباد ، وهبْ لي أَمْنَ يوم المعادِ ، وامنَحْني حُسْنَ الإرشاد .

« اللهم صلِّ على محمد وآله ، وادْرَأْ عنّي بلطفِك ، واغذني بنعمتِك ، وأصلحني بكرمك ، وداوني بصُنعك ، وأظلّني في ذراكِ ، وجلّلني رضاك ، ووفّقني إذا اشتكلَتْ عليّ الأمور لأهداها ، واذا تشابهت الأعمال لأزكاها ، واذا تناقضتِ المِلَلُ لأرضاها .

« اللهم صلِّ على محمد وآله ، وتوِّجني بالكفايةِ ، وسُمني حُسْنَ الولايةِ ، وهبْ لي صدق الهدايةِ ، ولا تفتني بالسِّعةِ ، وامنحني حُسْنَ الدِّعة ، ولا تجعل عيشتي كدّاً كدّاً ، ولا تردّ دُعائي عليّ ردّاً ، فإنّي لا أجعلُ لك ضِدّاً ولا أدعو معك نِدّاً .

« اللهم صلِّ على محمد وآله ، وامنعني من السّرف ، وحصِّن رزقي من التّلف ووفِّر ملكتي بالبركةِ فيه ، وأصب بي سبيل الهداية للبرِّ فيما أُنفقُ منه .

« اللهم صلِّ على محمد وآله ، واكفني مؤونة الإكتساب ، وارزقني من غير احتساب ، فلا اشتغل عن عبادتك بالطلب ، ولا أحتملُ إصْر تبعات المكسب ، اللهم فاطلبني بقدرتك ما أطلبُ ، وأجرني بعزتك ممّا أرهبُ .

« اللهم صلِّ على محمّدٍ وآله ، وصُن وجهي باليسار ، ولا تبتذل جاهي بالاقتار ، فأسترزق أهل رزقك ، واستعطي شرار خلقك ، فأفتتنُ بحمد من اعطاني ، وأبتلي بذمِّ من منعني ، وانت من دونهم وليُّ الإعطاء والمنع .

« اللهم صلِّ على محمد واله ، وارزقني صحّةً في عبادةٍ ، وفراغاً في زهادةٍ ، وعلماً في استعمالٍ ، وورعاً في اجمالٍ ، اللهم اختم بعفوك أجلي ، وحقّقْ في رجاءِ رحمتك أملي ، وسهِّل الى بلوغ رضاك سُبُلي ، وحسِّن في جميع احوالي عملي .

« اللّهم صلِّ على محمد وآله ، ونبهني لِذكرك في أوقات الغفلة ، واستعملني بطاعتك في أيّام المُهلةِ ، وانهج لي الى محبّتك سبيلاً سهلة اكمل لي بها خير الدُّنيا والاخرة .

« اللهم وصلِّ على محمد وآله ،كأفضل ما صلّيت على أحدٍ من خلقك قبلهُ ،

وأنت مُصَلٍّ على أحدٍ بعده ، وآتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقني برحمتك عذاب النّار »[١٢].

(١٢) الصحيفة السجادية ، للإمام علي بن الحسين (ع) . تجدر الاشارة الى ان هذا الدعاء من الأدعية الفريدة ، الجديرة بالتأمل ، وهو بحق برنامج خُلُقي وسلوكي ، ينبغي للمرء أن لايحرم نفسه من العمل على ضوئه .

الفهرس

الموضوع .... الصفحة
مقدِّمة ٧

القسم الأوّل

الأسس الأوّليّة للتّعامل السّليم مع النّاس ١١
معاملة النّاس ١٢
الأسس الأوّليّة المتّعامل السّليم مع النّاس ٢٣
الأساس الأوّل: الدِّين ٢٤
التّعامل مع النّفس ٤٥
مراقبة النّفس ومحاسبتها ٥٨
ثمرات مجاهدة النّفس ٦٠
الأساس الثاني: العقل ٦٣
الأساس الثالث: العِلم ٦٧
الأساس الرّابع: الوِجدان والضّمير الصالحان ٧٠
الأساس الخامس: الأخلاق الحسنة ٧٤
الأساس السّادس: العدل وإعطاء النّاس حقوقهم ٨١
الأساس السّابع: معرفة الطّبيعة البشريّة ٩١

القسم الثّاني

الأسس الفنّية في معاملة النّاس ٩٧
ترك اللوم والعتاب ٩٩
التّواضع للنّاس ١٠٥
تحاشي الجدال ١٢٧
حفظ كرامة الطّرف الآخر ١٣٢
التوسّل بالرِّفق واللين والتّسامح والرّحمة ١٣٧
اللياقة واللباقة في التحدُّث ١٥١
مخاطبة دوافع الخير والفضيلة في النّاس ١٥٧

القسم الثّالث

كيف يكسب المرء ودّ النّاس وحبّهم له؟ ١٦١
التّودّد إلى النّاس ١٦٢
إسباغ التّقدير المخلص ١٦٧
كيف يصبح المرءُ محبوباً؟ ١٧٢
لكي يُسرّ النّاسُ بالمرء ١٧٨
الابتسام ١٨٢
الاصغاء الطّيب وتشجيع المحدّث على الكلام ١٩٠
تذكر وحفظ أسماء النّاس ١٩٨
أمور أخرى في التّحبب إلى النّاس ٢٠٣

القسم الرابع

من أخلاقيات التعامل مع النّاس ٢٠٥
حفظ اللسان وحسن استعماله ٢٠٩

التزام الصدق مع الناس ٢١٥
حفظ النّاس في الغَيْبة ٢١٨
اجتناب النّميمة والسّعاية ٢٢٥
التزام الوجه الواحد واللسان الواحد مع النّاس ٢٢٨
حفظ أسرار النّاس ٢٣١
اجتناب قذف واتّهام النّاس ٢٣٤
تجنّب الفُحْش والسبّ واللعن ٢٣٩
تحاشي السخرية من الناس واجتناب تحقيرهم وتعييرهم ٢٤٤
كفّ الأذى عن النّاس ٢٥١
البرّ بالنّاس والإحسان إليهم ٢٥٥
التوسل بالحلم والعفو عن الناس ٢٦١
الحياء من الناس ٢٧٤
حسن الظّنّ بالناس ٢٧٨
الأمانة وأداء الأمانة ٢٨٥
الوفاء للنّاس بالوعد والعهد ٢٩٠
احترام قيمة الإنسان ٣٠٢
شكر الناس على احسانهم ٣٠٧
الموافقة العقلائيّة مع النّاس ٣١١
التّبيّن والأناة في اتخاذ المواقف من الناس ٣١٤
تجنّب الخصومات في معاملة الناس ٣١٩
الإصلاح بين الناس ٣٢٦
اجتناب التعصب المذموم ٣٣٢
التّسليم بأخطاء الذات ٣٣٦
البدء بأخطاء الذات قبل الإنتقاد ٣٣٨

كيفيّة التّعامل حينما يُخطيء الآخرون ٣٤٢
احترام آراء الآخرين وتلافي تخطئتهم ٣٤٤
كيف يكسب المرءُ الناس إلى وجهة نظره ؟ ٣٤٧
كيف يطلب المرءُ ما يريده من الناس؟ ٣٥٢
تحبيب الآخرين في الأعمال المطلوبة منهم ٣٥٥
حسن لقاء الناس ٣٥٧
السلام ٣٥٨
المصافحة ٣٦١
المعانقة ٣٦٣
التقبيل ٣٦٥
التعرّف على النّاس ٣٦٧
حسن المجالسة ٣٧٠
مداعبة الناس ومطايبتهم ٣٧٦
المظهر اللائق ٣٨٠
أخلاقيات أخرى في معاملة النّاس ٣٨٣
من الأخلاقيّات الإجتماعيّة للرّسول الأعظم(ص) ٣٨٦

القسم الخامس

التّعامل مع الأصدقاء

الصّداقة ٣٩٥
اختيار الأصدقاء ٣٩٨
حقوق الأصدقاء ٤٠٦
آداب الصّداقة ٤١١
خمس قواعد هامّة في الصّداقة والتعامل مع الأصدقاء ٤١٣

القسم السّادس

التّعامل مع العائلة ٤١٩
قواعد أساسيّة في التعامل مع العائلة ٤٢٢
التّعامل مع الوالدين والأولاد والأخوان ٤٢٨
التعامل مع الزّوجة ٤٣٣
اثنتا عشرة قاعدة هامة في التعامل مع الزوجة ٤٣٤
دعاء ٤٣٩

دار الأوجام
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف سنتر محفوظ وحجازي - بناية محمد الزين
ت ٨٢١١٤٢ - ٨/ ٧/ ٨٢٣٥٢٦ - ٨٢٣٠٨٩ ص. ب ٩٧/ ٢٥ و٥٧٨٩/ ١١٣ بيروت لبنان

B 3000